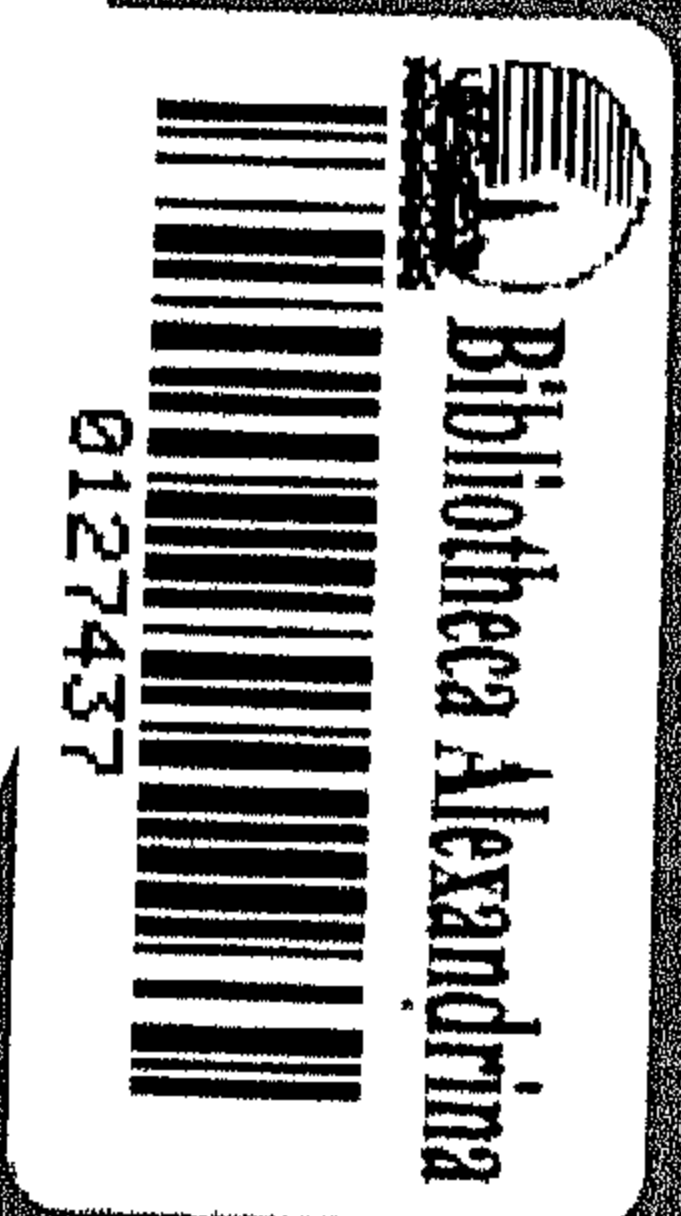


أُمراءُ الشَّعرِ العِزِّيِّ

فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

تأليف
نزيل المقدسي

مجلد ١



دار العلم للملايين

أَمْراءُ السِّعْرِ العَرَبِي
فِي
القَصْرِ القَبَائِي

أَمْزاجُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي الْمَعْرِضِ الْقَبَائِي

وهو دراسة تحليلية لأدب ثمانية من أشهر شعراء العرب
وللجوّ الذي نشأوا فيه

تأليف
نبيل المقدسي

دار العلم للملايين

دار العام للملايين

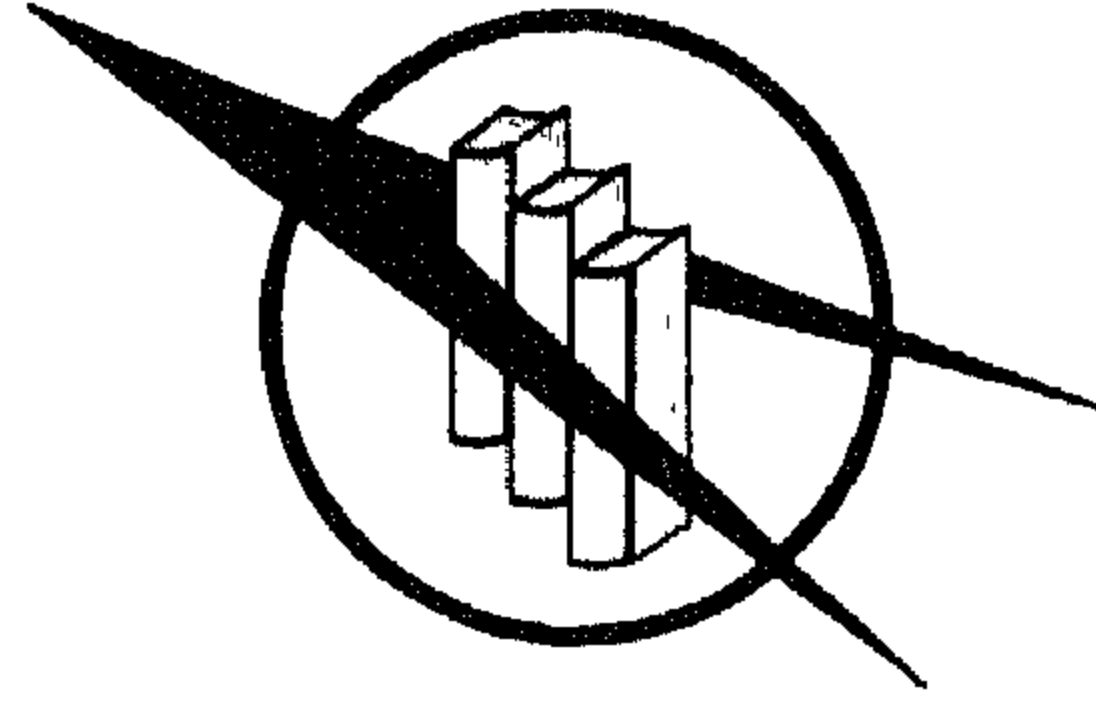
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مسار الياسين - خلف مكتبة الحلو

ص ب ١٠٨٥ - تلفون ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا : ملايين - تليكس ٢٣١٦٦١ ملايين

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أي أشرطة أو غيرها - وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة السابعة عشرة

آب / أغسطس ١٩٨٩

توطئة

في الغرض من هذا الكتاب

لدرس الادب طريقتان : الأولى الطريقة الاجمالية ، وهي المتبعة في المدارس الثانوية والاطلاق الادبية العامة . ويراد بها الاطلاع على كل ما أنتجته قرائح الأدباء والعلماء في مختلف العصور . وقد كان المرحوم العلامة جرجي زيدان أول من نظم هذه الطريقة في تاريخ الأدب العربي ، ثم تلاه جملة من الاساتذة والأدباء ، فعنوا بذلك ووضعوا من المؤلفات ما يفي بحاجات الطلبة والمتأدبين .

والطريقة الثانية التقصي الدقيق ، وهي المتبعة في معاهد البحث الخاصة في الجامعات وسواها . وفيها ينحصر جهد الباحث في وجهة معينة يتقنها — كأن ينصرف مثلاً إلى فرع معين من فروع البلاغة ، أو باب من أبواب الفيلولوجيا (فقه اللغة) — أو يقتصر على حياة شخص من أشخاص التاريخ كالمثني أو الغزالي أو ابن خلدون ، أو كتاب خاص من كتب الأدب كالعقد الفريد أو العمدة أو اللزوميات . وبهذه الطريقة يُدرَّب الطالب على جمع المعلومات من شتى المصادر ، ويخرج في أصول النقد وسلوك السبيل العلمي في الكتابة . وهنا يشترك الاستاذ والطالب توصلاً إلى هدف واحد هو دقة الاستقراء والنظر في الاصول نظراً لا تشوبه شائبة التغرُّض أو المتابعة العمياء .

وبين هاتين الطريقتين طريقة وسطى نطلق عليها اسم « التخصص

الأولي ، . وفيها يُعمد إلى فرع واسع من فروع الأدب كالشعر مثلاً ، فيُختار للمتأدّب نخبةٌ من امرائه ، ويُدرس كل منهم درساً وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي جمعاً يمكن المتأدّب من الانتقال بعدئذ إلى درجة التقصّي الدقيق .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ان نحقّق هذه الغاية فاخترنا الشعر في العصر العباسي ، وتناولنا من امرائه ثمانية فدرسنا عصرهم وشعرهم على الطريقة التحليلية الحديثة ، وقرنّا ذلك بذكر أهمّ المصادر التي يُرجع اليها في دراستهم ، وبطائفة كبيرة من روائعهم الشعرية . فتمّ لنا بذلك غرضان : غرض علمي وهو الجري في ميدان البحث الحرّ ، وغرض أدبي وهو التفقّه بالأدب نفسه .

ونحن نعلم ما سنستهدف له بسبب اختلاف الآراء . فلمنّ مقاييس البحث في الادب ليست مقاييسه في العلوم الطبيعية والرياضيّة . وإنما نحن نعرض هذه الابحاث للمتأدّبين المفكّرين ، ولطلاب التخصص الاولي مدرجةً إلى التخصص العالي وسعيّاً وراء الحقيقة العلمية . وإنا لنرحّب بكل انتقاد مبني على الدرس والانصاف وأصول البحث والمنطق .

وقد كان معوّلاًنا في اختيار هؤلاء الثمانية شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم في تاريخ الشعر العباسي . ولا يعني ذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم أو من يفوقهم في بعض المناحي ، وإنما يعني انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي درسهم درس لذلك العصر ودرس للحركة الأدبية فيه .

وها نحن نتقدم الى العالم العربي بالطبعة السابعة من هذا الكتاب بعد ان بذلنا الجهد في ضبطها وتنقيحها . نفعل ذلك نزولاً عند رغبة كثير من الأدباء والعلماء والأساتذة وحباً بدراسة وافية لهذه السلسلة الشعرية العظيمة التي تعكس لنا العواطف العربية في أخصب العهود الأدبية .

العوامل السياسية في الخليفة العباسية

نظرة عامة

حكم العباسيون في بغداد خمسة قرون كان عرشهم فيها ملعباً للأهواء والحركات السياسية المختلفة . وقد رأينا تمهيداً لهذا البحث ان نقسم مدة حكمهم أقساماً توضح لنا العوامل التي كانت تعمل فيها والتي أدّت أخيراً إلى انحلالها . وهي عند التحقيق خمسة نطلق عليها اسم « أدوار سياسية » .

الدور الأول – دور القوة المركزية

أي قوة الخلافة . ويمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل نحو قرن من الزمان بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها . وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد من حدود الهند إلى افريقيا (تونس) .

الدور الثاني – دور الجندية

كان الخليفة المعتصم قد نظم من فتيان الاتراك جنداً يعتمد عليه في

حماية العرش . فلما مات المعتصم أصبح نفوذ أمراء الجند شديداً في الخلافة . ولم يكفد يُقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ حتى أصبح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاؤون . ويمتد هذا الدور إلى سنة ٣٣٤ هـ . على ان الخلافة بقيت برغم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها ، وكان لها وزارة وعمّال . ومما يُذكر في هذا الدور ان ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى سامرا وبقي فيها نحواً من ٥٨ سنة ثم أعيد إلى بغداد .

الدور الثالث - الدور البويهي (٣٣٤ هـ - ٤٤٧)

وفيه كانت السلطة الحقيقية في أيدي بني بويه « وصارت الوزارة من جهم والاعمال اليهم » وأصبح الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه . على ان البويهيين كانوا أهل سياسة ودهاء ، فأبقوا للخلافة نفوذها الاسمي وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة .

الدور الرابع - الدور السلجوقي (٤٤٧ هـ - ٥٩٠)

فيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم دولة تركية قوية عرضت مملكتها واستولت على الامر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخطب لهم على المنابر . على انهم كانوا كالبويهيين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها .

الدور الخامس - دور الاحتضار

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيام الناصر ، ولكن الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسية . فلما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض النحاء العراق . فكانت الخلافة في طور

الاحتضار ، ولم تزل كذلك حتى جاءها المغول سنة ٦٥٦ هـ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحو ما كان قائماً من معالمها .

* * *

هذه نظرة عامة نلقياها عن بعد على العصر العباسي . وإنما نحن في ذلك كالواقف على ربوة مشرفة على سهل عامر يسرّح نظره في مناحيه العامة ويتبين معالمه الرئيسية دون أن يتغلغل فيه ليطّلع على دواخله وخوافيه . وغایتنا من ذلك معرفة الخطط السياسية العامة تمهيداً لدرس حالة العصر النفسية ، وتوصلاً إلى فهم آدابه . فنحن هنا إنما نحاول درس الجو الذي نشأ فيه أدب القوم لا تاريخهم السياسي ، وإلا فالأفضل الرجوع إلى المطولات التاريخية كالطبري والمسعودي وابن الأثير ومسكويه وابن الطقطقي والذهبي وابن خلدون وسواهم ممن خاضوا عباب هذا البحث وجاءوا بالآخبار الوافية .

* * *

ولما ألقينا نظرنا العامة على هذه القرون الخمسة ظهر لنا في حياة الدولة العباسية وما تقلّب عليها من غيّر الدهر ظواهر كبرى تمثل لنا ما نحن بصددده . أهمّها ما يلي :

- ١ - التنافس على السيادة بين مختلف العناصر والأعراق .
 - ٢ - ضعف الخلافة وتجزؤها إلى إمارات مستقلة .
 - ٣ - الحركات الهدامة الداخلية .
 - ٤ - غارات الروم والافرنج على أطرافها .
- وقد كان يجدر بنا ان نتجاوز ذلك إلى الكلام عن أحوال الممالك الإسلامية ، ولا سيما البلاد العربية بعد سقوط بغداد ، ونربط ذلك بقيام العثمانيين وانتزاعهم الخلافة من العباسيين في مصر ، وما كان من أحوال الأدب في أيامهم ، ثم نسوق الكلام إلى حالة الناطقين بالعربية في العصر الأخير ، وما كان لهم من النهضة بعد الحرب الكبرى . وإنما ذلك

خارج عن موضوعنا فنتركه لغير هذا المقام^١ . ونعود الآن إلى الظواهر السياسية الكبرى في العصر العباسي .

التنافس بين العناصر العرقية وأخصها العربي والفارسي

في الفتوح الإسلامية الأولى وُضع حجر الزاوية لبناء الملك العربي العام . فبعد أن كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في أجواز الفلاة ، وبعد أن كانت حكوماتهم في العراق والشام وسواهما خاضعة لإحدى الدول السائدة من فرس أو روم أصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة . فما فيهم حب الفتح والسلطان ووصل إلى أشده في دمشق أيام الأمويين ، واستمر على ذلك في بغداد إلى أيام المعتصم . فعصر السيادة العربية لم ينتهِ بفترةٍ بانتهاء الدولة الأموية بل بقي نحو قرن بعدها . نعم ان عوامل الضعف كانت قد بدأت تعمل في جسم الدولة والخلافة ، ولكن سيادة العنصر العربي لم تهبط إلا تدريجياً وبقي العرب على شيء كبير من القوة والنفوذ طيلة العصر العباسي الأول .

في هذا العصر بلغت الخلافة أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنة مترامية الأطراف لا تقل عن سلطنة رومة في إبتان مجدها ، وكان الخليفة العربي الحاكم المطلق يتصرف بشؤون الدولة وأموالها كما يشاء .

أما الروح الفارسية التي كانت تمثل عظمة الفرس الماضية وآمالهم في استرجاعها فقد كانت في أحط دركاتها أيام الأمويين ، ولكنها أخذت تلتعش في أواخر حكمهم ، ولم تلبث أن تجسّمت بروح الثورة الخراسانية

١ راجع كتابنا الجديد «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» .

يقودها أبو مسلم الخراساني لنصرة العباسيين . وعرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلوا عليهم في الادارة والوزارة ، ولذا رأينا نفوذهم يتعاظم ورأينا التنافس بينهم وبين العرب يشتد . وعلى ذلك يعدّ الجاحظ دولة العباسيين أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية^١ . وقال ابن خلدون : « كان بنو امية يستظهرون في حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد وعبدالله بن زياد والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد القسري وابن هُبيرة وبلال بن ابي بردة ونصر بن سيار وأمثالهم . وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيه أيضاً برجال العرب . فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكُبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني طاهر وسواهم^٢ .

على ان العباسيين الاولين كانوا أصحاب بطش وقوة ، فإنهم مع اتكالمهم على الفرس لم يستسلموا لهم ، بل أبقوا للخلافة العربية جلالها . يدلك على ذلك ما فعله المنصور بأبي مسلم حين خشي منه الطغيان^٣ ، وكذلك ما فعله الرشيد بالبرامكة حين أخذته الغيرة من تعاضلهم واثبة دولتهم^٤ ، والمعتصم بالأفشين لطمعه أو لأنه على ما قيل كاتب بعض أمراء العجم وأحب أن ينقل الملك اليهم^٥ : بل كانت سياستهم حفظ التوازن بين المضرية واليمينية والخراسانية منعاً لاستبداد فريق بالدولة^٦ . وكانت جيوشهم مؤلفة من عرب وفرس ثم جاء المعتصم فقطع عن هؤلاء المال وجعل جنده من الاتراك .

١ البيان والتبيين (تحقيق السندوبي) ٣ - ٢١٧ .

٢ مقدمة ابن خلدون (بيروت) ١٨٣ راجع هنا قصيدة المهلي في رثاء المتوكل ، العقد (المطبعة

الجمالية) (١٣٣١) ٢ - ١٨٦ .

٣ المسعودي (باريس) ٦ - ١٨٣ .

٤ المقدمة ١٦ و ١٧ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٠ .

٥ مختصر الدول لابن العبري (١٨٩٠) ٢٤٢ واليعقوبي (لندن) ٢ - ٥٨٢ .

٦ ابن الاثير ، حوادث ١٥١ .

ومما يدلّك على هذا التنافس بين العنصرين ، العربي والفارسي ، مدائح الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر . فاذا اعتبرت أهم شعرائه تجدهم في أول الامر يتسابقون إلى باب الخليفة ويتنافسون في مدحه ، ثم تجدهم يتحوّلون إلى أمراء الدولة من عرب و فرس . ويزداد هذا التحوّل مع الزمن إلى العنصر الآخر . فقد نبغ بين أيام المأمون والمعتضد ثلاثة من أكبر شعراء العرب هم أبو تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان أكثر مديح الأول (وهو أقدمهم) في المعتصم وبعض كبار العرب كأبي سعيد الثغري والقاضي أحمد بن دؤاد وخالد بن يزيد ومالك بن طوق وأبي دؤاد العجلي . ومدح الثاني المتوكل واختص به ، ومع ذلك كانت مدائحه في كبار الدولة من الفرس تفوق مدائحه في أمراء العرب . أما ابن الرومي فليس له في الخلفاء شيء يذكر ، وأهم ممدوحيه من الأعاجم كآل وهب وآل طاهر وأمثالهم . وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن الشعراء وأحوال ممدوحهم .

ولو تحرّيت الأسباب التي آلت إلى وهن العرب - وهم أصحاب الخلافة - ومنافسة الأعاجم لهم في الرئاسة والادارة ، ثم تغلبهم عليهم لرأيت من أهمها - عدا انقسامهم بين يمنية ومضرية - تناحرهم على الامر بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون انفسهم لم يكونوا يداً واحدة ، فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعنه الله^١ ، وفتنة الأمين والمأمون ، وثورة ابراهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكل وغير ذلك من الحركات السياسية التي أوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبه .

* * *

بدأ نفوذ الفرس في الدولة العباسية منذ نجاح الخراسانيون في الدعوة لبني

١ ابن الاثير ، حوادث ١٤٧ .

العباس ومبايعة السفّاح . وقد ظلت كفة العرب وكفة الفرس متكافئتين حتى انتصرت خراسان مرة أخرى وجلس المأمون على العرش . فتعاظم نفوذ الفرس جداً وما زال كذلك حتى بلغ أوجه أيام عضد الدولة البويهى الذي قبض على زمام الأمر في بغداد ، فتحول الأمر بعد ذلك إلى نزاع بين الفرس والترك انتهى بقيام السلاجقة كما سيذكر في حينه . ولم يبق للعرب في الدولة من قوة تذكر إلا في بعض امارات حكموها ، كإمارة بني حمدان في حلب وإمارة بني الأغلب في تونس ، وسواهما من الامارات التي ستذكر في كلامنا على تجزؤ الدولة العباسية .

ضعف الخلافة

وتجزؤها الى امارات مستقلة

كانت خلافة الراشدين زعامة دينية دنيوية والدين فيها أقوى وأظهر ، وأصبحت في عصر السيادة العربية (العصر الأموي وصدر العصر العباسي) ملكاً عظيم الشأن واسع الاطراف ذا قوة مركزية عظيمة . فلما انقضى هذا العصر ، وفسدت عصبية العرب التي كانت ركن القوة الحربية في الدولة ، أخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مهيمنة إلى زعامة دينية مستضعفة . قال ابن خلدون : ثم تغلب المعجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف الديلم اليها وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية فصاروا (أي الخلفاء) في حكمهم^١ .

وجاء في الفخري قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه : « فدونخت الأمم واذلت العالم واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولتتهم ،

١ المقدمة ١٥٥ .

واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، واستادت لأحكامها أمور بلاد المعجم والعراق ، واطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق^١ . وكذلك كان السلاجقة كما ذكر ابن خلدون ، على أن هذه الدول المسيطرة لم تتطاول إلى مقام الخلافة فكانوا يدينون بطاعة الخليفة تبركا^٢ . وكانوا على ما ذكر القلقشندي مع غلبتهم على أمر الخلفاء ينتصرون على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف بالاموال ، ويكفلون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه فتكتب عنه اليهود والتقاليد على ما يشهد به الموجود من انشاء الصابي وغيره^٣ .

وقد وصف صاحب كتاب الفخري هذه الحالة أحسن وصف إذ قال : « ثم طرأت عليها (أي على الدولة العباسية) دول كدولة بني بويه وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة ، ودولة بني سلجوق وفيها مثل طغرل بك ، وكذلك الدولة الخوارزمية وفيها مثل علاء الدين ، وجريدة عسكره مشتملة على اربعمئة الف مقاتل ... » إلى أن يقول : « ولم تقوَ دولة على إزالة ملكهم ومحو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحشد ويحجّر العساكر العظيمة حتى يصل إلى بغداد . فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة ، فاذا حضر قبل الأرض بين يديه . وكان قصارى ما يتمناه أن يولّيه الخليفة ، ويعقد له لواءً ويخلع عليه^٤ . فمن كل ذلك نستنتج أن هؤلاء الملوك كانوا يتصرفون بأمور الدولة كما يشاؤون إلا أنهم كانوا يظهرون التبجيل لصاحب الخلافة فيقدّمونه ويقبلون يديه ويتبركون به ، وهم في الواقع أصحاب الأمر ليس للخليفة منه شيء ، وإنما كانوا يفعلون ذلك لما كان للخلفاء من المنزلة الدينية في نفوس الناس .

* * *

ولم يكد يدخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الحكومة المركزية في

١ الفخري (مصر ١٣١٧) ٢٥٠ .

٢ المقدمة ٢٠٨ .

٣ صبح الاعشى (المطبعة الاميرية - مصر) ١١ - ٧٣ .

٤ الفخري ١٢٤ .

بغداد جداً ولم يبقَ للخلافة من نفوذ فعلي في المملكة . فكانت خلافة الرازي ، وبلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طُفَّج ثم في أيدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية . وثمة امارات أخرى ، واليك ذلك ببعض التفصيل :

الامارات المستقلة في بلاد فارس

وقد نشأت وانقرضت في مدد مختلفة بين سنة ٣٠٥ هـ و ٤٣٤ هـ وهي :

الطاهرية في خراسان الصفارية في فارس

السامانية في ما وراء النهر الساجية في اذربيجان

الزيارية في جرجان

أما الامارة الفارسية الكبرى فقد مر ذكرها وهي البويهية (٣٢٠ هـ - ٤٤٧) ويرجع نسب ملوكها إلى أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس^١ . نشأت في بلاد الديلم وأخذت بالتقدم حتى استولت على بلاد فارس ثم استولت على بغداد وأصبح لها الامر والنهي في العراق وفارس . وكان الخليفة يعيش في ظلها من إقطاع يعينه له الملك البويهي^٢ . وهذه الدولة شيعية لكنها لم تتعرض للخلافة العباسية (وهي سنّية) بل أبقتها على حالها وأبقت للخلفاء حق اصدار المراسيم والخلق . وهذا كبيرهم عضد الدولة لما استولى على بغداد وعلى شؤون الدولة ، لم يرَ بدأ من تعظيم الخلافة^٣ مع انه لا يعتقد باطناً بحق العباسيين فيها . وقد زوج الخليفة ابنته ونرضه ان تلد ذكراً فيجعله ولي العهد وتكون الخلافة في ولده^٤ .

١ ابن العبري ٢٧٩ .

٢ ابن العبري ٢٩١ .

٣ مسكويه - تجارب الأمم (مصر ١٩١٥) ج ٢ ص ٣٤٤ .

٤ مسكويه ج ٢ - ٤١٤ .

الامارات التركية

ومنها الطولونية في مصر والشام ٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ .

الانخشيديّة في مصر والشام ٣٢٣هـ - ٣٥٨هـ .

الغزنوية في خراسان وافغانستان ثم الهند ٣٥١هـ - ٥٨٢هـ .

قال ابن خلدون وقد بلغت هذه الدولة من العز المبالغ العظيمة^١ .
اما الامارة التركية الكبرى فهي السلجوقية . وقد نشأت أولاً في
تركستان ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد
المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام وعلى ذلك نشأ أولاده . وما زال
أمرهم يعظم حتى ملك طغرل بك (وهو أول سلاطينهم) بلاد العجم وكان
قيامه في خلافة القائم العباسي ، ثم تقدم إلى بغداد بدعوة من القائم لينصره
على ثأر اسمه البساسيري^٢ . فاستولى عليها وخطب له بالسلطنة على منابر
بغداد وذلك سنة ٤٤٧هـ . وتولى خلفاؤه الأمر بعده ، وما زالوا يسوسون
الامور في بغداد حتى ضعف أمرهم . ثم زالت دولتهم في خلافة الناصر
سنة ٥٩٠هـ وكان السلاجقة في إبان مجدهم أصحاب شوكة عظيمة .
وهم عدّة فروع امتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر المتوسط . ربما
ضعف أمرهم استبد عثماتهم (الاتابك) بالاحكام في اماراتهم المختلفة ،
ولم يبق لهم بعد ذهاب دولتهم في بغداد وغارة المغول على المملكة العباسية
إلا آسيا الصغرى . فقد حفظوها حتى جاء الاتراك العثمانيون فاستولوا عليها
وأسسوا على انقراض السلاجقة سلطنتهم العظيمة ، ثم لم يعتموا ان أصبح
سلاطينهم خلفاء العالم الاسلامي ودخلت أكثر البلدان العربية في حوزتهم .
ولهم تاريخ خاص لا يدخل في بحثنا هذا .

الامارات العربية

نشأ في الدولة العباسية بضع امارات عربية مستقلة ، على انها - إذا

١ ابن خلدون (تصحيح الهوريني) ٤ - ٣٦٠ .

٢ ملك هذا الثائر الامر حيناً في بغداد ودعا فيها للفاطمين .

استثنيت العلوية والادريسية منها -- كانت جميعها تخطب للخليفة العباسي وتعدّه الزعيم الاسلامي الاكبر . ومنها :

الادريسية - في مراكش ١٧٢ هـ - ٣٧٥ وكانت معادية للعباسيين .
الاغلبية - في تونس ١٨٤ - ٢٨٩ امراؤها من قم .
المحدانية - في حلب ٣١٧ - ٣٩٤ شيعية وامراؤها من تغلب اشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبى .
المزيدية - في الحلة ٤٠٣ - ٥٤٥ وهم من بني أسد .
العقيلية - في الموصل ٣٨٦ - ٤٨٩ دولة مضرية .
المرداسية - في حلب ٤١٤ - ٤٧٢ وهي مضرية وامراؤها من بني كلاب .
على ان أهم الدول العربية التي نشأت في أثناء العصر العباسي اثنتان ، الفاطمية والاندلسية . واليك كلمة وجيزة في كل منهما :

الدولة الفاطمية (٢٩٦ هـ - ٥٦٧)

وهي علوية اسماعيلية . بذلك يقول ابن خلدون^١ وابن الاثير^٢ وابن الطيطةقي^٣ ويشك غيرهم في أصلها العلوي .

وكان بدء أمرها في افريقيا أيام المقتدر العباسي ، ثم انتقلت (في ٣٥٨ هـ) إلى مصر وبقيت هناك حتى أزالها صلاح الدين الايوبي ٥٦٧ هـ . وهذه الدولة عظيمة الشأن ، تختلف عن سواها من الدول التي نشأت أيام العباسيين انها قرنت الملك بالدين فنشأت خلافة تزامم الخلافة العباسية . وقد تبستطت فاستولت على افريقيا ومصر وسوريا والحجاز ، وبعبارة ابن خلدون : « قاسمت العباسيين شقّ الأبلمة » ، ثم أخذت بالانحدار وما زالت كذلك حتى استولى صلاح الدين على مصر . فلما مات العاضد (آخر خلفائها) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وحوّلها إلى العباسيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١١ .

٢ ابن الاثير (ليدن) ٨ - ١٨٧ .

٣ الفخري ٢٣٧ .

وللدولة الفاطمية يد على الأدب العربي ، فهم الذين انشأوا الجامع الأزهر ، وكانوا ينشطون العلماء والأدباء بالعطف عليهم واقتناء المكتبات الكبرى وفتح أبوابها لهم .

الدولة الأموية الأندلسية (١٣٨ - ٥٤٢٨ هـ)

تبدأ بعبد الرحمن الداخل (حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان) الذي فرّ من وجه العباسيين إلى إفريقيا ، ثم تمكّن من دخول الأندلس والاستيلاء عليها . وما زال الملوك من آلّه يتوارثون الحكم فيها حتى قام عبد الرحمن الناصر فبلغت به الدولة الأموية في الأندلس أوجها ، وهو أول من طمع بالخلافة من أمراءها فلقب بأمر المؤمنين^١ . قال مسكويه فعل ذلك لما ضعف أمر الأمة ووهت أركان الدولة العباسية وتغلّبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم^٢ . وقد ازدهرت في أيامه الأندلس أيّما ازدهار ، وبقيت كذلك أيام ابنه الحكم المستنصر . ثم أخذت دولة بني أمية تضعف وأخذ الفساد يستولي على خلافتهم ، فتجزّأت وأصابها ما أصاب الدولة العباسية من ضعف العرش واستبداد الأمراء باماراتهم المختلفة . ولهذا الدولة تاريخ خاص خارج عن تاريخ الدولة العباسية ، وقد نشأ فيها من الآداب والعلوم والفنون ما يقتضي سِفْراً خاصاً . وانما ذكرناها في عرض هذا البحث زيادة للايضاح وتتمّة للكلام على الدول العربية التي انفصلت عن الخلافة العباسية .

* * *

ومن الامارات المشهورة التي كان لها شأن يذكر في الخلافة العباسية الدولة الكردية المعروفة بالايوبية (٥٦٤ - ٦٤٨ هـ) وأشهر ملوكها مؤسسها السلطان صلاح الدين الذي اشتهر بوقائعه مع الصليبيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١٢٢ .

٢ تجارب الامم ج ٢ - ٦٠ .

تأثير هذا التجزؤ في الادب العربي

وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الأدب تحوّل عن بغداد إلى مراكز أخرى . فكان الخليفة الراضي الذي بويع ٣٢٢ هـ آخر خليفة دوّن له شعر ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين^١ . ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموثل الاكبر للأدب والأدباء ، وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم . نذكر من ذلك بلاط سيف الدولة في حلب ، وتلك الحلقة الأدبية التي كانت تحيط به مثل ابن خالويه وابن نباتة وأبي فراس والمنتبي والنامي والفارابي والسري الرفاء والخالديين ، وبلاط آل بويه ومن كان يتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب ابن عباد ، وامراء سامان وما كان لهم من عطف على العلم والعلماء .. وقس على ذلك سائر الامارات في مصر والعراق والاندلس وفارس والمغرب ، فان اللغة العربية ظلت إلى أيام العثمانيين لغة الأدب والدين والسياسة في أكثر الممالك الاسلامية . وكان الامراء من عرب وغير عرب يتنافسون في العطف على الأدباء والعلماء ، وفي جمع الكتب وخدمة العلم . وأظهر من فعل ذلك من غير العرب الملوك الايوبيون في اماراتهم المختلفة^٢ . وهذا التنافس على الأدب يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة - استمرار الأدب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من أيديهم . واليك بعض أمثلة من رجال العلم في ذلك العصر توضح لك ما نحن بصددده :

ابن سينا الطبيب الفيلسوف توفي ٤٣٨ هـ . كان في بخارى في خدمة نوح بن منصور الساماني وفي خوارزم عند مأمون ابن مأمون .

١ الفخري ٢٥٢ .

٢ زيدان - تاريخ آداب اللغة ٣ - ١١ .

البيروني - الفلكي المشهور توفي ٤٣٠ هـ . كان في الهند وأقام مدة في خوارزم وقد قدم بعض كتبه للسلطان محمود الغزنوي .

الجوهري - صاحب الصحاح توفي ٣٩٨ هـ . كان في نيسابور وقد ألف كتابه لأبي منصور البشيري .

ابن فارس - اللغوي المشهور توفي ٣٩٠ هـ . ألف كتابه الصحاح للصاحب بن عباد .

ابن دريد صاحب الجهرة والمقصورة توفي ٣٢١ هـ . صحب ابن ميكال أمير فارس وألف له بعض كتبه .

المسعودي - المؤرخ المشهور توفي ٣٤٦ هـ . نشأ في بغداد وطاف البلدان ثم استقر في مصر .

مسكويه (أو ابن مسكويه) - المؤرخ والمفكر توفي ٤٣١ هـ . صحب ابن العميد وخدم بني بويه .

ابن البيطار - النباتي المشهور وكان في خدمة الملك الكامل الايوبي . وأمثال هؤلاء الاعلام كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم . اما المدن التي شاركت بغداد او زاحمتها في الادب والعلم فنذكر منها - القاهرة وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى . ومن الامراء الذين اشتهروا بميلهم إلى الأدب وعطفهم على العلماء ركن الدولة البويهى ومنصور الساماني وشمس المعالي قابوس ومحمود الغزنوي والعزیز والحاكم الفاطميان ، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم .

الحركات الهدامة الداخلية

كانت الدولة العباسية منذ نشأتها مرتعاً خصباً للثورات ، وتاريخها وثيق

الارتباط بها . وهذه الثورات تظهر في مظهرين كبيرين : حركات الخوارج والحركات العلوية .

حركات الخوارج

ويرجع تاريخها كما هو معروف إلى أيام صِفِّين والتحكيم . من ذلك الحين ظهر الخوارج وأنشأوا حزباً معادياً للخلافة فحاربوا الامام علياً بعد أن كانوا قبلاً من أنصاره . ولهم مع الامويين وقائع مشهورة ، وقد كانوا من أشد الاخطار على دولتهم حتى قهرهم الحجاج بن يوسف والمهلب ورجاهما فضعف أمرهم وتشتتوا في أنحاء مختلفة ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى خلافة المنصور العباسي . ففي أيامه خرجوا في عُمان بقيادة زعيمهم شيبان بن عبد العزيز ، ولكن المنصور أرسل لمحاربتهم جيشاً قوياً فهزمهم وقلّ جيوشهم .

ولما كانت خلافة المتمد - والعرش العباسي في حال اضطراب من جراء المستبدّين به - عادوا إلى حركاتهم فخرجوا في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله ، وتمكنوا سنة ٢٥٥ هـ . من دخول الموصل والاستيلاء على كثير من أنحاء العراق . وبلغ من أمرهم أن زحفوا على بغداد نفسها ، لكن جيوش الخليفة ردّتهم فتراجعوا . وأقام مساور في الموصل حتى اغتيل سنة ٢٥٨ هـ ، ولم يبق للحركة الخارجية بعد ذلك من قوة سياسية في العراق . على أنها بقيت في الجزيرة العربية وفي افريقيا تحت اسم الأباضية (وهي فرع منها) قوة لا يستهان بها . ثم اعتراهم الوهن فتضعفت أحوالهم ، ولم يلبثوا ان انسحبوا من معترك الجهاد السياسي والحربي^١ .

الحركات العلوية

وهي إما ثورات قام بها آل البيت أنفسهم خروجاً على الخلافة القائمة

١ وأخبارهم متفرقة في أمهات كتب التاريخ العربي : ومن الكتب الحديثة مختصر تاريخ الخوارج لمحمد شريف سليم ، والخوارج في الاسلام ، بيروت (مكتبة المعارف) ، وسواهما .

أو حركات هدامة مؤسسة على المبدأ العلوي . وقد بدأت الاولى (ثورات الائمة) منذ انتزع الامويون الملك من آل البيت . ومنها قيام الحسين إلى الكوفة ومقتله في كربلاء ، وما تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الاموي ، كثورة المختار في العراق ثم الثورة الخراسانية ، وكانت علوية في أول الأمر ثم تحولت إلى العباسيين .

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع إلى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء . فتحركت الشيعة حركات عدتها العباسيون عصياناً ، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور ، وخروج يحيى ابن عبد الله في الديلم أيام الرشيد ، ويحيى بن عمر بن يحيى في الكوفة أيام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده آل طاهر^١ . لكن الخلفاء تمكنوا من الثائرين وقتلوهم .

وفي بدء خلافة المأمون (وذلك قبل أن يقدم من خراسان إلى بغداد) كثرت حركات الشيعة حتى رأى أن يعهد بالأمر بعده لعلي الرضا^٢ ، ولكن استياء العباسيين وموت علي الرضا ، حالاً دون ذلك . ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعواتهم . وهم ، ولئن لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي ، فقد أحدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الاسباب التي أدت إلى انحلال الدولة . ولا يخفى ان الخلافة الفاطمية التي ذكرناها آنفاً كانت من ثمار الحركات العلوية ومن أشدّ الضربات على الخلافة العباسية .

* * *

أما الحركات الهدامة المؤسسة على المبدأ العلوي فقد قامت بها هيئات منظمة أحدثت تأثيراً كبيراً في الدولة العباسية ، وأهمها حركات الزنج والقرامطة والحشاشين (الباطنية) .

١ الطبري ، أخبار سنة ٢٥١ .

٢ ابن خلدون ٤ - ٩ .

الزنج

حوالى منتصف القرن الثالث الهجري في أيام الخليفة المعتمد قام رجل اسمه علي بن محمد يدعي النسب العلوي . فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وأفسدهم على مواليتهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلق كثيرون ، وما لبث حتى عظم شأنه واشتدت شوكته . واتفقت له حروب وغزوات نُصر بها ، فتفاقم شره ، واندبث عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين والأهواز . وفي ٢٥٧ هـ أغاروا على مدينة البصرة فنهبوا وأحرقوها وأحدثوا فيها فظائع ذكرها ابن الرومي في قصيدة ستذكر في حديثنا عن هذا الشاعر . وكانت بينهم وبين جنود الخلافة حروب عظيمة دامت سنين كثيرة وذهب فيها الوف من القتلى ولكنها انتهت سنة ٢٧٠ هـ بقهرهم وتحرير البلاد من شرهم . وكان قائد العباسيين الاكبر في حروبهم الموفق اخا الخليفة المعتمد . ومن كبار رجاله موسى بن بغا ، وابراهيم بن المدبر ، وابو العباس ابن الموفق ، وسواهم ممن يرد ذكرهم في مدائح الشعراء^١ .

القرامطة

كان ابتداء ظهورهم سنة ٢٧٨ هـ بسواد الكوفة ، وقد قاموا يدعون لآل البيت . وقوي أمرهم هناك ثم ظهر منهم جماعة في البحرين وعاثوا في البلاد ينوون البصرة . فحاربهم عمال العباسيين ولكن القرامطة انتصروا عليهم واستفحل أمرهم في العراق ، فانضم اليهم جموع من اعراب الشام وهاجموا دمشق . وكان بينهم وبين عامل الطولونيين فيها وقائع شتى . وما زال أمرهم يتعاضم ونفوذهم يتسع في العراق والشام والجزيرة العربية حتى أمست طرق الحج بأيديهم فصاروا يعتدون على الحجاج . وفي سنة ٣١٧ هـ

١ لزيادة الاطلاع راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ - ٢٢ ، الفخري ٢٢٧ ، الطبري في اخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ الخ ...

دخلوا مكة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم اقتلعوا الحجر الاسود من الكعبة وحملوه إلى هجر فبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة . قال ابن الاثير فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المهدي كتب إلى زعيمهم أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والاحاد بما فعلت ، وان لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وتردّ الحجر الاسود إلى مكانه ، وتردّ كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة . » فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد ما أمكنه من الاموال .

وبقي أمرهم الشغل الشاغل لولاة الامر في بغداد أكثر القرن الرابع الهجري ، وانك لتعرف مبلغ ما أحدثوه في نفوسهم من كتاب كتبه الصابئ على لسان الخليفة^١ . ثم ضعف أمرهم وتفرّقوا في البلاد^٢ .

الحشاشون

وهم من الباطنية . ظهوروا أولاً في ساره أيام ملكشاه السلجوقي فنازلهم أولو الامر لكنهم لم يستطيعوا قهرهم . فلما مات ملكشاه استفحل أمرهم في أصبهان . وفي ٤٩٣ هـ استولى زعيمهم ومؤسس فرقتهم الحسن بن الصباح على قلعة الموت وهي من نواحي قزوين وجعلها مقر الحكم الاسماعيلي ، منها تصدر الأوامر إلى كل النواحي . وكان يدعو للخليفة الفاطمي بمصر . وفي ٤٩٨ هـ ظهر أمرهم في الشام فتملكوا حصن افامية وقطعوا الطرق . وأخذت شوكتهم تتعاظم حتى كانت سنة ٥٢٠ هـ فاستولوا على بانياس ثم على أماكن أخرى وكان بطشهم شديداً بالمسلمين والافرنج الصليبيين ، وكان دأبهم اغتيال الامراء والعلماء . ومما يدلّك على شدة شكيمتهم ان

١ واجع رسائله (المطبعة المئانية ١٨٩٨) ٢٤٦ .

٢ واجع بعض أخبارهم في ابن خلدون ٤ ص ٨٤ - ٨٨ و ص ٣٠٩ و ٤٥٧ .

صلاح الدين الايوبي حاربهم في الشام ثم رأى ان يصالحهم .
وقد ظلوا أصحاب قوة وبطش وظلّ نفوذهم عظيماً من تركستان إلى
البحر المتوسط حتى أواخر الدولة العباسية وقيام دولة التتر ، فهاجمهم
هولاكو في العراق وخرّب قلاعهم وأغار عليهم في الشام الملك الظاهر
ملك مصر . وهكذا خضعت شوكتهم وتشتتوا شرادهم في الاقطار الاسلامية
وذلك بعد أن اضطربت لهم ملوك المسلمين والصليبيين نحواً من قرن
ونصف .

والباطنية التي ينتمي اليها الحشاشون تعضد المذهب الشيعي فكانت لذلك
من أكبر أنصار الدولة الفاطمية ، ومن أفعال العوامل دينياً وسياسياً في
تقويض سلطة الدولة العباسية .

العوامل الهدامة الخارجية ومنها غارات الروم

كانت بلدان الشرق الادنى المتاخمة لبحر الروم قبل الفتح الاسلامي
جزءاً من مملكة الرومان الشرقية (بيزنطية) . فلما حدث الفتح الاسلامي
تقلّص ظلّ الروم أمام العرب الفاتحين . فاحتل العرب مصر وسوريا
وانتزعوا جزءاً من الاناضول وبقي أكثره تابعاً للروم لأن العرب لم يستقرّوا
هناك . ولمتاخمة الاناضول لسوريا والجزيرة العراقية نشأ بين الفريقين منذ
المئة الأولى الهجرية حروب متواصلة كان النصر فيها سجالاً . ففي أيام
معاوية مثلاً توغلت جيوش العرب حتى القسطنطينية ثم تراجعت^١ ،
واضطر معاوية سنة ٣٢ هـ أن يصالحهم على مئة ألف^٢ . وفي أيام عبد الملك
هجم الروم على سوريا فبلغوا حماه وقنسرين والعواصم ثم هاجموا السواحل
حتى خضع لهم قسم من الجبل . قال البلاذري وصالح عبد الملك الروم ،

١ الطبري ٥ - ٢٨٨٨ وابن خلدون ٢ - ٢٢٨ .

٢ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

بعد موت أبيه وطلبه الخلافة ، على شيء كان يؤديه اليهم^١ . وفي أيام سليمان بن عبد الملك عاد العرب فهاجموا القسطنطينية^٢ . وبقي الحال على هذا المنوال بين الروم والمسلمين أكثر أيام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا لذكر الوقائع أو لتعداد المدن والحصون التي كانت تتداولها أيدي الفريقين . على انه لا بدّ من القول انه كان لهذه الحروب أثر كبير في الأدب العربي . يكفي أن نشير هنا إلى ما سنذكره من روائع أبي تمام والبحتري والمتنبي في انتصارات المعتصم والمتوكل وسيف الدولة . ولم تنج الممالك الاسلامية من خطر الروم الذين كانوا يواصلون الغارات من الشمال حتى استقر الاتراك في الاناضول وحالوا دون تقدم الروم نحو الجنوب .

غارات الصليبيين

وبينما كان الروم يتهددون الدولة العباسية من الشمال الغربي ، وكان السلاجقة يوطّدون نفوذهم في عاصمتها ، اتفق الافرنج على اكتساح الشام وما اليها بحجة انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين . وهكذا بدأت الحروب الصليبية وأخذ الاوروبيون يواصلون الغارات على الانحاء الساحلية من سوريا وفلسطين ومصر .

* * *

ويمتد عصر الحملات الصليبية من ١٠٩٦ م - ١٢٩١ م وقد كانت الخلافة العباسية في أوائله متفككة العرى ، والفاطيون في مصر يترتبصون الفرص للايقاع بها . وكانت سوريا - المعترك العام يومئذٍ - قد خرجت من حكم الدولة السلجوقية الرئيسية وأصبحت أمارات يتنازعها اتابكهم وخلفاء مصر . فاغتم الافرنج تلك الفرصة وغزوها أولاً عن طريق الروم ثم عن طريق البحر ، ولم يعتموا أن احتلوا القدس وأسسوا فيها مملكة لاتينية

١ فتوح البلدان ١٨٨ .

٢ ابن الاثير ، في حوادث سنة ٩٨ .

بقيت نحو قرن ونصف (١١٠٠ م - ١٢٤٣ م) . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا نفوذهم على القسم الغربي من سوريا إلى ما وراء انطاكية ، فأسسوا الامارات المختلفة وابتنوا القلاع الحصينة ، ساعدتهم على ذلك تنازع الحكم في البلاد وضعف الخلفاء في بغداد والقاهرة ، ولكن الصليبيين كانوا من عناصر وبلدان شتى ، فنشبت بينهم منازعات كثيرة أدت أخيراً إلى فشلهم وخروجهم من البلاد^١ .

ومن كان له اليد الطولى في خضد شوكة الافرنج صلاح الدين الايوبي ملك مصر وأخوه الملك العادل ، ووقائعهما مع الصليبيين في مصر والشام مشهورة . ولصلاح الدين وآله في الأدب العربي أثر كبير يظهر في المدائح التي نالوها من شعراء زمانهم . نذكر منهم ابن الساعاتي^٢ وابن النبيه وابن قلانس وابن مفرج النابلسي وابن التعاويذي (وقد ذكره ابن خلكان ذكراً خاصاً في سيرة صلاح الدين وذكر بعض مدائحه) . ناهيك بالرسائل التي كان يتبارى بها منشئو ذلك الزمان وأشهرهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وضياء الدين ابن الاثير^٣ .

وبرغم ما كان بين الشرق والغرب في خلال تلك الحروب من العداء المستحرق والنزاع المستمر ، خرج الفريقان من غمارها بفوائد اجتماعية أدبية عظيمة . وربما كانت فائدة الغربيين أعظم ، فانهم رجعوا عن الشرق العربي وقد اقتبسوا من حضارته يومئذ ما كان له أثر كبير في حياتهم الاجتماعية .

والخلاصة

إن الدولة العباسية لم يكد يمضي عهد خلفائها الثانية الأول حتى ظهرت

١ قال ابن الجوزي في مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ أخبار سنة ٨٢ هـ وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان لسعادة الاسلام .

٢ نشرنا ديوانه في جزأين عن نسخ خطية فريدة فليراجع .

٣ راجع أخبار صلاح الدين في مرآة الزمان للجوزي ج ٨ ص ٢٧ - ٢٨٠ في أخبار سنة ٨٩ هـ وراجع الكلام على الرسائل في تطور الاساليب النثرية للمؤلف ، وفي ما نشره من رسائل ابن الاثير .

ففيها عوامل الفساد التي أدت إلى انحلالها . وهذه العوامل داخلية وخارجية فالداخلية هي :

- ١ - ضعف السلطة المركزية لتسلط المستبدين بها من عجم وأتراك .
 - ٢ - استقلال الامارات المختلفة وتنازعها .
 - ٣ - عوامل الفتن والثورات من خوارج وعلوية .
- والخارجية : غارات التتر من الشرق ، وغارات الروم والصليبيين^١ من الغرب . وهناك عوامل أخرى يرجع فيها إلى المطوّلات التاريخية .

١ من أراد التوسع في الحروب الصليبية فليراجع من بين المصادر الكثيرة :
- مرآة الزمان للجوزي ج ٨ .
- ما ورد في الجزء الخامس من ابن خلدون .
- أخبار الصليبيين في دوائر المعارف ولا سيما البريطانية والاسلامية .
- كتاب The Crusaders in the East للمؤرخ ستيفنسن (Stevenson)
- رسائل الكتاب أيام صلاح الدين في صبح الأعشى .

تطور الحياة الاجتماعية

في العصر العباسي

الحضارة في فجر الاسلام

من المعلوم ان بلاد العرب لم تكن في زمن الجاهلية خلوًا من حضارة ما . وفي القرآن الذي هو نصٌّ تاريخي صادق نجد الدليل على ذلك في ذكر المتاجر البرية والبحرية والشركات والاحتكارات والشورى والصنائع والكتابة والملاهي والنقود وبعض المعارف . فإذا اضفت ذلك إلى ما نقله المؤرخون من أخبار اليمن وقريش والامارات العربية القديمة في العراق وحواران وتدمر وسواها ، عرفت انه كان للعرب قبل الاسلام اتصال بالعمران السائد يومئذ . فلما جاء الاسلام وحدثت الفتوح ازداد هذا الاتصال وتنظّم ، وكان له بعد ذلك آثاره المعروفة .

بيد ان الروح الدينية كانت في فجر الاسلام قوية جداً ، فوقفت بهم قليلاً عن الأخذ بأسباب الرخاء الحضري ، وكان لها أثر بيتن في تنظيم حكومتهم الأولى ، حتى كان بعض امرائهم الأولين يسلكون مسلك التقشف ويشددون في تنفيذ أحكام الدين يلبسون الخلق المرقّع من الاثواب ويتجافون عن أطايب الطعام ويسرون في الاسواق كعامّة الناس . والشواهد على ذلك

نشأ فيهم عثمان (أي الأمويين) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان مهمهم الفتح وجمع المال ،^١ . ولعل الاصبوح ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنة عمر .

الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية . « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشُرط والبوابين في الاسلام وارخى الستور ، ومشي بين يديه بالحرايب وجلس على السرير والناس تحته »^٢ . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابتهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابته الملك وزيته من العديد والعدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين انتا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزيينة الحرب والجهاد حاجة »^٣ .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلى القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

١ Moh. et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ - ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .

نشأ فيهم عثمان (أي الأمويين) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان مهمهم الفتح وجمع المال^١ . ولعل الاصبوح ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنة عمر .

الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية . « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشُرط والبوابين في الاسلام وارخى الستور ، ومشي بين يديه بالحرايب وجلس على السرير والناس تحته »^٢ . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابتهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابته الملك وزيته من العديد والعدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين انتا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزيينة الحرب والجهاد حاجة »^٣ .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلى القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

١ Moh. et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ - ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .

الصحابة واحفادهم أصبحوا من أكثر الناس استمتاعاً بالملاهي .
ومن أمثلة ذلك عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقد تشاغل بالغناء
والجواني حتى عيب عليه سعيه في هدم مروءته . ومنهم الوليد بن عتبة
أخو عثمان بن عفان فقد شهد عليه أهل الكوفة انه صلتى بهم الصبح
ثلاث ركعات وهو سكران ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب حده عمرو
ابن العاص بمصر لشرب الخمر . ومنهم الوليد بن عثمان بن عفان ، وحفيده
العرجي الشاعر ، وابن أبي عتيق حفيد أبي بكر ، وغيرهم من أبناء
الصحابة الذين اقتضت السياسة الأموية منهم من الاشتغال بالسياسة
فاندفعوا في سبيل اللهو والمجون^١ . وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض
المترفين حتى في مناسك الحج^٢ . وهذا الاقبال من الامراء ومن دونهم
على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والادب ،
فأقبل على دمشق وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجواري
والشعراء مما زاد حركة الاعمال وأحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها
الراشدون .

ومع كل ذلك بقيت للبداوة نزعة في نفوس الأمويين . فلم يكن امراؤهم
برغم سياستهم التي كانت ترمي إلى تعظيم البيت الأموي يترفعون عن
معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسباح لهم بالكلام عندهم . فقد نقل عن
الوليد بن يزيد والفهر أخيه انها لما مات معبد (المغني المشهور) مشيا بين
يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد^٣ . وكان عبد الملك أول خليفة منع
الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه^٤ . ولا غرابة فقد

١ و ٢ راجع أخبارهم في ما يلي :

- الكامل للمبرّد (مصر ١٣٠٨) ١ - ٣٩٢ و ٣٩٣ .

- العقد (بولاق) ٣ - ٤٠٦ و ٤٠٧ والنويري (دار الكتب المصرية) ٤ ص

١١٣ - ١١٩ .

٣ الاغاني (دار الكتب) ١ - ٣٧ .

٤ البيان والتبيين (ص) ٢ - ١٩٢ .

كان بعضهم يكلّمه بما لا يُكلّم به الملوك ، كما روى الجاحظ عن رجل من بني غزوم وكان زُبيرا . قال دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك : « أليس قد ردّك الله على عقبيك ؟ » فقال : « أو من ردّ اليك فقد رد على عقبه ؟ » فاستحى وعلم انه قد اساء ^١ . ودخل كثير على يزيد بن عبد الملك يسأله عن معنى بيت للشّماخ فاستحمله وأخرجه ^٢ . ويثبت ذلك انهم كانوا حتى أيام الوليد يسمّون خلفاءهم بأسمائهم . قال اليعقوبي : « كان الوليد يقول لا ينبغي لخليفة أن يناشد ولا يكذب ولا يسميه أحد باسمه . » وعاقب على ذلك ^٣ . وعن ابن خلدون انهم تجافوا عن ألقاب التعظيم مع الغضاضة والسداجة لأن العروبة في منازعتها لم تفارقهم حينئذ ، ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة ^٤ ، وقال : كانت اعطيتهم أكثرها الابل أخذاً بمذاهب العرب وبدائيتهم ، ومثلهم كان عمالهم .

وقد نقل ابن خلدون حديث الحجاج ووليّته في اختتان بعض ولده ، قال فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس فقال شهدت بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ، اربعاً على كل واحد ، تحمله اربع وصائف ، ويجلس عليه اربعة من الناس . فاذا طعموا أتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها . فقال الحجاج ، وقد علم انه لا يستقل بهذه الابهة ، يا غلام انحر الجزر ^٥ . ويظهر مما ذكره في موضع آخر ان نظامهم الحربي ظل بدوياً فكانت أسفارهم لحروبهم وغزواتهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الأهل والولد ^٦ . ومع ما درّته الفتوح عليهم من مال وما مهّدت لهم

١ البيان والتبيين (س) ٣ - ٢٦٧ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٩٦ .

٣ اليعقوبي ٢ - ٣٤٨ .

٤ المقدمة ٢٢٨ .

٥ المقدمة ١٧٤ .

٦ المقدمة ٢٦٨ .

من سبيل الحضارة لم يخرجوا خروجاً تاماً عن منازع البادية في حياتهم .
إلاّ أنهم توسعوا كثيراً في الملاهي فتنظمت في الامصار المختلفة حركة
الغناء واللعب على الآلات ، ونشأت في المدن المختلفة ولا سيما مدن الحجاز
مجالس خاصة وحلقات خاصة من مغنّين ومغنيات اتخذت الغناء مهنة ترتزق
بها . وقد بلغ ذلك منهم حتى صار فيهم دور خاصة للملاهي والمطالعة .
جاء في كتاب الاغاني ان عبد الحكيم بن عمرو الجُمَحِي اتخذ بيتاً في
المدينة فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرقات ودفاتر فيها من كل علم ،
وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ
دفتره فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم^١ . وإذا قابلت
ذلك بما كانت عليه المدينة أيام أبي بكر وعمر مثلاً تجد فرقاً كبيراً في
اتجاه الافكار نحو الملاهي .

أما في دمشق — عاصمة الدولة يومئذ — فقد كان الخلفاء أنفسهم إلا
القليل منهم ينفشّطون هذه الحركة . وكان يزيد بن معاوية أول من سن
الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وشرب الخمر^٢ . واشهرهم
في ذلك سليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد^٣ . وفي
أيامهم كثرت الملاهي ولم تنحصر في الخاصة بل تعدتها إلى العامة ، فنشأت
طبقة من المتخصصين في صناعة الطرب كانت لهم اتباع يدربونهم على
الغناء والآلات تدريباً فنياً . وظهر في الحجاز جماعة من المغنين بلغوا
من الشهرة مبلغاً عظيماً — منهم :

ابن مِسْحَج (مكي) وابن مُحَرَّر (مكي) وطُؤيس (مدني) وابن
سُرَيْج (مكي) ومَعْبِد (مدني) وجميلة (وكانت معلمة القينات في
المدينة) وعَزَّة الميلاء وحُنين والغريض واضراهم ممن تجد أخبارهم بالتفصيل

١ الاغاني (بولاق) ج ٤ - ٥٢ .

٢ الاغاني ١٦ - ٧٠ .

٣ المستطرف (بولاق) ٢ - ١٨٨ .

في كتب الادب^١ .

وقد رافق تقدم الغناء في هذا العصر تقدم الشعر الغزلي ، ولا غرو فهما ربيبا عاطفة واحدة . ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل والتشبيب وما إلى ذلك من لهو ومجون :

الاحوص وهو مدني من الأوس .

يزيد بن الطيثرية وهو شاعر بدوي .

نُصيب مولى عبد العزيز بن مروان وقد اشتهر أيضاً بالغناء .

عمر بن أبي ربيعة وهو مشهور ، واختص شعره بوصف النساء وحاله

معهن .

العرجي وقد مرّ ذكره وكان شغوفاً باللهو والصيد والتشبيب .

ومن طبقتهم كثيرون لا يتسع لهم المقام^٢ .

ومن مظاهر التطور الاجتماعي أيام الامويين نشوء دور التعليم وازدياد عدد المتعلمين . فقد كان العرب في أول أمرهم أميين ، إلاّ أفراداً قلائل بلغوا في الحجاز أول الدعوة الاسلامية سبعة عشر شخصاً^٣ . ثم أخذ عدد القراء والكتبة يتزايد : قال ابن خلدون : « لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه ، وتداولوه فترقت الاجادة به^٤ . »

وطبيعي أن تتقدم القراءة والكتابة ، وان ينشأ في مساجد الخواضر حلقات تعليمية ويكون فيهم معلمون لصبيانهم . وقد ورد ذكر معلم

١ راجع كتاب الاغاني، ج ١ - ١٥٢، ج ٣ - ٨٤، ج ٧ - ١٤٤ وأماكن أخرى فيه. ونهاية الارب للنويري (دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٩٠ .

٢ وتجده أخبارهم في الاغاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ووفيات الاعيان وسواها .

٣ البلاذري (ليدن) ٤٧١ .

٤ المقدمة (بيروت) ٤٢٠ .

الكتاب في شعر جرير إذ قال : « هذي دواة معلّم الكتاب » .
وفي أخبار الوليد بن عبد الملك انه مرّ بمعلّم صبيان يعلم
جارية^١ الخ ...

وذكر الجاحظ أمثال الناس عن المعلمين . وفي دفاعه عنهم جعلهم
ثلاث طبقات : مؤدبي أولاد الملوك ، ومؤدبي الخاصة ، ومعلمي كتاتيب
القرى . وذكر بضعة من كبار المؤدبين في العصر الاموي مثل الجهني
والشعبي وعبد الصمد الأعلى وكهيت بن زيد وقيس بن سعد وعطاء بن
ابي رباح وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف ، يوم كان يعلم في
الطائف^٢ . وبعبارة أخرى فرّق بين الاساتذة المؤدبين وبين معلمي الكتاتيب
الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال ان أمثال العامة قد تصدق
على بعض هؤلاء لا على الطبقة الأولى التي ينتمي اليها كبار العلماء والفقهاء
وقادة الافكار .

وقد نقل ابن قتيبة وصايا بعضهم لمعلمي العصر الاموي فلتراجع^٣ .
ويدلك على انتشار التعليم في هذا العصر نشاط حركة النسخ والتدوين :
ذكروا انه في معركة صفّين رفع نحو خمسمئة نسخة من القرآن^٤ . ومع
انه لم يصلنا شيء يذكر مما دوّن في هذا العصر فلا شك ان التدوين سابق
للعصر العباسي . ومن أدلة ذلك نقلهم الدواوين الاميرية إلى اللغة العربية .
ويحدثنا اليعقوبي ان زياد بن ابيه كان أول من دوّن الدواوين ووضع
النسخ للكتب^٥ .

وفي هذا العصر بدأت حركة النقل والترجمة ، وأول من فعل ذلك

١ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٦٤ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢١٠ .

٣ عيون الاخبار (دار الكتب) مج ٢ - ١٦٦ .

٤ المسعودي (باريس) ٤ - ٣٧٨ .

٥ اليعقوبي ٢ - ٢٧٩ .

خالد بن يزيد . ففي الفهرست لابن النديم نقل له الكيمياء رجل اسمه اسطفان^١ . ويقول ابن النديم ان سالماً كاتب هشام نقل بعض رسائل ارسطو وذكر كتباً في مواضيع مختلفة دوّنت في هذا العصر .

فما مرّ نستنتج ان احتكاك العرب بسواهم أحدث فيهم ميلاً إلى الاخذ عنهم ، فزاد فيهم عدد المتعلمين وكثر الاقبال على القراءة والكتابة وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية . على ان المدارس لم تكن قد تنظمت تماماً وذلك :

- ١ . لعدم توفر الادوات الكتابية واثقانها .
- ٢ . لقصر مدة الامويين ولانشغالهم بالحروب والفتن .

* * *

وبقي الامر كذلك حتى قام العباسيون وانتقلوا إلى بغداد ، ثم انصرفوا إلى العلوم والمدارس فتتنظمت أسباب التعليم والتدوين والتصنيف ، وحدثت تلك الحركة الفكرية المشهورة .

فالعصر الاموي عصر انتقال اجتماعي تطورت فيه نوعاً عادات العرب ومعارفهم ، ودخل اللغة كثير من المصطلحات الادارية والاجتماعية والعلمية التي لم يكن للجاهلية عهد بها^٢ .

١ الفهرست (ل) ٢٤٢ و ٢٤٤ .

٢ راجع أمثلة ذلك في تاريخ اللغة العربية لزيدان ص ٢٠ - ٣٠ .

مضارة العصر العباسي

في هذا العصر بلغ التطور الاجتماعي أوجه ويظهر ذلك في ما يلي :

- ١ - نشوء قومية عربية جديدة .
 - ٢ - عمران بغداد وسواها من الحواضر .
 - ٣ - اتساع الثروة وترف الخاصة .
 - ٤ - النهضة الفكرية العامة .
- ولنشرح كلا من هذه الظواهر الاجتماعية بالتفصيل .

نشوء قومية عربية جديدة

وأساس هذا النشوء :

- ١ - انتشار العرب في الامصار بعد الفتح .
- ٢ - امتزاجهم عن سبيل الزواج بعناصر أخرى .
- ٣ - تعرب الامم المغلوبة .

خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فانتشروا في الاقطار التي افنتحوها وأنشأوا فيها معسكرات صارت بعدئذ حواضر عامرة كالبصرة والكوفة والانباء والقيروان، كما أسسوا عدداً من المدن المعروفة كواسط وبغداد والقاهرة. وكانوا في أول أمرهم يرحلون في أثر الفتوح قبائل وعشائر فيقيمون في

الامصار ويتحضرون . والظاهر ان هذه الهجرة إلى البلدان المغلوبة كانت من سياسة القادة والامراء . فقد ذكر البلاذري مثلاً ان ابا عبيدة رتب ببالس (بناحية حلب) جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فاسلموا بعد قدوم المسلمين ، وقوماً لم يكونوا من البعث نزعوا من البوادي من قيس^١ . وذكر ان مسلمة بن عبد الملك أسكن مدينة الباب في الخزر اربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام^٢ ، وان هرثة اختط الموصل وأسكنها العرب^٣ . وقال المقدسي كانت تدعى أولاً خولان حتى وصل بها العرب عمارتهم ومضروها^٤ . وقد سبق هذه الهجرات الاسلامية الاولى إلى الامصار المجاورة لبلاد العرب هجرات قديمة ؛ يدلنا على ذلك انه قبل الاسلام وجدت امارات وقبائل عربية في العراق وسوريا وفلسطين كاللخميين والغساسنة والتدمريين والانباط وسواهم . وكثير من هؤلاء القبائل تحضر واصطبغ بصبغة البلاد الدينية والاجتماعية .

واستمر الامر على ذلك شطراً من الدولة العباسية . فقد بنى المنصور ملطية من ثغور الروم (وكان قد رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين ثم خرجت) واسكن فيها الوفاً من أهل الجزيرة^٥ . وفي أيام المهدي غزا الحسن بن قحطبة بلاد الروم بجيش مؤلف من أهل خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز ، وبنى طرطوس (وكانت قد خربت) ومضروها^٦ . ومما يشعر بسياسة التمهيد هذه انه لما أراد المأمون غزو الروم قال : « اوجه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية . » على ان الاجل لم يمهله ان

١ البلاذري ١٥٠ .

٢ البلاذري ٢٠٧ .

٣ البلاذري ٣٣٣ .

٤ أحسن التقاسيم (ليدن) ١٣٩ .

٥ البلاذري ١٨٧ .

٦ البلاذري ١٦٩ .

يتم هذا الفتح^١ .

ومن ذلك تحرك العصابات في الامصار المختلفة كربيعة ومضر أيام الوليد في خراسان ، والقيسية واليمانية أيام المأمون في مصر ، ولخم وجذام سنة ٢٥٧ هـ في فلسطين . ناهيك بمن كانت قد رحل من العرب إلى افريقيا والاندلس .

وإلى انتشار العرب بعد الفتوح واستقرارهم في الامصار يشير ابن خلدون في قوله : « وكان قد وقع في صدر الاسلام الانتماء إلى المواطن فيقال جند قنسرين وجند دمشق وجند العواصم ، وانتقل ذلك إلى الاندلس . ولم يكن (ذلك) لاطّراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب . ثم وقع الاختلاط في الحواضر مسع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطّرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان^٣ .

وإذا نظرت إلى هذا الامتزاج من جهة أخرى وجدت ان الجزيرة العربية لم تكن مركز الملك العربي إلاّ نحواً من ربع قرن . ثم تحول الأمر إلى دمشق فبغداد . ونشأت على اثر ضعف الخلافة في بغداد حواضر لامارات مستقلة . ومعنى ذلك من الوجهة الاجتماعية ان العنصر العربي الفاتح استقر قسم كبير منه بعد الفتح خارج الجزيرة حتى قدّر بعضهم من دخل سوريا منه بنحو ربع مليون^٤ . ولا نستطيع ان نجزم بصحة هذا العدد ولكننا لا نشك ان الفتح سهّل للعرب الانتشار والاستقرار في البلاد التي افنتحوها ، ولا يعقل أن يحدث ذلك دون امتزاج أو احتكاك قوي بالامم الأخرى . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود ، وفي العراق الاراميون

١ اليعقوبي ٢ - ٥٧٣ .

٢ راجع اليعقوبي ٢ - ٣٩٩ و ٥٦٧ و ٦٢٣ .

٣ المقدمة ١٣٠ .

٤ La Syrie - Lammens 119 - 120

والفرس ، وفي مصر الاقباط ، وسواهم في سوى ذلك . وقد اتصل العرب بهذه الامم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية . وكان أكثر امتزاجهم بالفرس - أولاً لاسراع هؤلاء باعتناق الاسلام ، وثانياً لما كان لهم من التأثير السياسي بعد أن أصبحت بغداد عاصمة الخلافة .

وإذا تحررت ذلك من الوجهة اللغوية اتضح لك وجه الامتزاج - فان أكثر الالفاظ المقتبسة إما يونانية أو فارسية . على ان اليونانية راجعة^١ بالاكثـر إلى حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالةً على ان الامتزاج كان على هذا السبيل^٢ . اما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي . وقد تحررنا أكثر من مئة لفظة فارسية الاصل فوجدنا معظمها من باب المأكل والمشرب والملبس والمفرش والملهي ومن الادوات المنزلية والصناعية وما إلى ذلك ، مما يدل على شدة تأثيرهم من حياة الفرس الاجتماعية^٣ .

وإذا نظرت إلى البلدان العربية اليوم وجدت في الفاظها المعربة الحديثة قياساً منطقياً لما حدث في الماضي . فأكثر الفاظها العلمية مقتبسة عن لغات أوروبا الحديثة . اما الاجتماعية ففي العراق تكثر منها المقتبسات الفارسية والتركية ، وفي سوريا الايطالية والافرنسية ، وفي مصر التركية والاوروبية . وما وجود هذه الالفاظ إلا دلالة على احتكاك سكانها بالامم التي اقتبسوا عنها . وذلك ما حدث للدولة العربية في بغداد وسواها . وهذا الامتزاج اللغوي الاجتماعي طبيعي بين الشعوب تتبادل فيه الالفاظ كما تتبادل السلع . فكما ان العرب أخذوا أولاً عن الفرس والروم والسريان والاقباط الذين استقروا بينهم كثيراً من الفاظهم ومصطلحاتهم ، عاد هؤلاء فأخذوا من العربية ما لا يمكن حصره هنا ، ولا سيما الفرس الذين أصبحت

١ تجد كثيراً من هذه الالفاظ في الكتب الطبية والعلمية لذلك العهد .

٢ راجع المقتبسات الاعجمية في «شفاء الغليل» للخفاجي وفي «المعرب» للجواليقي و«الالفاظ المعربة» لادي شير وسواها .

انفاظ لغتهم مزيجاً من الفارسية القديمة والعربية . وكذلك أخذ غيرهم كالأتراك والاسبان . وكل ذلك دليل على تبادل أسباب الحياة الاجتماعية . ويكون الاقتباس عموماً على أحد سبيلين :

١ - الامم المغلوبة من الامم الغالبة .

٢ - اللغات المتأخرة في نوع من أنواع الحضارة من اللغات المتقدمة فيه .

الامتزاج بالزواج

ولم تقف عملية المزج في الاقطار الاسلامية عند هذا الحد ، بل تعدتها إلى ما هو أعمق ، فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن طريق الزواج - اختلط أولاً بالامم التي اعتنقت الاسلام من فرس وترك وبربر وسواهم ، ثم بالامم الاخرى عن طريق السبايا والجواري اللواتي لعبن دوراً مهماً في تاريخ الاسلام الاجتماعي . وقد كان الامويون أولاً يتعصبون على أبناء الاماء ولا يستخلفونهم . فقد أنسب عبد الملك علي بن الحسين لتزوجه جارية ، وعيّر هشام زيد بن علي بن الحسين بقوله : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة^١ . ولما زوّج ابراهيم بن النعمان بن بشير الانصاري يحيى بن حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره^٢ :

لعمري لقد جلّلت نفسك خزية^٣ وخالفت فعل الاكثرين الاكارم ولو كانت جدّك اللذان تتابعما ببدرٍ لما راما صنيع الألائم على ان ذلك لم يمنع حتى بعض الخلفاء الامويين من التزوج بالاماء . فكانت أم يزيد بن الوليد فيروزا شامي ابنة شيرويه^٣ ، وام يزيد بن

١ المسعودي ٥ - ٤٦٨ .

٢ كامل المبرد (ليزك) ج ١ - ٢٧١ .

٣ عن الجاحظ (راجع رسائل الجاحظ ، مطبعة السعادة مصر ص ٥١) .

عبد الملك شاهفريد بنت فيروز ابن كسرى^١ ، وكانت جدة مروان بن محمد كردية . أما بنو العباس فكثير ذلك بينهم ، حتى كان كثير من خلفائهم ابناء اماء^١ . منهم المنصور والرشيد وابراهيم بن المهدي والمأمون والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمقتدر والمكتفي والمستضيء والناصر . وقس على ذلك سائر الطبقات التي اختلط فيها الدم العربي بسواه اختلاطاً واسع النطاق .

تعرب الامم المغلوبة

من هذه الامم من تعرب تعرباً جزئياً وقتياً كفارس والاندلس مثلاً ، ومنها من تعرب تعرباً كلياً دائماً كمصر والشام والعراق وشمالى افريقيا . وقد حدث هذا التعرب فيها تدريجاً - بدأ منذ الفتوح الأولى وقبلها بهجرة العرب واشتد بنشر الاسلام ، ثم بتحول دواوين الحكومة أيام الأمويين ، وبما كان للعرب أو للمسلمين من امتيازات في المملكة الاسلامية . وأخذت حركة التعرب تتقدم مع الايام حتى استقرت العربية في هذه الاقطار . والمشهد ان ذلك جرى في الاقطار السامية الاصل أو التي تمت إلى الساميين بنسب متين ، أما في سواها فلم يكن إلاّ جزئياً كما ذكرنا ، ولوقت معين . فلما زالت شوكة العرب زالت الصبغة العربية عنهم وبقي اثرها في لسانهم ومدنيتهم . وهكذا نشأ في الاقطار الاسلامية العربية (ما نسميه اليوم بالشرق العربي) قوميات شتى ، تجمعها جامعة معنوية قوية هي جامعة اللغة والثقافة . وليس من نسميهم اليوم ابناء العرب (خارج الجزيرة العربية) إلاّ مزيجاً من عناصر شتى اصطبغت بالصبغة العربية وارتبطت بتاريخ العرب وميراثهم الأدبي . وهذا الامتزاج القومي اللغوي التاريخي أثر في الادب العربي تأثيراً بيتناً ، فكثرت فيه المقتبسات الاجنبية ، واختمرت

١ تاريخ التمدن الاسلامي (لزيدان) ٤ - ١٥٣ .

فيه الحياة الفكرية اختاراً أدى إلى نشوء الحضارة العربية المعروفة في القرون الوسطى .

حضارة بغداد عاصمة العباسيين

كانت بغداد في أيام الفرس قرية يقوم بها سوق لهم ، فأغار عليها المثنى فانتسفها^١ ، ثم لم تلبث بعد ان اختارها المنصور العباسي مركزاً لدولته وبنى فيها مدينته ، حتى زخرت بالعمران وأصبحت من أعظم العواصم في القرون الوسطى . وإنما نحن نذكرها هنا ذكراً خاصاً لعلاقتها الكبيرة بالشعراء الذين ندرس حياتهم وشعرهم ، ولأنه فيها تتجلى الحضارة العربية في أبهى ظواهرها .

وقد مرّ بنا في عرض كلامنا عن «العوامل السياسية في الدولة العباسية» ما كان من تنازع العناصر المختلفة في بغداد ، وإن أهمها ثلاثة :

- ١ - العرب : ويمثلهم البيت المالك وبعض الامراء والعمال .
- ٢ - الفرس : ويمثلهم الوزراء والكتبة ومعظم رجال العلم ثم امراء الديلم المتغلبون .

٣ - الاتراك : وكان منهم امراء الجند ثم السلاجقة ورجالهم .
ففي بغداد التقت عناصر شتى وأجناس كثيرة تتنافس على السيادة والرزق وكان لهذا التنافس أثره في أحوالها الاجتماعية . ولما كانت هذه المدينة عاصمة الخلافة والدولة ، ولا سيما في القرنين الأولين من العصر العباسي ، كان من الطبيعي ان تتدفق فيها أموال الاقاليم عن طرق شتى أهمها : الجباية والمصادرة والتجارة والزراعة . ولنتناول كلا منها بقليل من الاسهاب .

الجباية والمصادرة

بلغت رقعة المملكة العباسية في ابان قوتها حداً عظيماً من الاتساع

١ مرصد الاطلاع (ليدن) ١ - ١٦٣ .

فكان يجبى إليها مما وراء النهر إلى المغرب الأقصى . قيل وقد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ أقل من ثلاثة آلاف الف . فكتب إلى ملك الروم : « ان أحسن ناحية ، عليها أحسن عبيدي ، خراجها أكثر من خراج أرضك »^١ . وإذا صححت هذه الرواية لم يكن المعتصم مبالغاً ، فقد ترك لنا قدامة بن جعفر قائمة مسهبة في الخراج لعهد المعتصم يبلغ مجموعها أكثر من ٣٣٨ مليون درهم^٢ . وأحصى ابن خلدون الخراج أيام المأمون وفصله اقليماً اقليماً فإذا مجموعته يزيد على الأربعمئة مليون درهم^٣ . وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية مطلقي التصرف بالاموال والارواح ، تجبى اليهم الاموال الطائلة فينفقونها في رجالهم وحاشيتهم وملاهيهم ، ويختزنون منها ما يرونه لحين الحاجة . فان المنصور خلف لابنه المهدي ما يزيد عن ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار^٤ . وخلف الرشيد نحو ٩٠٠ مليون درهم^٥ . هذا مع كل ما اشتهر به من السخاء والاسراف ، حتى قال الطبري عنه انه لم يُرَ خليفة اعطى منه^٦ . وكانت غلة أمته الخيزران في العام ١٦٠ مليون درهم . أما عمال الخلفاء ووزرائهم فكانوا يحصّون الاموال الطائلة ويتبارون في انفاقها . فقد بلغت عمالة الفضل ابن سهل أيام المأمون على ما رواه الطبري نحو ثلاثة ملايين درهم ، وذهب الفضل بن يحيى البرمكي الف الف درهم لمحمد بن ابراهيم العباسي^٧ . والبرامكة مشهورون بكرمهم ورخائهم ، وكانوا أصحاب الدولة والمجد حتى نكبهم الرشيد واستصفى أموالهم . على ان الكرم والغنى لم ينحصرا فيهم .

١ أحسن التقاسيم للمقدسي (ليدن) ٦٤ .

٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ٥٦ .

٣ المقدمة ١٧٩ - ١٨١ .

٤ المسعودي ٦ - ٢٣٣ .

٥ ابن الاثير ٦ - ٧٦ والطبري جم ٣ - ٧٦٤ .

٦ الطبري جم ٣ - ٧٤١ .

٧ الفخري ١٥١ .

ومن يراجع أخبار الوزراء والعمال يدهش لكثرة ما كان يصلهم من المال ، وما كانوا ينفقونه في سبيل مآربهم وملذاتهم . جاء في « سراج الملوك » للطرطوشي ان العامل (أي الحاكم) أيام عمر بن الخطاب كان راتبه مع معاونيه ٦٠٠ درهم في الشهر^١ ، فصار العمال أيام الامويين يتقاضون الرواتب الكبيرة . على انهم لم يبلغوا عموماً مبلغ زملائهم في العصر العباسي . ولم يكن هذا المال عن طريق الجباية المشروعة فقط بل كان للمصادرة شأن كبير في العصر العباسي . والمصادرة مال يقبضه السلطان من الوزير وهذا من العمال ، والعمال من الرعية .

وقد بلغت في الدولة العباسية ان انشأوا لها ديواناً خاصاً . وأخبار بني العباس حافلة بذكر المصادرات ، وكذلك أخبار وزراءهم وعمّالهم . من أمثلة ذلك قائمة ما قبضه ابن الفرات وهي انموذج لأنواع المصادرة ومقاديرها ويبلغ مجموعها ملايين الدراهم^٢ . وقد نال ابن الفرات من ذلك ما نال سائر الكبراء . فقد قال عن نفسه : تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . واليك أمثلة أخرى مما يرويه اليعقوبي : سخط المتوكل على الفضل بن مروان وقبض ضياعه وأمواله ونفاه ، ثم رضي عليه ورده ، وسخط على احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير فاستنصفى ماله ثم رضي عليه . ولما سخط على الكتّاب قال لاسحق ابن ابراهيم انظر لي رجلين أحدهما لديوان الخراج ، والآخر لديوان الضياع (المصادرة) ، ثم يذكر ما فعله هذا الخليفة بإيتاخ التركي وهرثة عامل مصر ، ويقول : « ووجهه بالحسين بن اسماعيل مكان عمه محمد بن ابراهيم ، وأمره أن يعذبه حتى يستخرج الاموال التي صارت اليه ، فعذب حتى مات . » وفي مكان آخر يذكر قبضه ضياع ابن ابي دؤاد وأمواله ، وانه

١ سراج الملوك (١٢٨٩) ٢٢٥ .

٢ راجع عصر المأمون للرفاعي ١ - ٤٣١ .

أحضر إلى بغداد فلم يقيم قليلاً حتى مات^١ . وفي الفخري أمثلة كثيرة - على هذه المصادرات . منها مصادرة المعتمد للوزير أبي الصقر بن بلبل ، وام المقتدر لكاتبها ابن الخصيب ، وابن الفرات لابن مقلة على مئة ألف . قال وفي أيام المقتدر وأيام وزيره أبي القاسم كثرت المصادرات ولم ينج الوزير نفسه منها فصادره الخليفة وأبعده . وأعجب من ذلك ما فعله القاهر بأمّ المقتدر . فقد عذبها وصادر منها مئة وثلاثين ألف دينار^٢ . هذا عدا ما صادره الاتراك والديلم وكثير من الوزراء وكبار العمال مما لا يسعه هذا المقام^٣ .

وكانت هذه الأموال الوفيرة ينفق أكثرها في بغداد فليس من الغرابة ان نسمع عن كثرة البذخ والسخاء في دوائر الخلفاء والأمراء^٤ . وقد تناول زيدان في تاريخ التمدّن الاسلامي^٥ نفقات الدولة العباسية ، وبعد ان بحث فيها بأسهاب ونقل ما نشره فون كريم عن أحمد بن محمد الطائي ، وما اشترطه هذا على نفسه ان يقدمه من ضمانات لبيت المال (وفيه ما كان ينفقه بيت المال أيام المعتضد) ، وجد ان مجموع النفقات كانت نحو مليونين ونصف مليون دينار في السنة ، باعتبار سبعة آلاف دينار لكل يوم . فاذا حسبنا ان النفقات كانت متقاربة أيام المأمون والمعتصم والمعتضد وأخرجنا ذلك من معدل ارتفاع الجباية كما أوردها ابن خلدون وقدامة ، استنتجنا ان نحواً من ٣٠٠ مليون درهم كانت تبقى في بيت المال يتصرف بها الخليفة كما يشاء . فهل يستغرب أو ينكر بعد هذا دفعهم (حتى في أيام ضعفهم) الوفاء الدنانير للشعراء والمغنين والعلماء ، أو في سبيل الجواري

١ تاريخ اليعقوبي ج ٢ من ٥٩٢ - ٥٩٧ .

٢ كتاب الفخري في أخبار المقتدر والقاهر .

٣ راجع أمثلة ذلك في تجارب الامم لمسكويه في أخبار سنة ٣٥٠ و ٣٦١ .

٤ راجع مثلاً لذلك بذخ المتوكل - المسعودي ٧ - ٢٢٨ .

٥ ج ٢ - ص ٦٥ - ٧٢ .

وسائر الملاهي التي اشتهروا بها وزاجت سوقها في زمانهم ؟ وايضاحاً لذلك ننقل بعض أمثلة من بذخهم .

ماديس الموفق والمكتفي

اشتهر هذان الخليفتان بكثرة ما جمعا من الاثواب وبكثرة التأنق في الملابس حتى كان للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد^١ ، وكان للمكتفي من الاثواب ما يبلغ عشرات الالوف^٢ .

جواهر المقتدر واسرافه

كانت خزانة الدولة في أيامه مترعة بالجواهر ، من جملتها الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمئة ألف دينار ، والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة ، ففرقه المقتدر وأتلفه في أيسر مدة^٣ . ولا عجب فقد كان له احد عشر ألف خادم من الروم والسودان وهم بمثابة حاشيته وحرسه .

بذخ ام جعفر وام المستعين

ذكر المؤرخون انه كان لأم المستعين بساط فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ، وقد قدروا قيمته بنحو ١٣٠ ألف ألف دينار^٤ . وذكر ابن خلكان ان ام جعفر البرمكي كانت في أيام عزها تمشي ووراءها اربعمئة وصيفة ، وقد يكون في ما ذكروه مبالغة ولكنه يشير إلى غنى وافر وبذخ عظيم .

١ الفخري (١٣١٧) ٢٢٨ .

٢ راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الاسلامي ٥ - ١٠٧ .

٣ الفخري ٢٣٤ .

٤ المستطرف (بولاق) ١ - ١٩١ .

الهادي والرشيدي والوائقي ومطربوهم

قيل ان الهادي أعطى ابراهيم الموصللي في يوم واحد ١٥٠ ألف دينار^١ .
وغنى ابن محرز في حضرة الرشيد بأبيات مطلعها « وأذكر أيام الحمى
ثم انثني » فاستخف الرشيد الطرب وأمر له بمئة ألف درهم ، وفعل مثل
ذلك لدحان الاشقر^٢ . وهبات هذا الخليفة لندمائيه وشعرائه أكثر من ان
تخصى هنا . واقتدى الوائقي بجده فوهب اسحق وقد غنى في حضرته ،
مئة ألف درهم^٣ .

الولائم والافراح والمساكن

ذكروا ان المال الذي أنفق يوم زفاف بوران إلى المأمون على القواد
فقط بلغ نحواً من خمسين ألف ألف درهم^٤ .
وذكر صاحب التكملة ان ابا الفضل الشيرازي عمل دعوة أنفق فيها
ألفي ألف درهم ووهب فيها جوارى وغلماناً وضياعاً الخ...
وفي يوم زفاف ابنة القاسم بن عبيد الله إلى أحمد ابن المكتفي أنفق
ما يزيد على عشرين ألف دينار^٥ .
أما المساكن فنكتفي منها بذكر دار الوزير ابن الفرات التي أنفق عليها
مئتي ألف دينار ، ومثلها على ما قيل دار ابن مقلة^٦ .

* * *

وإنما هذه أمثلة قليلة سقناها على ما قد يكون فيها من مبالغة لنوضح ما نحن
بصدده من توفر المال لدى الخاصة ولا سيما قبل انحلال الدولة . وفي أخبار العباسيين

١ الاغانى ٥ - ٦ .

٢ المستطرف ٢ ص ١٨٢ - ١٨٤ .

٣ المستطرف ٢ - ١٨٥ .

٤ الطبري جم ٣ - ١٠٨٣ وتزيين الاسواق للانطاكي ٣ - ١١٧ .

٥ صلة الطبري آخر أخبار سنة ٣٠٦ .

٦ صلة الطبري أخبار سنة ٣١٨ .

ورجالهم مما تجده في تضاعيف كتب الادب والتاريخ ما يملأ صفحات عديدة . ولم يكونوا ليستطيعوا القيام بهذه النفقات الطائلة وهذه الالبهة العظيمة (مهما كان مبالغاً فيها) لولا تدفق الاموال عليهم من الاقاليم المختلفة ، وقد بقي لهم حتى في أيام ضعفهم وخروج السلطة من أيديهم حظ وافر من المال . فان البويهيين لما استولوا على الامر ببغداد عيّنوا راتباً للخليفة خمسة آلاف درهم كل يوم^١ . وفي سنة ٣٣٤ هـ عيّن للمطيع الفسا درهم^٢ ، وهو مبلغ كبير إذا قيس برواتب الحكام . ولم يكن ما يقبضه الخليفة المستضعف يومئذ إلا شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان يتقاضاه صاحب الامر وعمّاله . وهذه الأموال الطائلة كان ينفق أكثرها في بغداد ، وكان نصيب الادب منها وافراً . ولما تجزأت الدولة إلى امارات مستقلة لم يتغير الحال كثيراً على الادباء والعلماء وارباب الفنون ، إذ أصبحت حواضر هذه الامارات تنافس بغداد في الغنى والبذخ والانفاق على العلم والادب ، وان لم تبلغ ما بلغته العاصمة الكبرى في إبان مجدها .

العمران التجاري والزراعي

لم تكن بغداد مركزاً للخلافة والسلطنة فحسب بل كانت مركزاً كبيراً للتجارة أيضاً ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافي على نهر كبير صالح للملاحة وانها في نقطة وسطى بين الشرق والغرب . والمعروف ان المسلمين كانوا في العصر العباسي سلاطين البحار تمخر سفنهم إلى سومطره وزنجبار وكلكتا وجزائر الهند والصين^٣ ومدغسكر ، وتجوب البحر المتوسط إلى الأندلس وسواها . وقد تركوا أثر تفوقهم التجاري في المصطلحات التي

١ ابن الاثير ، أخبار سنة ٣٣٤ .

٢ تجارب الامم ، أخبار ٣٣٤ .

٣ ترجم مؤخرأ في روسيا كتاب صيني يرجع إلى القرن الحادي عشر معظمه عن تجارة الصين مع العرب - راجع كتاب ذويمر A Moslem Seeker After God p. 30 وفيه انه وجد مسكوكات كوفية في اسكندنافيا ترجع إلى القرن الحادي عشر .

اقتبستها لغات الغرب عنهم مثل :

حبل السفينة	Cable	حرّاقة	Garracca
امير البحر	Admiral	تعريفة	Tarif
دار الصناعة	Arsenal	موصلين	Musline
		دمقس	Damask

وما أشبه من الالفاظ التي دخلت أوروبا عن طريق التجارة^١ .

ويوازي أساطيلهم التجارية في الأهمية قوافلهم البرية التي كانت تحمل المتاجر من كل الجهات ، وقد ذكر المقدسي في أحسن التقاسيم أنواع التجارات من الاقاليم المختلفة وأهمها :

الياقوت والاماس والعقاقير والارز	من الهند
اللؤلؤ	من البحرين
المنسوجات	من ايران
الحصر والقباطي والقراطيس	من مصر
الزجاج والخزف	من البصرة
المسك والكافور	من الصين
الرقيق الابيض	من تركستان والاندلس وبلاد الصقالبة وسواها
الرقيق الاسود	من السودان

وغير ذلك من المتاجر الواسعة التي لا يتسع المقام لذكرها . ولا شك انه كان لبعضهم يدٌ كبرى في التجارة . فانت جوهرياً من الكرخ ساومه يحيى البرمكي على سفت من الجواهر بمبلغ سبعة ملايين درهم^٢ . وقد عُرِف من كبار التجار آل الجصاص (مر ذكرهم في باب المصادرة) -

١ راجع كتاب فون كريم Tr. The Orient Under The Caliphs
Bukhsh 362

٢ راجع المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٠ ص ٥٣١ .

والشريف عمر - ذكر ابن الاثير ان دخله السنوي كان الف وخمسمئة الف درهم . وكانت ثروات بعض تجار المراكب في البصرة تقدر بالملايين . وقد دفعت التجارة بعضهم إلى أقصى البلاد : ذكر المقري ان علي بن بندار البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٣٧ هـ . وأمثال هذا التاجر كثيرون ممن كانوا يرحلون من الشرق إلى الغرب وبالعكس . وكان لبغداد نصيب وافر من ذلك ، تعكسه لنا بعض قصص الف ليلة وليلة ، فهي وإن تكن أساطير لا صحة لها فإنها تمثل روح العصر الذي بلغت فيه بغداد والبصرة أوج حضارتهما التجارية .

أما الزراعة فقد كانت أيام العباسيين على درجة عظيمة من الارتقاء . فأنهم على ما يُستدل من أخبارهم جعلوا همهم احتفار الأنهر وأنشاء الجسور والترع ، حتى جعلوا ما بين دجلة والكوفة سواداً مشتبكاً غير مميز تخترقه أنهار الفرات^١ . وقد ذكر المؤرخ مسكويه في عرض كلامه عن عضد الدولة تلافيه بغداد بالعمارة بعد ان خربت لكثرة الفتن والمصادرات والاضطرابات . قال : « وكان ببغداد أنهار كثيرة (ذكر منها نحو عشرة بعضها من دجلة وبعضها من الدجيل) فاندفنت مجاريها وعفت رسومها » . ثم ذكر مصالح السواد وتعمير القناطر على أنهاره وحماية مزارعه وما بلغ بهمة عضد الدولة من العمران بعد الخراب^٢ . وفي كل ذلك إشارة إلى عهد زراعي راق عرفته بغداد والعراق عمومًا أيام زهو الخلافة .

ومثل ذلك في كتاب القاضي ابي يوسف إلى هارون الرشيد كما نقله فون كريمير في كتابه ، « الشرق تحت حكم الخلفاء^٣ » . فان ابا يوسف يذكر من واجبات الحاكم تعمير الاقنية للري وتنظيف الأنهر التي تحمل المياه من الفرات والدجلة إلى السواد ، وما إلى ذلك من الجسور والسدود والقناطر

١ نفع الطيب (بولاق) ٢ - ٧٢٢ .

٢ الاصطخري (طبعة بريل) ٨٥ .

٣ تجارب الامم ، أخبار سنة ٣٦٩ .

٤ المسخة الانكليزية ٢٣٨ (ترجمة Bukhsh)

والملاحظة . ويؤيد ما ذكرناه من هذا العمران الزراعي ان ارتفاع الخراج من السواد أيام المعتصم (كما في قائمة قدامة بن جعفر) بلغ من القمح والشعير نحو ثلث ارتفاع الاقاليم كلها ، أي حوالي ١١٥ مليون درهم ، وبقي على هذه النسبة إلى أواسط القرن الثالث الهجري (راجع قائمة ابن خرداذبة) . وليس ذلك دليلاً على ثقل الجبايات فقط ، ولكن على عمارة الأرض أيضاً وتمكّن الناس من القيام بما يتطلب منهم للدولة . ولم ينحصر هذا العمران الزراعي في السواد العراقي ، بل نراه أيام عزّ العباسيين في أقاليم أخرى كخراسان ومصر وسواهما .

فبالجارة والزراعة ، وبما كان يجبي إلى بغداد أيام عزّها ، توفرت فيها أسباب العمران حتى فاقت سواها وأصبحت عروس الحواضر في القرون الوسطى ، أو كما قالت دائرة المعارف الاسلامية (في كلامها عن بغداد) « انها بلغت في أيام زهوها المقام الاول بين المدن في العالم المتمدن يومئذ . » وقد زارها أيام المستنجد السائح اليهودي بنيامين الطليطلي وقال عنها (ولم تكن يومئذ في ابّان مجدها) : « انها أفخر مدن العالم لا يقابلها إلا القسطنطينية ^١ » . وزارها الرحالة ابن جبّير الاندلسي سنة ٥٧٠ هـ أي في أواخر العصر العباسي وقال عنها : « واما حماماتها فلا تحصى عدّة : ذكر لنا أحد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالف حمام وكذلك مساجدها لا يأخذها التقدير ، والمدارس فيها نحو الثلاثين ، وما فيها من مدرسة الاّ ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها واشهرها النظامية . » إلى أن يقول : « فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأين هي مما كانت عليه - هي اليوم داخلة تحت قول حبيب (ابي تمام) :

لا انتِ انتِ ولا الديار ديار خفّ الهوى وتولّت الاوطار ^٢ »

ويحق لابن جبّير ان يقول ذلك متأسفاً نادباً عمران بغداد . فقد ذكر

١ ١٢٤ (London 1927) Coke; Bagdad the City of Peace

٢ رحلة ابن جبّير (مصر) ٢٠٧ و ٢٠٨ .

الخطيب البغدادي بغداد في أيام المأمون وقال : « كان فيها خمسة وستون ألف حمام^١ . ويظهر لنا في ذلك بعض المبالغة ، ولكنه فيها كانت ، فهو يدل على عظمة المدينة واتساع عمرانها حتى لقد قُدّرت مساحتها بنحو ستة عشر ألف فدان ، وعدد سكانها بنحو مليون ونصف أو أكثر^٢ . ولم ترتق هذا الارتقاء العظيم في مدة لا تتجاوز الستين سنة إلا لأنها كانت مركز دولة تسيطر على أقاليم وشعوب تضارع ما كانت عليه الدولة الرومانية في عنفوان قوتها . ويؤيد ذلك ما نجده من وصف أقاليمها في كتب الاضطخري وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن خردادبة وقدامة وسواهم من أرباب الرحلات وكتّاب الخراج .

بعض صور اجتماعية ينعكسها الأدب العباسي

١ - كثرة الجوّاري والغلمان : من نتائج المال والترّف في العصر العباسي اقتناء الجوّاري والغلمان . وكان في بغداد - كما كان في البصرة وسواها من الحواضر الكبرى - سوق لبيع الرقيق من عبيد واماء : حكى عن أبي دلامة الشاعر انه مرّ بنخّاس يبيع الرقيق فرأى عنده من كل شيء ، فانصرف مهموماً ودخل على المهدي فأنشده قصيدة منها :

ان كنت تبغي العيش حلواً صافياً فالشعر أعزّ به وكن نخّاساً^٣

وذكر الاصفهاني انه كان للرّشيد زهاء ألفي جارية^٤ ، وعن المسعودي كان للمتوكل أربعة آلاف جارية^٥ . ولم يقصّر الفاطميون في مصر عن العباسيين في بغداد . فقد كان في قصر أخت الحاكم بأمر الله ثمانية

١ نقل ذلك زيدان عن ابن خلدون وعن سير الملوّك ، (راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ - ١٩٠) .

٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ١٩٢ .

٣ الأغاني ٩ - ١٢٨ (في أخبار أبي دلامة) .

٤ الأغاني ٩ - ٨٨ (في أخبار عليّة) .

٥ مروج الذهب ٧ - ٢٧٦ .

آلاف جارية^١ . ومثل هؤلاء ملوك الاندلس وسواهم . على ان ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والامراء ، بل تعداهم إلى منازل الخاصة وارباب اليسار من تجار وملاكين وعلماء ، ومن يليهم من طبقات الشعب . وكانت أثمان الجواري تختلف من عشرات الدنانير إلى الألوف . وقد يبلغ الشغف ببعض الامراء ان يدفع مئات الألوف من الدراهم في سبيل احدا من . وكانوا يتهادون الجواري ، فقد أهدى طاهر إلى المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف^٢ ، بل كانت الامراة أحيانا تهدي زوجها بعض الجواري كما فعلت زبيدة مع الرشيد^٣ . وقد بلغ اهتمامهم بتثقيف الجواري والعلماء وتعليمهم مبلغا عظيما إذ كان ذلك يزيد اثمانهم ويعود بالربح على المتجرين بهم .

ومع اننا نجد في العصر العباسي بعضا من النساء الراقيات علما وثقافة ، واننا نجد في كتب التاريخ شواهد على انه كان يتاح للفتاة ان تتعلم كالفتى ، لا نجد الأدب العباسي يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع : نخذ الشعر مثلا تجده من هذا القبيل نوعين : الهزلي والجدّي . فالهزلي كشعر ابي نواس وأضرابه أكثره مقرون بحياة الجواري اللواتي كن يشتري ويتهادى بهن^٤ ، وهو يصور لنا عبث الشباب الماجن . أما الجدّي كشعر المعري فتشائم ينظر إلى المرأة في المنزل نظرة سوداء ، ولعله متأثر مما بلغته من التأخر الاخلاقي بعد ان زاحمتها التجارية فاعتقلت وحبيل بينها وبين الرقي العلمي والادبي . ويظهر ذلك في الادب المنشور كما يظهر في الشعر ، ولا يستثنى من هذا الحكم إلا قلائل لا يبنى عليهن حكم عام .

ومما يذكر هنا ما بلغه بعضهم من التهلك والانحطاط الاخلاقي

١ خطط المهريزي (مصر ١٣٢٤) ج ٢ - ٢٣٣ .

٢ المسعودي ٧ - ٢٨١ .

٣ الأغاني ١٦ - ١٣٧ (في اخبار دنانير) .

الاجتماعي ، حتى صاروا يستخدمون الغلمان كالجواري ، ومن ذلك نشأ غزل المذكر كما نراه في شعر بعض من متهتكي ذلك العصر .

٢ - مجالس الشرب والغناء : توفرت في الحواضر ولا سيما بين الخاصة في بغداد مجالس الشرب ، ولم تكن تخلو منها قصور الحكام . وكانت بعضهم يتذرع إلى ذلك - على مناقضته لأوامر الدين - بأن الشرع حلت نبيذ التمر . وعليه بنى ابن خلدون دفاعه عن الرشيد إذ قال : « وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها » . إلى أن يقول : « وحال ابن اكثم والمأمون في ذلك حال الرشيد ، شربهم إنما كان النبيذ ، ولم يكن محظوراً عندهم ^١ » . على أن شرب الخمر على أنواعها كان شائعاً كما يتبين من درس الشعر العباسي ، وكذلك مجالسة الندماء والمغنين والقيينات . ولم يكن ذلك بدعة في الدولة العباسية ، فقد سبقهم إلى ذلك الأمويون ، وأخبار يزيد والوليد وسليمان وغيرهم كافية للدلالة على ما ذكرناه . فبعد أن كانت المسلمون أيام الراشدين يتحرجون من الخمر ريعاقبون شاربها ، أصبحوا بعد ذلك يرون في بعض خلفائهم وزعمائهم ما يسهل لديهم معاقبتها - نعم ظلت الشريعة نافذة في حد السكارى ، ولكن ذلك لم يمنع الناس من تعاطي المسكر وارتياح الحانات . ومهما كان من المبالغة في ما ينقلونه عن الهادي والرشيد والأمين والواثق والمتوكل ، ومن جرى مجراهم من الملوك أو نادمهم من الشعراء والمغنين ، فاجماع أكثر المؤرخين على شربهم الخمر وبلوغ بعضهم من ذلك درجة التهلك ، حتى روى الأبيشيحي أن الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه ، ويرقد معه ندماء ^٢ . وكان الشراب عادة مقروناً بالغناء ، ففي كل مجلس طرب عند الخاصة يحضر اولو الفن

١ المقدمة ١٨ .

٢ المستطرف للابشيحي (بلاق) ٢ - ١٨٧ .

فيغنون أو يرقصون ، ويشرب الحاضرون ، ويقضون وقتهم على ذلك .
ومن أمثلة ذلك ما نقله ابن الاثير عن الأمين انه أمر يوماً قيّمة جواريه
ان تهييء له مائة جارية فتصعد اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين
بصوت واحد^١ . وكتب الادب ملأى بأخبار المغنين والمغنيات ، وما كان
يبذل لهم من الاموال الطائلة ، وسنلمّ بشيء من ذلك في كلامنا عن
الشعراء .

٣ - نشوء حركة زهدية مضادة لترف العصر : وسنتكلم عنها في
غير هذا المقام .

٤ - التأنق في الفنون الحضرية : ويدخل تحتها تشييد المنازل ونسج
الثياب والمفروشات وطهو الطعام وبناء المراكب وصنع الآلات الموسيقية ،
وما إلى ذلك من أسباب الحضارة . وقد بلغت البلدان الإسلامية من ذلك
في العصر العباسي مبلغاً عظيماً : يدلّك على ذلك وصف القصور والمساجد
التي كان يبنّيها الملوك والامراء في الحواضر الكبرى ، مما يعكسه لنا الشعر
العربي في ذلك العصر كما سترى عند كلامنا عن الشعراء . وكذلك وصف
الولائم والرياش وسائر أسباب الحضارة الصناعية .

ذكر ابن خلدون انه كان للملوك دور في قصورهم لنسج أثوابهم تسمى
دور الطراز ، وكان القائم عليها ينظر في أمور الصنّاع فيها وتجهيل
آلاتهم واجراء أرزاقهم^٢ . ولما احتكّ الصليبيون بالشرقيين وجدوا في
رقي الشرق الصناعي والاجتماعي والزراعي ما حداهم إلى اقتباس كثير من فنونه
وعوائده ، وقد رجعوا إلى أوروبا يحملون معهم من الشرق ما كان له
تأثير في نهضة أوروبا الاجتماعية في القرون الوسطى : كتربية دود الحرير
وصناعة النسيج والسجاد والسكر والزجاج والخزف والبارود ، وما إلى ذلك

١ ابن الاثير ، ٦ - ٢٠٦ (في سيرة الامين) .

٢ المقدمة ٢٦٧ .

ما تجده مفصلاً في المباحث الخاصة عن الحروب الصليبية^١.

هـ - انتشار المدارس والعلوم : ذكرنا قبلاً ان الأمية كانت سائدة في العرب قبل الاسلام ، وانهم أخذوا بعد ذلك يخطون في سبيل الثقافة ، وما عتموا ان أنشأوا حلقات العلوم الدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب البسيطة في القرى . ولما استقر الامر للعباسيين زادت حركة التعليم والتثقيف وتنظمت دور العلم في الامصار المختلفة ، ولا سيما في بغداد ومصر : قال المقرئزي : « والمدارس مما حدث في الاسلام ولم تكن تُعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الاربعمئة من سني الهجرة^٢ » ثم يذكر بعض المدارس المهمة ، ويتناول مدارس مصر خاصة فيصفها مدرسة مدرسة . ولا شك ان المقرئزي يعني بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصة توقف لها الاوقاف والاموال ، وتجري على نظم معينة كالنظامية في بغداد ، ودار العلم والازهر في مصر ، والا فان التعليم سابق للدولة العباسية ، ولكنه لم ينتظم إلا بعد القرن الرابع الهجري . وأهم مراكز التعليم في العصر العباسي : بغداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقدس ، يليها حلب وطرابلس ومدائن كثيرة من امصار مختلفة^٣.

* * *

من أسباب الرقي العلمي في هذا العصر تلك الحركة الكبيرة - أعني سر... النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرفت أهل العربية بالعلوم الكونية القديمة وأخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها .

ولما كنا قد خصصنا الفصل التالي للبحث في هذه الحركة

١ راجع دائرة المعارف البريطانية تحت Crusades

٢ المقرئزي (مصر ١٣٢٦) ج ٤ - ١٩٢ .

٣ راجع هنا القائمة التي فظها خليل طوطح في كتابه :

The Contribution of the Arabs to Education p. 23.

الفكرية فاننا نجتزئ هنا بالاشارة اليها وبذكر ظواهرها العامة وهي :

١ - تنافس الامراء في العالم الاسلامي على بناء المدارس والكلليات والسخاء عليها .

٢ - نمو حركة النسخ والتدوين وازدياد عدد الكتب وانتشارها^١ .

٣ - انشاء المكتبات العامة والخاصة .

٤ - حظوة العلماء والادباء لدى الملوك والامراء .

٥ - الرحلات العلمية من الافدلس إلى الشرق وبالعكس .

٦ - المذاهب الفكرية المختلفة ونشاط أربابها في الدفاع عنها .

٧ - اختار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية .

كل ذلك أحدث في العصر العباسي تجديداً ظاهر الأثر في الشعر الذي يمثل تأثر الأمة بما يحيط بها من أسباب العمران .

١ راجع مقدمة ابن خلدون في صناعة الوراقه .

مجاري الحركة الفكرية

ليس للحركة الفكرية في أمة من الأمم منبثق خاص تتدفق منه تدفق ينبوع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تمدّها المياه القليلة المتحدّرة من هنا ومن هناك فلا تلبث أن تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الاصول متشعبة الروافد ، وهيئات ان نحاول الآن البحث عن كل أصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي . فما تاريخها الذي نبسطه هنا إلا وصف اجمالي للمجاري الكبرى التي تمثل لنا طور البلوغ في حياة الناطقين بالعربية .

على اننا لا نرى مندوحة عن القاء نظرة إلى الماضي العريق في القدم لنطلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية ، فنربط الماضي بالحاضر ربطاً يسهل لنا فهم مبادئها والنظر في رجالها ، ما أخذوا وما أعطوا . وذلك ما سجدنا إلى ان نجعل كلامنا في مبحثين رئيسيين :

- ١ - المصادر الرئيسية التي استمدت منها العربية مجاريها الفكرية .
- ٢ - وصف بعض المجاري الكبرى مما له أثر يذكر في الادب العربي .

في المصادر الرئيسية

وهو يتناول ما استمدّه العرب من فلسفة اليونان من الحركات الفكرية في الهند وإيران ، وهو بحث واسع نلخصه لطلاب الادب فيما يلي استناداً إلى مراجع تذكر في حينها .

المصدر اليوناني

كان الجو الذي ظهرت فيه النهضة العربية (الاسلامية) مشبعاً بالنظريات اليونانية . فمنذ أغار الاسكندر على آسيا زاحفاً إلى الهند ، أخذت العلوم اليونانية تنتشر في الشرق^١ ، وتخمّر عقول المفكرين بمبادئ الفلاسفة الذين أنجبتهم بلاد اليونان . ولما نهض الرومان ومدّوا رواقهم على شاطئ البحر المتوسط — على البلدان التي ورثها خلفاء الاسكندر — قضوا على سيادة العنصر اليوناني السياسية ، لكنهم لم يقضوا على مدنيّة اليونان ، لأن الرومان أنفسهم كانوا يعدّون اليونان أساتذة لهم في العلم والحضارة . فكان في العالم الروماني مركزان كبيران للحركات الفكرية : أثينا في الغرب ومجرى الفلسفة فيها أدبي اجتماعي ، والاسكندرية في الشرق ومجرى الفلسفة فيها ديني روحي^٢ . وكان طلاب العلم يقصدون هذين المركزين للتبحّر في العلوم والفلسفة ، حتى الرومان أنفسهم كانوا يؤمنون بها لهذه الغاية^٣ .

وفي أوائل القرن السادس للميلاد اشتد اضطهاد الحكومة الرومانية على مفكري أثينا الذين كانوا يتشيعون للتعاليم اليونانية القديمة (الوثنية) ، فاضطر هؤلاء إلى هجرة الاوطان والضرب في رحاب الارض ، ولسان حالهم ينشد :

١ — 363 Huart, Histoire des Arabes (Paris 1913) 2

٢ Alexander - Short Hist. of Philosophy 117

٣ — 77 Mosheim, Ecclesiastical Hist. (1832) 1

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي متعزلاً
فساقتهم الاقدار إلى بلاط كسرى انوشروان ، ذلك العاهل الفارسي المحب
للعلم والفلسفة ، فانزلهم على الرحب والسعة ، ولم يعتمدوا أن أحدثوا
في بلاده حركة فكرية جديدة ظهر آذيتها في مدرستي نصيبين
وجنديسابور^١ . ولكنها لم تلبث أن ضعفت لرجوع هؤلاء المفكرين
إلى بلادهم .

وكأنما قدر لغير فارس أن تكون الصلة بين الشرق والغرب ، وهذا
الفخر الذي فات العنصر الفارسي انقلب إلى العنصر السرياني (السوري)
الذي عرّف الشرقيين بفلسفة اليونان وعلومهم . ففي أوائل القرن السابع
للميلاد كانت بلاد العرب تتمخض بمولود جديد — بمدنية دينية مركزها
الحجاز ، حتى إذا ترعرعت وامتد سلطانها واستولت على سوريا ومصر
وسواها من بلدان البحر المتوسط ، استقرت قلوب غير الفتح المادي
من أسباب التقدم والحضارة . فانصرفت إلى تحصيل العلم والفلسفة
واتخذت ادلتها في ذلك وأساقذتها مفكري اليونان الذين كانت تعاليمهم
كما ذكرنا قد ملأت العالم المتمدن شرقاً وغرباً ، ولا سيما تعاليم فيثاغورس
وافلاطون وارسطو . ذكر ابن القفطي ان خمسة هم اساطين الحكمة ،
وهم ابيدقليس وفيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس^٢ . ولا شك
ان الاخيرين أشدهم علاقة بحياة العرب .

قلنا انه كان في العالم القديم قبل الاسلام مركزان رئيسيان للعلم والفلسفة
هما أثينا والاسكندرية ، على انها لن يكونا الوحيدين . ففي القرن الخامس
للميلاد كان للعلم والفلسفة بضعة مراكز أهمها ، عدا أثينا والاسكندرية ،
القسطنطينية وانطاكية وروما والرها (اورفا) وهي في القسم الشمالي الغربي

١ Les penseurs . — 42 (N. Y. 1922) Arabic Thought
de l'Islam 111 — 7

٢ القفطي ، أخبار الحكماء ٦٠ .

من الجزيرة ، ونصيبين في شمالي الجزيرة ، وجنديسابور في بلاد فارس ، وحرّان . وكان للفلسفة اليونانية الحظ الاوفر في هذه المراكز العلمية ، إذ على فلاسفة اليونان كان المعوّل في الطبيعيات والإلهيات والرياضيات . قال موسيم في كلامه عن العلم والفلسفة في القرن الخامس بعد الميلاد^١ : « كان طلاب الشرائع يؤمّون بيروت ، وطلاب الطبيعيات والكيمياء يؤمون الاسكندرية . وقد اشتهر معلمو القسطنطينية والرّها والاسكندرية في فن التعليم . على ان أساتذة البيان والشعر والفلسفة وسواها من الفنون لم ينحصروا في هذين المركزين بل انتشروا في كل الجهات وأنشأوا لأنفسهم نوادي ومدارس » .

فالشرق الادنى قبل الدعوة الاسلامية كان تحت تأثير الروح اليونانية الفلسفية . نعم ان تلك الروح كانت تتباين مظاهرها بالنسبة إلى أماكن ظهورها ، ففي مدارس القسطنطينية اليونانية ، وفي مدرسة حرّان الصابئية ، ومدرسة جنديسابور الفارسية ، والرّها السريانية ، وفي مدرسة الاسكندرية الوثنية كان الفكر اليوناني سائداً ولكن سيادته كانت على درجات متفاوتة .

في هذا الجو اليوناني نشأت حياة العرب الفكرية مستمدة من الشرق روحها وعواطفها الدينية التي يعكسهم لنا الشيخ السجستاني بقوله : « ان الشريعة مأخوذة من الله عزّ وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات . وفي أثناءها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بدّ من التسليم المدعوّ اليه ، وهناك يسقط لِمَ ويبطل كيف الخ...^٢ » ومستمدة من الغرب نظرياتها الفلسفية ومبادئها العلمية المبنية على المنطق والنواميس الطبيعية . وقد دخلت هذه النظريات إلى الآداب العربية عن طريق النقل أو الترجمة وكان لها

١ - 380 - Mosheim - Ecc. Hist, 1

٢ الفهرست (ل) ٢٤٣ .

في حياة العرب الفكرية تأثير بعيد المدى . ومن المعلوم أن نقل العلوم أو الفلسفة بدأ منذ العصر الأموي^١ ، على أن العصر الأموي لم يتسع لتقدم هذه الحركة ، فلما انتقلت الخلافة إلى بغداد أخذت حركة النقل تنمو نمواً سريعاً ، وزادها نشاطاً تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم^١ . وبرعاية الخلفاء ولا سيما المأمون أخذ جماعة من (السريان) يترجمونها إلى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من أركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة أوجها في القرن الرابع الهجري . ومن أراد الاطلاع على أسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فإنه جمع فأوعى . وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك وأصناف العازم الفلسفية .

ولم تقف النهضة عند هذا الحد بل أخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هذه المنقولات ويشرحونها ويصنفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع إلى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام .

ومع أن أكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان وأكثر المصنفين يمتنون بانسابهم إلى غير العرب ، فإن اللسان العربي كان الأداة التي استعملت في النقل والتصنيف ، فأصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرب إليه كثير من الالفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العباسي .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الذين تأثروا من أبناء العربية بالفكر اليوناني كانوا فرقتين : فرقة اعتمدت فلاسفة اليونان ، ولا سيما أرسطو ، فشرحت أقوالهم وانصرفت إلى درس نظرياتهم استكشافاً لأسرار الحكمة وسعياً وراء

١ الفهرست (ل) ٢٤٣ وأخبار الحكماء ١١٩ .

البحث العلمي ، وهؤلاء هم المعروفون بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وأضرابهم . وفرقة اعتمدت نظرياتهم وأساليبهم في النضال الروحي أو الكلامي وهم المتكلمون الذين سيمر بنا شيء من أقوالهم وآرائهم .

فلنتقدم من هنا إلى ذكر شيء عن المصادر الشرقية التي استمد منها العرب كثيراً من حركاتهم الفكرية .

المصدر الفارسي

قال الأستاذ جاكسون استاذ اللغات الايرانية الهندية في جامعة كولومبيا سابقاً : « ان فتح المسلمين لفارس أشبه بفتح النورمان لانكلترا . وما معركتا القادسية ونهاوند إلا مثال لمعركة هاستنغس »^١ . وكأنه بذلك يعني ان العرب وان كانوا اخضعوا فارس وحكموا العنصر الفارسي ، لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الفارسية الفكرية فبقيت متقدة في صدور الشعب تظهر كلما سنحت لها فرصة . ولا شك ان الآداب العربية ربحت شيئاً كثيراً من الفرس ، يدلّك على ذلك العدد الكبير من رجالها الذين هم من أصل فارسي . قال ابن خلدون في مقدمته^٢ : « ان حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم المعجم ... وكان صاحب النحو سيبويه والفارسي ، والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في انسابهم ، وكذا حملة الحديث . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلّق العلم باكناف السماء لناله قوم من أهل فارس . » ولم يزل ذلك في الامصار (أي حمل المعجم للعلم) ما دامت الحضارة في المعجم وبلادهم من العراق وخراسان وما

١ Jackson, Early Persian Poetry (N. Y. 1920) , p. 14

٢ المقدمة ٥٤٣ و ٥٤٤ .

وراء النهر . فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من المعجم ، ا هـ . والذي يحقق النظر في علاقة المعجم بالعرب سياسياً ودينياً وفكرياً لا يستطيع إلا أن يرى ان التيار الفكري من قبل المعجم كان قوياً في حياة العرب ، واطهر ما يكون ذلك فيما يلي :

١ - في ان الاقطار المعجمية هي الحقل الذي نمت فيه بذور الشيعة وبانتشار الشيعة بين المعجم اكتسبت اللغة العربية كثيراً من العواطف والافكار الفارسية . قال الدكتور مور أستاذ التاريخ الديني في جامعة هارفرد سابقاً : « ان ما نراه من الغلو والتعصب عند بعض الطوائف الشيعية ناشئ بلا ريب عن أن كثيراً من أتباع زرادشت انضموا إلى الاسلام تحت لواء الشيعة » . وفي ذلك إشارة إلى ما تسرب إلى اللغة العربية من ديانة المعجم القديمة بانضمام المجوس إلى الاسلام وتعريبهم .

٢ - في ان زعماء الحركة الفكرية العربية أكثرهم من المعجم ، وقد تقدمت الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون من ذلك . ونزيد هنا ان ملوك بني ساسان ، ولا سيما كسرى انوشروان الذي سبق الدعوة الاسلامية بقليل من الزمن ، كانوا قد اهتموا جداً باحياء العلوم والآداب الإيرانية ، وان العرب أنفسهم كانوا ينظرون إلى المعجم نظرهم الى قوم متقدمين عليهم في الحضارة والعلم ، وعندهم لكسرى المذكور مقام فريد . وكانت في البلاد المعجمية قبل الاسلام مراكز مهمة للعلم أهمها جنديسابور حيث التقت تحت رعاية العرش الفارسي الفلسفة الهندية بالفلسفة اليونانية ، وقد مرّ الكلام على هذه المدرسة في كلامنا عن المصدر اليوناني .

٣ - في الكتب التي نقلت عن الفارسية . ذكر ابن النديم ما يزيد على اربعين كتاباً أكثرها يرجع الى أصل فارسي ، والباقي كُتِب تحت رعاية

الفرس^١ . ومن أهم ما تسرّب من الفرس الى حياة العرب الأدبية الرسائل أو الكتب التي تبحث في الفلسفة الأدبية ككتاب مسكويه « أدب العرب والفرس » . قال العلامة الروسي انوسترانوف ان هذا الكتاب يرجع الى أصل فارسي . وكذلك كتاب الادب لابن المقفع وكتب أخرى في هذا الباب . ومن أراد معرفة أسمائها فليراجعها في الترجمة الانكليزية لكتابه : « تأثير ايران في آداب العرب »^٢ .

وقد ذكر الفهرست أسماء الذين نقلوا من الفارسية الى العربية ، فخص منهم هنا ابن المقفع المشهور وآل نوبخت - موسى ويوسف ابني خالد - ابا الحسن علي بن يزيد التميمي - حسن بن سهل الفلبي - البلاذري - جبلة بن سالم كاتب هشام - اسحق بن زيد - عمر بن قريظ - وسواهم^٣ . ولو ان المقام يقتضي الاسهاب في ذكر أعمالهم وشرح ما نقلوه لذكرنا هنا الكتب التي نقلوها كتاباً كتاباً ولكن ذلك ليس غرضنا هنا .

٤ - في العلاقة الجغرافية والتاريخية التي نراها بين الفرس والجاهلية . من ذلك ان مملكة الحيرة العربية كانت مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة ، وان ذلك اقتضى أن يكون بين الجنسين احتكاك أدبي اجتماعي . وما يشير الى هذا الاحتكاك ما ذكره القفطي^٤ عن الحارث بن كلدة طبيب العرب ان أصله من ثقيف من أهل الطائف وقد رحل الى فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور وغيرها . ومن يدري انه لم يكن غير الحارث من عرب الجاهلية الذين رحلوا الى فارس في طلب العلم ؟ وهذه الصلة الادبية لم تنقطع بظهور الإسلام فان

١ الفهرست (ل) ٣١٣ - ٣١٦ .

٢ Iranian Influence on Moslem Lit. (Tr. Nariman ١٩١٨) p. 53

٣ الفهرست ٢٤٤ .

٤ أخبار الحكماء ١١٣ .

انتشار العرب بالفتح في الاقطار الفارسية جعل احتكاكهم بالفرس أشد مما كان قبلاً . ومع ان القسم الكبير من كتب الفرس ذهب بعد المحلل دولتهم فقد حافظ المجوس على عدد مهم منها بقي في الدولة العباسية الى أيام عبد الله بن طاهر الذي أطلق يد التلف فيها^١ . والذي يدق في تاريخ فارس يرى ان الآداب والعلوم والتقاليد الوطنية الفارسية بقيت سالمة بعد الفتح الاسلامي في الولايات الشرقية والجنوبية كخراسان وفارس ، ويدلنا على ذلك ان خراسان كانت بؤرة الحركات السياسية التي أدت الى اسقاط الامويين .

أما ولاية فارس (وهي في جنوبي ايران) فقد كانت حصن المجوس . هناك حُفظت كتبهم ومعتقداتهم الدينية والفلسفية وكان بعض مؤرخي العرب يرجعون اليهم^٢ . وقد وصف جغرافيو العرب كالاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت واليعقوبي تلك البلاد وصفاً يدل على ان المجوس (اتباع زرادشت) كانوا ينعمون بالحرية الدينية في ولاية فارس ، وانهم كانوا لا يزالون محافظين على الشيء الكثير من الكتب الفارسية القديمة .

وهنا لا يسعنا الا أن نذكر « الشعوبية » وهي جماعة من أصل عجمي كانت طبعاً تتعصب للعجم وتفضلهم على العرب . ولا شك انها كانت من حملة الروح الفارسية الى اللغة العربية ، وكذلك كانت الزنادقة الذين كانت يُنتهم بمذهبهم بعض من أكابر الادباء والشعراء كبشار وابن المقفع وسواهما . وكانت الزنادقة تطلق بالاكثَر على المجوس أو الثنوية^٣ ، أي على اتباع زرادشت أو اتباع ماني الحكيم وكلاهما فارسيان .

١ - 347 I Browne, Lit. Hist. of Persia (1928)

٢ 21, 25, 26 Iranian Influence

٣ عن لسان العرب والقاموس .

المصدر الهندي

يصعب تعيين السبيل الذي جرى فيه الفكر الهندي إلى نفوس الناطقين بالعربية ولكن مما لا ريب فيه انه كان للفلسفة والعلوم الهندية تأثير شديد في تكوين الفلسفة العربية . وقد تقدم معنا ان مدرسة جنديسابور كانت قبل الاسلام ، وخصوصاً في أيام كسرى انوشروان ، مركزاً علمياً التقت فيه علوم الهند بعلوم اليونان ، ومنه حمل الشيء الكثير إلى العرب . ونلمح شيئاً من العلاقة الفكرية بين الهند وأمم الشرق الأدنى قديماً في ما القاه سكرتير المتحف التجاري في فيلادلفيا على الجمعية الفلسفية الاميركية حيث يقول ان الهنود كانوا يرسلون سفراء إلى سلوقية وانطاكية واسكندرية وغيرها ، وكان هؤلاء السفراء أيضاً دعاة دينيين^١ . على ان احتكاك العرب بالعقلية الهندية لم يبلغ كاله إلا بعد الاسلام ، فان امتداد العرب بالفتح قرّب العناصر الهندية من العناصر السامية العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين .

من أيام بني أمية إلى أيام محمود بن سبكتكين (أواخر القرن الرابع للهجرة) كان الفتح الاسلامي باباً لتسرّب المبادئ الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب . وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر أثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي ، وقد انتشرت هذه المبادئ الروحية بانتشار البوذية في ولايات ايران الشرقية واحتكاكها هناك بالاسلام بعد الفتح^٢ . وإذا اعتبرنا ما أخذه افلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا أن نقول ان شيئاً من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصل إلى العرب عن طريق اليونان أيضاً .

وفي الفهرست لابن النديم ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا

١ Early Communication Between China and the Medit. (1921)

٢ Moore, Hist. of Religion 447

منها إلى العربية، ومنها كتب الطب والخرافات والأسماء والاحاديث، والتوهم أو السحر، والمواعظ والحكم، ومنها كتاب ملل الهند واديانها^١. وجاء فيه نقلاً عن الكندي: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وإن يكتب له أديانهم فكتب له هذا الكتاب». قال محمد بن اسحق: «الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكائها^٢». ويذكر الجاحظ عن لسان أبي الأشعث أن يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندبار وفلان وفلان^٣.

والخلاصة أن يجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى، اليونان وهو أهمها ثم الفرس والهند، وأن ما اكتسبه العقل السامي العربي من هذه المصادر غير السامية أيقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية في إبتان التمدن الاسلامي. وسنشير إلى كل من هذه المصادر في سياق كلامنا على المجاري الرئيسية في حياة العرب الفكرية.

المجاري الفكرية العامة

للمحركة الفكرية عند العرب ثلاثة مجاري كبرى: الفلسفة والكلام والتصوف. وغاية الفلسفة التوصل إلى المبادئ الأولى عن طريق العلم، وأصحابها في الغالب اتباع اليونان، وتجد لهم في الشعر العربي نفثات تم على آرائهم كقصيدة ابن سينا في النفس التي يقول فيها^٤:

١ الفهرست (ل) ٣٠٥ و ٣١٥ - ٣١٧.

٢ الفهرست ٣٤٥.

٣ البيان والتبيين (س) ١ - ٩٠.

٤ راجعها في دائرة المعارف للبستاني تحت: ابن سينا.

هبطت اليك من المهل الأرفع
محجوبة عن كل مقلّة عارف
وصلت على كره اليك وربما
أنفت وما ألفت فلما واصلت
وأظنها نسيت عهداً بالحمى
ومنها :

فلأي شيء أهبطت من شاهق
إن كان أهبطها الاله لحكمة
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها
فكأنها برق تالت بالحمى
سام إلى قعر الحضيض الأوضع
طويت عن القطن اللبيب الأروع
قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
ثم انطوى فكأنه لم يلمح

وفي الشعر العربي كثير من الاشارات الفلسفية والاضاع العلمية التي كانت شائعة في العصر العباسي .

كقول ابي القاسم الاصفهاني يصف حماماً في دار صديق له ^١ :
ودخلت جنّته وزرت جحيمة
والبشّر في وجه الغلام نتيجة
لمقدّمات ضياء وجه المالك
وقول ابي علي المهندس ^٢ :

تقسّم قلبي في محبة معشر
كان فؤادي مركز وهم له
بكل فتى منهم هواي منوط
محيط وأهوائي لديه خطوط

ولم ينحصر ذلك في أقوال العلماء والفلاسفة بل تعدّاهم إلى أهل الادب ،
كقول المتنبي مشيراً إلى اختلاف المفكرين في مصير النفس :
تخالف الناس حتى لا إتّفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

١ القفطي ٢٢٤ .

٢ القفطي ٢٦٧ .

فقل تخلص نفس المرء سالمةً وقيل تشترك جسم المرء في العطب

وقوله ذاكرًا فلاسفة الاقدمين :

مَنْ مبلغ الأعراب اني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بطليموس دارسَ كتبه متملكًا متبدّيًا متحضرا

ولقيت كلّ الفاضلين كأنما ردة الإله نفوسهم والاعصرا

وقول المعري في عالم الافلاك :

العالم العالي برأي معاشر كالعالم الهاوي يحسّ ويعلم

زعمت رجال ان سياراته تسبق العقول وانها تتكلم

وقوله - أركان دنيانا غرائز أربع جُمعت لمن هي فوقنا أركانا

وقوله - في مصير الروح :

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به

ان كان يصحبها الحجي فلعلها تدري وتفتن للزمان وعته

أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه

وللمعري كثير من النفثات الفلسفية وسترى ذلك في حينه .

ولو تحررنا جميع ما دخل الشعر العربي من هذا الباب لعرفنا ما كان

للفلسفة والعلوم الطبيعية من التأثير في الأدب . وقد كنا نود ان نثبت هنا

زبدة الآراء الفلسفية التي اقتبسها العرب عن سواهم ولا سيما عن افلاطون

وأرسطو والافلاطونية الجديدة . ولكننا نكتفي هنا بالإشارة اليها ونحيل

المتعمق إلى مصادرها الرئيسية .

أما الكلام فنجار شتى نخص منها بالذكر المعتزلة والأشعرية .

المعتزلة

ظهر الاسلام فاعتنقه العرب وامتد بالفتوح الأولى إلى غير العرب ، ولم

يكن كل الذين اعتنقوه وقاموا بفروضة ونوافله في درجة واحدة من خلوص الايمان والاعتقاد ، بل كان شأنهم في ذلك شأن المسيحيين أيام قسطنطين الكبير . فان انقلاب الدولة الرومانية بغتة من الوثنية إلى المسيحية ليس بدليل على ان كل الذين دانوا يومئذ بالدين الجديد استأصلوا من أعماق نفوسهم مبادئ مذاهبهم الأولى ، بل بقي بعضهم محافظين باطناً على معتقدات غير مسيحية لم تلبث أن ظهرت في تاريخ المسيحية واشتد خطرهما على المبادئ الحقيقية ، حتى كان ما كان من الاصلاح ، وما نجم عنه من التطورات الجديدة .

هكذا الاسلام اعتنقه كثيرون ممن بقي في نفوسهم أثر من غيره ، ولكن ذلك الأثر لم يظهر إلا بعد ان صلح له الجو ، ولا سيما بعد ان خرجت الدولة العربية تدريجياً من بساطتها الأولى إلى حياة الحضارة والعلم . هذه أمور ليس بالهين إقامة الدليل التاريخي عليها لأنها من قبيل العوامل الخفية التي ندركها بالاجتهاد والاستنتاج ، ولكن لا بد من ذكرها قبل التبسط في الحقائق الراهنة . والذي لا جدال فيه انه في الدولة الأموية بدأت تبشير حركة فكرية لم تعهد في أيام الراشدين ، وما ذلك إلا لأن العقل كان قد بدأ يستنير بأنوار جديدة . وصحب هذه الاستنارة تطورات فكرية — منها حركة المعتزلة التي نحن بصدددها . وأول معتزليٍّ حسب النص التاريخي هو واصل بن عطاء وكان من أتباع الحسن البصري ، ثم أخذ مذهبه في الانتشار حتى بلغ إبتانه في أيام المأمون العباسي ، ولكنه عاد إلى التقهقر والضعف حتى قضي عليه ، ولم يعد إلى الظهور كمذهب خاص .

والمعتزلة ، على اضطراب كثير من نظرياتها ، تحاول اخضاع النظريات الدينية لحكم العقل . وهي بلا ريب نتيجة منطقية لاحتكاك الفلسفة بالدين . فقد جاء الاسلام وتعاليمه واضحة ونصوصه محدودة ، وهي مبنية كسائر النصوص الدينية على التسليم لله والايمان بوحية المنزل . ولم يخامر قلوب المؤمنين الأولين شك فيها ولا شغلهم بحث عن أسرارها ، فلم يهمهم ازاء

تقواهم البسيطة الخالصة من شوائب الريب ان يحكموا النقد العقلي في كل ما آمنت به قلوبهم واطمأنت اليه نفوسهم - وتلك مزية الايمان الراهن . وانك إذا استقصيت أخبار الدعوات الدينية وجدته من الصفات الملازمة للدعاة الأولين . فلما لعبت في الجو الاسلامي رياح الفلسفة ، وتسرب إلى العقول شيء من نظريات الحكمة اليونانية^١ ولا سيما المشائية شرع المفكرون يبحثون ويقيسون ويقولون علامَ ولمَ ؟ فقادهم ذلك إلى مسائل أبعدتهم عن بساطة المعتقد المبني على التنزيل^٢ . من هذه المسائل - مسألة خلق القرآن ومسألة صفات الله ، وحرية الارادة ، وقدم العالم وكيفية المعاد وما شاكل . وقد رفض المعتزلة أزلية القرآن وجعلوه مخلوقاً^٣ ، وكان من أهم أنصارهم في ذلك المأمون وأمره مشهور .

وكذلك نفوا الصفات الالهية وهي العلم والحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام . قال ابن خلدون في كلامه عن المعتزلة : « فقصوا بنفي صفات المعاني لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم » ذلك لأنهم نظروا إلى الصفات كموجودات يلزم عنها تحديد وجود الله المطلق وهذا عندهم منافي لاحكام العقلية .

على ان منهم من لم ينكر صفات الله وانها سرمدية بل ذهب مذهب العلائف (المتوفى ٥٢٣هـ) في ان صفات الله ليست بشيء خارج عن جوهر الله بل هي اشكال يتشكل فيها ذلك الجوهر . وكان يقول ان علم الله هو الله ، وان قدرة الله هي الله . فالارادة مثلاً ليست صفة خارجية يتصف بها الخالق بل هي صورة أخرى لعله ، وهكذا جميع الصفات

١ راجع الكلام عن النظام في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ١١٣ . وعن الجاحظ في الملل والنحل للشهرستاني .

٢ نقد العلم والعلماء ٩٠ (مصر ١٣٤٠) والبغدادى ٩٤ .

٣ مقدمة ابن خلدون ٤٦٤ وفلسفة ابن رشد ٥٧ .

٤ راجع مقدمة ابن خلدون تحت : علم الكلام .

٥ نقد العلم والعلماء ٨٨ .

مظاهر مختلفة لجوهر واحد . وقد زاد على ذلك أحد أئمتهم ابراهيم النظام المتوفى ٢٣١ هـ ، فقال ان الله لعلمه السرمدى بالخير لا يريد غيره - ان ارادة الله هي علمه . فالمطلق عندهم (الله) لا يوصف بنفي ولا اثبات ، فلا يقال هو واحد أو أكثر . ولا يوصف بالقدم عندهم غير الله . ومع ان بعضهم أثبتوا لله أحوالاً أربعة هي العالمية والقادرية والحيثية والموجودية ، فقد فرقوا بين الثبوت والوجود بالذات وقالوا انها موجودات غير موجودة ^١ : فكانهم يعنون بذلك ان هذه الصفات حالات تظهر فيها الذات لا صفات زائدة عليها . وهذا قريب من مذهب ابي هاشم الجبائي المتوفى ٣٢١ هـ ، إذ جعل لجوهر الله أحوالاً شتى يظهر فيها . ومع ان هذه الاحوال لا توجد بنفسها ولا تُتصور بدون الجوهر فهي تمتاز عنه وبها يعرف الجوهر ^٢ . ومنهم من يذهب إلى أن الله يعلم جُمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها وانه لا يقدر ان يخلق الذات ، وإنما هو قادر أن يخرجها من العدم إلى الوجود ^٣ .

فالمعتزلة في ذلك تخالف الصفاتية ، أي التي تثبت الصفات لله . والارادة عندهم حرة ، وقد فسّر الجاحظ (وهو معتزلي) الارادة بأنها حال من أحوال المعرفة ، وحرية العمل أو الارادة أن يعرف العمل من فاعله . فالانسان عند المعتزلة مخير لا مسير ، وهو مسؤول عن أعماله ، وانه على اكتسابه يترقب العقاب والثواب ^٤ .

ويضادّهم في ذلك الجبرية . وهم يقولون لا علة ولا معلول في الأشياء التي نراها أو نشعر بها ، لأن كل شيء مسبّب مباشر عن الله . فإذا نعست فالنعاس وُضع فيّ بعمل خاص من الله ، وإذا كتبت فتحرّيك القلم وارادة الكتابة وما يتعلق بها قد اتصلت بي رأساً من الله . فلا

١ شرح تهذيب الكلام ١١١ .

٢ الملل والنحل للشهرستاني هامش ابن حزم (مصر ١٣١٧) ١ - ١٠٢ .

٣ نقد العلم والعلماء ٨٨ .

٤ فلسفة ابن رشد ١٠٥ .

دافع لما يريد الله ، وما الانسان إلا واسطة لتنفيذ ارادة الله^١ . وعلى ذلك الأشاعرة الذين يذهبون إلى ان الله يخلق كل عمل . وزاد عليهم الباقلاني تطرفاً بقوله بل الله يحدد كل شيء (حتى اللون مثلاً) كل لحظة . فما يفعله الله الآن وما يخلقه قد يحيي في اللحظة التالية ما يناقضه - كل شيء ، كل عمل ، كل حركة في الكائنات متوقف مباشرة على ارادة الله .

هذه التعاليم التي تُرجع كل شيء إلى ارادة الله مباشرة تبرز لنا شريعة القضاء والقدر في أعظم مظاهرها . وليست المعتزلة على ذلك ، لأن القول بحرية الارادة وبمسؤولية الانسان يناقضه . وحجتهم انه لو كان العبد غير خالق لأفعاله الاختيارية لكان القول بالثواب والعقاب لغواً .

قديم العالم

وهذه المسألة نراها في كل نظام فلسفي ، فالفلسفة المادية مثلاً تجعل العالم قديماً (أي ازلياً لا بداية له) والروحية تجعله محدثاً . وواضح ان الدين والكلام يذهبان إلى حدوث الكون بقدرة الخالق المبدع المريد . فما قول المعتزلة في هذا الشأن ؟ قال ابن رشد في كلامه عن المعتزلة^٢ : « واما المعتزلة فانه لم يصل إلينا من كتبهم في هذه الجزيرة (الاندلس) شيء نقف منه على طريقهم في هذا المعنى ويشبه ان يكون طريقهم من جنس طرق الاشعرية » . فكأنه يقول ان المعتزلة والاشعرية سيّان في نظرهما إلى قدم العالم . فانهم وسائر المتكلمين سواء في هذا الصدد ، إلا ان نظرهم إلى الله غير نظر أهل السنة . فهم أميل إلى جعله مصدراً للعقل الفعّال الذي تفيض منه عوالم النفس والطبيعة . وهذا يجعل الجنة والخلود والجحيم في نظرهم غير الأحوال المحسوسة التي يصوّرها الدين . ولا ريب

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١١٠ .

٢ راجع فلسفته ٤٥ .

ان للفلسفة اليونانية تأثيراً ظاهراً في مبادئهم ، فالقول في أزلية صفات الله وتفسيرهم تلك الصفات بأنها هي نفس جوهر الله أو انها اعراض لجوهر واحد ، وقول شيخهم النظام ان النفس بحجم الجسد وعلى شكله تتخلل دقائقه كما تتخلل الزبدة دقائق اللبن ، مأخوذ من قول ارسطو في المادة وصورتها . وقول معمر السلمي في صفات الله يقتود إلى القول بالشمول (أي ان الله والعالم واحد) الذي هو أثر من آثار الافلاطونية الجديدة مصبوغ بالصبغة الهندية . واما نظرية بعضهم ان الله لمعرفته الكلية بالخير لا يستطيع ان يريد غيره لعباده فيقرب ان يكون نفس ما علم به الرواقيون^١ . وللنظام رأي في الخلق يكاد يكون نفس الافلاطونية الجديدة . والخلاصة ان الاعتزال مبدأ فكري يحاول ان يستنير بالعقل ويُخضع كل شيء لأحكامه ، لكنه أراد ان يجمع بين العقل والنقل متمسكاً بكليةها فلم يوفق تماماً ، ولذلك كثر اصداده ومنتقدوه .

الأشعرية

وهم ينتسبون إلى أبي حسن الاشعري المتوفى ٩٥٣ م ، وكان من تلامذة المعتزلة في بغداد ولكنه لم يبق كذلك بل انقلب عليهم وصارت فرقته أشد الفرق في مناضلتهم^٢ ، واليك بعض أوجه النضال بين الفرقتين .

في ماهية الله

كان الجمهور من المؤمنين ينظرون إلى ما ذكره الكتاب المنزل عن أعضاء الله الجسدية كاليد والعين والاذن نظراً حرفياً . أما المعتزلة فاتخذت

١ راجع النظامية في الفرق بين الفرق ١١٣ والبشمية ١٦٩ .

٢ ابن خلكان ١ - ٣٢٦ .

ذلك من قبيل التأويل ، فقالوا لا يد حقيقة الله وإنما هي إشارة إلى قوته وبسطته ، وهكذا فسّروا سائر الاعضاء . فقام الأشعري وعلم أن الله لا يمكن رؤيته في الآخرة وإن له سمعاً وبصراً ويدين ووجهاً الخ ، ولكن ماهية تلك الاعضاء خارجة عن معقول الإنسان أو هي وراء العلم^١ .

المصاد

ذهبت المعتزلة إلى أن الدليل العقلي هو الهادي الذي يهديننا إلى معرفة ما وراء الطبيعة^٢ ، وأن حالة النفس من عذاب أو نعم إنما هي حالة عقلية لا جسدية . فقال الأشعري بل العقل لا يستطيع الهداية ، فما علينا إلا التصديق والایمان بالوحي المنزل وأن الأمور التي ذكرها الكتاب كجلوس الله على العرش والحوض والموقف والفردوس والملائكين المنكر والنكير وما شاكل - كل ذلك حقيقة راهنة لا صور خيالية كما يدعي المعتزلة .

صفات الله

وفي هذا الباب يسلك الأشعري مسلكاً وسطاً بين السنة والمعتزلة فهو يقول بصفات الله وقدّميتها على أن تلك الصفات اشكال أو تكيّفات لجوهره ، فلا هي عين ذاته ولا هي غيرها^٣ .

رأيه في القرآن

سلك في ذلك مسلكاً أصبح معول أهل الكلام ، وهو أن القرآن

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١٣١ و ١٣٢ .

٢ راجع مناقشات ابن تيمية في ذيل فلسفة ابن رشد ٨ .

٣ أو كما يقولون هي منه بنسبة الواحد إلى العشرة فهو ليس بالعشرة ولا غيرها .

كلام نفسي قديم غير مخلوق ، وإنما المخلوق هو الصور اللفظية لذلك الكلام النفسي .

الجبر والاختيار

(القضاء والقدر وحرية الإرادة) . ليس عند الاشاعرة من ارادة حرة . فالله (القديم الازلي) عندهم هو المطلق المدبّر لكل حركة - خالق الانسان واعماله وما الانسان إلا آلة في يد الله ، مسيراً عقلاً وجسماً بإرادته الالهية ، وليس له من عمل إلا الكسب - وهو كما في القاموس « تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدور » أي تطبيق ارادة الله على العمل . وهذا طبعاً يقود إلى الاعتقاد بأن الله خالق الخير والشر ، وهو مخالف لمبدأ النظام المعتزلي القائل بأن الله لا يستطيع ان يريد غير الخير ، وان الخير والشر يدركها الانسان بالعقل وعلى ذلك فهو مسؤول عن أعماله .

ومبدأ الاشعرية ينفي نظام السببية المادية ، لأنه يجعل الله علة كل شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ، جسدياً أم عقلياً . فإذا مسست النار مثلاً لم تحرقك النار لأن الحرق من طبيعتها ، بل لأن الله يخلقه عند مسك إياها . وعليه لا يستغرب أو لا يستحيل ان يجعلك تشعر بالبرودة عند مسك النار . لان نوع الحس راجع رأساً إلى إرادته فما المعجائب اذن بخوارق لنظام الكون ، بل هي من أعمال الله غير المألوفة عندها .

قلنا ان المبدأ الاشعري معوّّل أهل الكلام . والنضال الذي احتدم بين الاشعرية والمعتزلة انتهى بانتصار الاولى ، ولم ينقض القرن الرابع للهجرة حتى انقضى معه عصر المعتزلة .

التصوف

تباينت الآراء في أصل هذه الكلمة فذهب بعضهم إلى انها من صفاء النفس ، وهو قول المتصوفة . وقال غيرهم بل هي من أصل يوناني معناه

الحكمة . على ان ابن خلدون يرى كما يرى كثيرون غيره ان اشتقاق اسمهم من الصوف^١ .

كان المؤمنون الأولون من الصحابة والتابعين معروفين بالقناعة عاكفين على الصلاة والعبادة معرضين عن زخرف الدنيا وزينتها ، فلما تقدم المسلمون في الحضارة ومالوا إلى الترف في العصر الأموي وما بعده ، نشأت بين أهل الدين حركة مرماها الرجوع إلى بساطة الايمان الاولى ونبذ الشهوات العالمية . على ان هذه الحركة لم تكن إلا توطئة للتصوف الحقيقي الذي عرف بعدئذ . فالتنا نراه في ابانه نظاماً روحياً خاصاً يمت بشيء من القرابة إلى أنظمة روحية سابقة . فما هي هذه الانظمة ؟ قال المستشرق فون كريم^٢ ان اصل الصوفية عربي يرجع إلى نظام الزهد والتنسك الذي كان شائعاً في المسيحية قبل الاسلام . والدليل على ان عرب الجاهلية احتكوا بزهاد المسيحيين وعرفوهم ، ما ورد في أشعارهم عنهم .

والذي يظهر لنا ان في كلام فون كريم بعض الحقيقة لا كلها . فقد يكون نساك المسيحية المثال الذي تحذاه متصوفو الاسلام ، ولكن النظام اللاهوتي الصوفي لا يقف عند ذلك ، بل يرجع إلى مصادر يونانية وهندية وفارسية . فالافلاطونية الجديدة التي مر ذكرها آنفاً كانت قد خمرت الحركة الفكرية الشرقية بكثير من المبادئ اللاهوتية ، ومنها التجسد ، وعودة النفس الى أصلها (العقل الفعال أو الله) . أما الاثر الهندي في التصوف فتراه واضحاً في فكرة الاتحاد الروحي . فالفلسفة الهندية تعلم ان الروح الاعظم والعالم المادي واحد (وحدة الوجود) وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح واليه يعود — هو الموجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس

١ راجع المقدمة الصوفية لابن الوردی ومقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ودائرة المعارف البريطانية تحت Sufism . ويظهر ان لبس الصوف قديم في الاسلام فقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وارجمه إلى زمن الحسن البصري .

٢ 185 (1922) O'leary, Arabic Thought

كما يرى في عين الانسان . هو النور الوضاء الذي يضيء في السماء وفي الارض وفي نفس الانسان ، وهو الذات العاقلة الخالدة السعيدة .

على ان الرجوع إلى الروح الأعظم يقتضي فهم اسفاره المقدسة (الفيدا) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ، ولا سيما مراسيم التقوى والتوبة . وإنما يطهر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة من غير النظر إلى ثواب . ولا يستحق الاتحاد بالروح الاعظم (برهما) الا الذي يتصف بالصفات التالية :

- ١ - التمييز بين ما يبقى وما يفنى .
- ٢ - عدم الاكتراث لثواب أو مسرة .
- ٣ - الحصول على السكوت التام وضبط النفس .
- ٤ - الرغبة في الخلاص .

فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي « النرفانا » ، ولكن الاختلاف بينهما بيّن ، لأن الاول يقضي باستقلال ذاتية النفس في الوجود الاعظم ، وان يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة^١ ، والثاني يقول بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعد أن فيها أثراً كبيراً من التعاليم الهندية التي كانت منتشرة في بلاد العجم والهند قبل الاسلام ، والتي جعلت للتصوّف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عُرِف بها أتقياء المسلمين الأولين . هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتاً جديداً ولا خرجوا عن نصوص القرآن في ماهية الله وحالة النفس بعد الموت .

أما الأثر الفارسي فقد ذهب بعضهم إلى انه يرجع إلى المانوية والمزدكية اللتين كان للزهد فيها شأن يذكر^٢ . ولعل أهم أثر فارسي في الصوفية وفي سواها من الحركات الفكرية في الاسلام ان الذين قاموا

١ راجع مقدمة ابن خلدون ٤٧٢ و ٤٧٣ .

٢ Arabic Thought, p. 190

بهذه الحركات أكثرهم من أهل فارس ، فهم ورثة العقلية الفارسية التي كانت قد تأثرت من تعاليم الهند ومن تعاليم الزعماء الروحيين ، كإني الحكيم وسواه . وماني ثنوي ، وخلاصة تعليمه كما شرحه ابن النديم^١ : ان للكون مبدأين : النور والظلمة ، ولكل من هذين المبدأين أجزاء ، وباشتباك الأجزاء النورانية بالأخرى حدث الكون ، فالخلاص (أو السعادة) قائم على تطهير العالم من أجزاء الظلمة المشتبكة بأجزاء النور . وسيظهر أثر ذلك في الصوفية .

يؤخذ من تعاليم أئمة المتصوفين ان نقطة الدائرة في نظامهم هي الوحدة^٢ أي اتحاد النفس بالله . وهذا المبدأ يوافق المبدأ الهندي كما مر معنا ، والمبدأ اليوناني (الأفلاطونية الجديدة) ، إلا انه يختلف عن هذا بأن الحصول على الوحدة لا يتوقف بالأكثر على العقل بل على التقوى وقع الشهوات . قال الجنيد البغدادي : « التوحيد معنى تضحل فيه الرسوم وتندرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل »^٣ . وأخذ عنه الحلّاج المتوفى ٣٠٩ هـ وذهب مذهب الغلاة من الشيعة ، وقال بالحلول أي حلول الله في الأجسام وبالتناسخ ، وقد قُتل بافتاء أكثر علماء عصره^٤ .

وفكرة الحلول ظاهرة تماماً في كلام أبي زيد البسطامي وهو أول من قال بالفناء^٥ ، أو الذي خطا الخطوة الأولى من التصوف إلى الحلول^٦ . ومن مبادئهم ان الله هو الموجود الحقيقي — لا وجود حقيقي سواه (أفلاطونية) ، ولكن في الإنسان نفساً عاقلة هي صورة معكوسة عن

١ الفهرست (ل) ٣٢٧ - ٣٣٨ .

٢ ابن خلدون ٤١٣ .

٣ الرسالة القشيرية (مصر ١٣٣٠) ١٣٥ .

٤ ابن خلسكان ، ١ - ٢٠٦ وابن النديم ، ١٩٠ .

٥ دائرة المعارف البريطانية تحت Sufism

٦ Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, p. 390

نفس الله ، وهي قادرة ان تقترب من الحقيقة الالهية . وبما انه لا وجود حقيقي لغير الله فمعرفة الله لا تحصل بواسطة مادية (بالكسب أو الدليل) بل بإلهام روحي ، ان هذا الالهام يحصل في حالة التجرد عن الدنيا . ومع انه لا وجود حقيقي لغير الله نجد هذا الوجود ممتزجاً بغير الحقيقي . وهذا الامتزاج أساس العالم المادي (قابل ذلك بالمانوية) . فالشر نتيجة لازمة لامتزاج هذين الوجودين . وغاية النفس الاتحاد بالله ، وكل ما يساعد على بلوغ هذه الغاية فهو صالح ، وكل ما يحول دونها فهو شرير (وبهذا تتفق جميع الاديان والمذاهب) . وهذا الشوق إلى الاتحاد بالحقيقة الالهية هو الحب الذي يتغنى به الصوفيون ، ويعملونه أساس إيمانهم (راجع اشعار ابن الفارض أكبر شاعر متصوف عند العرب) .

ومن أكابر المتصوفين عند العرب محيي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ . كان أولاً من أتباع ابن حزم المشهور . وأما في تصوفه فيظهر مبدأ الحلول والوحدة تمام الظهور . فمن أقواله في الله :
« فلذلك قال تعالى أنا عند ظن عبدي بي - أي لا أظهر له إلا »
في صورة معتقده فان شاء اطلق وإن شاء قيد . فإله المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده ، فان الاله المطلق لا يسمه شيء ، لأنه عين الاشياء وعين نفسه . والشيء لا يقال فيه يَسَعُ نفسه ولا يسعها ، ٢٨١ .

ومن شراح ابن العربي عبد الرزاق المتوفى ٧٣٠ هـ ، وهو يقول بحرية الارادة لأن النفس البشرية عنده فيض من روح الله ، فهي تشارك الله في القدرة على الاختيار ، وان العالم على أحسن ما يمكن أن يكون ، وان الاشياء ستفنى أخيراً في وجود الله الكائن الحقيقي الوحيد . ويقسم البشر

١ فلسفة ابن رشد ٤٤ ومقدمة ابن خلدون (التصوف) .

٢ خاتمة كتاب « نصوص الحكم » لابن العربي .

إلى ثلاثة أصناف وهم :
 العالميون - أي محبّو الذات الذين تدور حياتهم حول نفوسهم وهؤلاء
 لا يكثرثون للدين والمبادئ الروحية .
 العقليون - وهم أهل الفكر الذين يرون الله بنور العقل في مظاهر
 الوجود .
 الروحيون - وهم الذين يرون الله بالكشف أي بإلهام رוחي يوافيهم
 من الحضرة الربانية .

* * *

والخلاصة ان الصوفية بدأت مظهرأ من مظاهر الورع الديني ، ولكنها
 انتهت في غُلّاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنّة . ومحور مذهبهم الكشف
 الرباني بالتجرّد عن العالم وبالحب الالهي . وقد علق عليهم من تعاليم الهند
 والروم الوحدة والخلول والفناء في وجود الله ، على انهم تمادوا في مسألة
 الكشف والكرامات إلى حد ان بعضهم صار يستعمل لذلك طرق الشعوذة
 والسحر والتدليس .

من أراد التوسع في درس الحركة الفكرية في هذا العصر فليراجع :

Browne, Lit. Hist. of Persia	برون
Le Dogme et la Loi	كولدزير
O'Leary, Arabic Thought	اوليري
Carra du Veau, Les Penseurs de l'Islam	كارا دي فو
Nichelson, The Mystics of Islam	نكلسون
الملل والنحل	ابن حزم
الملل والنحل	الشهرستاني
الفرق بين الفرق	البغدادي
نقد العلم والعلماء	ابن الجوزي
المقدمة	ابن خلدون
	دوائر المعارف المختلفة

القسم الثاني

الشعر في العصر العباسي



مزاياه - أمراؤه (دراسات تحليلية وانتقادية) - المختار من دواوينهم

بحث تهريدي

في

خصائص الشعر العباسي

إذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولّد فلا شك أنك تجد في الأخير أثر التقدم ظاهراً للعيان ، على أن ذلك لم يبلغ به مبلغاً يخرج به عن المناهج التي اختطها الاقدمون . خذ الوصف مثلاً فانك تجده عريقاً في الشعر يرجع إلى ما قبل الاسلام . على أنه كان قديماً ينحصر في البداوة وما يشاكلها ، فصار - بعد أن اتسع الأفق العمراني لدى المسلمين ، وبعد أن طما ببحر الرفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي - يتفنن في نعت أسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب . ومثل ذلك تفتنه في الخمر وأنواع الغزل والمديح ، وما إلى ذلك من ضروب النظم . ولا ينكر أن المولدين فاقوا الاقدمين في ذلك ، ولكنهم لم يبتدعوا أساليب جديدة أو مواضيع جديدة تجوّز لنا أن نقول أن الشعر طرأ عليه في زمانهم تطور كبير .

والشعر نوعان رئيسيان : وجداني وموضوعي . فالوجداني يدور على نفس الشاعر - على تأثره من أمرٍ ما ، واطهار ذلك التأثير بالكلام المنظوم .

ومن ذلك مدحه لأميره ، أو تفزله بفتاته ، أو هجاؤه لعدوه ، أو وصفه لما تقع عليه عينه ، أو تحريضه على ما يشعر بصلاحه .

أما الموضوعي فيدور على شيء خارج عن نفسه - على صفات يتخيلها أو يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة أو النظر في حياة الانسان ، وما إلى ذلك من المواضيع الاخلاقية والادبية التي تمثل للجمهور ما يشعر به في الحياة ، أو تحملهم على أجنحة الخيال إلى ما وراء المحسوسات ، فتشير فيهم حب الجمال وتدفعهم في سبيل الكمال .

وأنت إذا رجعت إلى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ، ثم دقت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقّدة الشعر أمثال قدامة والاصفهاني والآمدي والعسكري والشعالبي والجرجاني وابن الاثير واضرابهم ، رأيت ان التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الاغلب صناعة الشعر ، وانه منحصر في الوجداني منه . وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر :

(١) رقة العبارة .

(٢) التفنن في المعاني .

(٣) التوفّر على البديع اللفظي .

وقد يضاف اليها التوسع في المصطلحات اللفظية .

على انه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولّد يمثل لنا أيضاً تجديدًا في الناحية الروحية من الشعر ، ناحية الزهد والورع والاصلاح - وتلك حركة خاصة سنتناولها في غير هذا المقام .

رقة العبارة

وحكمنا من هذا القبيل اجالي لا حصر فيه . فلا العهد القديم يتفرّد بخشونة الاسلوب وضخامة الالفاظ ، ولا المولّد بالنعومة والسلامة وعذوبة العبارة . ومن البيّن ان العبارة كثيراً ما تتوقف على الموضوع . فالشاعر

القديم (بدوياً كان أم حضرياً) إذا تغزل أو رثى أو تأمل جاء بالرقيق
الناعم ، كقول عروة يصف ما فعل به الوجد :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجدٍ ان هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العوّاد يبتدران
فما تركا من رُقِيّةٍ يعلمانها ولا سلوةٍ الا وقد سقياني
فما شفيا الداء الذي بيّ كله ولا ذخراً نصحاً ولا ألواني

وقول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته المشهورة في فتاته نسيم :

وبتّ اناجي النفس أين خباؤها وكيف لما آتي من الامر مصدرُ
فدلّ عليها القلب ريتا عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ
وقول ابي ذؤيب في رثاء بنه :

والنفس راغبة إذا رغبتّها وإذا تُردّ إلى قليل تنفعُ
وإذا المنيّة أنشبت اظفارها القيت كلّ تيمةٍ لا تنفعُ

إلى ما يجري مجراه من الشعر العذب الذي لا يمكن حصره هنا . فإذا
تعديت ذلك إلى ما يختص بمعيشة الاعراب ووصف منازلهم وأدواتهم
أصبح الشعر خشناً متوعراً ، كالذي تجده في صفات الطلول والجمال
والقسيّ وأوابد القفر ، وما إلى ذلك مما يعجّ به الشعر القديم .

وكذلك الشعر المولد تجده في أدوار تختلف باختلاف مواضعه وأحوال
قائله . فمنه الذي يسيل عذوبة ويبلغ الدرجة العليا من الاناقة ، وسيمر
بنا كثير منه . ومنه ما يمتّ بنسب متين إلى العهد القديم ، تقرأه فتجد
فيه عنجبية البداوة وتوعرها كقول ابن دريد يصف حصانه :

ومشرف الاقطار خاطِرٍ لحضه حابي القصيرى جُرْشعٌ عرد النساء^١
سامي التليل في دسيعٍ مُفعم رحب اللّيان في أمينات العجى^٢

١ حصان مرتفع الجوانب ضخم شديد العصب .

٢ مرتفع العنق واسع الصدر قوي الارساغ .

ومنها في وصف حاله :

ما خلتُ ان الدهر يثني علي ضرةً لا يرضى بها ضبّ الكدى^١
ارمق العيش على برضٍ فان رمت ارتشافاً رمت صعب المرتقى
في كل يومٍ منزل مستوبل يشفّ ماءً مهجتي أو مجتوى
وقول المعري في سقط الزند :

لعلّ نواها ان تريع شطونها وان يتجلّى عن شمس شطونها^٢
إذا ما أنخنا حرّة فوق حرّة بكى رحمة الوجناء فيها وجينها^٣
وللمعري ولا سيما في شعر شبابه كثير من هذا الضرب .

ومثله أبو تمام ؛ وسنتناول ذلك في دراسته وتحليل شاعريته ، وانما نكتفي هنا بأبياته التالية في وصف قتال حدث في الشتاء :

لقد انصمتَ والشتاء له وجهٌ يراه الرجال جهماً قَطوباً
سَبَرَاتٍ^٤ إذا الحروب أبيخت هاج صنبورها فكانت حروباً
فضربتَ الشتاء في أخدعيته ضربة عاودته قوداً رَكوباً

وهذا أبو نواس وهو في طبيعة المولدين ديباجة ورونقاً لا يخلو شعره أحياناً من النزعة الأعرابية كقوله :

إنّا اليك من الصليق فداسم طلع النجاد بنا وجيف الأينق
يتبعن مائة الملائكة كأنما ترنو بعيني مقلّة لم تفرق
وسنرى ذلك في درس شعره .

فنهجن إذن في نعمتنا الشعر المولد بالركة لا ننفي الخشونة البدوية من

١ الكدى الصخور .

٢ راع رجع . شطون بعيد . شطون دجون .

٣ حرة أي ناقة كريمة . حرة أرض سوداء . الوجناء الناقة . الوجين الأرض الغليظة .

٤ سبرات غدوات باردة . أبيخت خمدت .

٥ ناقة مضطربة الاعضاء .

بعضه ، ولا فحصر النعومة والسلامة فيه . على اننا برغم ذلك نجد ان التطور الاجتماعي قد انشأ في العصر العباسي جوّاً حضرياً رائقاً ، ففضى على الفاظ وتعابير وانشأ عوضها ما هو أشد ملائمة لروح العصر . ومن ذلك ميل الادباء عن اسلوب النظم القديم . وهو كما وصفه ابن قتيبة : « ان يبتدىء الناظم بذكر الديار والدمن والآثار فيشكو ويبكي ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق ... ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الشوق وألم الوجد والفراق ثم يرحل ويشكو النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة الخ » . ومع ان هذا الميل إلى التجدد لم يكن شاملاً ، فان له اثرأ بيتاً في المباحث النقدية التي عني بها علماء الشعر في ذلك العصر . ويوضح لنا ذلك ما ذكره ابن زشيق يصف الحالة الشعرية في زمانه ، أي في القرن الخامس الهجري (وقد سبقه إلى ذلك نقدة الشعر منذ القرن الثالث) - قال :

« وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياها وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول وما بالاعراب وأهل البادية ، لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم ان الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً ، ... إلى ان يقول : « والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلها وما كان مناسباً لها ، كالكوؤس والقناني والاباريق وتفتاح التحيّات وباقات الزهر ، إلى ما لا بد منه من صفات الحدود والقُدود ... ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين » .

وله في العمدة مقابلة جيدة بين طريقة القدماء وطريقة المولدين في « باب المبدأ والخروج والنهاية » ، فلترجع هناك ^٣ .

١ الشعر والشعراء (مصر ١٣٣٢) ص ٧ .

٢ العمدة (مصر ١٩٢٥) ٢ - ٢٢٧ .

٣ العمدة ١ ص ١٤٥ - ١٦١ .

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور النقد البياني الذي جعل أساس البلاغة في الالفاظ السهولة والحلاوة والجزالة . وأمثلة ذلك ما جاء لأبي هلال العسكري في كتابه «الصناعتين» إذ قال : « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّته . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف » إلى آخر كلامه^١ . ومثل ذلك قول الجرجاني : « وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ فلا يكاد يمدو نخطاً واحداً وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيلاً »^٢ .

ولا ينكر ان «النقد البياني» لم يصبح فنّاً ذا قواعد مرعية إلاّ في القرن الرابع الهجري وما بعده ، بيد ان الروح النقدية التي تمثل التطور الصناعي في الشعر قديمة ترجع إلى أوائل العصر العباسي .

التفنن في المعاني

ويعنون بالمعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة . أما التمثيل فيراد به أن يعتمد الشاعر إلى حكمة عقلية ادركها الناس بالفطرة أو عرفوها بالاختبار ويسبكها في قالب لفظي جميل ، كقول المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

١ كتاب الصناعتين (الاستانة ١٣٢٠) ٤١ .
٢ أسرار البلاغة (تصحيح رشيد رضا ١٣٢٠) ٣ .

والمثل في الشعر العربي كثير ، وقد تفتنوا في العصر العباسي ، فتركوا لنا من أقوالهم جواهر غالية . ويكثر ذلك في شعر أبي العتاهية وأبي تمام وابن الرومي والمتني والمعري واضرايهم ، وسنلمّ بالكثير منها عند درسنا هؤلاء الشعراء ، وهو داخل عند الجرجاني في قسم المعاني المعقولة .. ويقابله عند ذلك الإمام القسم 'التخييلي' ، وهو كما قال : « مفنّن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يُحصَر إلا تقريباً ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم انه يحىء طبقاتٍ ويأتي على درجات . فنه ما يحىء مصنوعاً قد تُلطّف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق حتى أعطي شهاً من الحق وغشّي رونقاً من الصدق ^١ » ... الى أن يقول : « وجلة الحديث الذي أريده بالتخييل هنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا يرى ^٢ » ، ومع انه يخرج الاستعارة من هذا الحد ترى معظم أمثله تدور على ضروب من التشبيه والاستعارة والمجاز .

ولابن الأثير في المثل السائر بحث ضافٍ في توليد المعاني بسط فيه المراد بسطاً وافياً ، وخلاصته ^٣ : ان المعاني على ضربين ، ما ينتزع من شاهد الحال ، وما ينشأ من غير شاهد الحال ، واليك أمثلة ذلك : فمن القسم الأول :

بكروا وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربوط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدأ على سفر من الاسفار
وهذا المعنى (أي تشبيه المصلوبين بالفوارس الراكبين ولا يبرحون مكانهم) استخلصه أبو تمام من رؤية بعض الثائرين على الخليفة المعتصم مصلوبين على أخشاب عالية .

١ راجع أسرار البلاغة ٢١٦ .

٢ أسرار البلاغة ٢٢٣ .

٣ المثل السائر (بولاق) ١٨٧ - ١٩٧ .

مثال ٢ :

وزائرتي كأنّ بها حياةً فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سِجّام

شَعَرَ المتنبي بالحمى ، وشاهد كيف كانت تزوره ليلاً وتدبّ في جسمه ، وكيف كانت تهبط صباحاً ويبتلّ جسمه بالعرق من جراء ذلك ، فوصفها كزائرة ذات حياة لا تزور حبيبها إلا ليلاً ، وتخيل الصبح يطردها فتتهطل لذلك مدامعها .

مثال ٣ :

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة ، فهبّت ريح شديدة فسقطت ،
وكان المتنبي حاضراً فقال في ذلك :

أيقدهح في الخيمة العُدلُ وتشمل مَن دهرها يشملُ

الى أن يقول :

رأت لون نورك في لونها كلوت الغزالة لا يغسلُ
وان لها شرفاً باذخاً وانّ الخيام بها تخجلُ
فلا تنكرنّ لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتل

فانظر كيف جعل سقوطها مسبباً عن شدة ما نالها من الفخار والزهو
ثم ساق الكلام الى قوله :

ولما أمرت بتطنيبها أشيع بانك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

فجعل تقويض الله لها تكذيباً لما أشيع عند تطنيبها من انك لا تنوي
غزواً لعدو . وقد أجاد المتنبي في انتزاع هذا المعنى والبأسه ثوب المجاز
والخيال .

ومن القسم الثاني (أي المعاني المبكرة من غير شاهد حال) قول علي
ابن جبلة مادحاً :

تكفل ساكن الدنيا حميداً فقد أضحت له الدنيا عيالا
كان أباه آدم كان أوصى إليه ان يعولهم فعلا

أراد أن ينعت ممدوحه بالكرم العظيم الشامل ، فجعل العالم عياله وتخيل
ان آدم ابا البشر أوصاه بإعالتهم ففعل .

وقول أبي تمام يمدح اميراً أقام على بابه حاجباً يمنع الناس :
يا أيها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كشب
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً ان السماء تُرجى حين تحتجب
وقوله في الحاسد والمحسود :

واذا أراد الله نشرَ فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عرف العود

ومثل ذلك في الحسن قول ابن الرومي :

كل امرئ مدح امرءاً لنواله واطال فيه فقد أساء هجاء
لو لم يقدر ثم بعد المستقى عند الورود لما اطال رِشاء

ومن لطيف المعاني قول ابن بقيّ الاندلسي :

بأبي غزلاً غازلتُه مقلتي بين العذيب وبين شطتي بارق
حق اذا مالت به سِنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقي
ابعدته عن أضلع تشاقه كي لا ينام على وساد خافق

وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر المولّد . واذا تأملتها تجد أكثرها أو كلها
من قبيل التّفنن في المجاز والتشبيه ، ولعلّ للأخير النصيب الاوفر مما
يدخل في باب المعاني . وقد خصه ابن رشيق بالذكر اذ قال : « ان
المعاني انما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالاسلام في أقطار

الارض ، فمَصَّروا الامصار وحَضَّروا الحواضر وتَأَنَّقُوا في الملابس والمطاعم ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره . وانما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطى^١ . وقال في موضوع آخر يقابل المحدثين بالقدماء : « واذا تأملت ذلك تبين لك ما في اشعار جرير والفرزدق وأصحابها من التوليدات والابداعات العجيبة ، ثم أتى بشار بن بُرد وأصحابه فزادوا معاني ما مرّت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني أبدأ تتردّد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً »^٢ . ولم يرد ابن رشيق بالمعنى الشعري غير ما ذكرنا من التصرف في وجوه الصناعة المعنوية وأهمّها عنده التشبيه . والذي يطالع دواوين كبار الشعراء في العصر العباسي ، ويقابلها بما نُظِم في العهد الأموي وما قبله ، يجد صحة ما ذهب اليه ابن رشيق وسواه من تفوّق المولّدين في ذلك . ولا نظن الا ان هذه المعاني التخيلية أخذت تتضاءل بعد عصر الشعر الذهبي ، وقد ضعفت جداً بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وبقيت كذلك الى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم أخذت بالانتعاش على يد شعراء القرن العشرين .

التوفر على البديع اللفظي

وما يقال عن رقة العبارة واختراع المعاني ، من حيث ان المولّدين فاقوا بها الاقدمين ، يقال عن البديع اللفظي - فقد جعلوا الاخير فناً معروفاً وجروا فيه الى الغاية . وأنواع البديع كثيرة وقد ألّفت فيها كتب تدارسها الطلاب في كل جيل . وأول من صنّف فيها عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور (في القرن الثالث الهجري) فجعل منها بضعة عشر نوعاً ، ثم قدامة بن جعفر فججمع منها نحو عشرين ، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها

١ العمدة ٢ - ١٨٣ .

٢ العمدة ٢ - ١٨٥ .

خمسـة وثلاثين . ثم أخذ البيانيتون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المئة والخمسين . وأصبح للبديع في أواخر القرن العباسي سيطرة كبيرة لا على الشعر فقط بل على النثر أيضاً ، كما يتضح من الرسائل الديوانية والادبية في القرنين السادس والسابع .

على ان المولدين لم يبتكروا البديع ابتكاراً بل توسعوا فيه حتى بزوا سواهم : قال العسكري في كتاب الصناعتين ردّاً على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين (أي أدباء العصر العباسي) : « فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا روية ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد ان يفخّم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة »^١ . والعسكري كما مر بنا من أهل القرن الرابع الهجري ، وكان الشائع في زمانه على ما يفهم من دفاعه ، ان أدباء العصر العباسي هم الذين ابتكروا أنواع البديع فنفي ذلك وقال بوجودها في الشعر القديم . وذلك معلوم ، ولكنه لا ينفي ان هذا الفن الكلامي لم ينظّم ولم ينضج إلا في العصر العباسي . ولا نعرف عصرأ بلغ فيه ولوع المنشئين والشعراء بالبديع اللفظي كذلك العصر . فمنذ أيام مسلم وابي تمام إلى أيام ابن الفارض وصفي الدين الحلّي تجد ولع الناس بالبديع يزيد مع الاجيال . وبقي كذلك إلى أيام ابن معتوق ثم إلى مستهل النهضة الاخيرة ، ولم يقض عليه غير ما أصاب الادب في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وفي القرن العشرين من التطور اللفظي والخيالي .

ولا يتسع المقال لذكر كل أنواع البديع اللفظي والتمثيل عليها ، بيد انه لا بدّ من القول ان الطباق والجناس هما الركنان الاساسيان وعليهما يحوم أكثر الشعراء ، يليهما رد المعجز على الصدر ، والعكس ، والترصيع فسائر الانواع .

١ الصناعتين ٢٠٤ .

وقد تناول ابن رشيق أمر المقابلة بين القدماء والمحدثين فقال : « ان المحدثين أكثر ابتداءً لأن الملك الاسلامي عظم في أيامهم » . وأكثر النقاد يقولون ذلك ، ويعنون به ان اتساع الحضارة فتح للشعراء أبواباً جديدة للمعاني ، كأوصاف الخمر والنساء والغلمان والغناء وسائر أسباب اللهو والقصف ، وان ذلك انشأ في نفوس البعض شعوراً معاكساً لما بهم إلى الزهد والتصوف وانكار الملذات — وفي ذلك ما فيه .

على اننا عند التحقيق نجد ان هذا التجدد في المعاني انحصر بالأكثر في مجاري البديع لم يتعدّها إلى الفنون الخيالية العليا المبنية على معرفة أوسع في الكون والانسان ، وعلى نظرات أدق في الطبيعة وال عمران . ولم تكن الاشعار الروحية والادبية عموماً تأملات فلسفية في الحياة ، بل خطرات تأتي في سياق وعظ أو انتقاد ، أو لغير ذلك من المناسبات .

التوسع في المصطلحات اللفظية

وهذا باب واسع يعسر الخوض فيه هنا ، وهو بمباحث تاريخ اللغة وتطورها أولى . على ان الناظر في تطور الشعر المولّد لا يسعه إلا أن يقف قليلاً عند هذه الظاهرة الادبية العامة ، وهي تمثّل أمرين : ١ - اختلاط العرب بالأعاجم . ٢ - الميل إلى التحرر من بعض القيود اللغوية . أما الاول فقد مرّ معنا في الكلام عن تطور الحياة الاجتماعية ، فلا لزوم لاعادته . ويكفي هنا أن نقول ان هذا الاختلاط كان له أثره في الالفاظ الشعرية : قال الجرجاني في الوساطة ، « ان المحدثين قد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام ، وكانت تلك الالفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب من أفهام من يقصدون ، وقد أفرط أبو نواس حتى استعمل زمرده — ويازبنده — وباريكنده الخ^١ » .

ومن ذلك لابن الرومي شير وهي الاسد في الفارسية — زرياب أي ماء الذهب — الدوشاب وهو النبيذ الاسود — الكوش أي الأذن . والمعري

١ الوساطة (تصحيح أحمد الزين) ٣٥١ و ٣٥٢ .

فرزان وفرازين وبياذق من أسماء الشطرنج - والزيج والاسطرلاب من أدوات الفلك وبعض الفاظ عامية مثل آرا بمعنى نعم وأمثالها .
وقد كان القدماء يستعملون الفاظ المعجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون^١ . وعن الجاحظ : « كان الشاعر يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان^٢ » .

* * *

وأما الخروج عن نصوص اللغة فما يلفت النظر وقد اشتهر بذلك بعضهم كالمتنبي وابن الرومي فمن كلام الاول قوله :
ادلت له بدل ادلته من
اخاطره في روعي بدل اراهنه
فريص جمع فرائص
يتفارسن أي كل يطلب افتراس الآخر
فرد رجل أي رجل واحدة
الحذور والجلوب والتروك وما يشاكل هذه الصيغ
العلم المبرح (ولعلته أول من وصف العلم بالتبريح)
النطق أي اللسن
وعشرات مثلها تجدها في تضاعيف ديوانه^٣ .
ومن أمثلة الثاني :

مفاتش - يزندقون - الاشربات - الأذهاب - هجيج - نهارك انهر -
الايام الاطاول - العلاجم - اللعاب جمع لاعب ، وكثير غيرها .
وليست هذه الظاهرة شاملة ولكنها تكاد تكون عامة في العصر العباسي ،

١ المصدر السابق .

٢ البيان والتبيين (س) ١ - ١٣١ .

٣ راجع ما أنكره العلماء من شعره في كتاب الوساطة للجرجاني ٣٢٩ - ٣٦١ .

ولها أسباب لا تدخل في بحثنا الآن . ويدخل فيها المصطلحات والمسميات الجديدة التي نشأت بتقدم الحضارة . ولا شك ان هذا التجدد اللفظي بدأ في اللغة منذ أقدم عهودها وجرى فيها مع الزمن ، حتى كانت النهضة العلمية الاجتماعية في العصر العباسي ، فظهر فيها بمظهر كبير ، كما ظهر في نهضتنا العلمية الحديثة . ومع تحرّج الشعر في المحافظة على الأوضاع اللغوية الصرفية لم يستطع التخلص من تأثير الأوضاع الأجنبية ، كما تشهد بذلك النصوص الشعرية في كل زمان .

امراء الشعر المولد

ابو نواس - ابو العتاهية - ابو تمام - البحتري - ابن الرومي - المتنبي -
المعري - ابن الفارض



يختلف الباحثون في من المقدم من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل
الآن إلى البحث في اختلافاتهم والنظر في أسبابها فلكلّ نظره الخاص ،
ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا منهم لدراستنا
التحليلية هؤلاء الثمانية ، وهم بلا جدال من الطبقة الاولى بين
المولدين .

وقد كان معولنا في اختيارهم شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم
في تاريخ الشعر العباسي . ولا نقصد بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء
من يرتفع إلى درجتهم أو يفوقهم في بعض المناحي كأبي فراس مثلاً أو
الشريف الرضي ، بل انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي
درسهم درسٌ لذلك العصر والروح الشعرية العامة فيه .

ابو نواس

الحسن بن هاني

ولد بين (١٤١ و ١٤٥) هـ - وتوفي بين (١٩٦ و ٢٠٠) هـ
حوالي (٧٦٠ - ٨١٦) م



مصادر دراسته - بيئته - ميله الشعوبي - مقامه الادبي - شخصيته الشعرية

. مصادر دراسته

- ١ - ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٩٠ م) الشعر والشعراء ، المطبعة العمومية ، مصر ١٨٩٨ ليدن ١٩٠٢
- ٢ - ابن المعتز توفي ٢٩٦ هـ (٩١٠ م) طبقات الشعراء ، نشره عباس اقبال ، ١٩٣٩ ص ٨٧ - ٩٩
- ٣ - الطبري توفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١
- ٤ - الاصفهاني توفي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) الاغاني ، بولاق ج ١٨ ، ومتفرقات في ج ٦ و ١٦
- ٥ - الجرجاني توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) الواسطة ، صيدا ١٢٣١
- ٦ - المرزباني توفي سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) الموشح ، مصر ، ١٣٤٣ ، من ص ٢٤٢
- ٧ - ابن النديم توفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) الفهرست ، ليبسك ص ١٦٠
- ٨ - ابن شرف القيرواني توفي سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٩ م) اعلام الكلام ، ص ٢٢ - ٢٣
- ٩ - الخطيب البغدادي توفي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) تاريخ بغداد مج ٧ ، من ص ٤٣٦
- ١٠ - ابن عساكر ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) تهذيب التاريخ الكبير مطبعة روضة

الشام ١٣٣٢ ، ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٧٩

١١ - الانباري توفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) طبقات الادباء من ص ٩٦

١٢ - ابن خلكان توفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) وفيات الاعيان (ميري)

ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٢

١٣ - ابن منظور توفي سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) اخبار ابي نواس (مصر

(١٩٢٤ -)

١٤ - النويري توفي سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) نهاية الارب (دار الكتب المصرية

١٩٢٥) ٤ - ص ١١٩ - ١٢٣

١٥ - طاش كوبري زاده توفي سنة ٩٦٨ هـ (١٥٦١ م) مفتاح السعادة

(حيدر آباد)

١٦ - البغدادي توفي سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) خزانة الادب (بولاق)

١ - ١٦٨ .

وفي مواضع شتى من الكامل للمبرّد ، والعمدة لابن رشيق ، والفخري
لابن الطيّق ، وزهر الآداب للحصري ، ومختصر مقدمة الشعر لابن
منقذ ، ومعاهد التنصيص للعبّاسي (تجد زبدة الاخيرين في ذيل ديوان
مسلم للمستشرق دي غويه Goezi) .

وقد ترجم له مؤرخو الآداب المتأخرون كالبيستاني في دائرة المعارف ،
وزيدان في آداب اللغة ، وسواهما .

ومن تناوله في دراسات نقدية طه حسين في حديث الاربعاء ، وعبّاس
مصطفى عمار في كتابه (ابو نواس حياته وشعره) وعمر فروخ في كتابه
(ابو نواس) .

بيئته وعناصر شخصيته

ولد شاعرنا في خوزستان من بلاد العجم ، وانتقل به ذرو أمره وهو طفل إلى البصرة فنشأ فيها . ويظهر ان اياه مات وتركه صغيراً في كفالة أمه ، فسلمته إلى عطّار ليتعلم عنده مهنة العطارة . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن عهده « العطّاري » ، فان التاريخ يتخطى ذلك سريعاً ويبرزه لنا في صحبة الشاعر والبة بن الحباب . ثم لا نلبث أن نراه حوالى الثلاثين من عمره ، وقد استقرّ في بغداد ومدح الرشيد واتصل ببلاطه . ويقول ابن رشيقي انه كان نديم الامين طول خلافته^١ . أما كتاب الفخري فينقل لنا انه كان من شعراء الفضل بن الربيع المنقطين اليه^٢ . وليس من تناقض بين القولين : فان الفضل كان حاجب الرشيد ومن رجال دولته والوزير المقرب في دولة الامين ، فقد يكون اتصل به أولاً ثم نادى الامين ومدحه . وتوفي في الفتنة قبل قدوم المأمون من خراسان .

نشأ ابو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية - عصر القوة والرخاء . وقد رأينا في كلامنا عن تطور الحياة الاجتماعية كيف كانت بغداد في ذلك العصر ، من حيث غناها وعمرانها وبذخ المترفين فيها . ومن يطالع أخبار الامراء والوزراء ومن اليهم من أرباب الغنى ، وكيف كانوا يتمتعون بأسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور ، ويسترسلون في

١ العمدة ج ١ ص ٢٢ .

٢ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٢ .

سبل اللهو من شرب وغناء ورقص ، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه شاعرنا والذي أثر في اخلاقه ايّما تأثير .

طُبع ابو نواس على الظرف والمجون ، وأوقعته الاقدار في صحبة ابن الحباب ، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة . وكان الشعر آنثى في أيدي عصابة من أهل الاسراف والخلاعة ، نذكر منهم مطيع بن إياس - حماد عجرد - مسلم بن الوليد - داود بن رزين - الواسطي - الحسين ابن الضحاك - الفضل الرقاشي - عمر الوراق - الحسين الخياط - علي ابن الخليل - اسماعيل القراطيسي وأمثالهم . وفي القراطيسي يقول الاصفهاني : « كان مألفاً للشعراء فكان ابو نواس وابو العتاهية (طبعاً قبل تزده) ومسلم وطبقتهم يجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان ^١ » .

في عصابة كهذه العصابة وقع شاعرنا . وليس شعره لدى التحقيق إلا مرآة لحياته وأحوال معاصريه . ولقد بلغ من التادي في عبثه وتهتكه ان صار مثلاً في ذلك .

روى الحُصري « انه لما خلع المأمون أخاه الأمين ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته كان يعمل كتباً بعبوب أخيه تقرأ على المنابر بخراسان . فكان مما عابه به ان قال انه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني ، استخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم » ، ثم يقول : « ويقوم بين يديه رجل فينشد اشعار ابي نواس في المجون ^٢ » . وانا لنظم أبا نواس إذا حصرتنا حياته وأدبه في هذه الدائرة التي وضعته فيها كتب المأمون . فقد كان غير ذلك (كما سنذكر في كلامنا عن مقدرته اللغوية) ولكن المجون غلب عليه ، وصرف في سبيله مواهبه .

١ الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨ .

٢ زهر الآداب (شرح زكي مبارك) ج ٢ - ١١١ .

قال ابو عبد الله الجَمَاز يصف ابا نواس^١ :
« كان أظرف الناس منطقاً ، وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام ،
وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياة » . وبعد أن يصف شكله ولونه
يقول :

« كان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو الشمائل ،
كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للشعار علامة
بالاخبار ، كأن كلامه شعر موزون » .
كان الرجل واسع المعرفة - متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية
ولكن انصرافه إلى الخمر واسترساله في الموبقات حالاً دون أن يترك لنا
أثراً أدبياً كبيراً في غير سخائف الحياة .

ميله في أدبه إلى الشعبوية

قد تعجب من هذا الزعم بعد أن عرفت أنه كان يلزم الفضل بن
البريع والأمين بن الرشيد ، وهما معقد العصبيّة العربية في ذلك الوقت .
ولكن لا عجب فأبو نواس كما مر معنا من أم فارسية ، وقد ولد في بلاد
فارس ، ونشأ لا تُعرف له عصبيّة واضحة في العرب . وهم ينسبونه إلى
قبيلة حَكَمَ اليمنية فيقولون الحكمي ، ولكن ابن منظور صاحب أخباره
يقول : « كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته^٢ » أي أنه لم يكن ثابت
الانتماء إلى أصل من الأصول ، فهو تارة يدّعي النسب اليمني ، كقوله
في حديث له مع الخُمّار :

فلما ان رأى زقّي أُمّامي تكلم غير مذعور اللسان
وقال أمن تميم؟ قلت كلاً ولكنني من الحيّ اليمني
وتارة يهجو اليمنية كقوله في هجاء هاشم بن حُديج وهو كِندي من

١ زهر الآداب ١ - ٢٠٤ .

٢ أخبار أبي نواس ١٦ .

صميم اليمن :

يا هاشم بن حُدَيج لو عددت أبا مثل القلّس لم يعلق بك الدنس والقلّس أحد رؤساء كنانة ، وهي من غير اليمن كما هو معروف . وفي هذه القصيدة يعدد كرماء نزار الذين يفتخر بهم ، ويستغرب ذلك ممن له عصبية شديدة في اليمن . ونقل ابن منظور « انه كان يتنَزَّر ويدّعي للفرزدق ، ثم انقلب على النزارية وادعى انه من « حاء وحكم » فزجره يزيد بن منصور الجُميري خال المهدي وقال له : « انت خوزي (أي من خوزستان) فما لك وحاء وحكم » ، فقال : « انا مولى » فتركوه . وقال بعضهم لبعض انه ظريف اللسان غزير العلوم ، فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية ، فكان كما قالوا . وكان يكنى أولاً بأبي فراس فعدل عن ذلك واكتنى بأبي نواس تشبهاً بكنية ذي نواس ، كما كانت اليمن تكنى وقيل غير ذلك^١ . ويذكر في محل آخر انه كان في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي اسمه واسم أمه لئلا يهجي ، وذلك مشهور عنه . والمذكور من أمره انه كان مولى الحكميين يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم^٢ .

فما ذكر آنفاً نستدل ان أبا نواس كان من أصل وضيع وانه كان ينتسب إلى الحكميين بالولاء . والأمر الراجح انه فارسي يأخذ بالشعوبية في الاستخفاف بالحياة العربية . ويزيدنا ثقة بذلك انه كان يأخذ العلم عن أبي عبيدة ويمدحه ويذم الاصمعي^٣ . وإلى ذلك ذهب ابن رشيقي إذ يقول : « وكان شعوبي اللسان وما أدري ما وراء ذلك ، وإن في اللسان وكثرة ولوعه بالشئ لشاهداً عدلاً لا تردّ شهادته^٤ » . ويروي له

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٣٧ وخزانة الادب ١ - ١٦٨ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٤٧ . وقد عده الجاحظ (في كتاب الموالي) من الموالي - راجع العقد ٣ - ٢٦٩ .

٣ مفتاح السعادة ١ - ٩٣ .

٤ العمدة ج ١ - ١٥٥ .

ابن عبد ربه أبياتا ويقول انه قالها على مذهب الشعوبية^١ . ونقل الطبري
ان الرشيد حبسه لهجائه قريش^٢ . وانك لتلمس في شعره استهزاءه بالعرب
كقوله :

عاج الشقيّ على رسمٍ يسائله وبتّ اسأل عن ختارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درّ درّك قلّ لي من بنو اسد
ومنّ تميم ومن قيس ولفتهما ليس الأعراب عند الله من احد
سخرية أليمة تظهر فيها شعوبيته الشعرية . وهو يكثر من هجائه الاعراب
والاعرابيات ، ولا سيما إذا قابل حالهم بحضارة الفرس الغابرة كقوله :

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع العلم في اللذات والخطرا
ألم ترّ ما بنى كسرى وسابور^٣ لمن غبرا
منازه بين دجلة (م) والفرات أخصها الشجرا
لأرضٍ باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا^٤
ولم يجعل مصايدها يرايها ولا وحرا^٥
ولكن حور غزلانٍ تراعي بال فلا بقرا
فذاك العيش لا سيّد^٥ بقفرتها ولا وبراه
إذا ما كنت بالاشياء في الاعراب معتبرا
فانك ايّما رجلٍ وردت فلم تجد صدرا

ويأخذ من هنا بدم أهل البادية رجالا ونساء . وشعره يمجّ بما يدل
على شغفه بتاريخ الفرس وأناقة الحضرة ، ونفوره من الحياة البدوية التي

١ راجع المقد ٢ - ٨٧ .

٢ الطبري (ليدن) جم ٣ - ٩٥٩ .

٣ من أشجار القفر .

٤ الوحر من العطاء (كالحراذين وسام ابرص) .

٥ السيد : الذئب ، والوبر : حيوان اصفر من السنور .

كان يتغنى بها الاقدمون . ومن ذلك أيضاً قوله :

دع الملقى يبكي على طلّله^١ وخلّ عَوْفاً يقول في جمّله
وقل لكلثوم^٢ المفضل بالشعر يطيل الإعراض عن حِلّه
واغدُ على اللهو غير متّددٍ عنه فهذا أوان مقتبّله
أما ترى جدّة الزمان وما ابدع فيها الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غاديةً عند اقتراب الشتاء من أجله
فاشرب على جدّة الزمان فقد وافى بطيب الهوى ومُعتدله
من قهوة تذكّر السرورَ وتُنسي الهمَّ عند اعتراض مشتكله

وقوله :

لقد جُنّ من يبكي على رسم منزل ويندب أطلالاً عفونَ يحرول
فان قيل ما يبكيك قال حمامة تنوح على فرخٍ بأصوات مُعول
تذكرني حيّاً حِلاًلاً بقفرةٍ وآخيةً^٢ شُجّت بِفهر وجندل^٢

ومما يشعر بميله إلى الفرس وانحرافه عن مذاهب العرب قوله من

قصيدة :

دع الاطلال تسفيها الجنوبُ وتبكي عهد جدّتها الخطوبُ
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً تُحثّ بها النجبية والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ولا عيشاً فميشهمُ جديب
ثم يصف خشونة عيشهم ويقابل ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع
بالخمر ، إلى أن يقول :

فهذا العيش لا عيش البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب

١ هو العتايي الشاعر المشهور .

٢ آخية أي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشد إليه الدابة ، والفهر الحجر ، وكذلك الجنديل .

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميسادين الزروب

* * *

كان النضال في عصره مستحراً بين المحافظين والمجددين - بين الذين يرون التمسك بمقاييس الشعر القديمة ، وبين الذين يرومون استبدالها بمقاييس أخرى ، فوقف إلى جانب هؤلاء . على انه لم يفعل ذلك في كل شعره ، وسرى انه تابع المحافظين حيناً وجرى معهم بعض الاحيان في سبلهم المعهودة .

قلنا إن أبا نواس كان يأخذ في شعره إخذ الشعوبية . وعلى ذكر الشعوبية نقول انها حركة قام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين إلى أصل فارسي ، وغايتهم تعظيم الفرس وحضارتهم ومقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب (ولا سيما أيام الأمويين) من روح التفوق والاستئثار بالمجد . وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم باليم سهامهم . نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ وابن دريد ، ومن الفريق الشعوبي . ابا عبيدة وسهل بن هرون والبيروني وجمزة الاصفهاني ، ولقد كان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تأثير ملموس في الأدب ، وقد اشرنا إلى تأثيرها في أبي نواس .

مقامه الأدبي واسلوبه الشعري

ذكرنا سابقاً انه كان واسع المعرفة متصلاً بحياة عصره الفكرية . وفي شعره ما يُشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين . على ان أهم ما يذكر له هنا تبحره في العلوم اللغوية والاسلامية ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع بجانب الاستكراه »^١ . وقال بعض الرواة : « كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلاً راوية عالماً »^٢ . وقال عن نفسه : « ما قلت الشعر

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٦ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٣ .

حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الخنساء ، فما ظنك بالرجال ؟
واني لأروي مئة أرجوزة لا تعرف ^١ .

ولقد تزول دهشتنا واستنكارنا ذلك إذا عرفنا ان أساتذته كانوا من
مشاهير العلماء والمحدثين . منهم ابو زيد الانصاري وابو عبيدة ابن المثنى
وعبد الواحد بن زياد وازهر السمان ويحيى القطان . ومنهم خلف الأحمر
الذي لزمه مدة غير يسيرة ^٢ . ولم يكتف بذلك بل قصد بادية بني أسد
وأخذ اللغة عن أعرابها ^٣ وقد روى عنه جماعة من أدباء ذلك العصر
وعلمائه .

أما النظم فيشهد بعلو كعبه فيه كبار أهل العربية . حدث الآمدي عن
المبرد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من ابي نواس » .
وحكى ابن الجراح عن ابن عكرمة عامر الضبي عن ابن السكيت ان
ابا عمر الشيباني قال : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاث لاحتججت
بشعره لأنه كان يُحكم القول ولا يخلطه ^٤ » . ولابن الاعرابي وابي عبيدة
وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة ^٥ . وإذا علمت ان الرواة وعلماء اللغة
لم يكونوا يحتجون بما بعد العصر الأموي علمت منزلة شاعرنا في نفوسهم .
وقد نُقل عن العتابي قوله : « والله لو أدرك هذا الخبيث الجاهلية
لما فضلت عليه أحداً ^٦ » . ولكي تعرف شيئاً عن نفسية اللغويين في
ذلك العصر ونظرهم إلى المحدثين ننقل لك عن الحصري القصة التالية ^٧ :

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٥٤ .

٢ ابن منظور ٢٣ و ٢٧ .

٣ ابن منظور ١٢ .

٤ ابن منظور ص ٢ و ٥٨ .

٥ راجع هذه الشهادات أيضاً لحزرة الاصفهاني في مقدمة ديوان ابي فراس (مصر) .

٦ ابن منظور ٥٧ .

٧ زهر الآداب ١ - ٢١٨ .

كان أبو عبد الله بن زياد الاعرابي يطعن على أبي نواس ويعيب شعره ويضعفه ويستلينه . فجمعه مع بعض رواة شعر أبي نواس مجلس ، والشيخ لا يعرفه . فقال له صاحب أبي نواس : أتعرف أعزك الله أحسن من هذا ، وأنشده شعراً ، فقال : لا والله . فلمن هو ؟ قال : للذي يقول :

رسم الكرى بين الجفون محيلٌ عفى عليه بكاءً عليك طويل
يا ناظراً ما اقلعت نظراته حتى تشعط بينهنّ قتيل

فطرب الشيخ وقال له : ويحك لمن هذا ؟ فوالله ما سمعت أجود منه لقديم ولا لحدث ؟ فقال : لا أخبرك أو تكتبه ، فكتبه . فقال : للذي يقول :

ركبٌ تساقوا على الاكوار بينهم كأس الكرى فانتشى المسقي والساق
ساروا فلم يقطعوا عقداً لراحلةٍ حتى اناخوا اليكم قبل اشراق
من كل جائلة الطرفين ناجيةٍ مشتاقة حملت اوصال مشتاق

فقال : لمن هذا ، وكتبه . فقال : للذي تدمته وتعيب شعره أبي علي الحكمي . فقال الشيخ : اكرم عليّ ، فوالله لا أعود لذلك أبداً . وهذه القصة إذا صحت تدل على تعصب « الأعرابيين » (أي الميالين إلى شعر الاعراب) على المحدثين كأبي نواس واضرابه .

وكان اسحق بن ابراهيم الموصلّي يتعصب على أبي نواس ويقول : « هو يخطيء » ، وكان اسحق في كل أحواله ينصر الاوائل ، فكنت أنشده جيد أقوال أبي نواس ، فلم يحفل به ، لما في نفسه . فأنشدته :

وخيمة ناطور برأس منيفةٍ تهمّ يدا من راحها بزيل

فكان على أمره . فقلت : والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لعلتها أفضل شيء سمعته قط^١ .

والغريب ان ما أصاب ابا نواس من تعصّب اسحق أصاب اسحق نفسه من تعصب أهل اللغة^١ . وهذا التعصب تجده في كل عصر وفي كل جيل .

فمن كل ما ذكر يؤخذ ان ابا نواس كان من كبار أهل اللغة وما منعهم من الاحتجاج بقوله الا إرفائه وانه من المحدثين . وقد وصف أسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف . قال محمد بن داود الجراح : « كان ابو نواس أجود الناس بديهة وارقتهم حاشية ، لسيناً بالشعر يقوله في كل حال ، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره^٢ » . ومثل ذلك قول ابن رشيقي : « لم يكن يؤثر التصنع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة ، وإنما يحيي الشعر على سجيته^٣ » . وقد انحى ابن عبد ربه على المبرّد باللائمة لسوء ما اختاره من شعر ابي نواس ، وقال : « قلما يأتي له بيت ضعيف لركة فطنته ، وسبوطه بنيته ، وعذوبة الفاظه . وكل أشعاره الخمریات بديعة لا نظير لها » . ونقل ما ذكره الجاحظ في كتاب الموالى من ان ابا نواس أقدر الناس على الشعر واطبعهم فيه^٤ . على ان ابن شرف القيرواني يخالف من تقدم ويصف شعر ابي نواس بالضعف وانه نافس في عند العوام كاسد عند النقاد^٥ .

ومع ما في أقوال هؤلاء العلماء مما يهمننا في درس شاعرنا لا نستطيع أن نعتمد عليها كل الاعتماد ، لأنهم كثيراً ما يكيلون الكلام جزافاً ، وكثيراً ما يدفعهم إلى القول نكتة في شعر أو جمال وصف في عبارة . ولسنا نرى آراءهم — على صحة الكثير منها — مستندة إلى دراسة نقدية يصح قبولها . فلا بدّ إذن من الرجوع إلى ديوان الشاعر والتحقيق فيه . وقد

١ راجع حديثه مع الاصمعي في ابن عساكر ٢ - ٤٢٤ .

٢ عن حمزة الاصفهاني مقدمة الديوان (مصر ١٨٩٨) .

٣ العمدة ١ - ٢٠٠ .

٤ راجع تفصيل ذلك في العقد ٣ - ٢٦٨ و ٢٦٩ .

٥ راجع تفصيل ذلك في اعلام الكلام (مصر ١٩٢٦) ٢٢ .

ظهر لنا منه ان ابا نواس يقف في شعره موقفين متناقضين : موقف المقلّد وموقف المجدّد . ففي فئة من قصائده يسير على سنن القدماء ، حتى كأنه أحدهم . وفي فئة أخرى ينزع إلى التجدد ، فينكر الاساليب القديمة ، ويدّسها ويحاول القضاء عليها . ولنتقدم إلى تأييد ذلك بأدلة من ديوانه :

الموقف الأول

وفيه (كما ترى في أكثر شعره المدحي والرثائي) يتكلف الاسلوب الأعرابي ، فيقف في مدحه على الطلول ، ويركب النياق ، ويقطع الهواجل ، ويأتي بمتوعّر الالفاظ ، بما يدل على سعة معرفته بأوايد اللغة وانه متأثر من محفوظاته الواسعة . وربما كان موقفه هذا هو الذي حمل الشيباني وسواه من علماء اللغة على التنويه بمقدرته اللغوية واحلاله الحل الرفيع بين أربابها . قال من قصيدة يمدح بها الرشيد :

يا حبّذا سفوان ^١ من متربّع	ولربما جمّع الهوى سفوان ^٢
وإذا مررت على الديار مسلّماً	فلغير دار أميمة الهجران
انّا نسبنا والمناسب ظنة	حقّ رُميت بنا وانتِ حصان ^١
لما نزعْتَ عن الغواية والصبا	وخذتِ بي الشّدنيّة المذعان ^٢
سبط ^٢ مشافرها دقيق خطمها	وكأنت سائر خلقها بفيان
واحتازها لون جرى في جلدها	يقق ^٢ كقرطاس الوليد هجان

ثمّ يصل على هذه الناقة إلى الممدوح ويعدد فضائله .

وله من قصيدة في مدح الأمين :

أقول والعيس تعرّوري الفلاة بنا صُعر الأعنة من مثني ووحدان

١ نسبنا أي تغزلنا في الشعر .

٢ الشّدنية المذعان أي الناقة السلسة الرأس .

لذات لَوثٍ عَفْرَنَةً عَذَافِرَةً كَأَن تَضْبِيرُهَا تَضْبِيرُ بَنِيَانٍ^١
يا نَاقٍ لَا تَسْأَلِي أَوْ تَبْلَغِي مَلَكًا تَقْبِيلَ رَاحَتِهِ وَالرَّكْنَ سَيِّتَانِ
وَقَالَ يَمْدَحُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ مِنْ قَصِيدَةٍ
مُطْلَعُهَا : « أَيُّهَا الْمُنْتَابُ مِنْ عَفْرَةٍ » :

ذَا وَمَغْبِرٌ مَخَارِمُهُ تَحْسِرُ الْإِبْصَارُ عَنْ قُطْرِهِ^٢
لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقَرِهِ
خَاضَ بِي لُجْئِيهِ ذُو جَرَزٍ^٣ يُفْعِمُ الْفَضْلَيْنِ مِنْ ضُفْرِهِ^٤
يَكْتَسِي عَثْنُونَهُ زَبْدًا فَنَصِيلَاهُ إِلَى نَحْوِهِ^٥
ثُمَّ يِعْتَمُ الْحَبَّاجُ بِهِ كَاعْتِمَامِ الْفُوفِ فِي عُشْرِهِ^٥
كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاطَلُهَا وَهُوَ لَمْ تَنْقُصْ قَسْوَى أَشْرِهِ
ثُمَّ ادْنَانِي إِلَى مَلِكٍ يَأْمَنُ الْجَانِي لَدَى حُجْرِهِ
وَمِثْلُ ذَلِكَ أَرْجُوزَتُهُ فِي الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَأَوَّلُهَا « وَبَلَدَةٌ فِيهَا زَوَرٌ »
وَهِيَ طَوِيلَةٌ يَصِفُ رُكُوبَهُ وَرَحِيلَهُ إِلَى الْمَدُوحِ فِي عِدَّةِ أَبْيَاتٍ مِنْهَا :

عَسَفْتُهَا عَلَى خَطَرٍ وَغَرَرٍ مِنَ الْغَرَرِ
بِبَازِلٍ حِينَ فَطَرَ يَهْزُهُ جَنُّ الْأَشْرِ^٦
لَا مَتَشَكٍّ مِنْ سَدَرٍ وَلَا قَرِيبٍ مِنَ الْخُورِ^٧
كَأَنَّهُ بَعْدَ الضَّمْرِ وَبَعْدَ مَا جَالَ الضَّفَرِ

-
- ١ ذات لوث أي ذات شدة . عفرنة شديدة كالاسد . تضيرها أي اكتناز اللحم فيها .
٢ يصف اتساع الصحراء ويريد بمغبر المخارم أي قفر كالح الطرق تكل الابصار دونه .
٣ و ٤ ذو جرز أي جبل مكتنز اللحم شديد . الضفر جمع ضفار وهو حزام الرجل . العثنون :
الذقن . النصيل ، الحنك .
٥ الحبجاج ، ما حول العين . والفوف القشر . والعشر شجر . ومعنى الابيات : قطعت إلى المدوح
صحراء واسعة لا يسكنها غير البقر الوحشي وكنت ممتطياً جلاً لقي من المشاق والحر ما لقي وهو
مع ذلك لم يزل في نشاطه حتى بلغت به إلى ملك ... الخ .
٦ البازل الجمل الذي طلع نابه . جن الاشر عنقوان البطر .
٧ السدر تحير النظر من شدة الحر . والخور الضعف .

وانمَجَّ في فحسراً^١ جَاب رِباع المَثْفَرِ^٢

وكلها على هذا المنوال .

فأنت ترى في كل هذه القصائد محاكاة للشعراء الاعراب من وصف ناقة أو فرس يركبها توصلًا إلى أميره . وربما كان يقصد ذلك أحيانًا تعزيزاً لمركزه الأدبي بين أدياء ذلك العصر . قال ابن رشيق بعد أن ذكر أن المولّد كان يتكلّف ذلك ليجري على سنن الاقدمين : « وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ، ومرت معها في تلك الطرائق ما هو مشهور في اشعارهم^٣ » .

ويظهر ذلك في رثائه لاستاذه خلف الأحمر ، ولراويته أبي البيداء الرباحي . فمن رثائه للأول :

لا تثل العصمُ في الهضاب ولا	شغواء تغذو فرخين في لجفٍ ^٤
تحنو بجؤشوشها على ضرْم	كقعدة المنحني من الحرف ^٥
ولا شَبوب باقت تَوَرَّقَه	النثرة منها بوابل قصف ^٦
غدا كوقف الهلوك ، ينهت	القطقط عن منبتيه والكتف ^٧
وفي مرثاته لأبي البيداء يقول :	
هل نخطى حنقه عفر بشاهقة	رعى باخيافا شتًا وطبّاقا ^٨
أو لقوة أمٌ انهمين في لجف	شبهتتها شفا خطمٍ وآماقا ^٩
أو ذو شياءٍ اغنّ الصوت ارّقه	وبلّ سري ماخض الودقين غيداقا
أو ذونحائض اشباه اذا نسقت	مناسجا وثنت ملطًا واطباقا

١ أي جرى فأعيا .

٢ حمار وحش قتي .

٣ العمدة ٢ - ٢٢٧ .

٤ - ٧ الشغواء العقاب . الجؤشوش الصدر . الضرْم فرخ العقاب . الشبوب الثور . النثرة اسم لثلاثة كواكب . القطقط المطر . وقف الهلوك أي أسوار الغانية شبه به لملاسته .

٨ عفر أي رعل . والشث والطباق نباتان .

٩ لقوة عقاب . أم نهيمين أم فرخين . اللجف سرة الوادي . وما يلي وصف لبعض حيوانات القفر .

شتون حتى إذا ما صيفن ذكرتها من منهل موردأ فاشتقن واشتاقا
يؤمّ عيناً بها زرقاء طامية يرى عليها لجين الماء اطراقاً^١
زار الحيام ابا البيداء مخترماً ولم يغادر له في الناس مطراقاً^٢

إلى آخر هذه الابيات وهذا الكلام الاعرابي القحّ . تأمل ذكره في
الرثاء للعفر ترعى الشثّ والطباق ، والقوة أمّ الانهيمين في لجف عال ،
والوبل الغيداق الماخض الودقين والشغواء تحنو بجؤشوشها على ضرم ، والشعوب
(الثور) ينهفت القطقط عن كتفه فتري ان شاعرنا الظريف خرج هنا
عن « حضارته البغدادية » إلى خشونة البداوة ، ولم يكتف بمجاراة الأولين
في ألفاظهم بل أخذ إخذهم في تشابيههم وصورهم الشعرية . ولا نرى
تعليلاً منطقياً لذلك إلا ان نقول : ان ابا نواس ، على ميله إلى الاسلوب
الحضري الجديد وعلى كرهه للاعراب وحياتهم ، لم يتحرر حالاً من
اسلوبهم إما لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم ، أو لثبوت
للرواة واللغويين مقدرته في اللغة . والذي يطالع ديوانه بتدقيق ويعارض ذلك
بآراء العلماء فيه يرى متانة النظم وحسن الصناعة في مدائحه ومراثيه ، ولكنه
لا يراه هناك ذا شخصية شعرية مستقلة - في هذا الموقف من شعره
يظهر لنا الشاعر مقيّداً بقيود الزمان خاضعاً لاحكام العادة سائراً في مجرى
« التقليد » العام . وإنما ابو نواس ابو نواس في موقفه الثاني .

الموقف الثاني

وهو مجلى عواطفه الطبيعية ووجدانه الحقيقي . وأكثر ما يكون ذلك في
مجالس اللهو والسرور . وقد صدق إذ قال عن نفسه : « لا أكاد أقول
شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال ارتضيها
من صلة أو وصل أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحال

١ مركباً بعضه فوق بعض .

٢ مطراق ، نظير .

أبياتاً لا أرضاها ١ :

فالشاعر الذي يحىء بالوصف الشائق والظرف الساحر ، فيجري الكلام من قلمه بلا كلفة ولا تصنع ، إنما يتجلى لنا عندما يجاري طبيعته ، كما يتجلى أبو نواس في خمرياته وملاهيته . هنا يترك التحذلق والتنطّس ويرسل عواطفه عبارات رائعة كقوله :

أترك الاطلال لا تعباً بها	إنها من كل بؤس دانيه
واشرب الخمر على تحريمها	إنما دنيائك دارٌ فانيه
من عقار من رآها قال لي	صيدت الشمس لنا في باطيه

وقوله :

وخمار أنخت اليه راحلي	إناخة قاطن والليل داج
فقلت له اسقني صهباء صرفاً	إذا مزجت توقد كالسراج
فقال فان عندي بنت عشر	فقلت له مقالة من يناجي
أذقنيها لأعلم ذاك منها	فأبرز قهوة ذات ارتجاج
كأن بنان ممسكها اشيمت	خضاباً حين تلمع في الزجاج

فشاعرنا في هذا الموقف يخرج عن الطريقة القديمة ، طريقة الوقوف على الطول وقطع الفاوز وتجشّم الاهوال توصلاً إلى مدح المقصود ، وعلى ذلك قوله :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ان لا يذكرها في شعره قال :

أعير شعرك الاطلال والمنزل القفرا	فقد طالما أزرى به نعتك الخفرا
دعاني إلى نعت الطول مسلطاً	تضيق ذراعي ان اردة له امرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة	وان كنت قد جشمتني مركباً وعرا

١ ابن منظور . . .

« فهو يحاهر بأن وصفه الاطلال والفقر إنما هو خشية الامام والا
فهو عنده فراغ وجهل^١ » .

ولم يكن ابو نواس على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها نسيج
وحده في ذلك . فقد تقدمه في الجاهلية والاسلام من وصف الخمر وأحوال
شاربيها ، نذكر منهم الاعشى وعديّ بن زيد ، ثم الاخطل والوليد بن
يزيد . والذي يراجع اشعار الوليد يرى بينها وبين اشعار ابي نواس من
أوجه الشبه ما يحملنا على الحكم بأن شاعرنا تأثر بطريقة الوليد . بل قد
ذهب أبو الفرج الاصفهاني إلى أبعد من ذلك فقال : « انه سلخ معاني
الوليد فجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع^٢ » . ولتبيان ما نذهب اليه
من تأثر ابي نواس بطريقة الوليد ننقل للأخير الابيات التالية ونترك
للقارئ مقابلتها بالشعر النواصي ، وهي على حد قول الاصفهاني تنبئ
عن نفسها^٣ . قال :

اصدع شجيّ الهموم بالطربِ	وانعم على الدهر بابنة العنبِ
واستقبل العيش في غضارتهِ	لا تقف منه آثار مُعتَقِبِ
من قهوة زانها تقادُها	فهيَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها	من الفتاة الكريمة النسبِ
فقد تجلّت ورقّ جواهرها	حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
فهي بغير المزاج من شرّ	وهي لدى المزج سائل الذهبِ

وللوليد اشعار كثيرة في الخمر والغزل تتلمّس فيها روح شاعرنا وطبقته
من مولّدي العصر العباسي^٤ .

* * *

ومع انصراف ابي نواس للعبث النسائي والغلماني لا نجد له في ذلك

١ المدة ١ - ١٥٥ .

٢ و ٣ الاغاني ٦ - ١١٠ .

٤ راجع الاغاني ٦ ص ٩٨ - ١٣٦ .

من جمال الشعر ما يضارع شعره الحمري . فغزله ، على عذوبته أحياناً وظرفه ، متخنت ضعيف . ولعله في الغزل الغلاني أصدق عاطفة منه في النسائي ، على انه في كليهما لا يحلو لنا غير الفرائز الحيوانية السفلى التي تمّ عن تحرق شهواني يصل إلى درجة الاسفاف أحياناً وشتان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغزل من عذريين وغير عذريين . ففي اشعار هؤلاء قد تجد ما يثير فيك عواطف النفس ، ويربك جمال الحب ، ويصور لك المرأة تصويراً يروقك أو يستهويك . أما في غزل شاعرنا النواسي فلا ترى غير جوارٍ مهتكات وغلان فاسدين ، وأوصاف تدل على ما بلغه بعض القوم يومئذٍ من الانحطاط الاجتماعي .

أما خمرياته فتدل ، برغم ما يشوبها أحياناً من سوء المجون ، على خفة روح عرف بها ابو نواس في عصره . وقد وصفه بعض معاصريه بقوله : « بأنه كان أظرف الناس منطقاً . مليح الكلمة حسن الإشارة فصيح اللسان عذب اللفاظ حلو الشائل » . حق قيل : « ولم يكن شاعر في عصره إلا » وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته . ويقرن هذه الخفة الروحية بجمال فنّي يستهوي القاري ، ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب .

اتبعه إلى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفية . (والحانات عادة في ضاحية منزوية وأصحابها من اليهود والنصارى) ها هو يلاطف صاحبها وقد تكون من اسمع النساء ، فيداعبها ويسترق منها قبلة أو يربت على ظهرها ، وفي يده الدنانير يضعها أمامها ، ويستخفها إلى تقديم أفضل الخمر الممتقة . ثم انظر كيف يقودك معه إلى قبو قديم تحت الحانة فيريك نسيج المنكبوت على الدنان ، ثم يريك الخمر وقد ضرب بالمبزل بعضها فخرجت الخمر صهباء مشرقة تطرد الظلام .

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ولست أشك أن الشاعر يصف حوادث واقعية في غراته الخمرية ،
وان أكن أميل إلى الاعتقاد انه أحياناً يخترع الحديث إبهاجاً لزملائه . وفي
كلتا الحالتين ترى شعر أبي نواس الحقيقي وترى تدفق شعوره الصريح .
واليك تلخيص خمرية أخرى توضح ما نقصد إليه :

وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي إلى بيت خمار ، فأخذنا نسير من
زقاق إلى زقاق حتى وصلنا إليه وقد هجع هو وأهل بيته . قرعنا الباب
فاستيقظ مذعوراً وتوجس شراً من ادلاجنا في مثل تلك الساعة فلم يشأ
أن يخبئنا بل :

تناوم خوفاً ان تكون سعاية وعأوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار خوفه وأيقن انّ الرجل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعيّاً ملتبساً له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشماً منحنيّاً أمامنا ، وهو يقول مرحباً بالكرام . وجاء
بالمصباح فقلنا له : أسرع ، لم يبق من الليل إلا بقية قليلة . هات لنا خمر ك
الطيبة :

فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كأسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها نسيم عبير ساطع ولهيب

ثم جاءت جارية بيدها مزهر فأخذت تغني لنا ونحن نشرب . وما
زلنا على هذي الحال ، كأس تذهب وكأس تجيء ، حتى غنت لنا
« سرى البرق غربياً فحنّ غريب » ففاضت مدامع العشاق منا وأمسينا
بين مسرور بنشوة الخمر وبالك من شدة الهوى ، حتى لاح الصباح
وقد غابت الشعري العبور وأقبلت نجوم الثريا بالصباح تؤوب

* * *

ولنسمعه يقص علينا بلسانه الخاص حديث زيارة أخرى الى بعض هذه
الحانات ، ويصف لنا الخمار وامراته وميزانها الغشوم وخمرها المعتقة ،

وكيف حمل الخمر إلى رفاق كانوا ينتظرونه في بستان ، فأقاموا ردها
من الزمن يتمتعون النفس بين الرياحين بعيدين عن أعين الرقباء
والحاسدين . قال :

إذا خطرت منك الهموم فداورها بكأسك حتى لا تكون هموم
إلى قوله :

فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً وقلبيّ من شوق يكاد يهيم
إلى بيت خمار افاد زحامه له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زقّ ودنّ ودورق وباطية تروي الفتى وتسليم
ودهقانة ميزانها نصب عينها وميزانها للمشتري غشوم
فاعطيتها صفراً وقبّلت رأسها على انني فيما أتيت مُلّيم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً فقلت نعم اني بذاك زعيم

وبعد أن تحضر له الخمر من قبر قديم عتقت فيه يقول :

فرحتُ بها في زورق قد كتمتها ومن أين للمسك الزكيّ كتوم
إلى فتية نادمتهم فحمدتهم وما في نِدامي ما علمت لثيم
فتمتعت نفسي والندامى بشرها فهذا شقاء مرّ بي ونعيم
لعمري لأن لم يغفر الله ذنبها فانّ عذابي في الحساب أليم

ولو سألت نفسك ما الذي يستخفّك في حديث كهذا - حديث الخمر
والعبث والمجون لصعب عليك الجواب ، ولكنه في الحقيقة مستتر في
تضاعيف الابيات - هو هذه الحفة الروحية في الشاعر - هذا الظرف
الادبي الذي كان يحبه إلى الناس . ولو انه كان غير ذلك - لو كان
سمج الروح واللسان ، لاستثقلته ولاشمازت نفسك من استماع أحاديثه .

شخصيته في شعره

ليس لأبي نواس في غير شعره الطبيعي (الغزلي والطردي والخمري)

شخصية خاصة . وقد مرت بنا صورته في غزله ، وانه هناك يحلو لنا ضعف النفس والنزعات البهيمية السافلة . أما طردياته فاراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز ، وما إلى ذلك من أسباب الصيد والطرود . وهو فيها شاب مرح يتنعم بقوة الشباب وعشرة أهل الرخاء ، ويقرن ذلك يجهال في الوصف ورشاقة في التعبير . وإليك مثالين من طردياته قال :

لما تجلّى الليل وابيض الأفق^١ وانجاب ستر الليل عن وجه الطرق^٢
 باكرني سهل الهيّا والخلق^٣ ندب^٤ إذا استندبته شهم لبق^٥
 يدعو إلى الصيد ألا قلت انطلق^٦ بأكلب غُضف صحيحات الحدق^٧
 من اصفر اللون ومبيض يقق^٨ كأنما اذناه من بعض الخرق^٩
 لو يلصق الخد باذن لالتصق

وقال ينمت كلباً اسمه خلاب لسمته حية فمات :

يا بؤس كلبى سيد الكلاب قد كان اغناني عن العقاب^١
 وكان قد اجزى عن القصاب وعن شرايى جلب الجلاب^٢
 يا عين جودي لي على «خلاب» من للظباء العفر والذئاب^٣
 خرجت والدنيا إلى تباب به وكان عدتي ونابي^٤
 اصفر قد خرّج بالملاب كأنما يدهن بالزرياب^٥
 فبينما نحن به في الغاب اذ برزت كالحة الانياب^٦
 رقشاء جرداء من الثياب لم ترع لي حقاً ولم تحابي^٧
 فخرّ وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب^٨

١ أي بدا النهار على الطريق .

٢ باكرني صديق شهم الخ .

٣ الغضف : المسترخية الآذان من الكلاب .

٤ جلب الجلاب أي العبيد .

٥ الزرياب ماء الذهب . والملاب طيب يشبه الزعفران .

لا أبتُ ان أبتِ بلا عقاب حتى تذوقي أوجع العذاب
 وكل طردياته على هذا النمط ، يصف فيها ما كان يتسلّى به أهل
 الرخاء من صيد الغزلان وسواها . وهي صورة رشيقة للبيئة التي كان يعيش
 فيها الشاعر .

* * *

قلنا انه في غزل ابي نواس تتجلى لنا « بهيميته » ، وفي طردياته
 مرحة وترفه . على ان في شخصيته شيئا أعمق من ذلك ننفذ اليه من خلال
 اقداحه ومجالس سكره . ففي شعره الخمرى يقرن البهيمية والمرح بتشاؤم
 قائم يذهب بأناقة الحياة ويحرّدها من كل قيمة وجمال . وانك إذا دقت
 في تحليل شعره لتتعرّف به إلى نفسيته الحقيقية تجده - على حبه للحياة -
 مستخفّا بها . فهو من طلاب اللذة السانحة ينصرف إلى الملاهي ليخدر
 أعصابه فلا يرى آلام الحياة ومتاعها قال :

غدوت إلى اللذات منتهك السر
 واهت عليّ الناس فيما أريده
 رأيت الليالي مرصّدة لمدي
 فبادرت لذاتي بمبادرة الدهر

وقد نقل المرزباني القصة التالية عن الجمار قال :

كنت عند ابي نواس . قال (ابو نواس) اسمع ابياتا حضرت . قلت
 هات ، فأنشدني :

وملحة باللوم تحسب اني	بالجهل أوثر صحبة الشطّار
بكرت عليّ تلومني فأجبتها	اني لأعرف مذهب الابرار
فدعي الملام فقد أطمعت غوايتي	وصرفت معرفتي إلى الانكار
ورأيت إتياني اللذّاذة والهوى	وتعجّلا من طيب هذي الدار
أحرى واحزم من تنظر آجل	علمي به رجم من الاخبار

١ أهل الخبث والدهاء .

ما جاءنا أحدٌ يخبر انه في جنةٍ مَنْ مات أو في نار
فلما بلغ إلى هذا البيت قلت له : يا هذا ان لك أعداء ، وهم
ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاستق الله في نفسك ودع الافراط في
المجون ، واكتمها . قال : لا والله ، لا اكتمها خوفاً ، وان قضي شيء
كان . فمني الخبر إلى الفضل بن الربيع ، ثم الى الرشيد ، فما كان
بعد هذا إلا اسبوع حتى حبس^١ .
ومن قوله :

أعاذل أقصري عن بعض لومي فراجي توبتي عندي يخيب
تعيّرني الذنوب وأي حرٍ من الفتيان ليس له ذنوب
غرّيت بتوبتي ولججت فيها فشقتي الآن جيبك لا اتوب

هذه هي روح ابي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد - يرى الموت
نهاية كل شيء فيقول لنفسه : وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء ؟
ويشعر بقوته وشبابه فيثب إلى غمار المسرات الزائلة ويخوض فيها
وهو يقول :

طربت إلى الصنج والمزهر وشرب المدامة بالأكبر
والقيت عني ثياب الهدى وخضت بحوراً من المنكر
واقبلت اسحب ذيل المجون وأمشي إلى القصف في مزر

ولا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة بل يقرنه باستخفاف بنواهي
الادب والشرعية كقوله :

ولاح لحاني كي يجيء ببدة وتلك لعمري خطة لا اطيعها
لحاني كي لا أشرب الخمر انها تورث وزراً فادحاً من يذوقها
فما زادني اللاحون إلا الحاجة عليها لاني ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

١ الموشح ٢٧٨ .

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر الا رحيقها
وقوله :

بكيت وما أبكي على دمنٍ قفر وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفاً واعلم انني أعزّر فيها بالثانين في ظهري
ولم يقل هذا الاستخفاف فيه تقدّمه نحو المشيب ، فمثله لا يقف
عن اعتبار أو نظر في العواقب بل عن ضعف أو كلال . اسمعه يذكر
أيام الشباب ، وكأنك تشعر بأسفه ان الدهر لم يبق له غير القوة على
معاقرة الخمر :

كان الشباب مطيّة الجهل ومحسن الضحكات والهزل
كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت اخطر صيّت النمل^١
كان المشفع في مأربه عند الفتاة ومدرّك التبّل^٢
والباعثي والناس قد رقدوا حتى أبیت خليفة البعل
والآمري حتى إذا عزمت^٣ نفسي أعان يدي^٢ بالفعل
فالآن صرت إلى مقاربة^٣ وحططت عن ظهر الصبار حلي^٣
والراح اهواها وان رزأت بُلغ المعاش وقلمت فضلي
إلى ان يقول :

فاعذر أخاك فانه رجل مرنت مسامعه على العذل

* * *

ولكن هل ادرك الشاعر ما يتوخاه من الدنيا ؟ نحن هنا أمام مسألة

١ الصيت شديد الصوت .

٢ التبّل أي الثأر .

٣ المقاربة ترك الغلو وقصد السداد .

عقلية لا يسمعنا الاغضاء عنها . والجواب عليها يتناول أحد أمرين :

١ - ان الحياة اثنان ما في أيدينا ، وان سعادتها قائمة على تفهم قيمتها الحقيقية والسعي لادراكها .

٢ - أو ان الحياة مهزلة لا قيمة لها ، وما على العاقل الا ان يتناساها بالانغماس في الملذات الدنيوية .

ولسنا الآن في مقام يمكننا من تحليل هاتين النظريتين تحليلاً فلسفياً وافياً ، على انه لا بد من القول ان الاولى منها نظرة جدية الى الحياة ، نظرة الى جمالها الحقيقي وفرصها الثمينة ، وان الثانية نظرة استخفاف بها وانصراف الى سخائفها .

في الاولى يحاول الانسان ان يسعى نحو مرمى عالٍ قد لا يحصل عليه ، ولكن السعادة كل السعادة في هذا السعي المتواصل ، وبعبارة أخرى في شعور الانسان بالتقدم نحو المثل العليا . وفي الثانية يمتلك الانسان خور العزيمة فيقف فشلاً ويحاول ان يستر فشله بمخدرات الحياة الباطلة . ومن أفضل الامثلة على ذلك ما تراه في رباعيات عمر الخيام من ميل الشاعر المفكر الى نسيان الوجود وآلامه بالخمير . ولعلّ الخيام تأثر بشعر ابي نواس ومذهبه ، وجرفته تيار التشاؤم الى هذه الحياة السلبية . وانك لتجالس ابا نواس في مجالس لهوه فتسمع قهقهته ونكاته ، ويطربك ظرفه وجمال حديثه ، وتعجبك خفة روحه بين أقداحه وندمائه ، ولكنك تستشف من وراء ذلك مرارة وتشاؤماً ، ربما كانا سبب عبثه بحقائق الحياة واسترساله في اسباب الملامية . ولا يظهر ذلك في ابّان قوته وريعان شبابه ظهوره بعد ان اضعفه الدهر وحط عن ظهر الصبار حله كما قال . ذلك الاستخفاف الذي عرف به وهو في نشاط العمر تحول أيام الضعف الى اسف مؤلم ، لا عن تقوى ولكن عن شعور بالفشل . كان يشرب الخمر ويقول غير مبالٍ :

الراح شيءٌ عجيبٌ انت شاربه فاشرب وان حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على حمراء صافية صرّ في الجنان ودعني اسكن النارا
ثم خدت فيه قوة الشباب وفارقتهُ أيام الهناء والرخاء فرأى ماضياً
متهتكاً وفرصاً ضائعة ونفساً شائبة بالمعاصي فصاح آسفاً :

دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلوا واراني اموت عضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الا نقصتني بمراًها بي جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليالي وأيامٍ تملّيتهنّ لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

قابل هذه الابيات بما ذكرناه سابقاً وقابلها بقوله :

ردّا عليّ الكأس انكما لا تدريان الكأس ما تجدي
خوفتاني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي
لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي
ان كنتم لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقوله من قصيدة :

ألم ترني ابحت الراح عِرضي وعضّ مراشف الظبي المليح
وأني عالم ان سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي

وانظر كيف تحوّل اشره إلى ضعف واستخفافه إلى شعور بالفشل .
وقد ذهب بعضهم انه كان يقترب ما يقترب اتكالا على الله ، ويستشهدون
على ذلك بقوله :

لا تحظر العفو ان كنت امرأاً حرجاً فان حظركه بالدين إزاراً

وقوله :

حق إذا الشيب فاجاني بطلعته أقبح بطلعة شيب غير مبهخوت

عند الغواني إذا ابصرن طلعتنه
فقد ندمت على ما كان من خَطَل
ادعوك سبحانك اللهم فاعف كما
أزّن بالصرم من ردّ وتشتيت
ومن إضاعة مكتوب المواقيت
عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت
أو قوله من قصيدة :

بادر شبابك قبل الشيب والعار
وحثث الكاس من بكر لابكار
إلى قوله :

فذاك قبل نزول الشيب عادتنا
لكننا نرتجي غفران غفّار
إلى آخر ما نراه من كلامه الزهدي . وليس ذلك بأدّل على التوبة
وحب التزهد والتجدد مما هو على الشعور بالضعف والخور والخوف .
جاء في الاغاني عن محمد بن ابراهيم الصوفي قال :

« دخلنا على ابي نواس نعوذه في علقته التي مات فيها ، فقال له علي
ابن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر
يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله عزّ وجل .
فبكى ساعة ثم قال ساندوني ساندوني . ثم قال أخوّف بالله عزّ وجل ،
وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن انس بن مالك ، قال :
قال رسول الله (صلعم) : لكل نبيّ شفاعة ، واني اختبأت شفاعتي لأهل
الكبائر من امتي يوم القيامة . أفتراني لا أكون منهم ؟ »

هذا الشعور بفشل الاباطيل هو الذي كان يدفع شاعرنا في أواخر أيامه
إلى الندم والتحسر ، وقد صدق الجرجاني إذ قال : « فلو كانت الديانة
عاراً على الشعر ، وكانت سوء الاعتقاد سبباً لتأخير الشاعر ، لوجب
أن يمحي اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدّت
الطبقات » .

على انه لا يجوز ان نحصر الحكم على فنّ الشاعر في منطقة الشرائع

الروحية والاجتماعية التي اتفق عليها المصلحون والمهذبون . فالشعر لا يتقيد بذلك ، وما جماله قائماً فقط على ما فيه من عبر وارشاد ، بل على ما يتجلّى فيه من شعور وحياة . الادب فنّ تتجلى فيه خوالج النفس ، وعلى هذا التجلّي تتوقف منزلة الشاعر الفنية .

نعم ان ابا نواس لم يزهد لتجدّد في طبيعته ، بل مات كما عاش . وقد ترك لنا شعراً يحفظ لا لسموّ عواطفه ، ولكن لحفّة روحه ، وجمال صنّعه ، ولتمثيله الخلاب لحياته وحياة بيئته .

المختار من شعر أبي نواس

١ — خمرياته ومجالس لهوه

وداوني بالتي

دع عنك لومي فلان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لو مستها حجر مسته سراء

* * *

قامت بباريقها والليل معتكر فلاح من وجهها في البيت لالاء^١
فارسلت من فم الابريق صافية كأنما اخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حق ما يلائها لطافة وجفعا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها حق تسولد انوار واضواء
دارت على فتية دار الزمان بهم^٢ فما يصيبهم الا بما شاءوا
لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة كانت تحل بها هند واسماء^٣
حاشا لدرة ان تبني الخيام لها وان تروح عليها الابل والشاء^٤

١ قبل هذا البيت بيت محذوف يصف به فتاة ساقية .

٢ وفي رواية — دان الزمان لهم .

٣ أي أنا ابكي عليها لا على الطول البالية .

٤ درة ، كناية عن الحبيبة .

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة^١ حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء^٢
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً أحرَجاً فان حظركه في الدين إزاراً^٣

لها مرح في كأسها

دع الربع ما للربع فيك نصيب^٤ وما ان سبتني زينب^٥ وكعب^٦
ولكن سبتني البابلية انها لمثلي في طول الزمان سلوب^٧
جفا الماء عنها في المزاج لأنها خيال لها بين العظام ديب^٨
إذا ذاقها من ذاقها حلقت به فليس له عقل يعد أديب^٩
وليلة دجن قد سریت بفتية^{١٠} تنازعها نحو المدام قلوب^{١١}
إلى بيت خمار ودون محله^{١٢} قصور منيفات لنا ودروب^{١٣}
ففرّج من إدلاجنا بعد هجمة^{١٤} وليس سوى ذي الكبرياء رقيب^{١٥}
تناوم خوفاً ان تكون سعاية^{١٦} وعأوده بعد الرقاد وجيب^{١٧}
ولما دعونا باسمه طار دُعره^{١٨} وابقن ان الرجل منه خصيب^{١٩}
وبادر نحو الباب سعيًا ملبيًا^{٢٠} له طرب بالزائرين عجيب^{٢١}
فاطلق عن ثأبيه وانكب ساجداً^{٢٢} لنا وهو فيما قد يظن مصيب^{٢٣}
وقال ادخلوا حبيبتكم من عصابة^{٢٤} فمزلكم سهل لدي رحيب^{٢٥}
وجاء بمصباح له فأناره^{٢٦} وكل الذي ينبغي لديه قريب^{٢٧}
فقلنا أرحنا هات ان كنت بائعاً^{٢٨} فان الدجى عن ملكه سيفيب^{٢٩}
فابدى لنا صباء تم شبابها^{٣٠} لها مرح في كأسها ووثوب^{٣١}
فلما اجتلاها للندامى بدا لها^{٣٢} نسيم عبير ساطع ولهب^{٣٣}
فجاء بها تحدو بها ذات مزهر^{٣٤} يتوق اليها الناظرون ربيب^{٣٥}

-
- ١ تعريض بالنظام احد رؤساء المعتزلة المتوفى ٨٢٣ هـ . والمعتزلة تشدد التكبير على مرتكبي المعاصي .
٢ أديب نعت عقل أي ليس له عقل أديب يعد في العقول .
٣ كانت الحانات عادة في محلات بعيدة عن أعين الناس .
٤ ذو الكبرياء أي الله ذو الكبر . والادلاج السير ليلاً .
٥ أي مغنية تحمل عوداً . والريبب المطيبة أو المنعمة .

فما زال يسقينا بكأس مجدة
وغننى لنا صوتاً بحسن ترجع
فمن كان منا عاشقاً فاض دمه
فمن بين مسرور وباكٍ من الهوى
وقد غابت الشعرى العبور واقبلت
تؤلى واخرى بعد ذاك تؤوب
«سرى البرق غربياً فحنّ غريب»
وعاوده بعد السرور نجيب
وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
نجوم الثرى بالصباح تثوب

وحسبك ضوءها مصباحا

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة
بأدر صباحك بالصبوح ولا تكن
ان الصبوح جلاء كل مخمّر
وخدين لذات معلّل صاحب
نبتته والليل ملتبس به
قال ابغني المصباح قلت له اتد
فسكبت منها في الزجاج شربة
من قهوة^٢ جاءتك قبل مزاجها
صهباة تفترس النفوس فما ترى
شكّ البزال^٣ فؤادها فكأنما
عمرت يكاتمك الزمان حديشها
فاشاع من اسرارها مستودعا
فاتتك في صور تداخلها البلا
فكأنها والكأس ساطعة بها
وأملته ديك الصباح صياحا
غرداً يصفق بالجنح جناحا^١
كمسوفين غدوا عليك شحاحا
بدرت يديه بكأسه الاصباحا
يقتات منه فكاهة ومزاحا
وأزحت عنه نقابه فانزاحا
حسي وحسبك ضوءها مصباحا
كانت له حتى الصباح صياحا
عطلاً فألبسها المزاج وشاحا
منها بهنّ سوى السبات جراحا
اهدت اليك برمجها تفتاحا
حتى إذا بلغ السامة باحا
لولا الملامة لم يكن ليباحا
فازالهنّ واثبت الأشباحا
صبح تقارب امره فانصاحا

١ بسدفة أي قبيل الفجر .

٢ القهوة من أسماء الخمر .

٣ حديدة يفتح بها الدن .

روحان في جسد

ما زلت استلُّ روح الدنَّ في لُطفٍ واستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنت ولي روحان في جسدي والدنَّ منطرح جسمًا بلا روح

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر

عاج الشقيّ على رسم يسائه وعجت أسأل عن ختارة البلد^١
يبكي على طلل الماضين من أسدي لا درّ درّك قل لي من بنو اسد
ومن قيمٍ ومن قيسٍ ولفمها؟ ليس الاعاريب عند الله من احد
لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمرٍ في دساكرها وبين باكٍ على نُؤيٍ ومنتضدٍ^٢
دع ذا عدمتك واشربها معتقة صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كف مضطمر الزنار معتدل كأنه غصن بانٍ غير ذي أودٍ
أما رأيت وجوه الارض قد نضرت وألبستها الزرابي نثرة^٣ الاسد
حاك الربيع بها وشيا وجللها بيانع الزهر من مثني ومن واحد
واستوفت الخمر احوالاً مجرّمة وافترّ عيشك عن لذاتك الجدد
فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها لا تدخر اليوم شيئاً خوف فقرٍ غد
يا عاذلي قد أتتني منك بادرة فان تغمّدها عفوي فلا تعدّ
لو كان لومك نصحاً كنت أقبله لكن لومك موضوعٌ على الحسد

تفتر عن در

خفيت عليك محاسن الخمر أم غيّرتك نوائب الدهر

-
- ١ يريد بالشقي هنا الشاعر الذي يبكي على الطلول .
٢ ما أعظم الفرق بين من يصف الخمر ومواطنها وبين من يبكي على الآثار . والنؤي الحفرة حول الخيمة . والمنتضد المقام أو ما نضد من متاع الخيمة .
٣ نثرة الاسد اسم لثلاثة كواكب ، يريد بذلك أن مطرها البس الارض بسطاً من الازهار .

فصرفت وجهك عن معتقة^١ تفترّ عن دُرٍّ وعن شذر^١
يسمى بها ذو غنّة غنج^٢ متكحلّ اللّحظّات بالسحر
ونسيت قولك حين تشربها فتزول مثل كواكب النّسر^٣
« لا تحسبنّ عُنُقار خابية^٤ » والهمّ يجتمعان في صدر

اقمنا بها

ودارِ ندامي عطّلوها وادجلوا بها أثرٌ منهم جديد ودارم^٥
مساحب من جر الزقاق على الثرى واضغات رِيحان جنبي ويابس
ولم أرَ منهم غير ما شهدت به بشرقيّ ساباط الديار البسابس^٣
حبست بها صبحي فجددت عهدهم واني على امثال تلك لحابس
اقمنا بها يوماً ويومين بعده ويوماً له يوم الترحّل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية^٤ حبتها بأنواع التصاوير فارس^٤
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهي قدّريها بالقسيّ الفوارس
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

اجدت ابا عمرو فجود لنا الخمر

وفتيانٍ صدق قد صرفت مَطيّهم إلى بيت خَمّار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّار ان ليس مسلما ظننا به خيراً فظنّ بنا شرّاً
فقلنا على دين المسيح ابن مريم ؟ فاعرض مزوراً وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديّ يحبّك ظاهراً ويضمّر في المكنون منه لك الغدرا

١ الشذر قطع الذهب .

٢ كوكب النسر اسم نجم ، أي فتغيب في الفم غياب ضوء النجم وراء الأفق .

٣ ساباط مكان بالمداين ، وهذه الابيات قبلت في مجلس هو هناك (زهر الآداب للحصري ،

٣ - ١٧٥) .

٤ عسجدية أي كأس ذهبية عليها صور فارسية .

فقلت له ما الاسم قال سمّوأل
وما شرّفتني كنية عربية
ولكنها خفّت وقلّ حروفها
فقلنا له عجباً بظرف لسانه
فأدبر كالمزورّ يقسم طرفه
وقال لعمرى لو نزلتم بغيرنا
فجاء بها زيتيّة ذهبيّة
خرجنا على انّ المقام ثلاثة
عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم
إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم

ولكنني أكنى بعمرى ولا عمرا^١
ولا اكسبتني لا ثناء ولا فخرا
وليس كأخرى إنما جعلت وقرا^٢
اجدت ابا عمرو فجود لنا الخمر
لأرجلنا شطراً واوجهنّا شطرا
للمناكم لكن سنوسعكم عذرا
فلم نستطع دون السجود لها صبرا
فطابت لنا حتى اقننا بها شهرا
وان كنت منهم لا بريئاً ولا صفرا
يحثّونها حتى تفوتهم سكر

رضيت من الدنيا بكأس وشادن

غدوت على اللذات منتهك الستر
وهان عليّ الناس فيما أريده
رأيت الليالي مُرصداتٍ لمدّتي
رضيت من الدنيا بكأس وشادن
مُدام ربت في حِجر نوح يديرها
صحيح مريض الجفن مُدنٍ مباعد
كانّ ضياء الشمس نيط بوجهه
إذا ما بدت ازرار جيب قميصه
فاحسن من ركض إلى حومة الوغى
فلا خير في قوم قدور عليهم

وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر
بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
فبادرت لذاتي مبادرة الدهر
تحيّر في تفصيله فطّين الفكر
عليّ ثقل الردف مطّمر الخصر
يميت ويحيي بالوصال وبالهجّر
وبدر الدجى بين الترائب والنحر
تطلّع منه صورة القمر البدر
واحسن عندي من خروج إلى النحر^٣
كؤوس المنايا بالمشقة السمر

١ أي أدعى ابا عمرو وليس لي ولد بهذا الاسم .

٢ وليست كالكنية الأخرى الثقيلة .

٣ ذاك عندي أفضل من جهاد الحرب وأفضل من أن اخرج إلى نحر الذبائح .

تحياتهم في كل يوم وليلة ظبى المشرفيات المزيرة للقبر

واهتدى ساري الظلام بها

يا شقيق النفس من حَكَمٍ	نمتَ عن ليلي ولم أنم ^١
فاسقني البكر التي اختمرت	بخمار الشيب في الرَّحِمِ ^٢
ثُمَّتْ انصات الشباب لها	بعد ما جازت مدى الهرم
فهي لليوم التي بُزِلَتْ	وهي قِرب الدهر في القِدم
عُتِقَتْ حتى لو اتصلت	بلسانٍ ناطقٍ وفم
لاحتبت في القوم ماثلة	ثم قصت قصة الامم ^٣
فرعتها بالمزاج يد	خلقت لل سيف والقلم
في ندامى سادة زُهْرٍ	أخذوا اللذات من أمم ^٤
فتمشّت في مفاصلهم	كتمشّي البرء في السقم
فعلت في البيت إذ مزجت	مثل فعل الصبح في الظلّم
واهتدى ساري الظلام بها	كاهتداء السّفَرِ بالعلم ^٥

فهذا شقاء مر بي ونعيم

إذا خطرت منك الهموم فداوها	بكأسك حتى لا تكون همومُ
أدرّها وخذها قهوةً بابليةً	لها بين بُصرى والعراق كرومُ
ولا عرفت نارا ولا قِدر طابخ	سوى حرّ شمسٍ إذ تهيج سَموم

١ حكم اسم القبيلة التي كان ينتمي إليها .

٢ لهذا البيت عدة تفاسير منها: ان خمار الشيب هو نسج المنكبوت الذي حول الدن . وقد كنى عن الدن بالرحم . ومنها ان الشيب اشارة إلى ما يعاين الكرم من الوبر الابيض . والكرمة رحم الخمر على الجاز .

٣ أي جلست القرفصاء وأخذت تقص عليهم أخبار الاقدمين .

٤ من أمم أي من أقرب الطرق .

٥ كما يهتدي المسافرون بأعلام الطريق .

لها من ذكيّ المسك ريح زكيّة
 فشمرت أثوابي وهرولت مسرعاً
 إلى بيت ختار افاد زحامه^١
 وفي بيته زرق ودن ودورق
 فأزقاه سود وحرّ دنانسه
 ودهقانة^٢ ميزانها نصب عينها
 فأعطيتها صُفراً وقبّلت رأسها
 وقلت لها هزّي الدنان قديمة^٣
 الست تراها قد تعفّت رسومها
 ذخيرة دهقان^٤ حواها لنفسه
 فقلت بكم رطل^٥؟ فقالت باصفر
 فرحت بها في زورق قد كتمتها
 إلى فتية نادمتهم فحمدتهم
 فتمتعت نفسي والتدامي بشربها
 لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها

ومن طيب ريح الزعفران نسيم^٦
 وقلبي من شوق يكاد يهيم
 له ثروة والوجه منه بهيم
 وباطية تروي الفتى وتسيم
 ففي البيت حبشان لديه وروم
 وميزانها للمشتري غشوم^٧
 على انني فيما اتيت ملّيم
 فقالت نعم اني بذلك زعيم
 كما قد تعفّت للديار رسوم^٨
 إذا ملك اخنى عليه غشوم
 فحزت زقاقاً وزرهن عظيم
 ومن أين للمسك الزكيّ كتوم
 وما في نيدامي ما علمت لثيم
 فهذا شقاء مرّ بي ونعيم
 فان عذابي في الحساب أليم

فسلها بالروح والريحان

لا تخشعن لطارق الحداث
 أو ما ترى أيدي السحائب رقت
 من سوسن غض القطاف وأخزم
 وجني ورد يستبيك بحسنه

وادفع همومك بالشراب القاني
 حلل الثرى ببدايع الريحان
 وبنفسج وشقائق النعمان
 مثل الشموس طلعت من اغصان

١ افاده أي أربحه مالا .

٢ دهقانة أي سيدة وهي البائعة هنا .

٣ هذا البيت وما بعده يصف قدم هذه الخمرة وانها كانت محفوظة لدهقان في دنان نسج عليها العنكبوت لسيجه فأصبحت لا يميز أحدهما من الآخر .

٤ الدهقان كلمة فارسية معناها رئيس الاقليم .

حمراً وبيضا يُجتنين وأصفرأ
كعقود ياقوت نُسْظمن ولؤلؤ
ومن الزبرجد حولهن ممثلاً
فاذا الهموم تعاورتك فسلها
وملوتنا ببدايع الألوان
اوساطهن قلائد العقيان
سِمْطاً يلوح بجانب البستان
بالراح والريحان والندمان

ديني لنفسي ودين الناس للناس

لاني عشقت وما بالعشق من باس
ما لي وللناس لم يلحونني سفها
ما للعداة إذا ما زرت مالكتي
الله يعلم ما تركي زيارتكم
ولو قدرت على الاتيان جئتكم
وقد قرأت كتاباً من صحائفكم
ما مرّ مثل الهوى شيء على راسي
ديني لنفسي ودين الناس للناس
كأنّ اوجههم تطلّى بأنقاس^١
الا مخافة اعدائي وحراسي
سعيّاً على الوجه أو مشياً على الراس
لا يرحم الله الا راحم الناس

نشقى ويلتذ خيالانا

إذا التقى في النوم طيفانا
يا قرّة العين فما بالنا
لو شئت اذ احسنت لي نائماً
يا عاشقين التقيا في الكرى
كذلك الاحلام غرارة
عاد لنا الوصل كما كانا
نشقى ويلتذ خيالانا
اتمت احسانك يقظانا
فأصبعا غضبي وغضبانا
وانما تصدق أحيانا

ومن أقواله في جنان :

غضبت لهوى في الكتاب كثير
كتب الكتاب على خلاف ضميره
لا والذي ان شاء صيرنا معاً
قالت أراد خيانتني وغروري
فالحو فيه لكثرة التغير
فاداك من حزن هناك سروري

١ انقاس جمع نفس وهو الخبر الاسود .

ما كان ذاك لما أتى من قولها مني ولا للسهو والتقصير
كتبت يميني والدموع سواكب صفة اللسان بما يكنّ ضميري
فالمحو من قبّل الدموع وانما تجري دموع العاشق المهجور
وقال :

أين الجواب وأين ردّ رسائي قالت ستنظر ردّها من قابل
فددت كفي ثم قلت تصدّقوا قالت نعم بحجارة وجنادل
ان كنت مسكيناً فجاوز بابنا وارجع فما لك عندنا من تائل
يا زاهر المسكين عند سؤاله الله عاتب في انتهار السائل

٢ — من مدائح واوصافه

وهو لا يخرج في معظمها عن مذاهب الشعراء المتقدمين

قال يمدح الأمين

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ؟ ضامتكِ والايام ليس تضام
عَرِمَ الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين ، وللزمان عُرَام
أيام لا أغشى لأهلك منزلاً الا مراقبةً عليّ ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللوحيت اساموا^١
وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه فاذا عَصارة كل ذاك إثم
وإذا المطيّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الثرى فلها علينا حرمة وذمام

١ نهز بالدلو أي ضرب بها الماء لتعتلى . ومعنى البيت انه شارك الغواة في لهُومهم وماشاهم في ضلالهم .

رَفَعَ الحِجَابَ لَنَا فَلَاحَ لَنَاظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دُونَهُ الْأَوْهَامَ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَمْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامَ
فَالْبَهْوُ^١ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خِلَافَةٍ لِبَسِ الشَّبَابَ بِنُورِهِ الْإِسْلَامَ
أَنْ الَّذِي يُرْضِي الْإِلَهَ بِهَيْدِهِ مَلِكٌ تَرُدِّي الْمَلِكَ وَهُوَ غَلَامٌ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَسَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأَى يَفْلُ السِّيفَ وَهُوَ حَسَامٌ
فَسَلِمْتَ لِلْأَمْرِ الَّذِي تَرْجَى لَهُ وَتَقَاعَسْتَ عَنْ يَوْمِكَ الْإِيَامَ

وقال يمدح الفضل بن الربيع

وعظمتك واعظة القتير^٢ ونهتك آية الكبير^٣
ورددت ما كنت استعير^٤ ت من الشباب إلى المُعِيرِ
فالآن صرت إلى النهى^٥ وبلوت عاقبة السرور^٦
هذا وبحر تنائف^٧ وعرا الاجازة والعبور^٨
للجن فيه حاضرا^٩ جم المجالس والسمير^{١٠}
قاربت من مبسوطه^{١١} بالعنتريس العيسجور^{١٢}
لأزور صفو الله في الـ دنيا من الكرم الخطير^{١٣}
يا فضل جاوزت المدى فجالت عن شبه النظير
انت المعظم والمكبر في العيون وفي الصدور
فاذا العقول تفاظنتك عرضن في كرم وخير^{١٤}

١ البهو البيت المقدم امام البيوت ويراد به هنا قصر الخلافة .

٢ القتير الشيب أو أوله ، والاية العظمة والبهجة والكبر والنخوة .

٣ النهى العقل . وبلوت اختبرت .

٤ التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .

٥ الحاضر من معانيه الحي العظيم . والسمير المسامر ولا يكون إلا بالليل .

٦ العنتريس الناقة الغليظة الوثيقة . والعيسجور الناقة السريعة .

٧ من الكرم متعلق بصفو . والخطير الرفيع .

٨ تفاظنتك تصورتك بفطنة . والخير (بالكسر) الكرم والشرف .

وإذا العيون تأملتك صدرت عن طرف حسير
 ما زلت في عقل الكبير وانت في سنّ الصغير
 حتى تعصّرت الشبيبة واكتسبت من القتير^١
 عفّ المداخل والمخارج والغريزة والضمير
 والله خصّ بك الخليفة فاصطفاك على بصير
 فاذا آلات بك الامور كفيته قسّم الامور^٢
 من قاس غيركم بكم قاس الثماد على البحور^٣
 أين القليل بنو القليل من الكثير بني الكثير
 قوم كفوا ابناء مكة نازل الخطب الكبير
 فتداركوا جزر الخلافة وهي شاسعة النصير^٤
 لولا مقامهم بها هوت الروامي من ثبير

ومن لطائفه قوله يصف بعض سفن الأمين

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المهراب^٥
 فاذا ما ركبه سرن برّاً سار في الماء راكباً ليث غاب^٦
 اسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشّدق كالح الانياب^٧
 لا يعانیه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب
 عجب الناس إذ رأوه على صرة ليث يمرّ مرّاً السحاب

-
- ١ تعصرت أي عصرت مرة بعد مرة . والقتير الشيب .
 ٢ الآلات بك الامور : استودعك إياها . والقسم جمع قسمة وهي المهالك والمصاعب .
 ٣ الثماد الماء القليل .
 ٤ الجزر قطع الشاة المذبوحة ، أي تداركوا الخلافة من التجزؤ .
 ٥ صاحب المهراب هو سليمان الحكيم .
 ٦ كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة وهي الليث والعقاب والدلفين .
 ٧ أهرت الشّدق أي واسعه .

سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتْ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتِ زَوَرٍ وَمُنْسَرٍ وَجَنَاحِينَ تَشَقُّ الْعُبابِ بَعْدَ الْعِبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَعْجَلُوهَا بِجِيئَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَابْقَا هـ وَأَبْقَى لَهُ رِءَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ هَاشِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

وقوله متظارفاً يخاطب الفضل

أَنْتَ يَا ابْنَ الرَّبِيعِ أَلْزَمْتَنِي النَّسْكَ وَعَوَّدْتَنِيهِ وَالْخَيْرَ عَادَهُ
فَارْعَوِي بَاطِلِي وَأَقْصِرْ حَبْلِي وَتَبَدَّلْتُ عَفَّةً وَزَهَادَهُ
لَوْ تَرَانِي أَذْكَرْتَ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيَّ فِي حَسَنِ سَمْتِهِ أَوْ قِتَادَهُ^١
الْمَسَابِيحِ فِي ذِرَاعِيٍّ وَالْمَصْحَفِ فِي لَبَّتِي مَكَانَ الْقِلَادَةِ
فَادْعُ بِي لَا عَدَمْتَ تَقْوِيمَ مِثْلِي وَتَفْطِنُ لِمَوْعِدِ السَّجَادَةِ
تَرِ إِثْرًا مِنَ الصَّلَاةِ بِوَجْهِ تَوْقِنِ النَّفْسِ أَنَّهَا مِنْ عِبَادَةِ
لَوْ رَأَاهَا بَعْضُ الْمَرَاثِينَ يَوْمًا لِاشْتَرَاهَا يُعَدُّهَا لِلشَّهَادَةِ
وَلَقَدْ طَالَمَا شَقِيتَ وَلَكِنْ أَدْرَكْتَنِي عَلَى يَدَيْكَ السَّعَادَةِ

وله مدائح مشهورة في العباس بن عبيد الله، وابن أبي جعفر المنصور،
وفي الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير خراج مصر. فلتراجع في
ديوانه .

من شعره الجدي

وهو يمثل شعوره وقد عجز وسئم حياة الخلعة والمجون

إذا امتحن الدنيا لبيب

أَيَا رُبَّ وَجْهٍ فِي التَّرَابِ عَتِيقٍ - وَيَا رُبَّ حَسَنٍ فِي التَّرَابِ رَقِيقٍ -

١ الحسن البصري وقتادة إمامان معروفان من أهل القرن الأول .

ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأي في التراب وثيق
أرى كل حيّ هالكاً وابن هالك وذا حسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار انك ظاعن إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوّ في ثياب صديق

وعليك القصد

خلّ جنبيك لرام وامض عنه بسلام
متّ بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمزح مغاليق الحِمام
ربّ لفظ ساق آجا لَ نيام وقيام
إنما السالم من أجم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحة منهم والسقام
وعليك القصد ان القصد ابقى للجَمَام^١
شبت يا هذا وما تترك اخلاق الغلام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

كأني لا أعود

ألم ترني أبَحْتُ^١ اللهو نفسي وديني واعتكفت على المعاصي
كأني لا أعود إلى معاد ولا أخشى هنالك من قصاص

فاني قد شبت^٢

ايا من بين باطية وزقّ وعود في يدَي غان مغنّي
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صونها فإليك عني

١ أي اعتدل ان الاعتدال ابقى للقوة .

٢ وتروى هذه الايات ايضاً لأبي العتاهية .

فاني قد شبت من المعاصي ومن إدمانها وشبعن مني
ومن أسوا واقبح من لبيب يرى متطرباً في مثل سني

وقال يرثي نفسه وقد شارف الموت

دب فيّ الفناء سُفلاً وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي إلاّ نقصتني برّها بي جزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نِضوا^١
لهف نفسي على ليالي وأيام تملّيتهن لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

١ النضر الثوب البالي ، اي بعد ان اصبحت عاجزاً .

ابو المتاهية

اسماعيل بن القاسم

١٣٠ - ٢١١ أو ٢١٢ هـ
(٧٤٨ - ٨٢٨ م)



مصادر دراسته - كلمة في نسبه واتهامه بالزندقة - حياته الادبية - رسالته
الشعرية - مقابلته بأبي نواس - شاعريته - حسناته وسيئاته الفنية

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٠٥ - ١٠٨
الشعر والشعراء لابن قتيبة (لندن) ص ٤٩٧ - ٥٠١
مروج الذهب للمسعودي ج ٢ في أخبار المهدي والرشيد
الآغانى (بولاق) ج ٣ ص ١٢٦ - ١٨٣
ج ٦ ص ١٨٦
ج ٨ ص ٢٤
ج ١٦ ص ١٤٩ - ١٥٠
الموشح للحرزباني ص ١٥٤ - ٢٦٣
زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٥ - ٣٩
العمدة (هندية) ٢ - ١٠٦
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مصر) ج ٦ ص ٢٥٠ - ٢٦٠
وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٠ - ١٠٣
مقدمة ديوان أبي العتاهية ، رواية النمرى (طبع الآباء اليسوعيين ، بيروت)
وأخبار متفرقة في الكامل والفهرست والعمدة وغيرها .

نسبه ونشاته

في كل عصر وفي كل قطر ، إذا كثرت أسباب الفنى والترف ، نشأ في المجتمع البشري مجريان متطرفان ، الاول مجرى العبث والخلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتقشف .

في الاول ترى المسترسلين في الموبقات والشهوات الجارين مع الاهواء إلى أقصى الغايات ، وفي الثاني ترى الذين عافت نفوسهم ملذات الدنيا ، فنكّبوا عنها إلى زوايا الزهد ينعمون إلى الناس زخارفها ، ويدعونهم إلى نبذها والنظر إلى ما وراءها . وكما يمثل ابو نواس في عصره الفئة الاولى ويعكس لنا حياتهم وعواطفهم ، يمثل زميله ومعاصره ابو العتاهية الفئة الثانية ويعكس لنا في ديوانه عواطف المتطرفين من الروحيين والاخلاقيين .

* * *

نشأ شاعرنا في الكوفة ، حتى اذا نضجت صناعة الشعر فيه أمّ بغداد فاتّصل ببلاط العباسيين ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون وقد بلغ الثمانين . وقبل البحث في شعره نذكر نقطتين لم يوضحهما مؤرخوه تمام الايضاح وهما نسبه وزندقته . فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان نكلسون وهوار^١ ان ابا العتاهية عربي الاصل . واذا راجعت ما أورده الاصفهاني وابن خلكان ومن نقل عنها رأيهم يتفقون على نسبته إلى عتزة بالولاء . ففي الاغاني عن محمد بن موسى قوله : « ولاء ابي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ، ومن قبل أمه لبني زهرة^٢ » .

Nicholson, Lit. Hist. 296 - Huart. Hist. of Ar. Lit. 74 ٦

٢ الاغاني ٣ - ١٢٧ .

ولعلّ في اسم بلدته التي ولد فيها ما حداهم الى ذلك القول ، فقد ولد في « عين التمر » وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز . والحقيقة ان في العراق بلدة تعرف بهذا الاسم ^١ . والاصح ان تكون هي مسقط رأس الشاعر . فانه نشأ في الكوفة والكوفة وعين التمر كلاهما من سقي الفرات . وما قد يؤيد صحة هذا القول ان بعضهم كان يتهمة بالزندقة ^٢ ، ولم يكن يُتَّهم بها عادة الا الذين يمتنّون بنسب الى الفرس . ولم يكن ابو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طول حياة يزيد بن منصور الحِميري يدّعي انه مولى لليمن وينتفي من عنزة . فلما مات يزيد رجع الى ولاته الأول ^٣ ، وما ذلك فعل من ينتسب نسباً صريحاً الى العرب .

أما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا ابا العتاهية . وكل ما رأينا من هذا القبيل ان قوماً من أهل عصره كانوا ينسبون الى القول بمذهب الفلاسفة ويحتجّون بأن شعره انما هو في ذكر الموت دون الآخرة ^٤ وهو ليس بصحيح . وقد توهم المستشرق كولدزير من البيت التالي :

إذا أردت شريف الناس كلّهم فانظر الى ملك في زي مسكين
ان الشاعر ينوّه بفضل بوذا . والحق ما ذكره نكلسون من ان ذلك لا يراد به غير وصف التقى الزاهد ، دون الاشارة الى شخص خاص ^٥ .
وما نسب فيه الى الزندقة الابيات التالية ^٦ :

١ ابن خلكان ١ - ١٠٠ ومعجم البلدان لياقوت .

٢ ابن قتيبة (ليدن) ٤٩٧ .

٣ الاغانى ٣ - ١٤١ .

٤ الاغانى ٣ - ١٢٦ ، راجع ايضاً وفيات الاعيان تحت ترجمة ابن المعتز .

٥ Lit. Hist. of the Arabs 297

٦ ابن قتيبة (ليدن) ٥٠١ .

اذا ما استجزت الشك في بعض ما ترى فما لا تراه الدهر أمضى واجوز

* * *

وقوله في عتبة ١ :

يا رب لو انسيئنيها بما في جنّة الفردوس لم انسها

* * *

ان المليك رآك احسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وليس في هذه الابيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجري على لسان المؤمن لتقرير أو إيضاح معنى شعري . ونقلوا عن الصولي قوله بالجوهرين المتضادين كالتنوية ، وقوله بالجبر وما شاكل ٢ . وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه : « وكان ابو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين فتقلب على اطوار شتى شأن الذين يحلّون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد ٣ » . على ان الناظر في شعره لا يجد فيه غير رجل متزيّ بزي الفقراء متغنّ بأناشيد الزهد . وليس فيه أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

حياته الأدبية

تظهر لنا حياة ابي العتاهية في مظهرين : حياة الغزل والمنادمة ، وحياة الوعظ والتكشف . فقد اجمع المؤرخون على ان شاعرنا كان في أول أمره يعيش كسائر شعراء عصره فيمدح ويرثي ويتغزل . وفي القصيدة التي أنشدها يوم تولّى المهدي الخلافة ما يدلّ على علو كعبه في باب المديح ، فقد روي أن الشاعر بشاراً سمعه ينشد هذه القصيدة التي يقول فيها :

١ الاغاني ٣ - ١٥١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٢٨ .

٣ تاريخ آداب اللغة ٢ - ٦٨ .

أنته الخلافة منقادةً اليه تجرّر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تقطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها
فاهتزّ بشار طرباً وقال لمن حوله : « ويحكم انظروا ألم يطر الخليفة
عن أعواده » .

وله في الغزل أيضاً لطائف تذكر . ولقد انصرف في أول عهده إلى
حياة اللهو والتهتك واشتهر بها حتى زعموا انه كني بأبي العتاهية لانه
كان يحب التهتك والمجون والتعتة^١ .

ولكنه لم يكذب يبلغ الخمسين حتى تحوّل عن سبيلهم . وكان ذلك على
ما رواه صاحب الاغانى في خلافة الرشيد . قال : « كان ابو العتاهية لا
يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجري عليه
في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز والمعادن . فلما قدم الرشيد الرقة
(وذلك سنة ١٨١ هـ) لبس الشاعر الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة
والقول في الغزل^٢ . فما الذي دفعه إلى ترك ما كان عليه الشعراء والتزام
طريقة الزهد والتنسك ؟ سؤال جدير بالنظر . ولا بد لنا قبل الاجابة
عليه من ان ننظر فيما يلي :

١ - حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك

٢ - تأثر نفسه بتهتك معاصريه وتماذيه في أسباب الترف

٣ - فشله في حبه لفتاة من جوارى المهدي

٤ - ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر .

أما استعداده الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج
مما عرف عن ابي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا ، انه كان

١ راجع مجلسه مع ابي نواس وصريح الغواني في المقد ٣ - ١٦٤ وراجع الاغانى ٣ - ١٢٧ .

٢ الاغانى ٣ - ١٥٧ .

ذا نظر في العواقب وعلى شيء - حق في إبتان شبابه - من ضبط النفس
 بما لا نراه عادة في متهتك عصره فلم يكن شديد الميل إلى الاتفاق في
 سبيل الشهوات ، وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام
 شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة . جاراهم ولكن إلى حين ،
 واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان . ولم يلبث ان رأيناه
 يتراجع عنه مسمئزاً ، مهيباً بالآخرين ان يسلكوا سبيل الرشاد ، وان يعتبروا
 بظروف الزمان . ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه ، وان ذلك التأثير
 تحول إلى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ . فترك الغزل والمنادمة ،
 واختط لنفسه اسلوباً آخر أحب ان ينفرد فيه . وانما لنلمح ذلك مما نقله
 لنا ابن منظور عن أبي نخلد الطائي قال : « جاءني أبو العتاهية فقال
 لي ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت ان تسأله الا يقول في الزهد
 شيئاً ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ،
 وللزهد شوقي . فبعثت إلى أبي نواس فجاء إليّ وأخذنا في شأننا . فقلت
 لأبي نواس ان ابا اسحق ^١ (ابا العتاهية) من قد عرفت جلالته وتقدمه ،
 وقد أحب انك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم ابو نواس عند ذلك وقال :
 يا ابا نخلد قد قطعت عليّ ما كنت احب ان ابلغه من هذا . . . ولا
 اخالف ابا اسحق فيما رغب اليه ^٢ . فأبو العتاهية اذن اصطنع الزهد
 واتخذ طريقة فنية مندفعاً اليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر . واذا
 صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري ، وانه مجازاة لهذا الاستعداد
 رأى ان ينفرد بالزهد دون سائر ابواب الشعر ، بقي ان ننظر في المحرك
 المباشر الذي حرّك في نفسه شهوتها الزهدية وحبّب اليه ترك حياته الأولى .
 هذا المحرك هو على ما يقول المؤرخون فشله في حبه لعبة جارية الخيزران
 أم الرشيد . وفي ذلك يقول المعري ^٣ :

١ كنيته الحقيقية ابو اسحق وانما ابو العتاهية لقب له .

٢ أخبار أبي نواس ٧٠ .

٣ اللزوميات ١ - ١١٨ .

الله ينقل من شاء رتبة بعد رتبة
ابدى العتاهي نسكاً وقاب عن حب عتبه

وعن المسعودي ان ابا العتاهية لبس الصوف لياسه من عتبه^١ . وكان
ذلك أيام الرشيد ، وقد آثر السجن على ان يرجع بعدها الى قول الغزل^٢ .
أما انه احب هذه الجارية حباً شديداً فذلك ما اجمع عليه المؤرخون ، واليك
بعضاً من غزله فيها :

يا عتب سيدي اما لك دينٌ حتى متى قلبي لديك رهينٌ
وانا الذلول لكل ما حملتني وانا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لكل باكٍ مسعدٌ ولكل حبٍ صاحبٍ وخدين
لا بأس إن لذك عندني راحة للصب ان يلقي الحزين حزين
يا عتب اين اقر منك اميرتي وعليّ حصن من هواك حصين

وقال من قصيدة :

كأنها من حسنها درّة اخرجها اليمّ إلى الساحل
كأنما فيها وفي طرفها سواحرٌ اقبلن من بابل
لم يبق مني حبّها ما خلا حُشاشةً في بدن ناحل

ويذكر الحصري ان ابا العتاهية ضرب مئة سوط ونفي إلى الكوفة من
اجل غزله بعتبه ، وان المهدي قال حين نفاه : « ابي يتعرّس ولحرمي
يتعرّض وبنسائي يعبت^٣ ! » وجاء لابن قتيبة انه حبسه ، ثم تشفّع
له يزيد بن منصور خال المهدي فاطلقه^٤ . والظاهر انه خاف المهدي
فانقطع عن ذكر الجارية . فلما مات عاد امله فطلبها من الرشيد كما روى
المسعودي ولكنه باء بالفشل . وبين اول حبه لعتبة وياسه من الحصول عليها

١ المسعودي ج ٧ - ٣٣٦ .

٢ الاغانى ٣ - ١٢٠ .

٣ زهر الآداب ٢ - ٣٦ .

٤ الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨ .

نحو من عشرين سنة بقيت فيها شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع ،
وبرغم انه كان متزوجاً . وهو حب شديد وغريب في عصر كعصره ،
يذكرنا بحب شاعر ايطاليا لفتاته بياتريس وما كان له من التأثير في نفسه
كل حياته .

من فشل دانتى نشأت الكوميديا الالهية . فهل من فشل ابي العتاهية نشأ
شعره الزهدي ؟ قد يكون ذلك .

على ان في مسلكه الزهدي ما راب بعض اهل زمانه . وتحدّر هذا
الريب بصحة زهده إلى الاجيال التالية . هذا ابو العلاء المعري يقول في
البيتين الآنفين الذكر « ابدى العتاهي نسكاً » . وفي العبارة ما فيها من
الشك في ذلك النسك . وهناك حكايات لمعاصريه تتمّ على روح الاستخفاف
بتزهد ، وتتهمه بالادعاء والتظاهر . من ذلك ما رواه الاصفهاني عن
ثمامة بن أشرس قال : « انشدني ابو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه قلّقه المال الذي هو مالكة
الا انما مالي الذي انا منفق وليس لي المال الذي انا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادره بالذي يحقّ والا استهلكته مهالكه

فقلت له من اين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله (ص) : انما لك
من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فامضيت .
فقلت له اتؤمن ان هذا قول رسول الله (ص) وانه الحق ؟ قال نعم .
قلت فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك ، ولا تأكل منها
ولا تشرب ولا تزكّي ، ولا تقدّمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال : يا ابا معن ،
والله ما قلت لهو الحق ، ولكنني اخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت
وبما تزيد حال من افتقر على حاله ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع
شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب
كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله
وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن

جوابه ومعاتبته ، فامسكت عنه وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره
للاسلام ، ١ .

وروى الحصري عنه الحديث التالي قال : « دخل ابو العتاهية على ابنه
محمد وقد تصوّف : فقال ، ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ (أي عن التصوّف) ،
فقال ابنه : وما عليك ان اتعوّد الخير ؟ فأخذ ابو العتاهية يؤنبه ويقرّعه ،
ثم قال له : اقبل على سوقك فانها لأعود اليك . وكان ابنه بزّازاً ٢ ، . وامثال
هذه الحكايات كثيرة تجدها في الاغاني وسواه . ولعل ذلك ما حمل سلم
ابن عمرو الملقب بالخاسر ان يغضب حين انشد ابو العتاهية قصيدته التي
يقول فيها مخاطباً سلماً بهذين البيتين :

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليك عفواً اليس مصير ذاك إلى الزوال

فقال سلم : « ويلي على الجرّار الزنديق ، جمع الاموال وكنزها وعباً
البدر في بيته ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بي إذا تصدّيت
للطلب . ٣ » وقال الجعّاز ابن اخت سلم ويرويها ياقوت لسلم نفسه :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً اضحى وامسى بيته المسجد
يخاف ان تنفذ ارزاقه والرزق عند الله لا ينفد

وانك إذا تحريت الحكايات الكثيرة التي ينقلونها عن ابي العتاهية تجد
اساسها شك معاصريه بصدق تزهده . وهذا الشك مبني عندهم على ما
يلي : ١ - سيرته الاولى ٢ - حرصه على المال ٣ - تبرّم الناس من الوعظ
والانذار . وجل ما يقال هنا ان الرجل صدف عن سيرته الاولى ، وانه

١ الاغاني ٣ - ١٣٣ .

٢ زهر الآداب ٣ - ٢٢٥ .

٣ معجم الادباء لياقوت ٤ - ٢٤٨ .

لزم جانب التدين واتخذ الشعر الزهدي فناً فأجاد فيه ^١ . ولم يكن زهده انقطاعاً عن الدنيا وترفعاً عن حطامها ، ولكن تقبيحاً لمسلك مترفها وانذاراً بسوء مصيرها ، واشباعاً لشهوة فنية لم يستطع الا اشباعها . وكان برغم ما يحكونه محترماً من معاصريه حتى ابي نواس ^٢ .

رسالة ابي العتاهية في شعره

لا يحمل شاعرنا في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة . وإنما هو يعكس لنا روح الشرق الدينية : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . اقرأ كل ديوانه فلا ترى فيه إلا دعوة الى ترك الجهاد في سبيل التقدم ، والتحرر من قيود المطامع .

حتى متى يستفزني الطمع أليس لي بالكفاف متسع
ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخذع الليل والنهار لاقوام اراهم في الغي قد رتموا
لله درّ الدنى فقد لعبت قبلي بقوم فما ترى صنعوا
اثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدّموا لانفسهم أعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد سبيل الغنى الا سبيل التعفف
خليلي ما اكفى اليسير من الذي نحاول ان كنا بما عفا نكتفي
وما اكرم العبد الحريص على الندى واشرف نفس الصابر المتعفف
فانت في ذلك وفي سائر شعره امام منبر واعظ يرشدك الى سبل القناعة ،

١ قال الخطيب البغدادي : كان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك الى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ - تاريخ بغداد ٦ - ٢٥١ .

٢ راجع في المصدر نفسه حديث ابي نواس واجلاله لابي العتاهية حق قال : ما رأيته قط إلا قوهمت انه سماري وانا أرضي .

سبل الخير كما ينص عليها الدين . ولكن في وعظه شاعرية جلييلة ولحناً
شجياً يخفف عليك مشقة الاصفاء إلى الوعظ ولا سيما من واعظ يُعرف
فيه الحرص وحب المال . وهو واعظ الموت والظلام ولكن في نبراته ما
يجذبك إليه .

واي شيء أدلّ على شاعريته من ان يحملك الى المقابر فيقف بك
هناك أمام الجثث البالية والعظام النخرة ، ثم يصف لك ظلام القبور واهوال
الحمام ، ويندد بمطامع الانسان وأباطيل الحياة في شعر يثير شجونك
ويزيل بهجة الدنيا من أمامك . وانت مع كل ذلك تسمع في أبياته ايقاعاً
يملو لأذنيك ، فتصغي اليه مسروراً ، وتشعر منه بنشوة خفية تملأ قلبك
وتحرك عواطفك .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب
صوت شجيّ تقف لديه معتبراً خاشعاً ، ولكنك لا تلبث ان تعيده
لنفسك فتنسى يجماله قتام الموت وعبوسة القبر . ثم تسمعه يقول :
ألا يا موت لم أرَ منك بداً أتيت وما تحيف وما تحايي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على الشباب
وانك يا زمان لذو صروف وانك يا زمان لذو انقلاب
أراك وان طليت بكل وجه كحلم النوم أو ظلّ السحاب
فتنظر الى الموت نظرك إلى صديق مؤاس يأتي ليخلصك من الزمان ،
وينقلك الى ظلال الجنان . ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف ؟
لأن الشاعر يضرب على وتر شجيّ يهيج فيك حاسة الاستحسان ، فيطربك
ويلقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري
الذي يحول الظلام الى نور ، والرعب الى أمن وطمأنينة .

ولتثبت ذلك في نفسك اسمع الابيات التي يصف بها طمع الانسان

ووجوب القناعة وزوال الدنيا — وما تلك بمواضيع تلذ الانسان عادة ، ثم
اشرح شعورك لدى سماعها .

ألم ترَ ريب الدهر في كل ساعة له عارض فيه المنيّة تلمح
ايا بانيّ الدنيا لغيرك تبتني ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع
أرى المرء وثّاباً إلى كل فرصة وللمرء يوماً لا محالة مصرع
تبارك من لا يملك الملك غيره متى تنقضي حاجات من ليس يشبع
واي امرئ في غاية ليس نفسه الى غاية أخرى سواها تطلع
وقوله :

خليلي كم من ميت قد حضرته ولكنني لم انتفع بحضوري
ومن لم يزد السن ما عاش عبدة فذاك الذي لا يستنير بنور
أصبت من الأيام لينّ أعنة فاجريتها ركضاً ، ولينّ ظهور
متى دام للدنيا سرور لأهلها فأصبح منها واثقاً بسرور
وقوله :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها تفارق ما قد غرّها وأذلّها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذاً من الارض لو أصبحت املك كلها ؟
فهل هي الا شبعة بعد جوعةٍ والا متى قد حان لي ان أملّها
أرى لك نفساً تبتغي ان تعزّها ولست تعز النفس حتى تذللّها

الى غير ذلك من العظات الروحية البالغة ، مما يستهوي النفس برغم
ما يترأى فيه من أهوال الموت وكلاحة الورع والزهد . وكل ديوانه على
هذا النمط العالي ولا يعيبه الا انه على وتيرة واحدة — موضوع واحد
يردده في قصائد مختلفة الوزن والروي .

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نقف هنيهة نقابل الروح «النّواسبية»
بالروح «العتاهية» فانما الشاعر روحه ، وما شعره الحقيقي الا مجلى
لعواطفه الداخلية .

ابو العتاهية وابو نواس

كلاما متشائم : هذا في زهوه وسروره ، وذاك في تزهدده وتقديره .
ابو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فانفق نفسه وهواه
في سخائفها ، وابو العتاهية اخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقته
بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه الى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة . وكلاهما
مخطيء : ذاك لافراطه في أباطيلها ، وهذا لافراطه في التزهيد بها . ولو ائنا
جارينا شاعرنا في أقواله وقمنا بما يطلبه في عظاته لتحتم علينا ان نقف
كل جهاد وكل سعي ، ونعيش عيشة الخول والقناعة . واين هذا من
الرقى الاجتماعي الذي يتطلب من كل فرد ان يسعى ويحذ ليذكر أقصى
ما يستطيع ادراكه .

سأقنع ما بقيت بقوت يومٍ ولا ابغي مكاثرة بمالٍ
تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال
فما ترجو لشيء ليس يبقى وشيكاً ما تغيره الليالي

هي الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر اليها كمرّ زائل
لحياة عليا . نظرٌ تعكسه لنا كتب الدين ، وأقوال الأنبياء والأتقياء وقادة
الحياة الدينية في كل جيل . وائنا اذا فسرنا القناعة (أو الزهد) بانها لجام
الشهوات الفاسدة والاطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا
الى التعدي وحب الاثرة ، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية ، بل صدق
الداعون اليها انها باب السعادة الدنيوية . واما إذا كانت كما يصفونها
الوقوف عن الجهاد ، والبعد عن أسباب التقدم ، وطلب الراحة في زوايا
المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوّف ، فهي الخول الذي يزيد
اكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة . وهنا وجه الضعف في رسالة
ابي العتاهية : انه قام ينشد لنا اناشيد الدين دون ان يتفنن في تطبيقها
على الحياة العملية ، وكان في شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليداً .

والأففي وسع من كان في قدرته الشعرية ان يستخلص من حياة عصره
صوراً اجتماعية عالية يصورها فيرينا بها جمال الفضائل الدينية والآداب
القومية ، او قباحة اضدادها ، على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء
وناثرين .

حكمه

ولأبي العتاهية في هذا الضرب من المنظوم مكانة عالية - فهو قدير
بضرب الأمثال وعقد جوامع الحكمة في أبيات شعرية جميلة : واليك
أمثلة من ذلك :

أخوك الذي من نفسه لك منصف إذا المرء لم ينصفك ليس أخاك

* * *

وليس امرؤ لم يرع منك يجده جميع الذي ترعاه منه بمنصف

* * *

هب الدنيا تساق اليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال

* * *

وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما طعمٌ أمرٌ من السؤال

* * *

أجلتكم قوم حين صرت إلى الغنى وكلّ غنيّ في العيون جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى عشيّة يقري أو غداة ينيل
إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبت إليه ومال الناس حيث يميل

* * *

توقّ يداً تكون عليك فضلاً فصانعها اليك عليك عالٍ

طلبت المستقرّ بكل ارض فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
اطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا
* * *

لقد حلبت الزمان اشطّره فكان فيهنّ الصاب والسّلع
مالي بما قد اتى به فرح ولا على ما ولى به جزع
* * *

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ
* * *

لله دنيا اناس دائبين لها قد أرتعوا في رياض الغي والفتن
كسائمات رناعٍ تبتغي سيمناً وحتفها لو درت في ذلك السمن
* * *

واي امرئ في غاية ليس نفسه إلى غاية اخرى سواها تطلّع
* * *

وابلائي من دعاوي أملٍ كلما قلت قداني بعدا
كم امنّى بغدٍ بعد غدٍ ينفد العمر ولا القى غدا
* * *

ألم ترّ ان الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر
* * *

فتشت ذي الدنيا فليس بها احد أراه لآخر حامد
حتى كأنّ الناس كلهم قد أفرغوا في قالب واحد
* * *

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إل ملك
* * *

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهر اخوه

فاذا احتجت اليه ساعة مجتك فوه

وله ارجوزة حكمية جمع فيها كثيراً من الامثال البليغة .

وقد ذكر صاحب الاغاني انها تبلغ نحو أربعة آلاف مثل ، على انه لم يثبت منها غير بضعة وعشرين مثلاً . أما في ديوان ابي العتاهية فقد نقل منها ما يقارب الخمسين ، ولم نعثر عليها كلها أو على معظمها في كتاب ما ، ولعلها ضاعت في جملة ما ضاع من كتب الاولين .

وأكثر حكمها عاديّ على ان فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الاولى من الجمال .

كقوله :

ان كان لا يغنيك ما يكفيك فكل ما في الارض لا يغنيك

وقوله :

لن يصلح الناس وانت فاسد هيات ما أبعد ما تكابد

وهو معنى في غاية الجمال يريد بذلك ان المجتمع لا يصلح ما لم يصلح كل فرد ذاته .

وقوله :

من جعل النمام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكما

وهو معنى متداول مألوف ولكنه جميل .

ومن أجل معانيه قوله :

يوسّع الضيق الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

ولو أردنا التوسع في الشطر الاول من هذا البيت لضاق بنا المقام وهو من أثبت الحقائق العقلية والاجتماعية .

وهناك كثير من أمثال هذه الأبيات وهي تدل على مقدرة الشاعر على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة . وعلى ان حكمه عموماً محدودة المعنى فهو يحرصها في منحى واحد من مناحي الحياة ، ويظهر فيها بمظهر المرشد المُنذر ، والحكيم الواعظ . ولو قابلتها بحكم المتنبي مثلاً لوجدت هذه أوثق علاقة بماجريات الحياة ، وبالتالي أكثر شيوعاً بين جميع الطبقات . وما الفرق بين أبي العتاهية والمتنبي في هذا الباب إلا أن الاول بنى حكمه على ما تتطلبه حياة الزهد ، فجاءت على حسن نظمها مقيدة بغايتها . وأما الثاني فخاض غمار الحياة ، وعرف حلوها ومرّها . وقد ترك لنا اختبارات في أبيات يستهوي القلوب جمالها ، لصدق ما ترسمه من أحوال العمران ، ولشدة مماثلتها لما يشعر به كل انسان .

شاعريته وشعره

قال صاحب الاغانى : « ويقال اطبع الناس بشّار والسيّد وابو العتاهية . وكان أبو العتاهية غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والامثال » . على انه برغم ذلك كان من الطبقة الاولى في النظم .

قال احمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبدالله يقول ، ابو العتاهية اشعر الناس فقلت بأي شيء استحق ذلك فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمال	طوال أيّ آمال
واقبلت على الدنيا	ملحاً أيّ اقبال
ايا هذا تجهّز لي	فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت	على حال من الحال

ثم قال مصعب : « هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان ^١ يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل » . وقال ابن الاعرابي وقد أثاره رجل رمى أبا العتاهية بالضعف « فوالله ما رأيت شاعراً قط اطبع ولا اقدر على بيت منه » ، وما احسب مذهبه الاّ ضرباً من السحر ^٢ .

وسمع الجاحظ مرّة مَن يفشد ارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال للمنشد قف . ثم قال أنظر إلى قوله « روائح الجنة في الشباب » فإن له معنى كمنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة الا بعد التطويل وإدامة التفكير . وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه ^٣ .

وكان الأصمعي يقول شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى .

وفي الأغاني سئل ابن مناذر عن أشعر أهل الاسلام فقال : من إذا شئت هزل وإذا شئت جدّ فمثل جرير ، ومن المحدثين هذا الخبيث (أي أبو العتاهية) الذي يتناول شعره من كنه ^٤ .

وقال المبرّد كان اسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الاخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة ^٥ .

والتأمل شعر أبي العتاهية يثبت لديه جلّ ما ذكرناه من وصف واصفيه

١ الاغاني (بولاق) ٣ - ١٣٠ .

٢ الاغاني (بولاق) ٣ - ١٣١ .

٣ الاغاني ٣ - ١٤٣ .

٤ الاغاني ٣ - ١٥٤ .

٥ الكامل ١ - ٢٣٨ .

وأهم خصائصه الفنية ثلاث :

١ - سهولة الألفاظ وهي مذهبه في جميع قصائده .

نقل الاصفهاني قوله لابن أبي الأبيض وقد جاء يستزيده من شعره .
« فالصواب ان تكون ألفاظه بما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ،
ولا سيما الأشعار التي في الزهد . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد
وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء (كذا) والعامّة ، وأعجب
الاشياء اليهم ما فهموه ^١ . » وأنشد مرة أبياتاً أمام سلم الخاسر فقال
سلم لقد جودتها لو لم تكن سوقية . فقال أبو العتاهية والله ما يرغبني
فيها الا الذي زهدت فيه ^٢ . وقد عرف له نقدة الشعر ذلك . قال ابن
رشيقي : ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ واغترف فيها الركافة واللين
المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الاحنف ومن تابعهما ^٣ وهم يرون
الغاية قول أبي العتاهية :

يا اخوتي ان الهوى قاتلي	فسيّروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتّباع الهوى	فلأنني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة	بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى	من شدة الوجد على القاتل
بسّطت كفي نحوكم سائلاً	ماذا تردّون على السائل

وقد ذكر ابن أبا العتاهية وأبا نواس والحسن بن الضحاك اجتمعوا
 يوماً فقال أبو نواس لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من
غير مدح ولا هجاء فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة فسلّم له وامتنعوا عن
الانشاد بعده وقالوا اما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد وحسن
هذه الاشارات فلا ننشد شيئاً .

١ الاغاني ٣ - ١٦١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٧٣ .

٣ العمدة ١ - ٨١ .

٢ - رشاقة التعبير : وهي من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد . تقرأ قصائد ابي العتاهية فتجدها رشيقة المبني تسيل عذوبة وطلاوة . وقد صدق الخطيب البغدادي اذ قال : « وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلّف متقدماً في الطبع »^١ . تأمل هذه الأبيات التي قالها أمام المهدي يعزيه في بنت له ماتت فحزن عليها حزناً شديداً . قال شاعرنا فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بد من الصبر على ما لا بد منه . ولئن سلونا عن فقداننا ليسلون عنا من يفقدنا . وما يأتي الليل والنهار على شيء إلاّ أبلياه » . فلما سمعت هذا منه قلت يا أمير المؤمنين أتأذن لي ان أنشدك . قال هات ، فأنشدته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما وكل غضٍّ جديد فيهما بال
يا من سلا عن حبيب بعد موته كم بعد موتك أيضاً عنك من سال
كانّ كلّ نعم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبرٍ فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة او لا فما حيلة فيها لمحتال

وروي ان أبا العتاهية مرّ بأبي نواس في السكة ومعه بعض الرفاق ، فسلم ثم أوما برأسه الى نواس وأنشأ يقول :

لا ترقدن - لعينك السهر - وانظر الى ما تصنع الغيّر
واذا سألت فلم تجد أحداً فسل الزمان فعنده الخبر
أنت الذي لا شيء تملكه واحق منك بمالك القدر

فنظر ابو نواس الى من حوله وقال : « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون »^٢ .

ومثل هذه الشهادة شهدها بشار يوم أنشد شاعرنا قصيدته في المهدي :

١ تاريخ بغداد (مصر) ٦ - ٢٥١ .

٢ تاريخ بغداد ٦ - ٢٥٩ .

ألا ما لسيّدتني ما لها أدلاً فاحمل ادلالها

وقد مرّ معنا ذكرها .

وفي رشاقة شعره يقول ابن الأثير^١ : « وهذا أبو العتاهية كان في عزّ الدولة العباسية ، وشعراء العرب إذ ذاك موجودون كثيراً . وإذا تأملت شعره وجدته كلاماً الجاري رقة ألفاظٍ ولطافة سبك ، وليس بركيك ولا واه » . وحكم ابن الأثير فيه حكم خبير إلا أنه تغاضى عن بعض ركاكته كما سترى بعد .

٣ - سرعة الخاطر وما يقتزن بذلك أحياناً من الركاكة ، قيل له كيف تقول الشعر ؟ قال ما أردته قط إلا مثلاً لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت^٢ . ووصفه ابن قتيبة بقوله : « وكان أحد المطبوعين ومن يكاد يكون كلامه كله شعراً » .

فهو سريع الخاطر وإذا صح ما ذكرناه من وصف الأصمعي له لم يكن من الذين يعتنون بغرابة أبياتهم وطرح ما يجب طرحه . وقد تناول المرزباني هذه الناحية من شعر أبي العتاهية وذكر أقوال الناس فيها وأورد له بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عتبة :

الا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

وقوله في رثاء سعيد بن وهب :

١ المثل السائر ١٠٥ .

٢ الاغانى ٣ - ١٣١ .

مات والله سعيد بن وهبٍ رحم الله سعيد بن وهب
يا ابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان أوجعت قلبي
وغير ذلك من القول السخيف الذي تناقله الرواة من شعره^١ .
فكان كثيراً ما تأتي ألفاظه مكررة لا فائدة منها كقوله :

مَنْ أَحْسَنَ لي أهل القبور ومن رأى من احسّهم لي بين طباق الثرى
من أحسن لي ما كنت آلفه ويألفني فقد انكرت بعد الملتقى
من أحسه لي اذ يعالج غُصّةً متشاغلاً بعلاجها عمّن دعا
من أحسه لي فوق ظهر سريره يمشي به نفر الى بيت البلى
يا أيها الحيّ الذي هو ميت أفنيت عمرك في التعلّل والمنى
فلو وثبتَ فوق البيت الثالث والبيت الرابع ، حتى وفوق الثاني أيضاً
لكان الاتصال بين الاول والأخير أشد ولم يخسر المعنى شيئاً يذكر .
ناهيك بركاكة الفعل أحسن واستعمال الوصل بعد القطع فيه . وكذلك
قوله :

أين الحماة الصابرون حميّة	يوم الهياج لحرّ مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا	كر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب	والمراتب والمناصب في العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا	ما منهم أحد يحسّ ولا يرى
وهو الحقيّ الظاهر الملك الذي	هول يزل ملكاً على العرش استوى
وهو المقدّر والمدبّر خلقه	وهو الذي في الملك ليس له سوى
وهو الذي يقضي بما هو أهله	فيما ولا يقضى عليه اذا قضى

فانظر التكرار غير المفيد في البيت الثاني والثالث ، ثم تأمل تكريره
لصفات الله في الابيات الثلاثة الاخيرة . وكله من قبيل سرعة الخاطر
وتزاحم الالفاظ على المعنى الواحد .

١ راجع ذلك في الموشح ٢٥٦ - ٢٦١ .

واقراً هذه الابيات من قصيدته التي مطلعها « لمن طلل اسائله معطّة
منازله ، واحكم لنفسك فيما نحن بصدده من ميله الى الاطالة والتكرار
وعدم الغريبة :

أيتها المقابر فيك من كنّا ننازلهُ
ومن كنّا نتاجرهِ ومن كنّا نعاملهِ
ومن كنّا نعاشرهِ ومن كنّا نداخلهِ
ومن كنّا نفاخرهِ ومن كنّا نطاوَلهِ
ومن كنّا نشاربهِ ومن كنّا نؤاكلهِ
ومن كنّا نرافقه ومن كنّا ننازله
ومن كنّا نكارمهِ ومن كنّا نجاملهِ
ومن كنّا له إلفاً قليلاً ما نزاوَلهِ
ومن كنّا له بالأمس اخواناً نواصلهِ

وقوله يتعجب من لا يهتم بآخِرته :

سبحان ربك ما أراك تتوبُ والرأس منك بشيبة مخضوبُ
سبحان ربك ذي الجلال أما ترى نوب الزمان عليك كيف تتوبُ
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه ان الهوى لغلوبُ
سبحان ربك ما تزال وفيك عن اصلاح نفسك فترةً ونكوبُ
سبحان ربك كيف يلتذّ امرؤُ بالعيش وهو بنفسه مطلوبُ

ومن ذلك قصيدة يذكر فيها الانسان وموته ونسيان الناس له قال فيها :

فاذا ما استودعوه الارض وهنأ تركوهُ
خلفوهُ تحت رمس او قروهُ أثقلوهُ
ابعدوهُ اسحقوهُ اوحدهوهُ افردوهُ
ودّعوهُ فارقوهُ اسلموهُ خلفوهُ
وانثنوا عنه وخلّوهُ كأن لم يعرفوهُ

وله مثل هذا كثير في ديوانه ، وهو راجع كما أسلفنا الى سرعة خاطره
وتزاحم الالفاظ حول المعنى الواحد من معانيه وعدم اهتمامه بطرح
الغث منها .

٤ - عدم التفنن في الخيال . ولا أريد بالخيال هنا اللطائف الشعرية
فقط من تشبيه واستعارة وكناية وما شاكل ، بل اعني الخطأ او الصورة
التي يتخيلها الشاعر فيحمل الناس عليها الى غرضه . فأنت إذا طالعت
ديوان ابي العتاهية لا تجد فيه الا موضوعاً واحداً يحوم حوله ويعرضه
علينا عرضاً يكاد يكون واحداً - وصف القبور وأهوالها - فناء الاعراض
الدنيوية ، فساد الانسان وعقاب الآخرة . ولقد تقرأ بضع قصائد منه
فتستغني بها عن سائر الديوان . وإذا كان لك جلد الباحث وتحملت عناء
قراءته ألفت نفسك أمام موسيقي شرقي يكرر عليك لحناً واحداً يكتفه
على « تقاسيم » شتى فيؤثر فيك ، ولكنك لا تلبث بعد مدة ان تشعر
بملل من ذلك التكرار ، وبرغبة في استماع شيء جديد على تلك الأوتار .
ليس لأبي العتاهية قلم الفنّان الاجتماعي الذي يرى الحياة بطولها وبعرضها
فيستخلص منها مواضيع شائعة يتفنن في عرضها على الجمهور . نعم ان
المصور يختلف من حيث السياسة وأسباب العمران ولكن الدوافع النفسية
هي هي ، وما يحدث الآن كان يحدث في كل أوان .

لم يكن شاعرنا كثير الافتنان في انشاده ، بل كانت له وتر واحد
ينقر عليه نغمات متماثلة مؤثرة ولكنها خالية من سعة التخيل والنفوذ الى
مناطق الحياة الحقيقية .

فاذا قرنت ذلك بمزاياه الاخرى من سهولة المعنى وسلاسة المبنى فهمت
لماذا يختلف النظر في حقيقته ، ولماذا يجمع في شعره بين السمو والاسفاف
والبلاغة والركاكة .

المختار من شعر أبي العتاهية

يقف على المقابر فينشد لنا نغمات الموت والآخرة . وبرغم انه
يكررها ويرجعها على وتر واحد نجد فيها ايقاعاً
يلدّ نفوسنا ويؤثر فيها

في غرور الدنيا

نصبت لنا دون التفكير يا دنيا امانى يفتى العمر من قبل ان تفتنى
مق تنقضي حاجات من ليس واصلاً الى حاجة حتى تكون له أخرى
لكل امرئ فيما قضى الله خطّة من الأمر فيها يستوي العبد والمولى
وان امرأ يسمى لغير نهاية لمنفس في لجة الفاقة الكبرى

في ذكرى الشباب

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفاً اسفت على شباب نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الثياب وكان غضاً كما يعرى من الورق القضيب

في زوال الدنيا

لِدُوا لِلْمَوْتِ وابنوا للخرابِ
 لمن نبي ونحن الى ترابِ
 ألا يا موت لم أرَ منك بدءاً
 كأنك قد هجمت على مشيبي
 أيا دُنيايَ ما لي لا أراني
 وإنك يا زمانُ لذو صروف
 فما لي لستُ احلبُ منك شطراً
 وما لي لا ألحَ عليك إلا
 أراك وإن طليت بكل وجهٍ
 أو أمس الذي ولت ذهاباً
 وهذا الخلق منك على وفاةٍ
 وموعد كل ذي عملٍ وسعيٍ
 تقلدتُ العظامَ من الخطايا
 ومها دمتُ في الدنيا حريضاً
 سأسأل عن أمور كنت فيها
 بآية حُجةٍ أحتج يومَ الحسابِ
 فما أمران يوضحُ عنهما لي
 كتابي حين أنظر في كتابي
 فلماذا أن أخلدَ في نعيمٍ
 وإما أن أخلدَ في عذابِ

في الحرية الحقيقية

طلبت المستقرَّ بكل أرض فلم أرَ لي بأرض مستقرّاً
 أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حراً

في أهل القبور

اخوَيَّ مرّا بالقبور ر وسلّمًا قبل المسير
ثم ادعوا من عاديها من ماجدٍ قرمٍ فخور
ومسوّدٍ رحبِ الفناء اغرّ كالقمر المنير
يا من تضمّنه المقابر من كبير أو صغير
هل فيكم أو منكم من مستجار أو مجير
أو ناطق أو سامع يوماً بعُرف أو نكير
أهل القبور أحبّتي بعد الجدالة والسرور
بعد الغضارة والنضارة والتنعم والحبور
بعد المشاهد والمجا لس والعساكر والقصور
بعد الحسنات المسمعا ت وبعد ربّات الخدور
أصبحتم تحت الثرى بين الصفائح والصخور
أهل القبور اليكم لا بدّ عاقبة الأمور

في غرور المطامع

حتى متى يستفزّني الطمعُ أليس لي بالكفاف متّسعُ
ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخدع الليل والنهار لأقوام أراهم في الغي قد رتعوا
أمّا المنايا فغير غافلة لكل حي من كأسها جرّعُ
أيّ لبيب تصفو الحياة له والموت وردّ له ومنتجعُ
يا نفس ما لي اراك آمنة حيث يكون الروعات والفرع
ما عدّ للناس في تصرف حالاتهم من حوادث تقعُ
لقد حلبت الزمان اشطّره فكان فيهنّ الصاب والسلعُ

ما لي بما قد أتى به فرحٌ	ولا على ما ولى به جزعٌ
لله درّ الدنى لقد لعبت	قبلي بقوم فما ترى صنعوا
بادوا ووفّتهم الأهلّة ما	كان لهم والايام والجمع
أثروا فلم يدخلوا قبورهم	شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدّموا لأنفسهم	أعظم نفعاً من الذي ودعوا ^١
غداً ينادى من القبور الى	هول حساب عليه يجتمع
غداً توفى النفوس ما كسبت	ويحصد الزارعون ما زرعوا
تبارك الله كيف قد لعبت	بالناس هذي الأهواء والبدع
شتت حبّ الدنى جماعتهم	فيها فقد أصبحوا وهم شيع

في شرف العفاف والرضى

متى تتقضى حاجة المتكلّف	ولا سيما من مترف النفس مسرف
طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد	سبيل الغنى إلا سبيل التعفّف
إذا كنت لا ترضى بشيء تناله	وكنت على ما فات جمّ التلهّف
فلست من الهمّ العريض بخارج	ولست من الغيظ الطويل بمشتف
أراني بنفسى معجباً متعزّزاً	كأنى على الآفات لست بمشرف
وإني لعين البائس الواهن القوى	وعين الضعيف البائس المتطرّف
وليس امرؤ لم يرع منك يجده	جميع الذي ترعاه منه بمنصف
خليلي ما أكفى اليسير من الذي	نحاول إن كنّا بما عفا نكتفي
وما أكرم العبد الحريص على الندى	وأشرف نفس الصابر المتعفّف

في ضرورة التقى

بليت وما تبلى ثياب صباكا كفاك من اللهو المضرّ كفاكا

١ ودعوا تركوا .

ألم ترَ ان الشيب قد قام ناعياً مقام الشباب الغضّ ثم نعاكا
تسمّع ودع من أغلق الغيّ سمعه كأني بداعٍ قد أتى فدعاكا
ألا ليت شعري كيف أنت اذا القوى وهت واذا الكرب الشديد علاكا
تمنيتَ حتى نلتَ ثم تركتها^١ تنقل بين الوارثين مناكا
اذا لم تكن في متجر البر والتقى خسرت نجاة واكتسبت هلاكا
اذا أنت لم تعزم على الصبر للأذى رميت الذي منه الأذى ورماكا
اذا كنت تبغي البرّ فاكفف عن الأذى وما البرّ إلا ان تكفّ اذاكا
أخوك الذي من نفسه لك منصف اذا المرء لم ينصفك ليس أخاكا

في فناء الحياة ومرارة الحرص

نعى نفسي إليّ من الليالي^٢ تصرّفهنّ حالاً بعد حالٍ
فما لي لست مشغولاً بنفسي وما لي لا أخاف الموت مالي
لقد أيقنت اني غير باقي ولكني أراني لا أبالي
أما لي عبرة في ذكر قوم تقانوا ربّما خطرُوا ببالي
كان ممرّضي قد قام يمشي بنعشي بين أربعة عجال
وخلفي نسوة يبكين شجواً كأن قلوبهنّ على مقال
سأقنع ما بقيتُ بقوت يوم ولا أبغي مكاثرة بمال
تعالى الله يا سلّم بن عمرو اذلّ الحرصُ أعناق الرجال^٣
هب الدنيا تساق اليك عفواً أليس مصير ذاك الى الزوال
فما ترجو لشيء ليس يبقّى - وشيكاً ما تغيّره الليالي
خبرت الناس قِرنًا بعد قرن فلم أرَ غير ختال وقال
وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما طعمُ أمرٍ من السّؤال

١ الضمير يرجع الى الدنيا .

٢ وفي رواية - إلى مر الليالي .

٣ يخاطب الشاعر المعروف بسلم الخاسر ، وقد مر ذكره .

في المنية وبطشها

لمن طلل أسائله معطلة منازله
غداة رأيت تنعى اعاليه أسافله
وكنت أراه مأهولاً ولكن باد أهله
وكلّ لاعتساف الدهر معرضة مقاتله
فيصرع من يصارعه وينضل من يناضله
ينازل من يهيم به وأحياناً يخاتله
وأحياناً يؤخره وتارات يعاجله
وكم قد عزّ من ملك تحف به قنابله
يخاف الناس صولته ويرجى منه نائله
ويشفي عطفه مرحاً وتعجبه شمائله
فلما ان اتاه الحق ولسى عنه باطله
فغمض عينه للموت واسترخت مفاصله
رأيت الحق لا يخفى ولا تخفى شواكله
ألا فانظر لنفسك أيّ زاد انت حامله
لمنزل وحدة بين المقابر انت نازله
قصير السمك قد رصت عليك به جنادله
بعيد . تزاور الجيران ضيقة مداخله
ألا إن المنية منهل والخلق ناهله
اواخر من ترى تفنى كما فنى أوائله
لعمرك ما استوى في الامر عالمه وجاهله
ليعلم كل ذي عمل بأن الله سائله
فاسرع فائزاً بالخير قائله وفاعله

في قصر العمر وحقيقة الغنى

ألا هل الى طول الحياة سبيلُ
واني وان أصبحت بالموت موقناً
وللدهر الوانُ تروح وتفتدي
ومنزل حقٍ لا معرّجَ دونه
أرى علل الدنيا عليّ كثيرة
إذا انقطعت عني من العيش مدّتي
سُعرضُ عن ذكرى وتُنسى مودتي
وللحق أحياناً لعمرى مرارة
ولم أرَ انساناً يرى عيباً نفسه
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً
اجلّك قومٌ حين صرت الى الغنى
وليس الغنى إلا غنى زين الفقى
ولم يفتقر يوماً وان كان معدماً
إذا مالت الدنيا الى الناس رغبت

وأنتى وهذا الموت ليس يُقيلُ
فلي املٌ دوت اليقين طويلُ
وإن نفوساً بينهنّ تسيلُ
لكلّ امرئ يوماً اليه رحيلُ
وصاحبها حق الماتِ عليلُ
فإن غناء الباكيات قليلُ
ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ
وثقلُ على بعض الرجال ثقلُ
وان كان لا يخفى عليه جميلُ
وللناسِ قالُ بالظنون وقيلُ
وكل غنيّ في العيون جليلُ
عشيّةً يقري أو غداة يُنيلُ
جوادٌ ولم يستغن قطّ بخيلُ
اليه ومال الناس حيث يميلُ

في ذل السؤال

أتدري أي ذلّ في السؤالِ
يعزّ - على التنزه - من رعاه
إذا كان السؤالُ ببذل وجهي
معاذَ الله من خلقٍ دنيّ
توقّ يداً تكون عليك فضلاً
يداً تملو يداً يحميل فعل
أتكرّ ان تكون اخا نعيمٍ
وفي بذل الوجوه الى الرجالِ
ويستغني العفيفُ بغير مالِ
فلا قرّبتُ من ذاك السؤالِ
يكون الفضلُ فيه عليّ لا لي
فصانها اليك عليك عالٍ
كما علت اليمينُ على الشمالِ
وانت تصيفُ في فيء الظلالِ

وأنت تروم قوتك في عفاف
متى تمسي وتصبح مستريحاً
تكابد جمع شيء بعد شيء
وقد يجري قليل المال مجرى
إذا كان القليل يسد فقري
هي الدنيا رأيت الحب فيها
وريتاً ان ظمئت من الزلال
وأنت الدهر لا ترضى بحال
وتبغى ان تكون رخي بال
كثير المال في سد الخلال
ولم أجدر الكثير فلا أبالي
عواقبه التفرق عن ثقال

عبر الزمان

نادت بوشك رحيلك الايام
ومضى أمامك من رأيت وأنت (م) للباقيين حتى يلحقوك إمام
ما لي أراك كأن عينك لا ترى
تأتي الخطوب وأنت منتبه لها
قد ودعتك من الصبام نزاوة
عرّض المشيب من الشباب خليفة
أهلاً وسهلاً بالمشيب مؤدياً
ولقد غشيت من الشباب بغبطة
الله ازمنة عهدت رجالها
ايام اعطية الأكف جزيلة
فلمبرة أخرت للزمن الذي
زمن مكاسب أهله مدخولة
زمن تحامى المكرمات سرائه
زمن هوت أعلامه وتقطعت
أفليست تسمع أو بك استصام
عبراً تمر كأنهن سهام
فاذا مضت فكانها أحلام
فاحذر فما لك بعدهن مقام
وكلاهما نعم عليك جسام
وعلى الشباب تحية وسلام
ولقد وقال عثارة الأحكام
في النائبات وانهم لكرام
إذ لا يضيع لذي الذمام ذمام
هلك الأرامل فيه والأيتام
دخلا فروع أصوله الآثام
حتى كأن المكرمات حرام
قطعاً فليس لأهله أعلام

١ وفي نسخة : عوض .

٢ وفي رواية : غنيت .

٣ وفي نسخة : افلا يضيع لدى الزمان ذمام .

ولقد رأيت الطاعمين^١ لما اشتهوا
 ما زخرف الدنيا وزبرج أهلها
 ولـرُبَّ اقوام مضوا لسبيلهم
 ولـرُبَّ ذي فُرُشٍ مُمَهَّدَةٍ له
 وعجبت إذ علل الحتوف كثيرة^٢
 والغني مزدحم^٣ عليه وعورة^٤
 والموت يعمل والعيون قريرة^٥
 والله يقضي في الأمور بعلمه
 والخلق يقدم^٦ بعضه بعضاً يقود الخلف^٧ منه إلى البلى القـدَّام^٨
 كلَّ يدور على البقاء مؤملاً وعلى الفناء تديره الايـام^٩

في الذكر الطيب

سكـنَ يـبقـى له سكـنُ
 نحن في دارٍ يـجـبـرنا
 دار سوء لم يدُـمَ فرحُ
 ما نرى من أهلها أحداً
 عجباً من معشرٍ سلفوا
 وفرّوا الدنيا لغيرهم
 تركوها بعدما اشتبكت
 كلَّ حيٍّ عند ميته
 إنَّ مال المرء ليس له
 في سبيل الله أنفسنا
 ما بهذا يؤذن الزمنُ
 عن بلاها ناطقٌ لـسـنُ
 لا مرء فيها ولا حزنُ
 لم تـغـل فيها به الفتنُ
 أي غـبـي بيـن غـبـنوا
 وابتنوا فيها وما سكنوا
 بينهم في حبها الإحنُ
 حظُّه من ماله الكفنُ
 منه الا ذكره الحسنُ
 كلنا بالموت مرتـهـنُ

خداع الاملاني

الدَّهْرُ ذُو دُولٍ وَالْمَوْتُ ذُو عِلَلٍ والمرءُ ذُو اَمَلٍ وَالنَّاسُ اشْبَاهُ
وَلَمْ تَزَلْ عِبرٌ فِيهِمْ مَعْتَبَرٌ يجري بها قَدَرٌ وَاللَّهُ اجْرَاهُ
وَالْمُبْتَلَىٰ فَهُوَ الْمَهْجُورُ جَانِبُهُ والناس حيث يكون المال والجَاهُ
يَبْكِي وَيَضْحَكُ ذُو نَفْسٍ مُّصْرَفَةٍ وَاللَّهُ اضْحَكُهُ وَاللَّهُ ابْكَاهُ
يَا بَائِعَ الدِّينِ بِالدُّنْيَا وَبِاطْلِهَا تَرْضَىٰ بِدِينِكَ شَيْئًا لَيْسَ بِسَوَاءِ
حَتَّىٰ مَتَىٰ أَنْتَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ وَالْمَوْتُ نَحْوُكَ يَهْوِي فَاغْرَأْ فَاهُ
مَا كُلٌّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يَدْرِكُهُ رَبُّ امْرِئٍ حَتْفُهُ فَيَا تَمَنَّاهُ
وَالنَّاسُ فِي رَقْدَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَلِلْحَوَادِثِ تَحْرِيكٌ وَإِنْبَاهُ
أَنْصَفَ هَدَيْتَ إِذَا مَا كُنْتَ مُنْتَصِفًا لَا تَرْضَىٰ لِلنَّاسِ شَيْئًا لَسْتَ تَرْضَاهُ
يَا رَبُّ يَوْمَ اتَتْ بِشْرَاهُ مُقْبِلَةً ثُمَّ اسْتَحَالَتْ بِصَوْتِ النَّعْيِ بِشْرَاهُ
لَا تُحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَصْغَرَهُ أَحْسَنُ فَعَاقِبَةُ الْإِحْسَانِ حُسْنَاهُ
وَكُلُّ امْرٍ لَهُ لَا بَدَّ عَاقِبَةً وَخَيْرُ أَمْرٍ مَا أَحْدَثَ عُقْبَاهُ
نَلْهُوٌ وَلِلْمَوْتِ مُمَسَاتَا وَمُصِيبُنَا مَنْ لَمْ يَصْبَحْهُ وَجْهَ الْمَوْتِ مَسَاهُ
مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ فِي الدُّنْيَا وَأَبْعَدَهُ وَمَا أَمْرٌ جَنَى الدُّنْيَا وَاحِلَاهُ
كَمْ نَافَسَ الْمَرْءُ فِي شَيْءٍ وَكَابَرَ فِيهِ النَّاسُ ثُمَّ مَضَىٰ عَنْهُ وَخَلَاهُ
بَيْنَا الشَّقِيقَ عَلَىٰ إِلْفٍ يُسَرُّ بِهِ إِذَا صَارَ أَغْمَضَهُ يَوْمًا وَسَجَاهُ
يَبْكِي عَلَيْهِ قَلِيلًا ثُمَّ يُخْرِجُهُ فَيَسْكُنُ الْأَرْضَ مِنْهُ ثُمَّ يَنْفَاهُ
وَكُلُّ ذِي أَجَلٍ يَوْمًا سَيَبْلُغُهُ وَكُلُّ ذِي عَمَلٍ يَوْمًا سَيُلْقَاهُ

ابو تمام

حبيب بن أوس الطائي

ولد بين ١٨٨ و ١٩٢ هـ وتوفي ٢٣٠ أو ٢٣١
(حوالي ٨٠٤ م - ٨٤٥ م)



توطئة تاريخية - ممدوحوه - شخصيته في شعره - خصائصه الفنية
التألق البديعي - التفنن المصنوي - الشغف بالإغراب

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٣٣ - ١٣٥
مروج الذهب للمسعودي (اوروبا) ج ٧ ص ١٦٠ - ١٦٧
الأغاني (بولاق تصحيح الهوريني) ج ١٥ ص ١٠٠ - ١٠٨
وفي سيرة ديك الجن
الوساطة للجرجاني (تصحيح أحمد الزين) ص ٢٤ - ٢٨ و ٦٢ - ٧٢
الموازنة للآمدي (الاستانة ١٣٨٧)
الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (مصر ١٣٤٣)
ص ٣٠٣ - ٣٢٩
أخبار أبي تمام للصولي (نشر لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧)
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر (١٣٣١) ج ٤ ص ١٨ - ٢٦
نزهة الألباء للانباري ص ٢١٣
وفيات الأعيان ج ١ - تحت «حبيب» ص ١٦٩ - ١٧٣
حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ - ٢٤٠
خزانة الأدب للبغدادلي (بولاق) ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٢
هبة الأيام للبديعي (نشر محمود مصطفى ١٩٣٤)
ديوان أبي تمام للخياط
ديوان أبي تمام (نشر ملحم الأسود)
ومواضع شتى في كتب الأدب الحديثة كدائرة المعارف للبستاني ومجلة
الكلية ومجلة المجمع العلمي ودائرة المعارف الاسلامية ، ودراسات عمر
فروخ وعبد العزيز سيد الأهل وسواها .

مولده ونشأته

يؤخذ من المصادر التاريخية ان أبا تمام ولد أواخر القرن الثاني في قرية يقال لها جاسم . وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حياته فيها شيء يذكر ، الا انه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انه كان في صغره يعمل عند حائك او قزاز في دمشق .

وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات ان والده رجل مسيحي اسمه تدوس العطّار ، فحرّف بعد اسلام الشاعر إلى أوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طي ولذلك لقب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها قصيدته التي مطلعها : « تصدّت وحبل البين مستحصد شزّر » ومنها :

وهل خاب من جذماه في أصل طيّيء عديّ العديّتين القلمسُ أو عمرو
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبطنانها منه وظهرانها تبرّ
مقاماتنا وقف على العلم والحجى فأوردنا كهل وأشيننا حبر

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وأبطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلّ الشعر في كنه وصفها فما يهتدي الا لأصغرها الشعر

والجتمع عليه انه انتقل وهو فتى إلى مصر . وكان يلزم مسجدها يخدم فيه أهل العلم والأدب ، فنشأ هناك . ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وأرمينيا والموصل وسواها .

وفيات الاعيان ١ - ١٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير (١٣٣١) ٤ - ١٩ .

وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاعطار .

وإذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجّح لدينا انه هبط مصر يافعاً . ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها « اظبية » حيث استنّت الكُثب العفر^١ ، ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة : واليك هذه الأبيات منها :

وانّ نكيراً ان يضيق بمن له عشيرة^٢ مثلي أو وسيلته مصر
وما لامرئ من قائل يوم عثرة لعا وخديناه^٣ الحداثة والفقر
وان الذي أحذاني الشيب للقي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر
فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر ، وانه انما أمّتها وسيلة للارتزاق . ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من أنه هبط « وهو في شبابه^٤ » وكذلك ما أشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك . ويقول المرزباني ان أول نبوغه كان بدمشق^٥ .

وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام ، فأكثر شعره فيها نغّات متبرّم يستثقل الإقامة في وادي النيل . وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك ، نظمها وقد مرّ عليه خمسة أحوال في مصر فقال فيها :

بنفسي أرض الشام لا أئمن الحمى - ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطراً في ان تُمِرّ ولا تحلي
الى أن يقول :

أخسة^٦ أحوال مضت لمغيبه وشهران بل يومان تُكل من الشكل

١ حسن المحاضرة ١ - ٢٤٠ .

٢ الموشح ٣٢٤ .

ويمنعه من أن يبيت زَماعه على عجلٍ ان القضاء على رسلٍ
لقد طلعت في وجه مصرٍ بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ
وساوسُ آمالٍ ومذهب همّة نخيصة بين المطيّة والرحلٍ
نأيتُ فلا مالا حويت ولم أقمُ فامتّع اذ فجّعت بالمال والأهلٍ
وكان ورائي من صريّة طيّء ومعن ووهب عن أمامي ما يسلي
فلم يك ما جرّعت نفسي من الأسى ولم يك ما جرّعت قومي من الشكرِ

والذي يحصل من هذه الأبيات انه كان قبل خمسة أحوال ترك قومه
وجاء مصر منتجعاً الرزق ، فلم يلق ما يتوخّاه ، ولم يحمله على البقاء
فيها حتى الآن إلا القضاء المعاكس . ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك
أهله وفيه مطامع . ولا تكون المطامع عادةً قبل أن يشرف المرء على
البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حُسّن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل
ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلي^١ ، وظن انه ينال غايته في
مصر فأتمها . ولضيق ذات يده وميله الى الأدب لزم المسجد يخدم أهل
العلم ويأخذ عنهم .

وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال
في العالم الاسلامي . وبلغ المعتصم خبره فحمّله اليه الى سامرا (سرّ
من رأى) فلزمه ومدحه ، وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم .

ثم عيّنه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، فقضى في هذا المنصب
السلتين الأخيرتين من حياته ، وتوفي هناك . وقد رأينا تمهيداً لدراسته
ان ثبت هنا قائمة بأهم ممدوحيه مرتبة بحسب عدد القصائد التي قيلت
فيهم .

١ . وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل ثوبة وآل وهب .
وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم تأسرة وأيامهم مشرقة - الفخري ١٣٧ و ١٨٢ ،
والفهرست ١٣٥ .

أهم مدوحي أبي تمام

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله (٢٩ قصيدة) وهو (من طي) وكان من كبار القادة .

آل وهب وزراء الدولة (١٣ قصيدة) ينسبهم البعض في بني الحارث ابن كعب ولكن الصحيح أنهم من الموالي ^١ .

المعتصم	٨	الخلفاء العباسيون
المأمون	٢	
الواثق	٢	

القاضي أحمد بن أبي دؤاد (الايادي الجهمي) (١٢ قصيدة) كان قاضي الدولة ومن أكبر المتنفذين فيها .

خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني (١٢ قصيدة) من الامراء والقادة .

مالك بن طوق (التغلبي) ١٠ أمير عرب الشام

محمد بن الهيثم بن شيانه ٨ من أهل مرو (من الموالي) ^٢

آل حميد الطوسي (طائي) ٦ ومنهم محمد بن حميد وقد اشتهر في حرب بابك

أبو المغيث الرافقي وآله ٥ أمير الشام

عبدالله بن طاهر بن الحسين ٤ فارسي الاصل (خزاعي الولاء)
أحد كبار رجال الدولة وأمير خراسان

أبو دلف القاسم بن عيسى (المعجلي) ٤ قائد عربي كبير وصاحب الكرخ

محمد بن الزيات الكاتب المشهور ٤ وزير المعتصم

اسحق بن ابراهيم المصعبي (الخزاعي) ٤ نائب بغداد

١ راجع قصيدة ابي تمام « هل اثر من ديارهم دمس » ومختارات البارودي ٣٧٢ قول ابن الرومي عن ابن وهب « وذو نسب من آل ساسان شاك » .

٢ راجع داليتة « تجرع أسي قد اقفر الجرع الفرد » .

عبد الحميد بن غالب الصفدي	٤
محمد بن حسان (الضي)	٤
آل سهل	٤ الوزراء والكتاب وهم من الفرس
الافشين	٢ القائد التركي الكبير
علي بن مرّ	٢ من كبراء طي

شخصيته في شعره

لأبي تمام مزيتان بارزتان : صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدة عنفوانه واعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادت كثره اسفاره عزماً ومضاءً ، فليس إذن من الغريب ان تسمعه يقول :

دعيني على اخلاقي الصمّ للقي هي الوفر أو سرب ترن نوادبه
أي دعيني - على ما في من خلق شديد - اخوض غمرات الحياة
فإما الغنى أو الموت . وقوله من قصيدة أخرى :

ولكنني لم احر وفرأ مجتماً ففزت به الا بشمل مبدّد
نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عما يختلج في نفوس البسلاء المغامرين
الذين يأبون حياة الخمول ، فيقتحمون الأهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلی
والمجد . ومنها :

أليس بأكناف الجرير وفارس وقمّ واصطخر قرار لروّد
بلى ان أرض الله فيها ندوحة ومضطرب للقاتك المتجرّد
تلك روح قلقة كثيرة المطامع ، وهي التي حملت شاعرنا على ترك
قومه في الشام ، ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الأرض . وقد
صدق في وصف حاله إذ قال :

ذاتَ الثنايا الغرّ لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد
ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسودّ وجهه في البید
وانك لتكاد تلمس صلابة نفسه في أبياته التالية :

لا أفقر الطربَ القلاصَ ولا أرى مع زير نسوان اشدّ قيودي
شوقٌ ضَرَحَتْ قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءه عن عودي
عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيخود
حتى أغادر كل يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخص هذه الأبيات : انني لست من الذين يركبون العيس توصلاً
إلى طرب أو ملهى غرامي ، ولكنني رجل أسفار متمرس بقطع الفلوات
المهرقة ، وكم تركت لطيوورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى
صلابته واحتماله وشوقه الى العظام . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح
المغامرة ، حتى شعره في مصر - وهو في أول عهده وقد قيده الدهر
بقيود الفقر - نراه برغم ذلك ينمّ على نفس مرّة طمّاحة . ومن قوله
في ذلك :

وطال قطوني أرض مصرَ حاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمجـ
اقلّب في أقطارها الطرف كي أرى ولست براء ذاك عصمة ملتجي
فقتنّني بأسّي وأعلم انني مقود بحبل للمقادير مدمجـ

أما عنفوانه فظاهر فيما روه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر أمير
خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بأثيته التي مطلعها « اهنّ عوادي يوسف
وصواحبه » نثر عليه ألف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً ،
بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال : يترفع عن برّي ،
ويتهاون بما أكرمته . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك . وأي عنفوان أشد
من ان يقصد شاعر أميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرى هبة
الامير اقلّ من قدره ، فيترفع عن أن يمسا بيده . وهذه الظاهرة الخلقية

في شاعرنا تتجلى لنا أيضاً في خلق أبي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر ، وهي قد تهب بالشاعر إلى وزن نفسه بميزان ممدوحيه أو إلى التفاخر والتعظيم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدة أبي تمام التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية أحمد ابن أبي دؤاد ويعتذر إليه عن اساءة ، وأولها :

أرأيت أيّ سوائف وخدود عنت لنا بين اللوى فزود
وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (إياد) ويقرن ذلك بمدح
طبيّ (قبيلة الشاعر) ويجعل إياداً وطياً متساويتين في المحامد فيقول :
كعب وحاتم اللذان تقاسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنديد
ثم يتقدم إلى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها :

فاسمع مقالة زائر لم تشبه آراؤه عند اشتباه البيدر
أسرى طريداً للحياء من التي زعموا وليس لرهة بطريد
كنت الربيع أمامه ، ووراءه قرّ القبائل خالد بن يزيد
ما خالد لي دون أيوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمأمل في هذه الأبيات يعجب من هذه العواطف التي تمل عليه ان يقول للمدوح عظيم يعتذر إليه . لم آتكَ رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به ، وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك ويعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي بأقل منها ، ولا أنا بأقل من يزيد بن المهلب . ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف :

وكنت إذا ما زرت يوماً مسوداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد
فلأن يحزل النعمى ثلبه قصائدي وان ياب لم أقنع بأصوات معبد
أليس بأكناف الجرير وفارس وقمّ واصطخر قرار لروّد

فكأنه يقول اني شاعر كبير النفس أقصد الامير العظيم فإن كافاني
بما يستحق مقال كافات بما يستحقه من القصائد ، وإلا فإني أتحوّل عنه
الى الضرب في آفاق الأرض .

أما تعاضله بشعره فهو كثير كقوله يصف قصائده :

وسيّارة في الأرض ليس بنازحـ على وخدها حزنٌ سحيق ولا سهبُ
تذرّ ذرور الشمس في كل بلدة وتمسي جموحاً ما يردّ لها غربُ
إذا أنشدت في القوم ظلت كأنها مُسرّة كبيرٍ أو تداخلها عجب
مفصّلة باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر إلا انها اللؤلؤ الرطب

وقوله :

خذها مغرّبة في الأرض آنسةً بكل فهم غريب حين تغترب
لا يستقي من حفير الكتب رونقها ولم تزل تستقي من بجرها الكتب
حسبية في صميم المدح منصبها إذا أكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسهه هذا المقام .

على ان أبا تمام كان - على صلابه نفسه - موصوفاً بكرم النفس
وحسن الأخلاق^١ . وكان محباً للشراب والغناء ، لا يكاد يحصل على
المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في ذلك كأكثر شعراء عصره .
وبرغم ما تجده في شعره من التعصب الديني عند ذكره للروم لا تجد
في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي : « كان
أبو تمام ماجناً خليعاً ، وربما أدّاه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجناً
لا اعتقاداً »^٢ . وبكلمة أخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن
الاعتقاد .

١ نزهة الالباب للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤ - ١٨ الى ٢٦ .

٢ مروج الذهب ٧ - ١٥١ .

خصائصه الفنية

قال ابن رشيق القيرواني : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الخمر ، وأبي تمام في التصنيع ، والبحتري في الطيف الخ^١ » . وقال الجرجاني في الوساطة : « كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المحدثين^٢ » . وقال أبو الفرج الأصفهاني : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه^٣ » . ووصفه الآمدي بقوله : « وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة » ثم يقول : « فإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر^٤ » .

هذا هو رأي جمهور العلماء النقاد في شعر أبي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهيم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا بارزة ، وهي :

- ١ - تأنقه البديعي (واكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس).
- ٢ - تفننه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع .
- ٣ - شغفه بالإغراب - أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني .

ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة :

التأنق البديعي

لم يخلُ الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ بأسباب البديع

١ - العمدة ١ - ١٩٤ .

٢ - الوساطة ٣٢٤ .

٣ - الاغاني ١٥ - ١٠٠ .

٤ - الموازنة ٣ .

أو الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ أيام الجاهلية ، فقد عرف امرؤ القيس بسبقه إلى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه ، وعرف زهير بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه ، ومثله الخطيئة .

وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجريروالاخطل والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا أبا تمام ، تجد في جميعهم أثر الميل إلى الصناعة يتفاوت فيهم بالنسبة إلى الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صنّاع الشعر القدماء : « واستطرفوا ما جاء من الصناعة نحو البيت أو البيتين في القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاما اذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة . وليس يتجه البتة ان يتأتى من الشاعر قصيدة كلها او اكثرها متصنع من غير قصد ، كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحري وغيرهما ، وقد كانا يطلبان الصناعة ويولعان بها^١ » .

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع ، وتبعه فيه جماعة منهم أبو تمام - روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم ابن الوليد وقال ان أبا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه . ونقل عن محمد بن يزيد قوله : « كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الظريفة واستخرجها » . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سمّاه البديع ، ثم جاء الطائي بعده فتفنن فيه^٢ .

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلم بن الوليد أكثر منها وكان يحتذي حذو العتايي ، وكان هذا

١ العدة ١ - ٨٤ .

٢ راجع الموازنة ص ٩ وريحانة الالباء (مصر ١٣٠٦) ٢٣١ .

يحتذي حذو بشار^١ ، ثم قام أبو تمام فزاد على مسلم . وكانت العصر الذي نشأ فيه شاعرنا (اعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الأدب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام الى الطريقة الحضرية المولدة ، طريقة التبسط والتألق . والظاهر ان أبا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فجرى فيها شوطاً بعيداً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب به فنكتفي هنا بالقليل منها - قال من قصيدة :

تلومين ان لم اطو منشور همة ^٢	طوت عن لساني مدح كل مزبد ^٢
لهزتك أثواب البصائر عزّة ^٣	كستك ثياب الزجر من كل مرشد
كأنك لا تدرين طعم معيشة	تمجّ دماً من طعم ذل التعبد
فصوني قناع الصبر اني لراحل	الى بحر جود غامر الفضل مزبد
امات حياة الوعد منه نوافل	من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد بن أبي دؤاد :

ما زلت ارقب تحت افياء المنى	يوماً بوجهٍ مثل وجهك أبيضاً
لولاك عزّ لقاءه ^٣ فيما بقي	اضعاف ما قد عزّني فيما مضى
أوردتني العدّ الخسيف وقد أرى	اتبرّض الثمد البكيّ تبرّضاً ^٤
اما القريض فقد جذبت بضبعه	جذب الرشاء مصرّحاً ومعرّضاً
أحبيته اذ كان فيك محبباً	وازددت حبّاً حين صار مبغضاً
قد كانت الحال اشتكت فأسوتها	اسوأ أبي امراره أن ينقصا
ما عذرهما الاّ تفتق ولم تزل	لمريضها بالمكرمات ممرّضاً

وله متغزلاً :

١ البيان والتبيين ١ - ٢٤ .

٢ المزبد اللثيم .

٣ الضمير يرجع إلى الخليفة .

٤ العد الخسيف أي النبع الوافر الماء . اتبرّض الثمد البكي أي أطلب الماء القليل منا وهناك .

لا أنتَ انت ولا الديار ديارُ خفّ الهوى وتولّت الاوطارُ
كانت مجاورة الطلول وأهلها زمناً عذاب الورد فهي بحار
أيام تدمي عينه تلك الدمى فيها وتغمر لبته الاقمار
إذ لا صدوف ولا كنود اسمها كالمعنيين ولا نوار نوار^١
بيض فهنّ إذا رُمقن سوافراً صوّر^٢، وهنّ إذا رُمقن صوار^٣

وقال من قصيدة في أبي دلف المعجلي :

تكاد مغانيه تهشّ عراسها فتركب من شوق الى كل راكب
إذا ما غدا اغدى كريمة ماله هديّاً ولو زفّت للأم خاطب
يرى اقبح الاشياء أوبة آملٍ كسته يد المأمول حلّة خائب
واحسن من نور تفتّحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
إذا ألهمت يوماً لجيم وحوها بنوا الحصن نجلّ المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبريّة سليماً ولا يتحرّبن من لم يحارب
يمدّون من أيدي عواصٍ عواصمٍ تصول باسياف قواضٍ قواضب

وأمثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام . وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول ، حتى رماه الكثيرون باسمه النقد الحادة . قال الجرجاني : « ان أبا تمام اسلم نفسه للتكلف ، يرى انه ان مرّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتقّ منه تجنيساً او يعمل فيه بديعاً ، فقد باء باثم واخلف بفرض حتم^٣ » . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن أبي تمام : « كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير مما أتى من المعاني لا

١ صدوف وكنود ونوار اسماء .

٢ الصوار القطيع من بقر الوحش .

٣ اسرار البلاغة ١٠ .

يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن . ولو كان أخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو يجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذوفاً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب مائه ورونقه - ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره أو أكثر - لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين^١ . وقال الباقلاني بعد ان ذكر بضعة أمثال على تصنع أبي تمام : « فهذا وما أشبه إنما يحدث من غلوّه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستؤخم رصفه ، وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً^٢ » .

والذي يطالع ديوانه تحريماً لهذه التهم يتضح له ان أكثر ما ذكره حق وان أبا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة أو الكناية دون أن يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفّ قاطب

يقصد بذلك ان المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لا لين فيه ولا تودة . فاستعار للسير الشديد الخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارك الركاب بالركائب فيه عبارة عن تساقبهم تلك الخمر الصرف . وانت لا تحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة .

ومثل ذلك قوله :

١ الموازنة ٥٥ - ٥٦ .

٢ اعجاز القرآن (مصر ١٣١٥) ٥٣ .

صاحي المحيّا للهجير وللقنا تحت المعجاج تخاله محراثا
فالشطّر الأول جميل ، جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ،
ولكنه افحش في الشطر الثاني اذ جعله محراثا يشق غبار الحرب وافسد
جمال البيت .

وقوله :

آثري إذ جعلته سندا كل امرئ لاجئ إلى سنده
ايشار شزّر القوي رأى جسد المعروف أولى بالطبّ من جسده
والشاهد في البيت الثاني وهو يريد ان يقول آثري ايشار القوي وقد
غار للمعروف وقام يناصره . فتأمل استعارته الجسد للمعروف ، وايشار
القوي له بالتطبيب !

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته لو ان القضاء وحده لم يبرّد
وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت . وهو يقصد ان يقول
ان حمية ممدوحه قد ثارت يوم لقي العدو وكادت تفتك به لولا ان
القضاء حال دون ذلك : فكّدّ نفسه حتى جاء بالطباق ، ولكنه جاء
غثا بارداً .

وانظر إلى تعسّفه إذ يقول :

نوى كانهضاض النجم كانت نتيجة من الهزل يوماً ان هزل النوى جدّ
أي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدّق أولاً ، ولكن ألم وقوعها
أراه الحقيقة وعلمه ان هزل الحبيب جد .

وقوله :

فكأن افئدة النوى مصدوعة حتى تصدّع بالفراق فؤادي
فاذا فضضت من الليالي فرجت خالفنها فسددها ببعاد
ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلما

فتحت لنفسي منفرجاً خالفتني الأيام فسدت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر
كيف تكلف تصديع افثدة النوى ، وكيف استعمل البعاد كحجر يسد
به ثغرة الفرَج .

وقوله :

أهَيْسَ اليس لجاء إلى همم تفرّق الاسد في آذيتها اللisa
انظر إلى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما
يريد ان يقوله ان المدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة .

وقوله :

هدأت على تأميل احمد همي واطاف تقليدي به وقياسي
معناه رأيت الناس يسمعون إلى المدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس
أفضلهم ، فهدأت همي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره
من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فتري شدة اسرافه في الصناعة .
ومثل ذلك قوله :

لو لم تفت مِسَنّ المجد من زمن بالجوّد والبأس كان المجد قد خرفا
ومعناه ان المجد قد هرم ، ولولا ان ارجعت اليه فتوته يجودك وبأسك
لكان قد أدركه الخرف :

ومن الاسراف المقوت قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد
وقوله :

قرّت بقرّان عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطُلها
والاشتران قائدان للروم .

قال المسكري: «وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس في البيت على عيب

آخر وهو ان انتشار العين لا يوجب الاصطلام .
واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته إلى الممدوح ، وانظر كيف
يتعسف في تشبيهها بالجمال وكيف يخرج به التكلف عن حدود
الجمال .

حملت رجائي اليك بنت حديقة علباء لم تلقح لفحلٍ مُقرفٍ
فنجت وقد حوت الهنيدة وابتنت في شطرها وتبوّعت في النيف
في البيت الأول يريد بآونة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من
خشب الحديقة ، وشبه السماء بالفحل ، ولم يلحقها أي لم يصبها بمطر .
فتأمل هذه السجاجة الصناعية . وفي البيت الثاني - اسرعت هذه السفينة
وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الخمسين ، وسارت غايتها في بحر
كالصحراء .

إلى أن يقول :

فاعتامها ذو خبرة بفحولها ندس بحيلة خلقها متلطف
أي فاختارها من فحول الشجر خير حاذق ببنائها .
ثم اجتنت شلوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسدف
أي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن أمه .
واني ارجع القاريء إلى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه
المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر أبي تمام ، فانك لا تسكاد تقرأ
له قصيدة حتى تمر ببيت أو بضعة أبيات من هذا الشعر المكدود الذي
ينفر منه الذوق السليم ، لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون
اللباب .

تفننه المعنوي

على ان لأبي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في

الشعر العربي . وما ذلك إلا لدقة تصويره وحسن اختراعه . ففي شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويصبر على تحليل معانيه ، يجد من بدائعه الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشيباً من البلاغة . واليك أمثلة ذلك من شعره :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود ، وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررهما في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من أمير أقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغة :

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ان السماء ترجى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي

ومن أجمل صوره الشعرية قوله يرثي ولدين صغيرين لأحد الأمراء والبلاغة ناطقة فيه :

لهفي على تلك الشواهد منها لو اهلت حتى تكون شمائلنا
لغدا سكوتها حجبٌ وصباها حلماً وتلك الأريحية نائلنا
ان الهلال إذا رأيت نموء ايقنت ان سيصير بدرأ كاملاً

وهذا البيت الأخير الذي أتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الولدين هو من أبدع الامثال وأبلغها . ومثله بلاغة وجمالاً قوله المشهور يصف بلوغ الأرب عن سبيل المشتات :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجتمعاً ففزت به الا بشملٍ مبدؤٍ

ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً الذّ به الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلّق لديباجتيه فساغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد أجاد في هذه الأبيات كل الاجادة ، وابرز هذه المعاني البديعة
بقالب يأخذ بمجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيه
الباكر :

ستّ وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب فلم تظلم ولم تحب
فأصغري انّ شيباً لاح بي حدثاً واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ،
ولكن الغريب انني لم أشب وأنا طفل : يشير بذلك إلى ما في نفسه
من عزم وهمة ، وإلى ما أصابه منذ طفولته من مقارعة الاهوال
والخطوب .

وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على بابهِ :
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب منه اعقبت بسحائب
والصور الشعرية في البيت الثاني خلاّبة ، لأحكام التشبيه فيها وجمال
التركيب .

ومن هذه الصور الخلاّبة قوله من مرثاته المشهورة :
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفسٌ تعاف العسار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخصك الحشر
وقوله يصف أميراً أنعم الله عليه بنعم عظيمة ، ولكنه كفرها ونقض
عهد الولاء والوفاء :

كم نعمةٍ لله كانت عنده فكأنها في غربةٍ واسارٍ
 كُسيَت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار
 وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه
 عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سرّاً لا
 يهجم على مكانه الا جَنَانُ الشَّهْم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق
 فهمه حتى جل عن دقة الفهم » . ثم يقول : « قد قيل ان أبا تمام أكثر
 الشعراء المتأخرين ابتداءً للمعاني ، وقد عدت معانيه المبتدعة (أي التي
 لم يسبق اليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة
 يكبرون ذلك ، وما هذا على مثل أبي تمام بكبير^١ » .
 وقد أصاب الاستاذ جبر ضومط إذ قال : « الحق يقال ان أبا تمام هو
 كما قال فيه واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر ،
 واقدّر انه لو عاش فوق الاربعين ، ولم يمنعه الانهاك في الشهوات من
 ترتيب محفوظاته ومدرّكاته ، بل لو عاد عليها بالتهذيب والتشذيب ، فاطرح
 منها ما حقه ان يطرح ، وأبقى منها ما هو جدير بالبقاء ، ثم جمع
 الاشياء والنظائر - لو عاش حتى فعل كل ذلك - لكان شعره بعدها
 لا يتعلق به متعلق ، ولبّز على الأرجح الشعراء قاطبة حتى أبا الطيب
 المتنبي في كثير من حكمه وأمثاله وبُعد مطارح نظره^٢ » .
 وكما اننا ننمي على أبي تمام ميله إلى تكلف البديع نمدحه لما نجد
 في شعره من نفَس عال في النظم يؤثّر في النفس فيحملها إلى الطبقات
 العليا . اقرأ ايّاً شئت من عيون قصائده ، وانظر إلى تلك الهزّة التي
 تعتريك لقراءتها . فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتانة
 التركيب وسمو الفكر . ونجّزىء هنا بمثلين أو ثلاثة من ذلك :
 راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتأمل مقدمتها : تلك الوقفة

١ المثل السائر ١٩٣ .

٢ مجلة الكلية مج ٥ ص ٨٧ .

الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعنا أحاديث الجمهور عنه ، ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ، ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء . كل ذلك بأسلوب شديد الأسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك أوتار القلوب . وإذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنّعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي ، كقوله يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنصرين بالمال وترفع الخليفة عن ذلك :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس	والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها	فعرّه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به	عن غزو محتسب لا غزر مكتسب
لم ينفق الذهب المُرِّي بكثرتة	على الحصار وبه فقر إلى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها	يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومن هذا النمط العالي قوله :

ستصبح العيس في ذا الليل عند فق	كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفت عنه فلم تصدف مودته	عني وعأوده ظني ولم يخب
كالغيت ان جثته وافاك ريقه	وان ترحلت عنه لجّ في الطلب
كأنما هو في أخلاقه ابدأ	وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله :

ويوم أمام الموت دحض وقفته	ولو خرّ فيه الدين لانهال كائنه
جلوت به وجه الخليفة والقنا	قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقاتل محقّة	ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعتة الفنية الشديدة ، ولو قلبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره . وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة أسره في التي حدث بمريديه إلى التغالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة ، حتى

قال أبو الفرج الاصفهاني : « وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من يعصّب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف^١ . بل هي التي دفعت أبا دلف العجلي ان يصيح وقد أنشده أبو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من أربُع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

« يا معشر ربعة ! ما مُدحتم قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال أبو دلف قد قبلها منكم وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم أمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا^٢ . ولم يكن ذلك مجرد اهتزاز للمديح ، ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال أسلوبه .

ونلاحظ ذلك في مجلس عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، فانه لما قصده وأنشده قصيدته « اهنّ عوادي يوسف وصواحيبه » لم يتالك الشعراء الحاضرون من أن يصيحوا : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله . وبلغ التأثير بأحدهم ان قال : لي عند الأمير أعزّه الله جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً على قوله للأمير^٣ . ومثل ذلك ما جاء في الأغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجا ان أبا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها :

أنا من عرفت فان عرتك جهالة فانا المقيم قيامة العذال

فلما وصل إلى قوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالتسلل حرب للمكان العالي
وتنظري خبيب الركاب ينصّها محيي القريض إلى مبيت المال

صاح المدوح متأثراً : والله لا اتممتها الا وأنا قائم . فلما انتهى من

١ و ٢ الاغاني ١٥ - ١٠٠ و ١٠٣ .

٣ الاغاني ١٥ - ١٠٣ .

انشادها عانقه . قال محمد بن سعد : « وأخذ منه على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان في الحسن ابن رجاء ^١ » .

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة ، فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعاً يهزّ النفس ، ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي أبي تمام :

شهدتُ لقد اقوت مغانيكمُ بعدي ومحتت كما محتت وشائع من بردِ
وانجدمتُ من بعد اتهام داركم فيا دمعُ انجدني على ساكني نجد
فتأثر دعبل - على كرهه لأبي تمام - وصاح احسن والله وجعل يردد :
« فيا دمع انجدني على ساكني نجد ^٢ » .

ولولا كثرة تصنعه وما سذكّره له من التعقيد والاغراب لاحتته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي .

شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . يأتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ^٣ » . ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيه ، وقد أصاب كل الاصابة في قوله « يأتي للاشياء من بعد » ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة .

وتمنّ سبقه الى هذا النقد أبو الحسن الجرجاني اذ قال بعد ان ذكر اغرابه اللفظي وتطلبه البديع ^٤ : « ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب

١ الاغاني ١٥ - ١٠٤ .

٢ الاغاني ١٥ - ١٠٧ .

٣ العمدة ١ - ٨٥ .

٤ الوساطة ٢٤ و ٢٥ .

المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل ،
وارصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع
السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على
القریحة . فهو كما قال « لا يغطي مقاصده بشيء من الایهام » . ومن هنا
هذه الصعوبة التي يعانها من يطالع ديوانه اذ يقف حائراً أمام طلاسمة
وغموض معانيه ، ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما
يلذّه من صور جميلة ومعاني رشیقة . وقد وصف الشاعر قصائده
بقوله :

فكأنما هي في السّماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتیک الا انها لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تقبل على شعره فتصدمك وعورته ، فتحاول التغلب عليها وتكدّ نفسك
في تدليل عقباتها ، ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على
النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في أساليبه وغرائبه وأخذت
تجלו لنفسك معانيه ، حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من
بديع تخيلاته وجزالة الفاظه . ولنضرب لك بعض الأمثلة على ذلك . قال
في مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر :

اهنّ عوادي يوسف وصواحيبه فعزماً فقيداً ادرك السؤل طالبه
اعاذلني ما اخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصمّ للقي هي الوفرة أو سرب ترن نواديه
فان الحسام الهندواني انما خشونته ما لم تقلل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الأمير قيل له لِمَ
تقول ما لا يفهم ؟ فأجاب السائل : لِمَ لا تفهم ما يقال ؟ فكتة جميلة
تبين ما نقصد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً : هل تريد الغواني
ان تشغلني وتشني عزمي عن السفر ، وان تخدعني كما حاولت ان تخدع

يوسف بن يعقوب ؟ فلأتذرّعُ بالعزم ، لا بدّ لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا ايها العاذلة ان الليل مركب خشن ، ولكن الذي يركبه أشد منه وأخشن . فاتركيني على أخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى ، فاما ان أنا لها أو أموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم يستعمل (أي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام) .

وقوله يصف أماني الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم :
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدّة للسهارين وليس الورد من كشب
ان الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
أي قال قادتهم لأنفسهم لا مرتع قريب للاعداء (إذا راموا الحصار) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلا . على ان أمانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحمامين) هي سبيلنا الى الماء والعشب .

وقوله يصف - كيد الممدوح للاعداء وحسن رأيه - :
قد رأوه وهو القريب بعيدا ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيد فيهم انّ من أعظم إرب ان لا تكون اريبا
مكرهم عنده فصيح وان هم خاطبوا مكره رأوه جليبا
لقد انصعت والشتاء له وجه يراه الرجال جهما قطوبا
طاعنا منحرا الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوبا
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته قوداً ركوبا
أي ان الاعداء رأوا الممدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته ، ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم - وان من أعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء - فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدت اليهم والشتاء في إبتانه فطمعت منحرا الشمال (يعني بذلك عن العدو لأنه من جهة الشمال) حاملا

اليهم الموت من الجنوب ، وضربت الشتاء فأذلتته حتى أصبح لديك كالجلل الركوب :

ومن هذا القبيل :

يقولون ان الليث ليث خفية نواجذه مطرورة ومخالبه
وما الليث كل الليث إلا ابن عثري يعيش فواق ناقة وهو راهبه
ويحل هذا الطلسم بقولنا : ليس الاسد سبع الغاب ولكن الاسد
الحقيقي هو الذي يحتمل بأس المدوح ولو قليلا (فواق ناقة) .
وقوله للماذل الحلي وهو بين الطلول :

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك إركابي من الرشد مركبا ألا انما حاولت رشد الركائب
لم يصر عذلك عدوا لي ، حتى صار جهلك صاحبي : أي كرهتك
لعذلك إياي ولكنني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب ، إذ
انك يجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعي مثلا من شدة الوجد وكثرة البكاء .
ولكن ما لك تحملي على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول —
ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائي التي ترغب في متابعة السير .

* * *

ومن أسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

* * *

فهو مدني للوجود وهو بغيض وهو مقص للمال وهو حبيب

* * *

فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غالب

* * *

غربت خلأته وأغرب شاعر فيه فأحسن مغرب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفّ قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جُذيل مشارق إذا آبه همّ عُنْدِيقُ مغارب
يرى بالكعاب الرّود طلعةً نائر وبالعرمس الوجناء غرّة آيب

ومعناها : وربّ ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى أذابوا
اسنمتها وكواهلها ، ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالأسفار شرقاً
وغرباً ، شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ،
ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه على ذلك .

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الألفاظ . جاء في
كتاب الموازنة : « كان أبو تمام يتتبع حُوشيّ الكلام ويتعمّد ادخاله
في شعره » . ولعل ذلك راجع بالاكتر الى كثرة محفوظه ودرسه لأشعار
الأقدمين . قال الآمدي : « كان أبو تمام مشغولاً بالشعر مشغولاً مدّة
عمره بتخيّره ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة : منها الاختيار
القبائلي الأكبر ، وقد مرّ على يديّ هذا الاختيار . ومنها اختيار آخر
ترجمته القبائلي ، ومنها الاختيار الذي تلقّط فيه محاسن شعر الجاهلية
والاسلام وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابراهيم بن هرمة ،
وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول . ومنها اختيار تلقّط
فيه أشياء من الشعراء المقلّين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماصة ، وهو
أشهر اختياراته . ومنها اختيارات المقطّعات يذكر فيه اشعار المشهورين
وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين ، وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ،
وانه اشتغل به وجعله ركّده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه :
فإنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث إلّا قرأه

١ الموازنة (الاستانة ١٢٨٧) ١٢٠ .

واطلع عليه^١ . وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال^٢ .

ولا ريب ان للحفظ تأثيراً على أسلوب الشاعر او الناثر ، ولا سيما في إبتان قوّة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المؤلف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت وقد ذكر قبلاً :

أهيس أليسُ لجاء الى همم تغرق الاسد في آذيتها الليسا
أي شجاع تغرق بحور همته الاسود الجريئة
وقوله :

الواردين حياض الموت متأقّة ثباً ثباً وكراديساً كراديسا
ويريد بمتأقّة مترعة . وثباً ثباً أي جماعات جماعات .
وقوله في مطلع قصيدة :

أما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت وأجالده
لأعطيت هذا الصبر مني طاعة ليعلم دهري أيّ قرن يكايده
أي لولا ان نأى الاحباب عن الديار قد أفقدني صبري لعلّمت الدهر
بثباتي على مصائبه أي رجل أنا .
وقوله :

غل المروراة الصحاح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد
أي طوى السهول والقفار عزمه .
وقوله :

سهاد يرجحن الطرف منه ويولع كل طيف بالصدود

١ الموازنة ٢٣ و ٢٤ (بتصرف) .

٢ ابن خلكان ١٠ - ١٧٠ .

أي سهاد تثقل فيه الجفون :

وقوله :

تقلقل بي آدم المهارى وشؤمها على كل نشز متلثبٍ وفدغد
أي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة .
وفي قوله :

صَهْصَلَقٌ في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على جرس
يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شد الى جرس .
ومن هذا القبيل :

عططت على رغم العدى عزم بابك بعزمك عطّ الاتحميّ المرعبل
الكلام استعارة معناه : شققت عزم « بابك » بعزمك كما تشق الثوب
المخطط .

وقوله :

كأن بابك بالبذّين بمدهم نؤي أقام خلاف الحي أو وتد
بكل منعرج من فارس بطل جناجن فُلُقٌ فيها قنا قصد
والمعنى كأن بابك ، وقد فني جيشه ، أثر نؤي أو وتد باق في الحي ،
فأنت لا ترى إلا أشلاء جيشه مبعثرة ، وفي كل ناحية ومنعطف آثار
الرماح المنكسرة .

وقال :

مقابل في الجديل صلب القرا لو حكّ من عُجبه الى كتده
أي كريم النسب قوي الظهر لو امتحن من عجزه الى كتفه لوجد كذلك .
وأراد مرّة ان يطلب فرواً من ممدوحه فوصفه بهذه الابيات الغريبة :

ولا بد من فرو اذا اجتابه امرؤ غدا وهو سامٍ في الصنابر أغلب
اثيث اذا استعيت مصقعة به تملأت علماً انها سوف تُعتب

يراه الشفيف المرتعن^١ فيثني حسيراً فتغشاه الصبا فتنتكسب
أي إذا لبسه الانسان تغلب فيه على البرد . وهو كثيف الشعر اذا
استرضيت البرد به رضي ، واذا رآه المطر البارد المنهمر انثنى عنه كليلاً
ومالت عنه ريح الصبا .

ونختم هذه الامثلة على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من
همزته المعروفة ، قال في مطلعها :

قدك اتسب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سُجرائي
أي استحي يا لاثمي يكفيك غلواً في تعنيفي . وكيف تلومونني وأنتم
مثلي مصابون بالغرام .

ومنها يصف البید والنياق :

بيد^٢ لنسل الفيد في امليدها ما ارتيد من هيد ومن عدواء
أي قفار قطعتها على ناقة ذلول ، فيها كل ما يتطلبه الراكب من
عزم ومضاء ومن فرج للهموم .

وأمثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر
المتقدمون ذلك عليه ، وقالوا اذا جاز للاعرابي القح فهو مستهجن من
المحدث الذي ليس هو لغته ، ولا من كلامه الذي تجري عادته به^٣ .
ولقد ذكرنا ان أكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم كثرة محفوظه منه .
على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره ، حتى لم يكن ليرضى
أن يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو الهلال العسكري : « كان ابو تمام يرضى
بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير » . وعن الاغاني : روي عن بعض
الشعراء ان أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جمعها الا في بيت واحد ،
فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .
فقال له : أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده

١ المازنة ١٢١ .

مثل أولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلوا في نفسه ^١ . فكان شاعرنا كما وصفه الآمدي شرهاً الى إيراد كل ما جاش به خاطره ، ولجلجه فكره ، فخلط الجيد بالرديء ، والعين النادر بالرذل الساقط ، والصواب بالخطأ ^٢ . على ان لشعره طابعاً من الجزالة أو الفخامة عُرِف فيه . وعليه قال ابن الاثير يصف ألفاظه :

« كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ^٣ » .

بقي أن نقول ان أبا تمام كسائر الفحول من الشعراء المتقدمين قد طرق كل أبواب الشعر فمدح ورثى وتغزل وأجاد الحكمة والوصف . وقد ترك لنا من شعره وخصوصاً في المدح والثناء والحكمة ما يعدّ من أبلغ ما جادت به قرائح الشعراء ، ويكفي أن نشير الى مدائحه في المعتم وأبي سعيد محمد بن يوسف ومرثاته الشهيرة في محمد بن حُميد الطوسي وما له من بدائع الحكم التي تتخلل قصائده ؛ ففي هذه وسواها تبرز لك شاعريته القوية ، وسنلمس ذلك في ما أثبتناه من مختار شعره .

١ الاغاني ١٥ - ١٠٠ .

٢ الموازنة ٥٦ .

٣ المثل السائر ١٠٦ .

المختار من شعر أبي تمام

وادي بعيد الغور كثير الجنادل يردّه الناهل فلا يبلغه إلا بعد أن تكلّم
قدماء وينقطع نفّسه ، على انه إذا وصل وجد فيه ما ينسيه أهوال
الطريق ومتاعب الرحيل . ذلك هو أبو تمام في شعره — هذار — كثير
التأنق ولوع^١ بسلوك أغرب السبل الى المعاني .

فتح عمورية^١

قيلت في الممتصم سنة ٢٢٣ هـ وكان الشاعر قد صحبه في هذه المعركة
فشهد بنفسه وقائمه^٢ :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدّ بين الجيد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهنّ جلاء الشكّ والرّيب
والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخميسين^٣ لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً ملفّة ليست بنبع إذا عدّت ولا غرب^٤

١ عمورية بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم .

٢ الفخري ١٧١ .

٣ الخميسين أي الجيشين .

٤ التبع شجر صلب تعمل منه القسي . والغرب شجر هش . والمعنى انت اقوالهم ليست من الحقيقة في شيء .

عجائباً زعموا الايام مجفلة^١ وخوتوا الناس من دهياء مظلمة وصيروا الأبرج العليا مرتبة^٢ يقضون بالامر عنهما وهي غافلة^٣ لو بيتت قط أمراً قبل موقعه فتح الفتوح تعالى ان يحيط به فتح تفتتح أبواب السماء له يا يوم وقعة عمورية انصرفت أبقيت جد بني الاسلام في صعد أم لهم لو رجوا ان تفتدى جعلوا وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد حتى اذا خض الله السنين لها

* * *

أتهم الكربة السوداء^٤ سادرة منها وكان اسمها فرجة الكرب^٥ كم بين حيطانها من فارس بطل بسنة السيف والخطي من دمه لا سنة الدين والاسلام مختضب^٦

- ١ إشارة إلى مذنب ظهر في تلك الايام ولعله مذنب «هالي» راجع المقتطف مج ٣٥ ج ٦ - ١ .
- ٢ كنى بالاوثنان والصلب عن الروم . ويريد بهذا البيت انه لو كانت التنجيم يفيد لعرف الروم ما سيجل بهم فاتقوه .
- ٣ شبه بلوغ الأماني بحلب الضرع الملائن بالحليب اللذيذ .
- ٤ شبه المدينة بامرأة بارزة المحاسن رامها الملوك الفاتحون فامتنت عليهم .
- ٥ أي كما ان المرأة الحريصة تمخض الحليب لتستخرج زبدته هكذا مخضت الايام فكانت عمورية أفضل ما خرج منها .
- ٦ أتهم المصيبة من المدينة وكانوا لمناعتها يتوقعون الفرج منها .
- ٧ أي كم من فارس قتل فيها فسال دمه قانياً حتى خضب شعره ولكن تخضب السيف لا التخضب الذي تقتضيه السنة .

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى
حتى كأنّ جلابيب الدّجى رغبت
ضوءاً من النار والظلماء عاكفة^١
فالشّمس طالعة^٢ من ذا وقد أفلت
تصرّح الدهر تصرّيح الغمام لها
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على
ما ربيع مئة معموراً يطيف به
ولا الحدود وقد أدمين من خجل^٣
سماجة^٤ غنّيت منا العيون بها
وحسن منقلب تبدو عواقبه

للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
يشلّته وسطها صبح من اللهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
وظلمة من دخان في ضحى شحب
والشمس واجبة^٥ في ذا ولم تجب^٦
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب^٧
بان بأهل^٨ ولم تغرب على عزب^٩
غيلان أبهى ربى من ربها الحرب^{١٠}
أشهى إلى ناظري من خدّها التّرب
عن كل حسن بدا أو منظر عجب
جاءت بشاشته من سوء منقلب

* * *

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
تدبير معتصم بالله منتقم^١
ومُطعم النصر لم تكهم اسنته
لم يغرّ قوماً ولم ينهد^٢ إلى بلد
لو لم يقُدْ جحفلًا يوم الوغى لغزا
رمى بك الله بُرجيها فهدّما
من بعد ما أشبّوها واثقين بها

له المنيّة بين السّمر والقضب
لله مرتقب في الله مرتقب^٣
يوماً ولا حجت عن روح محتجب^٤
الا تقدّمه جيش من الرّعب
من نفسه وحدها في جحفل لجب
ولو رمى بك غير الله لم تُصب
والله فتّاح باب المعقل الأشب

- ١ في هذا البيت والابيات الاربعة السابقة يذكر حريق المدينة ويتفنن في وصف الدخان واللهيب .
- ٢ جنب نجس . أي طاهر لنا نجس لأعدائنا - أو طاهر بالجهاد نجس باستباحة الاعراض .
- ٣ بان بأهل أي متزوج .
- ٤ غيلان هو الشاعر ذو الرمة ، ومية فتاته . وفي هذا البيت وما بعده يقول ان النصر أجل لدينا من كل الجمال وان خراب المدينة الدال على ظفرنا أبهى من كل منظر حسن .
- ٥ وفي رواية مرتب .
- ٦ الضمير راجع إلى الخليفة المعتصم . وتكهم الاسنة أي تكل عن القطع .
- ٧ نهد بمعنى نهض أو ارتفع .

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدّد^١ للسارحين وليس الورد من كُثَبِ^١
أمانياً سلبتهم نُججَ هاجسها ظبي السيوف وأطراف القنا السَلْبِ
إنّ الحيامين من بيضٍ ومن سُمرٍ دلوا الحياتين من ماءٍ ومن عشب

* * *

لما رأى الحرب رأيَ العينِ توفلس^٢ والحرب مشتقّة المعنى من الحربِ
غدا يصرف بالأموال جريتها فعزّه البحر ذو التيار والحدبِ
هيات زُعزت الأرض الوقور به عن غزو محتسبٍ لا غزو مكثب^٢
لم يُنفق الذهبَ المرّبي بكثرتِه على الحصى وبه فقرٌ إلى الذهبِ
إنّ الاسودّ اسودّ الغاب ممّتها يوم الكريهة في المسلوب لا السَلْبِ
ولتى وقد ألجمَ الخطيَّ منطقهُ بسكّنة خلفها الاحشاء في صخبِ
موكّلا بيفاع الأرض يشرفهُ من خفة الخوف لا من خفة الطربِ
تسمون ألفاً كآساد الشرى نصجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب^٣
يا ربّ حوباء^٤ لما اجُتثّ دابرهم طابت ولو ضمّخت بالمسك لم تطبِ
ومعضّبٍ رجعت بيض السيوف به حيّ الرضى من رداهم ميّت الغضبِ
والحرب قائمة في مازق الحجِ تجثو الكهاة به صُمرأ على الرّكبِ

١ في هذا البيت والبيتين التاليين يذكر ان الروم لما حصنوا المدينة وتهيأوا للحصار قالوا
أولو الأمر منهم لن يستطيع المسلمون حصرنا إذ ليس لهم خارجها مراتع ولا مياه . ولكن
تلك الأمانى كذبتها سيوفنا ورماحنا فكانا (أي السيوف والرماح) الوصيلتين للوصول إلى
الماء والعشب .

٢ يريد بهذا البيت وما سبقه ان قائد الروم « تيوفيلوس » لما رأى شدة الحرب عليه أراد أن
يحول مجراها عنه بأرشاء الخليفة بالمال . ولكن هيات ذلك والخليفة إنما يجارب حباً بالجهاد
لا حباً بالمال .

٣ يقصد جيش الروم وفيه إشارة إلى ان منجمي الروم كانوا قد قالوا ان المدينة لا تؤخذ قبل
الصيف ولكن المسلمين كذبوهم وأخذوها قبل ذلك .

٤ الحوباء النفس . أي كم من نفس لم تكن تطيب بالمسك طابت الآن بفناء الاعداء .

كم نيل تحت سناها من سنى قمر وتحت عارضها من عارض شنب^١
 كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العذراء من سبب
 كم أحرزت قضب^٢ الهندي مصلته^٣ تهتز من قضب تهتز في كضب^٤
 بيض^٥ إذا انتضيت من حجبها رجعت أحق^٦ بالبيض ابداناً من الحجب^٧

* * *

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
 بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
 ان كان بين صروف الدهر من رحم^٨ موصولة أو ذمام غير منقضب
 فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب^٩
 أبقت بني الأصفر المراض كاسهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب^{١٠}

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف الشغري

يذكر بعض وقائعه في الشمال

من سجايا الطاول ألا^{١١} تجيبا فصواب^{١٢} من مقلتي ان تصوبا
 فاسألننها واجعل بكاك جواباً تجدر الشوق سائلاً وجيبا
 قد عهدنا الرسوم وهي عكاظ^{١٣} للصبا تزدهيك حسناً وطيباً^{١٤}
 أكثر الأرض زائراً ومزوراً وصعوداً من الهوى وصبوا
 وكعاباً كأنما ألبستها غفلات الشباب برّداً قشيباً

١ و ٢ يكفي بسنا قمر وبالعارض الشنب عن الحسان اللواتي سبومن . وبالقضب التي تهتز في الكضب عن قامات اولئك الحسان .

٣ أي سيوف إذا سلت من أغمارها كانت أحق بأن تحتفظ بالحسان من خدورهن .

٤ أي إذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا أشدها قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي على المشركين .

٥ بنو الاصفر أي الروم .

٦ يريد بهذا البيت وما بعده ان هذه الرسوم قد كانت قبلاً سوق الصبا يرتادها العشاق من كل جانب .

بينَ البينَ فقدَها قلِّها تمـ عرف فقداً للشمس حتى تغيبا
 لعبَ الشيبَ بالمفارق بل جدّ فابكى تماضراً ولعبوا^١
 خضبت خدّها إلى لؤلؤِ العقـ يدِ دماً أن رأت شواقي خضيبا^٢
 كل داءٍ يرجى الدواء له إلا الفظيعين ميتةً ومشيبا
 يا نسيب الثغام ذنبك أبقى حسناقي عند الغواني ذنوبا^٣
 ولئن عبنَ ما رأين لقد أنكرن مستنكراً وعبن معيبا
 أو تصدّعن عن قلبي لكفى بالشيب بيني وبينهنّ حسيبا
 لو رأى الله أن للشيب خيراً جاورته الأبرار في الخلد شيبا
 كلّ يوم تبدي صروف الليالي خلُقاً من أبي سعيدٍ عجيبا
 طاب فيه المديح والتذّ حتى فاق وصف الديار والتشيبا
 غربّته العلى على كثرة الأهل فاضحى في الأقربين جنيبا
 فليطل عمره فلو مات في مرورٍ مقيماً بها لمات غريباً^٤
 سبقَ الدهرَ بالتّلاذ ولم ينـ تظنّ النّائبات حتى تنوبا^٥
 وإذا ما الخطوب أعفته كانت راحتاهُ حوادثاً وخطوبا
 وعيرُ الدين بالجلادِ ولكنّ وعور العدوّ صارت سهوبا
 فدروب الاشراك تدعى فضاء وفضاء الاسلام يدعى دروبا
 قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريباً
 سكن الكيدُ فيهم إنّ من أعظمِ إرب أن لا تسمّى أريباً^٦
 مكرهم عنده فصيح وان همّ خاطبوا مكره رأوه جليبا^٧

١ تماضر ولعوب فتاتان .

٢ أي بكت دماً إذ رأت شعري مخضباً لظهور الشيب فيه .

٣ الثغام نبات يبيض إذا يبس . ويريد بنسيب الثغام الشيب .

٤ مرو حاضرة خراسان وهي بلدة المدوح .

٥ أي سبق نوائب الدهر بمكارمه .

٦ ان كيده لم يظهر لها . وأعظم الدهاء ان لا يعرف صاحبه به .

٧ الجليب الغريب . ويريد بالبيت ان مكرهم ظاهر اما مكره فغير مفهوم لشدة دهائه . فشبّه

مكرهم بفصيح المنطق ومكره بمن لا يفهم كلامه .

ولعمري القنا الشوارع تمرى من تلاح الطلى نجيماً صبيبا
 في مكرٍ للروع كنت أكيلاً للمنايا في ظله وشريبا
 لقد انصمت والشتاء له وجهه يراه الرجال جهماً قطوبا
 طاعناً منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوباً^١
 في ليالٍ تكاد تُبقي بخد الشمس من ريحها البليل شحوبا
 فضربت الشتاء في أخذه ضربة غادرته قوداً ركوبا^٢
 لو أصغنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبا
 غزوة متبع ولو كان رأي لم تفرّد به لكنت سلوباً^٣
 يوم فتح سقى سواد الضواحي كسب الموت رائباً وحليبا
 فإذا ما الأيام أصبحن خرساً كظماً في الفخار قام خطيبا
 كان داء الاشرار سيفك واشتدت شكاة الهوى فكنت طبيبا
 أنصرت أيكتي عطايك حتى صار ساقاً عودي وكان قضيبا
 مطراً لي بالجاه والمال ما ألقاك إلا مستوهباً أو وهوبا
 باسطاً بالندى سحائب كفى بنداها أمسى حبيب حبيباً^٤

وقال يمدح القاسم أبا ذلف العجلي

واصفاً جوده وحسن رأيه في الحرب

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب^٥
 أقول لقرحان من البين لم يُضِف رسيس الهوى بين الحشا والترائب^٦
 أعني أفرق شمل دمعي فلمني أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب

١ إشارة الى انه غزا العدو (في الشمال) بجيش من الجنوب .

٢ هنا جعل الشتاء كالجل وقال ضربته فانقاد لك .

٣ الغزوة المتبع التي تبعا سواها والسلوب عكس ذلك .

٤ حبيب الاولى اسم الشاعر . أي صرت محبوباً ومحترماً .

٥ أي على مثل هذه الربوع تهاون الدموع فتسكب من المآقي .

٦ أقول لمن خلا قلبه من ألم البعد وحرقة الهوى في الصدر .

وما صار يوم الدار عذلك كلة^١ وما بك إركابي من الرشد مركبا
فكِلني إلى شوقي وسر يسير الهوى
عدويّ حتى صار جهلك صاحي^٢
إلا انما حاولت رُشد الركائب
إلى حرقاتي بالدموع السوارب

* * *

أميدان لهوي من أتاح لك البلى
أصابتك إسكار الخطوب فشتتت
إذا العيس لاقت بي أبا دُلف فقد
هنالك تلقى المجد حيث تقطعت
تكاد عطاياهُ يُجنّ جنونها
إذا حرّكته هِزّة المجد غيّرت
تكاد مغانيه تهش عراسها
إذا ما غدا أغدى كريمة ماله
يرى أقبح الأشياء أوبىة آمل
وأحسن من نور تفتّحه الصبا
فأصبحت ميدان الصبا والجنائب
هواي بأبكار الأطباء الكواعب
تقطع ما بيني وبين النوائب
تثائم^٣ والجود مرخى الذوائب^٢
إذا لم يعوذهما بنعمة طالب
عطاياه أسماء الأمانى الكواذب
فتركب من شوق الى كل راكب
هدية ولو زفت لألم خاطب
كسته يد المأمول حلة خائب
بياض العطايا في سواد المطالب

* * *

إذا ألجت يوماً لجيم وحوها
فإن المنايا والصوارم والقنا
جحافل لا يتركن ذا جبرية
يمدون من أيدي عواصم
إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعا
إذا افتخرت يوماً تيم بقوسها
بنو الحصن نجل المحصنات النجائب^٣
أقاربهم في الروع دون الأقارب
سليماً ولا يحربن من لم يحارب
تصول بأسياف قواض قواضب
صدور العوالي في صدور الكتائب
وزادت على ما وطدت من مناقب

١ وفي نسخة وما صار في ذا اليوم . وقد مر تفسير هذا البيت والذي بعده .
٢ يريد بتقطيع التائم وارخاء الذوائب ان الجود والمجد قد نشأ وبلغا أشدهما عنده .
٣ في هذا البيت وما بعده يقول إذا ركبت قوم الممدوح (لجيم وبنو الحصن) لعمل عظيم فان المنايا والسيوف هي أقاربهم التي تحارب حريمهم .

فأنتم بندي قاريّ امالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب^١
محاسن من مجدي متى تقرنوا بها محاسن أقوام تكن كالمائب
معالي تبادت في العلو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

* * *

وقد علم الافشين وهو الذي به يسان رداء الملك عن كل جاذب^٢
بأنك لما استخذل النصر واكتسى أهابي تسفي في وجوه التجارب^٣
تجللت به بالرأي حق أريته به ملء عينيه مكان العواقب
بأرشق إذ سالت عليهم غمامة^٤ جرت بالعوالي والعناق الشواذب^٥
سالت لهم سيفين رأياً ومُنصلاً وكل كنجم في الدجنة ثاقب
وكنت متى تهزّر لخطب تفتته ضرائب امضى من رقاق المضارب
فذكرك في قلب الخليفة بعدما خليفتك المقي بأعلى المراتب
فان تنس يذكرك، أو يقل فيك حاسد^٥

يُفَلِّ قوله ، أو تنأ دار يصاب^٥
فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غائب
إليك أرحنا عازب الشعر بعد ما تمهل في روض المعاني المعائب
غرائب لاقت في فنائك أنسا من المجد فهي الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب

١ إشارة الى قوس حاجب بن ذرارة التي استرهنها ملك الفرس والى وفاء حاجب وما قاله من الفخر بذلك . يقول إذا افتخرت تيم بحاجب فان سيوفكم في يوم ذي قار قد غلبت الفرس الذين استرهنوا قوس حاجب .

٢ الافشين قائد تركي كبير كان المعتمد قد عقد له لواء الحرب ضد بابل .

٣ لما اتخذ النصر واكتسى بما أفسد عليه التجارب أي أظلمت في وجهه الامور .

٤ ارشق : اسم مكان . وقوله : سالت عليهم غمامة الخ ... معناه غمرتهم الحرب بالرماح والخيول الكريمة .

٥ فبمملك هذا أنت مذكور دائماً عند الخليفة، وبه تقرب منه بها ابتعدت وبهلك قول حاسد .

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب
أقول لأصحابي هو القاسم الذي به شرح الجود التباس المذاهب
واني لأرجو عاجلاً ان تردني مواهبه بجرأ ترجى مواهي

وقال يمدح عبدالله بن طاهر

وكان قد قصده الى خراسان

أهنّ عوادي يوسفٍ وصواحيه	فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه ^١
إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه	فذرّوتُه للحادثات وغاربه
أعاذلتي ما أخشنّ الليل مركباً	واخشنّ منه في الملمات راكبه ^٢
فزيني وأهوالَ الزمان أفانها	فأهواله العظمى تليها رغائبه
ألم تعلمي أنّ الزّماع على السّرى	اخو النّجح عند الحادثات وصاحبه
دعيني على اخلاقي الصّمّ للتي	هيّ الوفرُ او سربُ قرنٍ نودابه ^٣
فانّ الحسام الهندوانيّ إنّما	خشونته ما لم تُفلّل مضاربه ^٤

* * *

وقلقلّ ناسٌ من خُراسان جاشها	فقلت اطمشتي انضرُ الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنّة عرّسوا	على مثلها والليل تسطو غياهبه ^٥
لأمرٍ عليهم ان تتمّ صدوره	وليس عليهم ان تتمّ عواقبه
إلى ملكٍ لم يُلّقِ كلّكلٍ بأسه	على ملكٍ إلاّ وللذلّ جانبه
إلى سالب الجبار بيضة ملكه	وآمله غادي عليه فسالبه
سما للملى من جانبيها كليهما	سموّ عباب الماء جاشت غواربه
فنوّال حتى لم يجد من ينيله	وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وذو يقظات مستمرّ مريرها	إذا الخطب لاقاه اضمحلت نوائبه ^٦
فوالله لو لم يلبس الدهر فعله	لأفسدت الماء القراح معائبه

١ و ٢ و ٣ و ٤ قد مر تفسير هذه الابيات سابقاً .

٥ وركب كأطراف الرماح مضاء أقاموا على نياق مثلهم مضاء وعزماً .

٦ مستمر مريرها أي مستمرة شدتها .

فيا أيها الساري آسرٍ غير محاذرٍ جَنان ظلامٍ أو ردى أنت هائبه
فقد بثَّ عبدالله خوف انتقامه على الليل حق ما تدبَّ عقاربُه

* * *

ويومٍ أمام الموت دحضٍ وقفتَه ولو خرَّ فيه الدين لانهال كائبه
جلوتَ به وجه الخليفة ، والقنا قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
سقيت صداه والصفيحُ من الطلَى رواءٍ نواحيه عذابٌ مشاربه^١
فلو نطقت حرب لقاتل محقّةً ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه
ويا أيها الساعي ليدرك شأوه ترحزُ قصيّا أسوأ الظن كاذبه
فحسبك من نيل المراتب ان ترى عليمًا بأن ليست تُنالُ مناقبه
إذا ما امرؤٌ ألقى بربعمك رحله فقد طالبتَه بالنجاح مطالبه

وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ديمةٌ سمحة القياد سكوبٌ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ
لو سعت بقعةٌ لإعظام نعمى لسمى نحوها المكان الجديب
لذَّ شؤبوبها وطاب فلو تستطيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليه وعزالي تنشا وأخرى تذوب^٢
كشف الروضُ رأسه واستسرَّ الهل منها كما استسرَّ المريب^٣
فإذا الرّيَّ بعد محلٍ وجرجا نٌ لديها يبرينُ أو ملحوب^٤
أيها الغيثُ حيّ أهلاً بمفدا كَ وعند السرى وحين تؤوب^٥

١ أي. سقيت القنا فاطفات عطشه والسيف من الرقاب قد عذبت مشاربه وسالت نواحيه. ويروى «والصفيح من الطلى رواء نواحيه» .

٢ أي كان من جراء هذه الغمامة الماطرة ان سالت المياه مجرى بعد مجرى . والعزالي مصاب مياه المطر .

٣ استسر اختفى . أي اختفى الهل كما يحتجب صاحب التهمة عن أعين النظار .

٤ أصبحت جرجان وهي في الخصب كأنها يبرين أو ملحوب - وهما محلان في بلاد العرب معروفان بوفرة مياههما وشجرهما .

٥ يروى حيلا وهي بمعنى أهلاً وسهلاً .

لأبي جعفر خلّاقٌ تحكيهنّ قد يشبه النجيب النجيب
 أنت فينا في ذا الاوان غريب وهو فينا في كل وقت غريب
 ضاحكٌ في نوائب الدهر طلق وملوكٌ يبكون حين تنوب
 فاذا الخطب طال نال الندى والبذل منه ما لا تنال الخطوب
 خلّق مشرقٌ ورأي حسامٌ وودادٌ عذبٌ وريحٌ جنوب
 كل يوم له وكلّ أوان خلّق ضاحكٌ ومالٌ كئيب
 إن تقاربته أو تباعده ما لم تأت فحشاء فهو منك قريب
 ما التقى وفرّه ونائله مذ كان الا وفرّه المغلوب
 فهو مدنٌ للجود وهو بغيضٌ وهو مقصٌ للمال وهو حبيبٌ
 يأخذ المعتفين قسراً ولو كفّ دعاهم اليه وادّ خصيب
 غير أن الرامي المسدّد يحتاط مع العلم انه سيصيب^٢

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف

ذاكراً بعض وقائمه في حروب بابل

غدت تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غدٍ وعادَ قتاداً عندها كل مرقد
 وانقذها من غمرة الموت انه صدودُ فراق لا صدود تعمّد
 فأجرى لها الاشفاق دمعاً مورّداً من الدّم يجري فوق خدّ مورّد
 هي البدرُ يغنيها تودّدٌ وجهها إلى كلّ من لاقت وان لم تودّد
 ولكنني لم أحو وفرأ مجتمعا ففزتُ به إلا بشملٍ مبدّد
 ولم تعطني الايامُ نوماً مسكناً الذّ به الا بنومٍ مشرّد
 وطولُ مقام المرء في الحيّ مخلّقٌ لذيّبا جتية فاغترب تتجدّد

١ يصف شدة كرمه ويقول فهو مدن للجود والجود بغيض من أصحاب المال . وهو مقص للمال والمال محبوب من الجميع .

٢ يحر المعتفين الى نواله مع علمه بأنهم سيصدونه . يفعل ذلك احتياطاً كما يحتاط الرامي مع علمه انه سيصيب .

فاني رأيتُ الشمسَ زبدتُ محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدٍ

* * *

حلفتُ بربِّ البيض تدمى متونها وربُّ القنا المناد والمتقصد^١
لقد كفَّ سيفُ الصامتي محمد تباريح ثار الصامتي محمد^٢
رمى الله منه بابكاً وولاته بقاصمة الأصلاب في كل مشهد
بأسمع من صوب الغمام سباحة وأشجع من صرف الزمان وأنجد
وفي «ارشق» الهيجاء والخيل ترتي عططت على رغم العدى عزم بابك
فان لم يكن ولتى بشلوٍ مقدد بعزمك عطّ الاتحمي المضد^٣
وقد كانت الارماح أبصرن قلبه هناك فقد ولتى بعزم مقدد
وموقان كانت دار هجرته فقد فأرمدها ستر القضاء المدد
حططت بها يوم العروبة عزّه توردها بالخيل أي تورده^٤
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى وكان مقيماً بين نسر وفرقد^٥
وليس يجلتي الكرب رمح مسدد تأزر بالإقدام فيه وترتدي
فمر مطيعاً للعوالي معوداً إذا من الخوف والاحجام ما لم يعود
وكان هو الجلد القوى فلسبته بحسن الجلال المحض حسن التجلّد
افادتك فيها المرهفات مكارماً تعمّر عمر الدهر ان لم تخلد

* * *

وليلةً أبليتَ البَيّاتَ بلاءهُ من الصبر في وقت من الصبر محمد^٦

١ حلفت برب السيوف الدامية والقنا الملتوي او المتكسر .

٢ أي لقد ثار محمد (المدوح) ل محمد بن حميد الطوسي الذي قتل قبلاً ، والصامتي لقب .

٣ شققت عزم بابك كما يشق الثوب المخطط .

٤ موقان اسم مكان كانت حصن بابك الحصين حتى دخلتها بالخيل .

٥ يوم العروبة أي يوم الجمعة . يقول انزلت عزّه ذلك اليوم وكان بين هذين النجمين سمواً .

٦ محمد (ويرى خطأ محمد) أي قليل الخير .

فيا جولةً لا تجحديه وقاره
ويا ليل لو أني مكانك بعدها
وقائع أصل النصر فيها وفرعه
فمها تكن من وقعة بعد لا تكن
محاسن اصناف المفضين جمة
جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما
وكانت وليس الصبح فيها بأبيض
رأى بابلك منك التي طلعت له
هزرت له سيفاً من الكيد انما
يسر الذي يسطو به وهو مغمد
تلافى جذاك المجتدين فاصبحوا
إذا ما رضى دارت ادرت سماحة
أنتك لم افزع الى غير مفرع
ومن يرج معروف البعيد فانما

ويا سيف لا تكفر ويا ظلمة اشهدي
لما بت في الدنيا بيوم مسهد
إذا عُدّد الاحسان أو لم يعدد
سوى حسن مما فعلت مردد
وما قصبات السبق الا لمعبد^١
تردّت بلون كالغمامة اربد^٢
فأمست وليس الليل فيها بأسود
بنحس وللدين الحنيف بأسعد
تجدّ به الاعناق ما لم تجرد^٣
ويفضح من يسطو به غير مغمد
ولم يبق مذخور ولم يبق مجتد
رحى كل إنجاز على كل موعد^٤
ولم أنشد الحاجات في غير منشد
يدي عوّلت في النائبات على يدي

وقال في المعتصم وبطشه بالافشين

وكان الافشين اولاً قائد جيشه ثم خرج عليه

الحق أبلغ والسيوف عوار
فحذار من اسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم
والله قد أوصى بحفظ الجار
يا رب فتنة أمة قد بزها
جبارها في طاعة الجبار

١ معبد اسم مفعول مشهور .

٢ أذربيجان مقاطعة في بلاد فارس .

٣ أي هزرت سيفاً من المكر . والمكر إنما ينفع اذا لم يفتضح - يشير الى درايته وحسن سياسته .

٤ سماحة مفعول لأجله . أي اذا رضى الشدائد دارت ادرت من سماحتك رضى الوفاء والكرم .

جالت بحيدرَ جولة المقدارِ
كم نعمةٍ لله كانت عنده
كسيتَ سبائبَ لؤمه فتضاءلت
موتورةٌ طلبَ الإلهُ بثأرها
صادى أميرَ المؤمنين بزبرجٍ
مكراً بنى ركنيه إلا أنه
حتى إذا ما الله شقَّ ضميره
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى
ما كان لولا فحش غدره حيدرِ
ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه
ناراً يساورُ جسمه من حرّها
طارَتْ لها شُعْلٌ يهدّم لفحها
لله من نارٍ رأيت ضياءها
مشبوبةٌ رُفعت لأعظم مشركِ
صلّى لها حيّاً وكان وقودها
وكذاك أهل النار في الدنيا همُ
يا مشهداً صدرت بفرحته إلى
رمقوا أعالي جذعه فكأنما
واستنشقوا منه قناراً نشره

فأحلهُ الطغيان دار بوارٍ^١
فكأنها في غربة وإسارِ
كتضاؤل الحسناء في الأطهارِ^٢
وكفى ربّ النار مدركاً ثار
في طيه حمةُ الشجاع الضاري^٣
وطدَ الأساسَ على شفيرِ هارِ
عن مستكنّ الكفر والاصرارِ
والحقّ منه قانىء الأظفارِ^٤
ليكونَ في الاسلام عامُ فيجارِ^٥
حتى اصطلى سرّ الزناد الواري
لهبٌ كما عصفت شقّ إزارِ^٦
أركانه هدماً بغير غبارِ
ضاق الفضاء به عن النظّارِ
ما كان يرفعُ ضوءها للشاري
ميتاً ويدخلها مع الفجارِ^٧
يوم القيامة جلّ أهل النارِ
أمصارها القصوى بنو الأمصارِ
وجدوا الهلال عشيّة الإفطارِ
من عنبر ذفيرٍ ومسك داري^٨

١ حيدر بن كارس هو الافشين .

٢ سبائب اللؤم أي اثوابه . والاطهار اكسية بالية .

٣ تظاهر بطاعة تحتها سم الحية القتال .

٤ أي بعد أن أعد شفرة الغدر للدين عاد الدين ففتك به .

٥ فجار : من حروب الجاهلية ، سميت كذلك لأنها كانت في الاشهر الحرم .

٦ هذا البيت وما قبله اشارة الى احراق الافشين وهو مصلوب .

٧ يشير الى ان الافشين كان مجوسياً يعبد النار .

٨ نسبة الى دارين ، وهي بلدة في الشام معروفة بعطرها .

قد كان بوّاه الخليفةُ جانباً
 فسقاه ماء الخفض غير مصرّدٍ
 فإذا ابنُ كافرةٍ يُسرّ بسرّهم
 وإذا تذكّره بكاه كما بكى
 دلّت زخارفه الخليفة أنه
 يا قابضاً يدَ آلِ كاوُسٍ عادلاً
 الحِيقُ جبيناً دامياً رملته
 واعلم بأنك إنما تلقيهم
 كادوا النبوة والهدى فتقطعت
 جهلوا فلم يستكثروا من طاعة
 فاشدّدْ بهارون الخلافة إنه
 بفتى بني العباس والقمر الذي
 كرم الخوالة والعمومة مجّه
 هوَ نوه يُمن فيهم وسعادة
 فاقمع شياطين الفساد بمهتدٍ
 ليسيرَ في الآفاق سيرةَ رافةٍ
 فالصين منظوم باندلسٍ الى
 ولقد علمتَ بأن ذلك معصم
 فالأرض دار أقفرت ما لم يكن
 سور القرآن الغرّ فيكم أنزلت

من قلبه حرماً على الأقدارِ
 وأنامه في الأمن غير غرارِ
 وجداً كوجد فرزدقٍ بنواري^١
 كعبُ زمانٍ رثى أبا المغوارِ^٢
 ما كلّ عودٍ ناضرٍ بنضارِ
 أتبع يميناً منهم بيسارِ
 بقفاً وصدرأ خائناً بصُدارِ^٣
 في بعض ما حفروا من الآبارِ
 أعناقهم في ذلك المضارِ
 معروفة بعمارة الأعمارِ
 سكّنْ لوحشتها ودار قرارِ^٤
 حفته أنجمٌ يعربٍ ونزارِ
 سلفاً قریش فيه والأنصارِ
 وسراج ليل فيهم ونهارِ
 ترضى البرية هديه والباري
 ويسوسها بسكينة ووقارِ
 حيطان رومية فملك ذمارِ^٥
 ما كنت تتركه بغير سوارِ
 من هاشم ربّ لتلك الدارِ
 ولكم تصاغ محاسن الأشعارِ

- ١ الضمير في بسرهم يرجع الى الجوس ، ونوار امرأة الفرزدق طلقها ثم ندم ووجد لذلك .
 ٢ كعب الغنوي شاعر قديم . له شعر يرثي به اخاه ابا المغوار .
 ٣ في هذا البيت وما قبله يقول : ايها الخليفة قد قبضت على ايدي آل كاوس بقتله فاقتل من بقي منهم .
 ٤ هارون هو الواثق بن المعتصم .
 ٥ يقصد بدمار اليمن . ويريد بما مرّ من الابيات ان الواثق خير ولي للعهد فهو قد جمع شرف الخوالة والعمومة وقرن في نفسه الهداية وحسن الرأي .

ومن مدائح في المعتصم

أجلُ أيها الربعُ الذي خفَّ آمله لقد أدركتُ فيك النوى ما تحاوله
وقفتُ وأحشائي منازلُ للأسى به وهو قفرٌ قد تعفّت منازلُه
اسألكم ما باله حكَمَ البلى عليه والّا فاتركوني أسأله
دعا شوقه يا ناصرَ الشوقِ دعوةً فلبّاه طلَّ الدمعُ يحري ووابله
بيومٍ يريك الموت في صورة النوى أو آخره من حسرةٍ وأوائله

الى أن يقول :

إلى قُطب الدنيا الذي لو بفضله مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
مَن البأسُ والمعروف والدين والتقى عيالٌ عليه رزقهنَّ شمائله
جلا ظلمات الظلم عن وجه أمةٍ أضاء لها من كوكب الحق آفله
ولادت بحقويه الخلافةُ فالتقت على خدرها أرماحه ومناصله
بمعتصمٍ بالله قد عُصمت به عرى الدين والتفت عليه وسائله
رعى الله فيه للرعية رأفةً ورحمته فيهم تفيضُ ونائله
وقام فقام العدلُ في كل بلدة خطيباً وأضحى الملك قد شقَّ بازله^١
بيمن أبي اسحق طال يد الهوى وقامت قناةُ الملك واشتدَّ كاهله^٢
هو البحرُ من أيّ النواحي أتيته فلبّجته المعروف والجود ساحله
تعودَ بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه لجاد بها فليستق الله سائله
إمام الهدى وابن الهدى أيّ فرحة تمجّلها منك القريضُ وقائله
رجاؤك للباغي الغنى عاجلُ الغنى وأول يوم من لقائك آجله

١ شق بازله أي طلع تاب جمه ، والكلام مجاز يراد به قد اكتمل .

٢ أبو اسحق كنية المعتصم . اشتد كاهله أي امتنع جانبه .

مرثاته في محمد بن حميد الطوسي

وكان المراثي من كبار القادة وقد قتل في حرب بابلك ٢١٤ هـ

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
تُوفيت الآمال بعد محمد
وما كان الا مال من قلّ ماله
وما كان يدري مجتدي جود كفته
الا في سبيل الله من عطيت له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطرات فيما ينوبه
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبتت في مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا
كأنّ بني نبهان يوم وفاته
يُعزّون عن ثاور تعزّي به العلى
وأنسى لهم صبر عليه وقد مضى
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها
وقد كانت البيض المآثير في الوغى

فليس لعين لم يفض ماؤها عذراً
وأصبح في شغل عن السفر السفر
وذخراً لمن أمسى وليس له ذخّر
إذا ما استهلّت انّه خلق العسر
فجأج سبيل الله وانثر الثغر
دماً ضحكت عنه الاحاديث والذكر
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر ان فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
فلم ينصرف الا وأكفانه الاجر
لها الليل الا وهي من سندس خضر^١
نجوم سماء خرّ من بينها البدر
ويبكي عليه البأس والجود والشعر
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
ولكنّ كبراً ان يقال به كبر
وبزّته نار الحرب وهو لها جمر
بواتر فهي الآن من بعده بُتر^٢

١ أي قتل في ساحة الجهاد فلبس بعد الموت الثياب الخضراء التي هي لباس أهل الجنة .

٢ في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يثيرها فأصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها .

أمن بعد طي الحادثات محمداً
إذا شجرات العُرف جُنُدت أصولها
لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده
لئن غدرت في الروح أيامه به
كذلك ما تنفك نفقد هالكاً
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه
وكيف احتمالي للغيوث صنيعاً
مضى طاهر الأثواب لم تبقى روضة
ثوي في الثرى من كان يحيا به الثرى
عليك سلام الله وقفاً فاني

يكون لأثواب الندى أبداً نشر
ففي أي فرع يوجد الورق النضر
لمهدي به ممن يحب له الدهر^١
فما زالت الأيام شيمتها الغدر
يشاركنا في فقده البدو والحضر
وان لم يكن فيه سحاب ولا قطر
باسقائها قبراً وفي لحده البحر^٢
غداة ثوى الا اشتهدت انها قبر
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وقال من قصيدة يرثي بها ادريس بن بدر السامي

دموع أجابت داعي الحزن ممتع
عفاءً على الدنيا طويل فانا
تبدلت الاشياء حتى خلقتها
لها صيحة في كل روح ومهجة
لادريس يوم ما تزال لذكره
ولما نضى ثوب الحياة وأوقعت
غداً ليس يدري كيف يصنع معدم
وماتت نفوس الغالبيين كلهم
غدوا في زوايا نعشه وكأنما

توصل منّا عن قلوب تقطع
تفرق من حيث ابتدت تتجمع
ستثنى غروب الشمس من حيث تطنع
وليست بشيء ما خلا القلب تسمع
دموعي وإن سكنتها تتفرّع
به نائبات الدهر ما يتوقع
ذرى دمه من وجده كيف يصنع
والا فصر الغالبيين أجمع^٣
قريش قريش يوم مات مجتمع

١ إذا ابغض الدهر لفقده فقد كان يحمد سابقاً لكرمه ومآثره .

٢ يطلب من الغيث (المطر) ان يسقي غيث الجود (المرثي) ثم يقول وكيف أطلب من المطر ان يسقي قبراً فيه بحر الجود والعلی .

٣ يريد بالغالبيين عشيرته أي ماتوا بموته أو مات صبرهم أجمع .

ولم أنسَ سميَ الجودِ خلفَ سريره
ألم تكُ ترعانا من الدهر إن سطا
وتلبس أخلاقاً كراماً كأنها
وتبسط كفاً في الحقوق كأنما
وتربط جاشاً والكفاة قلوبها
إلا إن في ظفر المنية مهجة
هي النفس ان قبك المكارم فقدما
بأكسف بالٍ يستقيم ويظلم
وتحفظ من أموالنا ما يضيع
على العرض من فرط الحصانة أذرع
أناملها في البأس والجود أذرع
تزعزع خوفاً من قنا تزعزع
تظل لها عين العلى وهي تدمع
فمن بين احشاء المكارم تنزع

البحتري

ابو عبادة الوليد بن عبيد الله

٨٢٠٥ - ٨٢٨٤ هـ

٨٢٢ م - ٨٩٨ م



مصادر دراسته - توطئة تاريخية - نظرة في ديوانه
مزيتة الفنية - شعره الغزلي

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٨٦ - ١٨٧
الأغاني ج ١٨ ص ١٦٧ - ١٧٥
الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (الاستانة ١٢٨٧)
الموشح للمرزباني ص ٣٣٠ - ٣٤٣
الفهرست ص ١٦٥
أخبار البحتري للصولي (دمشق)
معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٦ - ٢٣٢
وفيات الأعيان ج ٢ تحت اسم الوليد (حرف الواو)
مفتاح السعادة ص ج ١ - ١٩٣ (طبع الهند)
ومتفرقات في مروج الذهب وتاريخ ابن عساكر والعمدة وغيرها .
وتجد سيرته في كل الكتب الحديثة التي تتناول الآداب العربية
وتاريخها ، نذكر منها :
دائرة المعارف الاسلامية
مجلة الضياء المجلد السادس (ج ١ - ج ١٥) سلسلة مقالات (لأمين حداد)
شعراء الشام لخليل مردم -
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ٦ - ١٤
عبقريه البحتري لعبد العزيز سيد الاهل
البحثري لنديم مرعشلي (سلسلة أعلام الفكر العربي) عدد ٩

نشأته وحياته

يؤخذ من دراسة المصادر التاريخية ان البحري ولد في منبج بجوار حلب ، (وعلى رأي أحدهم في قرية قريبة منها تدعى زردفنه) وهناك نشأ وقال الشعر . وتقع حياته الشعرية في ثلاثة أطوار :

(الاول) طور نشأته الأدبية ومعظمه كان في منبج ، على أنه زار بعض المدن السورية كحلب وحمص والمعرّة . وفي حمص على ما يقال لقي أبا تمام وأخذ عنه .

(الثاني) طور العراق : وهو طور شهرته وفيه اتصل بالخلفاء وكبار رجال الخلافة فمدحهم ونال جوائزهم . وهذا الطور عهدان :

عهد المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ثم عهد من تبعه من الخلفاء ، وبين العهدين فترة اقام فيها في منبج .

(الثالث) طور الرجوع الى أرض الوطن والاقامة فيه .

فالبحري نشأ في جوار حلب ، حتى اذا ادرك وحذق صناعة الشعر قصد العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه . ولما حدثت الفتنة التي قتل فيها المتوكل ووزيره الفتح وذلك ٢٤٧ هـ كره البقاء فعاد إلى وطنه . ولكنه على ما يظهر لم يقيم هناك طويلاً . نستنتج ذلك من قائمة ممدوحيه ومن قصائده فيهم . فعاد الى العراق وإلى سالف عهده من مدح الخلفاء والامراء هناك - ولا سيما المعتز - وبقي الى آخر حكم المعتز^١ ، ثم رجع الى سوريا واستقر في منبج حيث أدركته الوفاة وهو يناهز الثمانين .

اتصل شاعرنا بسبعة من كبار الخلفاء العباسيين وبعدهد أوفر من رؤساء

١ ومن مرقاته في غلامه قيصر يظهر انه كان لا يزال بعيداً عن وطنه وهو ابن ٦٦ سنة .

القوم فبلغ منزلة عالية ، ولم يكن مسرفاً فجمع مالا وفيراً . قال ابن
رشيق : « وكان البحتري ملياً فاض كسبه من الشعر وكان يركب في
موكب من عبيده^١ » . وفي شعره ما يشير الى انه كان ذا عقار واسع ،
كقوله لأحد الرؤساء في أمر ضيعة له - والظاهر ان بعضهم اعتدى
عليها واغتصب غلتها فقال مستجيراً به :

وقد غدت ضيعتي منوطة بحيث نيطت للناظر الزهراء
اروم بالشعر ان تعود فما اقطع فيما ارومه شعره
وفي بعض قصائده للمعتر يستأذنه في الذهاب الى الشام لينظر في
املاكه ، قال :

هل اطلعن على الشام مبعلاً في عزّ دولتك الجديد المونق
فارمّ خلة ضيعة تصف اسمها والمّ ثمّ بصبية لي دردق^٢
شهران ان يسّرت إذني فيها كفلا باللفة شملي المتفرّق
ويذكر ابن خلكان انه كان يحتاج للترداد الى الوالي بسبب مصالح
أملكه^٣ .

* * *

وفي أيام البحتري كانت الخلافة العباسية في حال انتقال من طور
القوة الى طور الضعف ، وكان المتوكل حلقة الاتصال بين هذين الطورين .
وقد شهد الشاعر أيام عزه وبأسه كما شهد الفتنة عليه وما كان من مقتله
واستبداد امراء الجند التركي بالذين جاءوا بعده .

ومن الظواهر التاريخية التي تتجلى في شعره وشعر معاصريه (كما سنرى
في كلامنا عن ابن الرومي) اعتلاء العناصر الاعجمية في الدولة على العنصر

١ العمدة ٢ - ١٢٥٠ - وفي ١ - ٦ يذكر انه كان له قهارة وكتاب .

٢ أي اطفال .

٣ وفيات الاعيان ترجمة البحتري في ج ٢ حرف الواو .

العربي (حتى كان الشاعر ينوّه بفضل الموالي) كما قال البحتري من قصيدة للمعتر :

يا من له أول العليا وآخرها ومن يحود يديه يُضرب المثل
أما الموالي فجند الله حملهم ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزّهم ستر على بيضة الاسلام منسدل

ومن قوله في ذلك يصف ما قام به قادة المعتر من قهر الاعداء والقائمين عليه :

سراة رجالٍ من مواليك أكثدوا عرى الدين إحكاماً وبتوا قوى الكفر
إذا فتحوا أرضاً أعدّوا لمثلها كتائب تفري في أعاديك ما تفري
ففي الشرق إفلاحٌ لموسى ومفلحٍ وفي الغرب نصر يرتجى لأبي نصر^١

وإذا قابلت بمدوحيه (من غير الخلفاء) بمدوحي أبي تمام مثلاً ترى أن الأخير كانت مدائحُه في العرب تفوق مدائحُه في سواهم ؛ أما البحتري فعلى خلاف ذلك . وانك لتلتفت ذلك من مراجعة القائمة التالية ودرس رجالها واحداً واحداً . وقد أغفلنا فيها ذكر من لم تبلغ مدائحُه القصيدتين وجمعنا أفراد الاسرة الواحدة تحت اسم واحد كآل سهل وآل المدبر وسواهم . ومع ذكرنا للخلفاء لم ندخلهم في هذه الموازنة العنصرية .

الخلفاء

المتوكل	٣٥ قصيدة
المعتر	٣٠ قصيدة
المعتمد	٥ قصائد
المهتدي	٤
المستعين	٤

١ . موسى ومفلح رابو قصر من قادة الازراك .

من كبار العرب

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٣	(طي) من كبار القادة
آل حميد الطوسي	١٨	نهبان (طي) من كبار القادة
أحمد بن محمد الطائي	٧	طي
أبو صالح بن عمار	٥	
محمد بن القمي	٥	طلحة
الخضر بن أحمد	٥	
أبو نوح عيسى بن ابراهيم	٤	
أبو الحسن الهاشمي	٤	هشام
علي بن مرّ	٤	طي
مالك بن طوق	٢	من تغلب أمير عرب الشام
محمد بن بدر	٢	من بني سعد على أن أخواله من الموالي

ومن كبار المدوحيين الذين لم نثبتهم في إحدى القائمتين اسماعيل بن بلبل ٢٠ قصيدة . ونسبه في شيبان ولكن صاحب الفخري (١٨٧) يقول ان في نسبه ريباً .

واسحق بن ابراهيم المصعبي ٢ نائب بغداد وابن عم طاهر بن الحسين من كبار الموالي

الفتح بن خاقان وآله	٢٦	وزير المتوكل (من الاثراك)
الحسن بن مَخلد وآله	٢٦	وزير المعتمد (من الفرس) ^١
ابراهيم بن المدبر وآله	١٥	من رجال الدولة أدبياً وإدارة ^٢
		(من الفرس) ^٢
آل سهل	١٢	وزراء (من الفرس)

١ راجع ديوان البحري (عطيه) ٥٧٩ - ٥٨٢ و ٣٢٠ و ٣٢٥ و ٤٧٢ و ٥٤٩ .

٢ الديوان ٥٨٠ و ٥٩٥ و ٥٩٩ وفي معجم الادباء انه كان يدعي انه من ضبّه .

علي وعبدالله بن يحيى بن خاقان	٩ من وزراء المتوكل (من الاثراك)
ابو صالح بن يزداد	٨ وزير المستعين (من الفرس)
آل طاهر	٧ من أعيان الامراء » »
ابو العباس بن بسطام	٦ من الاعيان » »
الشاه ابن ميكال	٥ من امراء الفرس
علي بن الفياض	٤ من الوجهاء والرؤساء » »
أحمد بن ثوابه	٤ وزير وكاتب ٢ » »
وصيف وآله	٤ من امراء الترك
اسحق بن كنداج	٣ من الاثراك وهو الذي ردّ المعتمد الى سامرا وسمي ذا السيفين ٣
اسماعيل بن نوبخت	٣ من اعيان القادة
آل دينار	٣ من رؤساء الفرس ٤

* * *

وكان البحترى كأكثر شعراء عصره مولعاً بالخمر . وفي الابيات التالية التي كتبها الى المبرد (اللغوي المشهور صاحب الكامل) ما يدلّك على شيء من أحواله ونسق معيشته . قال :

يوم سبتٍ وعندنا ما كفى الحُرّ طعاماً والوردُ منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيّاح فسيح ترّاح فيه القلوب
ودوام المُدام يدنيك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد في استتار كي لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباح ثلاثٍ مترعات تنفى بهن الكروب

١ ديوان القسطنطينية ١ - ١٢٨ وعطيه ٦٠٦ .

٢ في معجم الادباء ان أصلهم نصارى .

٣ راجع الطبري في أخبار ٢٦٩ .

٤ ديوان البحترى (عطيه) ٤٠٠ و ٤٠٤ .

الديباجة واليك آراء بعض من كبار الأقدمين فيه :

قال الثعالبي : « يضرب به المثل لان الاجماع واقع على انه في الشعر أطبع المحدثين والمولدين ، وان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة . ويقال ان شعره كتابة معقودة بالقوافي ^١ » . وقال ابن رشيق : « واما البحتري فكان أملح صنعة (من أبي تمام) وأحسن مذهبا في الكلام يسلك فيه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة ^٢ » . ووصفه ابن الاثير بقوله : « فإن مكانه من الشعراء لا يجهل . وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها بعيدا مكانها ، وكالقناة ليتنا مسها خشنا سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب ^٣ » . ويصف ألفاظه في موضع آخر فيقول :

« وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلّين بأصناف الحلي ^٤ » .

ومن أقوال الآمدي في الصفحتين الاولين من الموازنة : « البحتري اعراي الشعر مطبوع على مذهب الاوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام ... الى ان يقول : « فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحتري أشعر . » وعلى هذا يفسرون ما يروونه عن أبي العلاء : « المتنبي وأبو تمام حكيان والشاعر البحتري » . ويذكره الباقلاني في « اعجازه » ويذكر تفضيله له بديباجة شعره على ابن الرومي وسواه ، وتقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه

١ ثمار القلوب ١٧٩ .

٢ العمدة ١ - ٨٥ .

٣ المثل السائر ٤٢٠ .

٤ المثل السائر ١٠٦ .

وعذوبة ألفاظه وقلّة تعقّد قوله ١ .

ولا نكسر ان الذي يرجع الى ديوانه فيدرسه يجد هذه الصفات العامة فيه . انه لا يمتاز في ذلك عن بعض كبار الشعراء في العصر العباسي ، كأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم وعباس بن الاحنف واضرابهم ، ممن أطاعتهم الالفاظ وسلست لهم المعاني . والذي نرجحه ان البحري لم يوصف بما ذكرناه له الا لمقابلته بالشاعرين الكبيرين أبي تمام والمتنبي . وذلك لما في شعره عموماً بالنسبة اليها من السهولة والدمائة . فبيناهما يفوقانه بالفوص على المعاني وسداد الحكمة تراه يفوقهما في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك . واذا لم تجد في شعره ذلك الاغراب الذي في شعر أبي تمام أو تلك الفخامة التي عرف بها المتنبي ، تجد فيه رشاقة وصف ودمائة اسلوب لا تجدهما عادة في شعريهما .

* * *

اما ديوانه فلا يختلف من حيث مواضيعه عن أكثر الدواوين الشعرية في زمانه . فهو ، كسواه من الشعراء ، قد صرف أدبه في التزلف الى رجال الدولة العباسية . ولذلك كان جل شعره المديح . وليست طريقته غير الطريقة التي درج عليها الجمهور من مطلع غزلي يتخلص منه الشاعر الى المدوح ، فيصف أعماله ويمدح أخلاقه ومكارمه ويفتن في ذلك ما شاء فنه وأدبه . وسنرى ذلك في مختاراته .

* * *

وليس البحري من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب كمرثاته في طاهر بن عبد الله بن الحسين التي مطلعها :
عذيري من صرف الليالي الغوادِر ووقع رزايا كالسيوف البواتر
ومرثاته في المتوكل يوم قتله الأتراك ، وقد وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما لقيت هاشمية أحسن منها » وقد صرّح بها تصريح من

١ اعجاز القرآن ١١٣ .

أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب ، ١ . فقال فيها يصف شعوره بعد مقتل الخليفة ويشير الى ان ابنه المنتصر كان من المتآمرين عليه :
صريع تقاضاه السيوف حشاشةً يحود بها والموت حمر أظافره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دمًا بدم يجري على الارض مائره
وهل يرتجى ان يطلب الدم طالب مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا ملّتي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره
ومن مراثيه التي قد تذكر له مراثيه في سليمان بن وهب ومطلعهما :

أخيّ نهه دمعك المسفوكا ان الحوادث ينصرمن وشيكا
ما اذكرتك بمترح صرف الجوى الا ثنته بمفرح يُنسيكا

على انها ليست من الطبقة الاولى في هذا الباب وليس للبحثري فيه ما
لصاحبيه ابي تمام والمتني . ولقد تراه أحياناً يسفّ الى درجة الغشاة
كقوله لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي يحاول ان يعزيه عن فقد ابنته ،
فيذكر له انها غير جديرة بالبكاء لانها فتاة ، وطالما كانت الفتيات سبباً
في الشقاء ويضرب على ذلك الامثال السمجة ومنها :

قد ولدن الاعداء قدماً وورثن البلاد الاقاصي البعداء
لم يئد كثرهنّ قيس تيم غيلةً بل حميةً واباء
واستزلّ الشيطان آدم في الجنة لما أغوى به حواء
ولعمري ما العجز عندي الا ان تبیت الرجال تبكي النساء

واكثر القصيدة في هذه المعاني التي تدل على انحطاط المرأة يومئذ في
نظر الرجل . ومثلها في الغشاة ابيات يعزّي فيها موسى بن عبد الملك
عن ابنة له . قال :

أبا حسنٍ إنَّ حسنَ العزاء عند المصيبات والنائباتِ
يضاعف فيه الإله الثواب للصابرين والصابراتِ
ومن نعم الله لا شكَّ فيه حياة البنين وموت البناتِ

* * *

أما العتاب فله فيه يدٌ طولى . ويرى ابن رشيق انه أحسن الناس
طريقاً في عتاب الاشراف ويلقبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة^١ .
وقد أصاب ابن رشيق ففي عتابه نعمة حريرية قلما تجدها في سواه .
ومن أمثلة ذلك قصيدة يعتذر فيها الى يعقوب بن احمد بن صالح . وهي
تبدأ كالعادة بالغزل ثم ينتقل من ذلك الى نفسه وذكر اخلاقه ومن هنا
يتقدم الى المعتذر اليه فيقول بنعمة مغرية :

ندمت على أمر مضى لم يُشر به	نصيح ولم يجمع قواه نظام
وقد خبروا ان الندامة توبة	يصلّى لها ان تقتنى ويصام
وان جعودي سوء ظنٍّ بمنعم	وعدّي معاذيري عليه خصام
تجرّح أقوال الوشاة فريصتي	وأكثر أقوال الوشاة سهام
ولما نبت بي الارض عدت اليكم	امتّ بحبل الودّ وهو رمام
وما كل ما بُلِّغتمُ صدق قائل	وفي البعض ازراءٌ عليّ وذام
ولا عذرَ الا ان بدءَ اساءة	له من زيادات الوشاة تمام

وهذه النعومة لا تفارقه حتى عند معاتبته من اساء اليه ، كلابيات
التالية من قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله بن حمدون ويعاتبه على محاولته
ان يثير كراهة الخليفة له :

هل ابن حمدون مردود الى كرم	عهدته مرّةً عند ابن حمدون
أخ شكرت له نعمى أخي ثقة	زكتُ لديّ ومنّا غير ممنون
طاف الوشاة به بعدي وغيره	معاشر كلهم بالسوء يعني

١ العمدة ٢ - ١٢٩ .

أصبحت أرفعه حمداً ويخفضني ذمّاً وأمدحه طوراً ويهجوني
قدعو الامام إلى شتمي ومنقصتي بئس الحباء على مدحيك تحبوني
أين الوداد الذي قد كنت تمنحني أو الصفاء الذي قد كنت تصفوني
ان كان ذنب فأهل الصفح أنت وان لم آت ذنباً فقيم اللوم يعرفوني

* * *

ومن بديع العتاب قوله للحسن بن وهب من قصيدة وقد جفاه الحسن
وأعرض عنه :

هل تصفين لأخ يقول بحاله مستعتباً إذ لم يقل بلسانه
ما كان غرواً ان يضيع ذمامه لو لم تكن في عصره وزمانه
هذا وأنت الحجة العليا في اكرامه من وافد وهوانه
ومق رآك الناس تحرمه اقتدوا بك غير مرتابين في حرمانه
فتكون أوّل مانع من نفسه ما أمّل العافي ومن جيرانه
والارض تبذل في الربيع نباتها وكذلك بذل الحرّ في سلطانه
واعلم بأن الغيث ليس بنافع للناس ما لم يأت في إبتانه

وفي ديوانه كثير من هذه الطرائف العتابية .

* * *

وله في الفخر بضاعة جيدة . على ان أهم فخره هو في مكارم قومه
يعدّد مناقبهم ويذكر شرف اليمن وعزّها مقابل ذلك بخشونة عرب الشمال
وسوء حالهم . وأفضل ما له في ذلك دالية مطلعها :

انما الغيّ ان يكون رشيدا فانقصا من ملامه او فزيدا

وهي طويلة تجدد أكثرها في باب المختار من شعره .

معشر أمسكت حلومهم الارض وكادت من عزهم ان تميدا
نزلوا كاهل الحجاز فأضحى لهم ساكنوه طراً عبيدا

ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا
فهم قوم تبّع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا
ومن بين أبياتها يلمح إلى ما كان في الصدور من كوامن العصبية التي
جعلت اليمينية والمضرية حزبين متعادين ، والتي كان لها في تاريخ العرب
تأثير شديد .

ومن أمثلة فخره قوله في معاتبة قوم من أهل بلده :
ومعيري بالدهر يعلم في غدٍ ان الحصاد وراء كل نبات
ابنيّ اني قد نضوت بطالتي فتحسّرت وصحوت من سكراتي
نظرت إليّ الاربعون فاصرحت شيبي وهزّت للحنوّ قناتي
ومن الاقارب من يسرّ بميتي سفها وعزّ حياتهم بحياتي
ان ابقّ أو أهلك فقد نلت التي ملأت صدور أقاربي وعداتي
ثم يذكر فضله وسؤدد آباءه وأجداده ومآثرهم في منبج وتقديمهم
هناك على سائر الناس .

* * *

وأقل بضاعة البحري في ديوانه الهجاء . وهنا يختلف صاحب الاغاني
عن المرزباني . فالاول يقصّ علينا سببا لذلك القصة التالية^١ نقلًا عن
الاخفش عن أبي الغوث (ابن البحري) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة
دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل . فأمره بإحراقه
ثم قال له يا بنيّ هذا شيء قلته في وقت فشفت به غيظي ، وكافأت
به قبيحاً فعل بي . وقد انقضى أربي في ذلك ، وان بقي روي .
وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى ان يعود عليك من هذا
شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك فيه . قال فعلت انه نصحني
وأشفق علي فأحرقته . ويعقب على ذلك الاصفهاني بأن « أكثر هجائه

١ راجع القصة في الاغاني ١٨ - ١٦٧ .

ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد إلا قصيدتين احدهما في ابن أبي قحاش والثانية في يعقوب بن الفرج .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكن الذي نعلمه ان الشاعر ترك لنا شيئاً من هجائه ، وما تركه يجوز لنا القول انه لم يكن فيه ميل ابن الرومي ودعبل واضرابها إلى الهجاء ، بل كان على ما يظهر يتجنبه ما أمكن . وانك لتلمح ذلك بما رواه ابن رشيق قال : « هجا ابن الرومي البحتري -- وابن الرومي من علمت -- فأهدى اليه (البحتري) تحت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه بيتين ليريه ان الهدية ليست تقيّة ولكن رافة عليه وانه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط^١ . وأما المرزباني فينسب إلى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء . قال^٢ : « وكثير من أهل الادب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقد به ، مع احسان ابن الرومي في اساءته وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغ في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته . أعني الهجاء خاصة » . ثم يذكر قلة وفائه لانه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان .

ومها قلنا في مذهبه الهجائي فهو ولا شك ضئيل في ديوانه . ولا يمنع ذلك ان يكون الشاعر قد استعمل الهجاء لبعض مآربه من مقارعة شاعر أو الانتقام من كبير ، ولكن هذا الضرب من الشعر لم يشتهر به ، والذي وصل إلينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

مزيته الفنية

على ان الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية

١ العمدة ١ - ٧٠ .

٢ الموشح ٣٣٦ .

جديرة بالذكر ، هي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره فعرف بها ،
وجعلت له بين الشعراء مقاماً عالياً . وقبل النظر في فن شاعرنا الوصفي
نقول ان الوصف نوعان ، حسّي وخيالي . ولنوضح الفرق بينهما ببعض
الامثلة :

تقف إلى نهر في وادٍ كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهد العظيمة
فتأخذك روعة ذلك المنظر ، وتستفزّ فيك الميل إن كنت شاعراً الى وصف
ما تراه من جمال وجلال . فإذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من
الاشجار والكروم ، وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاض المياه من
بينها . وقد ترسم ما يترامى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه
ظلال المساء أو أشعة الفجر ، وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان
هناك : بقرأ رابضاً تحت الشجر ، أو غنماً يرعى في المروج ، أو ماعزاً
منتشراً فوق المنحدرات . ولعلك ترى الفلاح يحرق الحقل ، أو تنظر
الى السماء من أعماق الوادي فتري « قطعان الغيم يسوقها راعي الريح » ،
أو قوافل الضباب تنيح فوق قمم الضباب . يؤثر كل ذلك فيك فترسمه
بأشكال خلاّبة تستفزّ في القارئ عواطف الطرب ، وتحبّب اليه رؤية
ذلك الجمال — كما فعل أحدهم في وصف وادٍ ظليل اذ قال :

نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالاً ألذّ من المدامّة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلس جانب العقد النظيم

هذا هو الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات فيصوّرها بصور
رائعة ، وهو عين ما يفعله الرسام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة
ويجسّمها بالألوان على الورق ، فتبدو فتانة تميل اليها النفوس الحساسة ،
ويتفانى في اقتنائها أهل الذوق والخبرة .

وكذلك أنت تفعل اذا وقفت مثلاً أمام البحر العظيم ورأيت أمواجه

المتلاطمة وهي تتكسر مزبدة فوق الصخور ، أو رأيته في يوم رائق وهو رهوٌ مستنيم وقد انتشرت فوقه قوارب الصيادين وألقت ظلها فوق سطح الماء وخرج الناس مساءً يتنزهون على رمال الشاطئ . وفي وسط البحر باخرة عظيمة تشقّ الماء بحيزومها ويعقد البخار سرادقاً فوق مداخنها ، فتمر أمامك محاذية للتلال المنحدرة نحو البحر ، وترى من ورائها القرى الجبلية تتغامز عيونها عند غروب الشمس .

ولو وقفت اليوم تنظر الى معركة التحمت فيها الابطال بالابطال : وقد برقت الاسنة والسيوف ، وسالت الدماء من بين الصفوف . أو الى حرب بين الخنادق وقد قصفت المدافع فتساقطت قذائفها على الصعيد تنسف التراب والصخور ، وتطارت شظاياها تفتك بالثبات والالوف ، ثم ظهرت سحائب الغاز القتال تتقدم نحو مكان العدو ، وتبع ذلك هجوم عام . والطائرات تحوم فترشق العدو بالمتفجرات الجهنمية ، ثم لا تلبث أن ترى سرباً معادياً فتنهزم أمامه أو تصمد له في لوح الجو ، وهناك الهول الكبير . مناظر هائلة يأخذها الشاعر فيرسمها كما يراها فتتحرك النفوس وتلعب بالعواطف . وقس على ما ذكرنا من الاوصاف ، وصف المدن والآثار والقصور والجنائن والصيد والحيوان والانسان وغير ذلك مما يقع تحت حسّك ويؤثر في نفسك ، فتبرزه في حلة قشبية تحرك في سواك أوتار الطرب . وقد أجاد العرب في هذا الفن من الوصف الحسي ، فانصرف الاقدمون منهم الى ما له علاقة بحياتهم البدوية كالجلل والصحراء والسيوف وآثار الحبيب الراحل وشكله وما الى ذلك ، وبالغوا في بعضها مبالغة عظيمة كما فعل طرفة في وصف ناقته . وأمثال طرفة كثيرون بين الشعراء الاقدمين . وجاء العصر العباسي فتحول الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور ، وللمولدين في ذلك بدائع لا يتسع المقام لذكرها هنا .

* * *

أما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات . فإذا كان

الشاعر واسع الخيال لا يقف عند ما يراه ، بل يتعداه الى مناطق يفتحها أمامه الخيال الواسع . فيجعل المرثيات أساساً لغير المرثيات ، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تأملات وذكريات . يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة ، وتمر أمامه على صفحات الماء حوادث الايام ، فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية . وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان ، وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر يشعر بها لرؤيته بعض المشاهد الطبيعية . فالوصف الخيالي هو وصف تأثر من النظر الحسّي وما يثيره فيك من وحي داخلي . قف أمام البحر تتجسم لك عظمة الكون وجلال الطبيعة ، وقد يملك المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في طلب العلى . ولعلك تذكر الامم التي كانت على شواطئ هذا البحر ، وكيف عظمت ثم سقطت ، وعلاقة ذلك بالبلاد التي أنت فيها .

وفي الحرب مجال واسع للخيال ، هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرّع عنها من عوامل أساسية في بناء العمران . ومثله اذا وقفت أمام الآثار كبعلبك وتدمر ، أو أمام الانهار التاريخية كدجلة والفرات والنيل ، أو أمام تماثيل العظماء ومآثر العلماء . فأنت في كل ذلك تستخدم الحس توصلاً الى صور الخيال البعيدة ، وهذا هو الوصف الخيالي العالي الذي تملكه الشعر العربي قديماً عن الاهتمام به ، فلم يترك لنا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير .

وشاعرنا البحتري وصّاف ماهر . وهو كسواه من شعراء العرب أميل الى الوصف الحسّي : يتناول المحسوسات فيصدق في رسمها ، كقوله في دمشق يوم انتقل اليها المتوكل :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى لك مطربها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقا ويسبح النبات في صحرائها بددا

فليس تبصر الا واكفا خضِلا أو يانعا خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

على ان له أحياناً ما يقرب ان يكون نظراً خيالياً . أهمته وقفته أمام
إيوان كسرى ففيها يقف الشاعر لدى قصور الفرس الدارسة يصفها وصفاً
حسباً رائعاً ، ثم يحاول الانتقال الى المعنويات - الى تاريخهم وعظمتهم ،
ولكنه لا يكاد يفعل ذلك الا لماماً . وهذه القصيدة من عيون الشعر
العربي تقع في ٥٦ بيتاً ، عشرة منها في ذكر حاله وشكوى دهره ،
وستة في السبب التاريخي لهذه الوقفة ، ثم خمسة أو ستة في ذكر عظمة
الفرس ، وستة في أحوال خاصة . وما بقي فوصف للإيوان . وقد تفنن
فيه الشاعر ما شاء . واليك شيئاً منها : قال في صورة معركة رسمت
على أحد جدران القصر :

لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شروان يُزجي الصفوف تحت الدّرفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس
من مُشيع يهوي بماعمل رمح ومُليح من السنان بترس

ثم يلتفت الى القصر ويرى ما أصابه من الزمان فيقول :

يتظننى من الكآبة ان يبدو لعيني مصبّح أو ممسي
عكست حفظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلّداً وعليه كل كل من كلال الدهر مرسي

فانظر الى هذا النمط النفيس الذي يشهد للبحثري بالبراعة الفائقة في
تصوير المراثيات وعرضها بالالوان الخلابّة ، ولا سيما وصفه لمعركة انطاكية

وصورة كسرى يدفع صفوفه تحت العلم الكبير ، والرجال يتطاحنون أمامه
من مهاجم يهوي بسيفه على العدو ومدافع يتقي الضربات بترسه . وتأمل
هذا التصوير الدقيق اذ يقول :

تصف العين انهم جيداً احياء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتياحي حتى تتقرأهم يداي بلمس

* * *

ومن قصائده البديعة التي يقرن فيها الحس بالخيال قرناً جيلاً قصيدته
الفخرية في وصف ذئب لقيه في القفر . وليست هذه القصيدة عند
التحقيق الا وصف نفسه في سورة من سورات العزيمه . فقد ذكر فيها
اعداءه وحرصهم على هلاكه ، فوقف أمامهم وقفة الباسل يصور نفسه
لهم تصويراً تكاد تلمس الشعور المتدفق فيه . ومن قوله :

فقل لبني الضحّاك مهلاً فأنني انا الافعوان الصلّ والضيفم الورد
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى وان كان خرقاً ما يحل له عقد
مهيّباً كنصل السيف لو ضربت به ذرى اجأ ظلت واعلامها وهد^١
يودّ رجال انني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كل ملّة تسوء الاعادي لم يودّوا الذي ودّوا
ثم يأخذ في وصف صرامته وسيفه ، ويتقدم من ذلك إلى وصف
الذئب وكيف هاجمه ، ثم يعود إلى نفسه وجور الدهر عليه ، وان عزمه
يدفعه الى ركوب المشاق في طلب الغنى . ويختم ذلك بقوله :

سأحمل نفسي عند كل ملّة على مثل حد السيف اخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثلي بنى الغنى ليكسب مالا أو يُنثّ له حمد
وان متّ لم اظفر فليس على امرئ غدا طالباً الا تقصّيه والجهد

* * *

١ اجأ اسم جبل .

وبما يذكر للبحري في دقة الرسم واثابة العبارة قصيدته التي يصف
بها موكب المتوكل وقد خرج في عيد الفطر إلى المسجد ، وهي من أفضل
الامثلة على أسلوب البحري الرشيق قال منها :

أظهرت عز الملك فيه يحفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عُداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي	والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها	والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة تَوَقَّد بالضحى	طوراً ويطفئها المعجاج الاكدر
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع	لله لا يُزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف غير ما	في وسعه لسمى اليك المنبر

* * *

ومثل ذلك وصف القصر المعروف بالكامل . بناء الخليفة المعتز بالله
ابن المتوكل . فقال البحري من قصيدة يمدح بها المعتز ويذكر بناءه
للقصر :

ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه	من منظر خطر المزلّة هائل
رُفعت لَهْزَق الرياح سموكه	وزعت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج يحوّه	لججٌ يمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام إذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حُبُّك الغمام رصفن بين منمر	ومسيّر ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يحلن في ذي روثق	متلهّب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه	سِيراء وشي اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها	عن صوب منسجم الرباب الهاطل

وتنفست فيه الصبا فتمطت أشجاره من حُيِّل وحوامل
مشي العذارى الغيد رحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

* * *

وكذلك وصفه الفرس من قصيدة في محمد بن علي القمي الكاتب ،
والوصف يقع في نحو عشرين بيتاً نذكر منها هنا :

وأغرّ في الزمن البهيم محجل ^١	قد رحت منه على أغرّ محجل ^١
كالهيكل المبنيّ إلا أنه	في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت	صيداً ويتصب انتصاب الاجدل
جدلان ينفض عذرة في غرة	يققر تسيل حجو لها في جندل
كالرائح النشوان أكثر مشيه	عرضاً على السنن البعيد الاطول
هزرج الصهيل كأن في نغماته	نبرات معبد ^٢ في الثقيل الاول ^٢
ملك العيون فإن بدا أعطيته	نظر الهب ^٢ إلى الحبيب الاول

إلى غير ذلك من الوشي الجميل الذي عرف به البحتري . وسنرى
في باب المختار له كثيراً من ذلك .

غزل البحتري

إذا قلنا غزل البحتري فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مداحي
العصر العباسي ، وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدرون به
قصائدهم تمهيداً لما يقصدون . ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم
عادة بشأ لوجد متقد أو تصويراً لخوالج شخصية صادقة ، على ان الشعراء
يتفاوتون في ذلك . وفي غزل شاعرنا البحتري حلاوة ولطف يحببانه إلى
النفوس .

١ وكريم اغر ركبت من فضله جواداً اغر محجل .

٢ معبد اسم مفعول مشهور .

كان الاقدمون يعملون لقصائدهم مقدمات من الوقوف على ديار الحبيب والبكاء على آثارها ، ثم الرحيل عنها الى حيث يقصدون . فحول المولّدون ذلك الى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون أشواقهم ، ثم يتخلصون الى المدح او سواء . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر القصيدة من رابطة فكرية أو حسن تخلص . وعلى هذا كثير من شعر البحري . وفيه يقول ابن الاثير « انه لم يوفّق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجده من ذلك شيئاً مرضياً الا اليسير ١ » .

وقد سبق الى هذا النقد ابو بكر الباقلاني فقال ٢ : « الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواء ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحري — مع جودة نظمه وحسن وصفه — في الخروج من النسيب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء . وإنما اتفق له في مواضع محدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن » .

ومن امثلة تقصيره قوله يخاطب الحبيب من قصيدة مطلعها « كنت الى وصل سعدى جدّ محتاج » :

اسقى ديارك والسقيا تقلّ لها	إغزارُ كل مُلثٍ الودق ثجّاج
يلقي على الارض من حلّتي ومن حلل	ما يُمتع العين من حسن وابهاج
فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق	وحاك ما حاك من وشي وديباج
الى عليّ بني الفيّاض بلسغي	سراي من حيث لا يُسرى وادلّاج
الى فتى يتبع النعمى نظائرها	كالبحر يتبع امواجاً بأموّاج

فأنت ترى كيف ينتقل بغتة الى المديح مما يدل على ان الغزل لم يكن الا لحاجة فنية متكلفة . ومثل ذلك غزله في قصيدة قالها في المتوكل

١ المثل السائر ٤٢٠ .

٢ اعجاز القرآن ص ٢١ .

وأولها :

عذيري فيك من لاج إذا ما شكوت الحب حرقني ملاما
يتقدم فيها الى الحبيب فيخاطبه بأبيات رقيقة ويذكر هيامه وأشواقه
الى ان يقول :

وقد علمت بأني لم أضيع لها عهداً ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محللتنا عراقاً مشرقية وحللتها شأما
فلم أحدث لها الا وداداً ولم ازدد بها إلا غراما
ثم يثب وثباً الى المديح فيقول :

خلافة جعفر عدل وأمن وفضل لم يزل يسع الاناما
وقس على ذلك كثيراً من قصائده .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف او الخيال حتى عرف به بين
الشعراء . قال الحصري : « كان البحتري أكثر الناس ابداعاً في الخيال
حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقال له خيال البحتري ^١ » . وأكثر تشبيهه
على ما يقول ابن خلكان - في فتاة حلبية اسمها عكوة ، عرفها يوم كان
في حلب قبل خروجه الى العراق .

وكان على عادة الشعراء يتاجن في شعره ويشبب بالغلان . وكان له
غلام اسمه نسيم يقول صاحب الاغاني انه جعله باباً من أبواب الحيل
على الناس فاذا حصل في ملك بعض أهل المروءات شبب به وتشوقه
ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم ^٢ .

وفي شعر البحتري حنين الى البلاد الشامية والى أحبابه وبلدته منبج
كقوله من قصيدة مطلعها : « خيال يعتريني في المنام » .

سلام الله كل صباح يوم عليك ومن يبلغ لي سلامي

١ زمر الآداب ٣ - ١٢٠ .

٢ الاغاني ١٠ - ١٧١ .

لقد غادرت في قلبي سقاماً بما في مقلتيك من السقام
لئن قلّ التواصل أو تمادى بنا الهجران عاماً بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيدٍ اليك وزورة لك باكتنام
أأخذ العراق هوىً وداراً ومن أهواه في أرض الشام

وهو يحيد في موقف الوداع والذكرى ، ومن ذلك قوله :

بنفسي ما ابدت لنا حين ودّعت وما كتمت في الاتحاميّ المسير
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبق الاّ لفظة المتذكر
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا لبادين من اهل الشام وحضر

وقوله :

أراحلةً ليلى وفي الصدر حاجة اقام بها وجدٌ فما يترحل
وقفنا على دار البخيلة فانبرت سواكبٌ قد كانت بها العين تبخل
على دارس الآيات عافٍ تعاقبت عليه صَباً ما تستفيق وشمال
فلم يدر رسم الدار كيف يحينا ولا نحن من فرط البكا كيف نسال
اجدّك هل تنسى المهود فينطوي بها الدهر او ينسى الحبيب فيذهل
أرى حبّ ليلى لا يبيد فينقضي ولا تلتوي أسبابه فتحلّل

والغريب انه كان — برغم السنين الطوال التي أقامها في العراق
يحسب نفسه غريباً هناك . وأكبر الظن انه كان صادقاً في حنينه
الوطن ، فانه كما ذكرنا سابقاً عاد بعد هجرة طويلة وقضى بقية -
في وطنه .

المختار من شعر البحري

غدير في روض يحري فلا تعترضه جنادل يثب من فوقها هدّاراً الى
الاعماق ، ولا يتغلغل في منعطفات تضل في شعابها الاوهام : ينشد
فيسمعك خريراً ناعماً تألفه الاذان ، ويصور فيريك الوانا لطيفة ترتاح
اليها النواظر .

قال يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته الاسد

اجيدك ما ينفك يسري لزينبا	خيال اذا آب الظلام تأوَّبا ^١
سرى من اعالي الشام يحلبه الكرى	هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارني الا ولّعت صباة	اليه والا قلت اهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا	يريني اناة الخطو ناعمة الصبا ^٢
اضرت بضوء البدر والبدر طالع	وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقاً ما اتته لأطفأت	غليلا ولا فكّنت اسيراً معذّبا ^٣
علمتك ان منيت منيت موعداً	جهاماً وان ابرقت ابرقت خلساً

١ اجيدك بمعنى بحبك للقسم او التأكيد . وتأوب وآب رجع .

٢ الااة هنا المرأة الفاترة القيام دلالة .

٣ أي لو كانت زيارتها حقيقية لخلصتني من عذاب الوجد .

وكنـت أرى ان الصدودـه الذي مضى فوا اسـفي حتـام اسأل مانعاً
سأثني فؤادي عنك أو أتبع الهوى اليك ان استعصى فؤادي أو أبى
دلال فما ان كان إلا تجنباً
وآمن خوّاناً وأعتب مذنباً^١

* * *

أقول لركب معتفين تدرّعوا على عجل قطعاً من الليل غيباً
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه اعمّ ندى فيكم واقرب مطلباً
هو العارض الشجّاج أخضل جوده وطارت حواشي برقه فتلهباً^٢
اذا ما تلظّى في وغي اصمق العدى وان خاض في أكرومة غمر الرّبي
رزين^٣ اذا ما القوم خفت حلومهم وقور اذا ما حادث الدهر اجلباً^٣
حياتك أن^٤ يلقاك بالجود راضياً وموتك أن يلقاك بالبأس مفضباً
حرون اذا عاززته في ملّة فان جثته من جانب الذل اصحباً^٤
فق لم يضيّع وجه حزم ولم يبت يلاحظ أعجاز الامور تعقباً
اذا همّ لم يقعد به العجز مقعداً وان كفّ لم يذهب به الخرق مذهباً
أعير مودّات الصدور واعطيت يداه على الاعداء نصراً مرهباً
فلم تخل^٥ من فضل يبلّغك التي تحب ومن رأي يريك المغيّباً
وما نقم الحساد الا أصالة لديك وفعلاً اريحياً مهذباً
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجرباً
غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدّد ناباً للقاء ومِخلباً^٥
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيع تسامى روضه وتأشّباً
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً ويحتل روضاً بالاباطح معشّباً^٦

١ اعتبره أي ارجع الى ما يرضيه .

٢ هو كالغيم الماطر . يجمع بين ماء الجود ولهب البطش .

٣ اجلب توعّد بالشر .

٤ أصعب أي انقاد . ومعناه شديد العناد اذا عوند ولكنه سهل الانقياد اذا جاءه الطالب متواضعاً

٥ اخدر الليث أقام في غابته .

٦ الظواهر اعالي الاودية . والاباطح عكسها .

يلعب فيه اقحواناً مفضّضاً يبصّ وحوذاناً على الماء مُذهبا^١
 اذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنّص ربربا^٢
 يجر الى اشباله كلّ شارق عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضباً^٣
 ومن يبعِ ظمأً في حريمك ينصرف الى تلف أو يثنّ خزيان أخيباً
 شهدتُ لقد انصفته يوم تنبري له مصلتاً عَضْباً من البيض مقضبا^٤
 فلم أرَ ضرغامين أصدق منكما عراقاً اذا الهيتابة النّكس كذّبا^٥
 هزبرٌ مشى يبغى هزبراً وأغلب من القوم يغشى باسل الوجه اغلباً
 ادلّ بشغب ثم هالته صولة رآك لها امضى جناناً واشغباً
 فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً واقدم لما لم يجد عنك مهرباً
 فلم يغنه ان كمر نحوك مقبلاً ولم يُنجه ان حاد عنك منكباً
 حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدّت ولا حده نبا
 وكنت متى تجمع يمينيك^٦ تهتك الضريبة أو لا تبقى للسيف مضرباً

* * *

ألنت لي الايام من بعد قسوة وعاتبت لي دهري المسيء فأعتبا^٧
 وألبستني النعمى التي غيّرت اخي عليّ فامسى نازح الدار اجنباً^٨
 فلا فزت من مرّ الليالي براحة اذا انا لم أصبح بشكرك متعباً
 على ان افواف القوافي ضوامن لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكبا
 ثناء تقصّى الارض نجداً وغائراً وسارت به الركبان شرقاً ومغرباً

١ الحوذان اسم نبات . ويبص أي يلمع .

٢ و ٣ مكذا يروها ابن الاثير . وفي الديوان ان تنقص ربربا؛ ومعنى البيتين - يقتنص الحر او الطبيب فيجر منها كل ذبيحة وقد تخضبت بالدماء وتلوّث بالرمال .

٤ العضب المقضب أي السيف القاطع .

٥ فلم أر أسدين أثبت منكما في موقف لا يثبت فيه الجبان .

٦ يمينك أي ساعدك وسيفك .

٧ أعتب أي رضي .

٨ لا يقصد اخاه هنا ولكن يقصد ان نعم المدوح عليه اوجبت حسد الناس .

وقال يصف حاله ويصف الذئب الذي لقيه

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهد أما لكم من هجر احبابكم بدّ
أحبابنا قد انجز البين وعده وشيكاً ولم يُنجز لنا منكم وعد
بنفسي من عذبت نفسي بحبه وان لم يكن منه وصال ولا ودّ
حبيب عن الاحباب شطّبت به النوى

وأَيّ حبيب ما أتى دونه البعد يودّ رجال أني كنت بعض من
طوته الليالي لا أروح ولا أغدوا ذريني واياهم فحسبي صرامي
إذا الحرب لم يُقدَح لمخمد ما زند ولي صاحب غضب المضارب صارم
طويل نجادٍ ما يفلّ له حدّ وباكية تشكو الفراق بأدمع
يبادرنها سحاً كما انتثر العقيد رشادك لا يُحزنك بين ابن همة
يتوق الى العلياء ليس له نيد فمن كان حرّاً فهو للعزم والسرى
ولليل من افعاله والكرى عبد

* * *

وليلٍ كان الصبح في أخرياته حُشاشة نصلٍ ضمّ إفرنده غمد
تسربلته والذئب رسلان هاجع بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد^٢
اثير القطا الكُدرى عن جشّاته وتألّفني فيه الثعالب والرّبد
سما لي وبني من شدة الجوع ما به ببیداء لم تُعرف بها عيشة رَغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجَدّ يتعمسه الجَدّ^٣
عوى ثم أقمى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقضّ والليل مسودّ^٤
فما ازداد الا جرأة وصرامة وأيقنت ان الامر منه هو الجِد

١ أي يود بعضهم اني ميت .

٢ ابن الليل اللص .

٣ أي كل منا ذئب يحاول البطش بالآخر وذو الحظ الاوفر سينتصر .

٤ شبه فصلة السهم بكوكب ينقض .

فاتبعتها اخرى فأضلت نصلها
فخرّ وقد اورده منهل الردى
وقمت فجمّعت الحصى فاشتويته
بحيث يكون اللب والرعب والحقدا^١
على ظمأ لو انه عذب الورد
عليه وللرمضاء من تحته وقد

* * *

أقد حكمت فينا الليالي يحورها
أفي العدل ان يشقى الكريم يحورها
ذريني من ضرب القداح على السرى
سأحمل نفسي عند كل ملّة
ليعلم من هاب السرى خشية الردى
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى
وان متّ لم اظفر فليس على امرى
وحكم بنات الدهر ليس له قصد
ويأخذ منها صفوها القسّعدد الوغد
فعزمي لا يقنيه نخس ولا سعد^٢
على مثل حد السيف اخلصه الهند^٣
بأن قضاء الله ليس له ردّ
ليكسب مالا أو يئنث^٤ له حمد^٥
غدا طالبا الا تقصّيه والجهد

وقال يفتخر بقومه

إنما الغي ان يكون رشيدا
خليّاه وجدة الله ما دا
ان ايامه من البيض بيض^٥ ما رأين المفارق السود سودا
ايها الدهر حبّذا انت دهرأ قف حميدا ولا قول حميدا
كل يوم تزداد حسنا فما تبعث يوما الا حسبناه عيدا
ان في السرب لو يساعدنا السر ب شموسا يمشين مشيا وثيدا^٦
يتدافعن بالاكف ويعرضن علينا عوارضا وخدودا

١ أي فاتبعتها سها آخر أصاب القلب .

٢ كانوا قديما يضربون القداح قبل السفر ليستطلعوا ما سيكون .

٣ أي أحسنت صنمه الهند .

٤ يئنث أي ينشر .

٥ البيض الاولى الحسان ، والثانية جمع أبيض .

٦ كنى بالشموس عن الحسان .

يتبسم عن شتيت اراه أقحواناً مفصلاً او فريدا^١
رحن والليل قد اقام رواقاً فأقن الصباح فيه عمودا
بمهاة مثل المهاة ابت ان تصل الوصل أو تصد الصدودا^٢
ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصابته مزيدا
فهي الشمس بهجة والقضيب الغض لنا والريم طرفاً وجيدا

* * *

يا ابنة العامري كيف يرى قو مك عدلاً ان تبخلي واجودا
ان قومي قوم الشريف قديماً وحديثاً ابوة وجدودا
معشر امسكت حلومهم الارض وكادت من عزمهم ان تميدا
منزلاً قارعوا عليه العماليق وعاداً في عزها وثمرودا
فاذا الحل جاء جاءوا سيولاً واذا النقع ثار ثاروا اسودا
يحسن الذكر عنهم والاحاديث اذا حدث الحديد الحديد^٣
في مقام تحر من ضنكه البيض على البيض ركتاً وسجودا^٤
يفرجون الوغى اذا ما اثار الضرب من مصمت الحديد صعيدا
بوجوه تعشي السيوف ضياء وسيوف تعشي الوجوه وقودا
عدلوا الهضب من تهامة احلا ما ثقلاً ورمل نجد عديدا^٥
ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا
وجروا قبل مولد الشيخ ابرا هم في المكرمات شأوا بعيدا^٦
فهم قوم تبس خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا^٧

١ الشتيت : الثغر الافلج .

٢ بمهاة متعلق بما قبله اي رحن مساء فجعلن الظلام مضيئاً يجهال مهاة أبت إلا الفراق .

٣ و ٤ حدث الحديد الحديد اي عند تلاحم السيوف في الحرب . والبيض السيوف .

٥ أي واذنوا الجبال بعقولهم والرمال بعددهم .

٦ يريد بالشيخ ابراهيم الخليل - اشارة الى قدم مجدهم .

٧ شهيداً تعرب هنا حالاً من الله .

بمساعٍ منظومة ألبستهنّ اللآلي قلائدًا وعقودا
سائلٍ الدهر مذ عرفناه هل يعرف منا الا الفعّال الحميدا
قد لعمرى رزناه كهلا وشيخا ورأيناه ناشئا ووليدا
وطوينا ايامه ولياليه على المكرمات بيضا وسودا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو هُ ندىّ ليتنا وبأسا شديدا
فهو من مجدنا يروح ويفدو في عُلَى لا تبديد حتى يبيدا
نحن ابناءً يعربٍ اعربُ النّا س لسانا وانضر الناس عودا

وقال في المتوكل وموكبه الفخم في عيد الفطر

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر وأراك خنت على النوى من لم يخن
وطلبتُ منك مودةً لم اعطها هل دَين علوةٍ يستطاع فيقتضى
بيضاء يعطيك القضيب قسّوامها تمشي فتحكّم في القلوب بدلها
اني وان جانببت بعض بسطالتي ليشوقني سحر العيون المحتلى
والأم في كمد عليك وأعذر عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
ان المعنى طالب لا يظفر أو ظلم علوة يستفيق فيَقصر^١
ويريك عينيها الغزال الاحور وتميس في ظل الشباب وتخطر
وتوهّم الواشوت اني مُقصر و يروقني ورد الحدود الاحمر

* * *

الله مكّن للخليفة جعفر ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضله والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم امير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
عمّت فواضلك البريّة فالتقى فيها المقلّ على الغنى والمكثرا^٢
بالبرّ صمت وانت افضل صائم وبسنّة الله الرضيّة تُفطر

١ هل لعلوة مطالب يمكننا قضاؤها أو هل يكف ظلمها فينتهي غنا .

٢ ففواضلك التي عمت الناس جعلت الفقراء والاغنياء في حال واحدة من اليسار .

فانعم بيوم الفطر عيداً انه
أظهرت عزّ الملك فيه يحفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
فالخيل تصل والفوارس قدّعي^١
والأرض خاشعة تميد بثقلها
والشمس مائة توقد بالضحي
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
وافتنّ فيك الناظرون فاصبح^٢
يحيدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطلعتك النبيّ فهلّوا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقاً تكلّف غير ما
أيّدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برّد النبيّ مذكراً^٣
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول واخلصت
صلّوا وراءك آخذين بعصمة
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل
الله اعطاك المحبة في الوري
ولأنت املا للعيون لديهم

يومٌ اغرّ من الزمان مشهراً
لجيب يحاط الدين فيه وينصر
عدداً يسير بها العديد الأكثر
والبيض قلع والأسنة تزه
والجوّ معتكراً الجوانب اغبر
طوراً ويطفئها العجاج الاكدر^٤
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
يوما اليك بها وعين تنظر
من أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يُزهي ولا يتكبر
في وُسعه لسمي اليك المنبر
تنبى عن الحق المبين وتخير
بالله تنذر نارة وتبشّر^٥
يعتادها وشفأؤها متعذّر
نفس المروّي واهتدى المتحير^٦
من ربهم وبذمة لا تخفر
يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
وحباك بالفضل الذي لا ينكر
وأجلّ قدراً في الصدور وأكبر

١ ادعت الفوارس أي اعتزوا بأنسابهم .

٢ مائة أي مرتفعة .

٣ كان الخلفاء في المواقف الرسمية يضعون حلّ اكتافهم برودة النبي .

٤ بمواعظك التي شفت الصدور من امراضها فتعلم الجمال واهتدى المتحير وأخلصت لله نفس المفكر .

وقال يمدح احمد بن دينار

ويصف مركباً له غزا فيه بلاد الروم

ألم ترَ تغليس الربيع المبكر
وسرعاناً ما ولّى الشتاء ولم يقف
مررنا على بطياس وهي كأنها
كانت سقوط القطر فيها إذا انثنى
وفي أرجوانيٍّ من النور احمر
إذا ما الندى وافاه صباحاً تمايلت
إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها
إذا عطفته الريح قلت التفاتة^١
بنفسي ما أبدت لنا حين ودّعت
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى
ونخاطر شوق ما يزال يهيجنا
بأحمد أحمدنا الزمان واسهلت
هو الغيث يحري عن عطاء ونائل
ولما تولّى البحر والجود صينوه
أضاف الى التدبير فضل شجاعة

وما حاك من وشي الربيع المنشر^٢
تسلّل شخص الخائف المنكر
سبائب عَصَب أو زراي^٣ عبقر^٤
اليها سقوط اللؤلؤ المتحدّر
يشاب بافرند من الروض اخضر
اعاليه من درّ نثر وجوهر
عليها صقال^٥ الاقحوان المنور
لعلوة في جادّيتها المتعصفر^٦
وما كتمت في الاتحامي^٧ المسير^٨
فلم يبقَ الا لفظة المتذكر
لبادين من أهل الشام وحضر
لنا هضبات المطلب المتوعر
عليك فخذ من صيّب الغيث أو ذر
غدا البحر من اخلاقه بين أبحر^٩
ولا عزم الا للشجاع المدبر

١ ألم ترَ ورود الربيع الباكر وما حاك من وشي الازهار الربيعية .

٢ بطياس مكان قرب حلب . أي مررنا على هذا المكان وهو كأنه شقق برود مصبوغة او بسط عبقرية . وعبقر محل يلبسون اليه كل ما تمجبوا من حسن صنعته وقوته .

٣ أي اذا عطف الريح الفصن او الزهرة قلت تلك التفاتة علوة في ثوبها الزعفراني .

٤ الاتحامي المسير اي الثوب المخطط .

٥ اي لما تولّى البحر غدا البحر بين بحور من مكارمه .

غدوت على الميمون صبحاً وانما
 اطلّ بعِطفيه ومرّ كأنما
 إذا زجر النوتيّ فوق علّاته
 إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له
 إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته
 وحولك ركبّون للهول عاقروا
 قمل المنايا حيث مالت اكفهم
 إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم
 صدمت بهم صهب العثانين دونهم
 يسوقون اسطولا كأن سفينه
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم
 فما رمت حتى اجلت الحرب عن طليّ

مقطّعة فيهم وهام مطير^٧
 وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليّاً بأن توهي صفاة ابن قيصر^٨
 جدحت له الموت الزعاف فعافه وطار على ألواح شطب مسمر^٩
 مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها

عليه ومن يولّ الصنيمّة يشكر
 إذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر
 وكنا متى نصعد يحدّك ندرك المعالي ونستنصر يمينك نستصر

-
- ١ و ٢ و ٣ الميمون اسم مركب اي اطل علينا فكان مقدمه كعنق حصان مرفوع وكان
 النوتي في اعلاه كأنه خطيب على منبر . وتشرف اي تتشرف ويراد بها تطلع من عل .
 ٤ المقتر : الساطع الرائحة .
 ٥ صهب العثانين أي الروم لأن لحام شقراء .
 ٦ عود مجرجر اي جل تردد صوته .
 ٧ ما رمت اي ما زلت . والطلّى الاعناق .
 ٨ إشارة الى اصل الممدوح الفارسي . اي كنت قادراً ان تقهر ملك الروم (ابن قيصر) .
 ٩ اي تجنب الموت فهرب على مركب .

وصف ايوان كسرى

(وآثاره اليوم قرب بغداد وتعرف بطاق كسرى)

صُنْتُ نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس^١
 وقاسكت حين زعزعتي الدهر التماساً منه لتعسي ونكسي
 بُلِّغْ من صُبابَةِ العيش عندي طففتها الايام تطفيف نجس^٢
 وبعيداً ما بين وارد رِفهِ عِلَلْ شربه ووارد خمس^٣
 وكان الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس^٤ الأخس^٤
 واشترائي العراقَ خطّة غني بعد بيعي الشام بيعة وكس^٥
 لا ترزني مزاولاً لاختباري عند هذي البلوى فتتكر مسي
 وقديماً عهدتني ذا هنات آيات على الدنيئات شمس^٦
 فلقد رابني نبوّ ابن عمي بعد لين من جانيه وأنس^٦
 وإذا ما جُفيت كنت حريّاً ان أرى غير مصبح حيث أمسي

* * *

حضرت رحلي الهموم فوجّهت الى ابيض المدائن عَنسي^٤
 اتسلّي عن الخطوط وآسى لعلّ من آل ساسان دَرس^٤
 ذكّرْتَنِيهم الخطوب التوالي ولقد تُذكر الخطوب وتنسي
 وهم خافضون في ظلّ عالٍ مشرفٍ يحسر العيون ويخسي^٥
 حل لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس مُلس^٦

١ وترفعت عن عطية كل لثم .

٢ وارد رفه اي يرد الماء كل يوم متى شاء ، ووارد خمس اي يرد مرة كل خمسة ايام .

٣ انه لحسارة عظيمة ان اترك الشام واستوطن العراق .

٤ في هذا البيت وما بعده يقول : حلت الهموم بساحتي فركبت جملي الى قصر المدائن الابيض

لاتسلى عن حظي وامسى لما درس من قصور آل ساسان (وهم ملوك الفرس) .

٥ خافضون ناعموا العيش .

٦ اي هذه الآثار العظيمة ليست كاطلال البدر في القفار الخاوية .

نقل الدهر عهدهن عن الجدّة حتى غدون أنضاء لبس^١
فكان الجرماز من عدم الانس واخلاله بنية^٢ رمس^٣
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس^٤
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس^٥
فاذا ما رأيت صورة انطا^٦ كية ارتعت بين روم وفرس^٣
والمنايا موائل وانوش^٤ وان يزجي الصفوف تحت الدرفس^٥
في اخضرار من اللباس على اصفر يخال في صبيغة ورس^٦
وعراك^٧ الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس^٨
من مشيح يهوي بعامل سيف ومليح من السنات بترس^٩
تصف العين أنهم جيد^{١٠} احياء لهم بينهم اشارة خرس^{١١}
يغتلي فيهم ارتياي^{١٢} حتى تتقرأهم^{١٣} يداي بلمس^{١٤}
وكان الايوان من عجب الصنعة جوب^{١٥} في جنب ارعن^{١٦} جلس^{١٧}
عكست حفظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس^{١٨}
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي^{١٩}
لم يعبه ان بُز^{٢٠} من بسط الديباج واستل^{٢١} من ستور الدمقس^{٢٢}
مشمخر^{٢٣} تعلو له شرفات رُفعت في رؤوس رضوى وقَدُس^{٢٤}
لابسات من البياض فما تبصر منها الا قلائل بُرس^{٢٥}
ليس يُدري أصنع^{٢٦} انس لجن^{٢٧} سكنوه ام صنع جن^{٢٨} لانس^{٢٩}
عمرت للسرور دهرأ فصارت للتعزي^{٣٠} رباعهم^{٣١} والتأسي^{٣٢}

١ انضاء لبس اي أثياب بالية .

٢ الجرماز أحد القصور في الايوان .

٣ في هذا والابيات الستة التابعة يصف صورة طل جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم ، والوصف دقيق وقد مر تفسيره في كلامنا عن الشاعر .

٤ أي كأنه مقتطع من جبل عال .

٥ لم ينقص من قيمته ان الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .

٦ رضوى وقَدُس جبلان .

فلها انت أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حُبسـ
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي^١
غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرسـ
ايدوا ملكنا وشدوا قواه بكهاة تحت السنور حُمسـ^٢
وأعانوا على كتائب أرباط بطعن على النحور ودعسـ^٣
واراني من بعد أكلف بالاشراف طراً من كل سينخ وإسـ^٤

وقال يمدح المتوكل ويذكر وفد الروم

قل للسحاب اذا حدثه الشمالُ وسرى بليل ركب المتحمل
عرج على حلب فحي محلة مأنوسة فيها لعلوة منزل
لغريرة ادنو وتبعد في الهوى واجود بالود المصون وتبخل
وعليمة الالحاظ ناعمة الصبى غري الوشاة بها ولج العذل
لا تكذبين فانت ألطف في الحشا عهداً واحسن في الضمير واجل
احنو اليك وفي فؤادي لوعة واصد عنك ووجه ودّي مقبل
واعز ثم اذل ذلة عاشق والحب فيه تعز وتذل

* * *

إن الرعيّة لم تزل في سيرة عُمريّة مذ ساسها المتوكل^٥
الله أثر بالخلافة جعفرأ وراه ناصرها الذي لا يخذل
هي افضل الرقب التي جعلت له دون البريّة وهو منها افضل
ملك اذا عاذ المسيء بعفوه غفر الاساءة قادراً لا يُعجّل

-
- ١ فهي جديرة بأن أبكيها وان كنت غريباً لا أمت لاصحابها بنسب عرقى .
٢ الا اني افعل ذلك ليد كانت للفرس عند اهلي (اليمينين) فهم ساعدوا ملكنا (سيف بن ذي
يزن) بإبطال تحت الدروع شجمان .
٣ وأعانوه على جيوش قائد الحبش (ارباط) بطعن في نحور الاعداء .
٤ ولذا صرت مولعاً بمدح الاشراف وأهل المروءة مها كان اصلهم .
٥ عمرية نسبة الى عمر بن الخطاب اي سيرة عدل وحزم .

وعفا كما صفح السحاب ورعده
شرفاً خُصصت به ومجد باذخ
لا يعدمنك المسلمون فإنهم
حصنت ببيضتهم وحطت حريمهم
ورأيت وفد الروم بعد عِنادهم
لحظوك أول لحظة فاستصغروا
أحضرتهم حججاً لو اجتلبت بها
ورأوك وضاح الجبين كما يرى
نظروا اليك فقدسوا ولو أنهم
حضروا السباط فكلموا راموا القرى
تهوي أكفهم إلى أفواههم
متحيرون فباهت متعجب
ويود قومهم الألى بعثوا بهم
قد نafs الغيب الحضور على الذي
أعجلت رِفدهم فأفضل نائل
فالله أسأل ان تعمّر صالحاً

قصف وبارقه حريق مشعل
متمكن فسوق النجوم مؤثّل
في ظلّ ملكك أدركوا ما أمّلتوا
وحملت من أعبائهم ما استثقلوا
عرفوا فضائلك التي لا تجهل
من كان يعظم فيهم ويبجل
عصم الجبال لأقبلت تنزل
قمر السماء السعد ليلة يكمل
نطقوا الفصيح لكبروا ولهللوا
مالت بأيديهم عقول ذمّل
فتحيد عن قصد السبيل وتعذل
بما رأى أو ناظر متأمل
لو ضمّهم بالأمس ذاك الهفل
شهدوا وقد حسد الرسول المرسل
حُي الوفود به الهنيء المُعجل
فدوام عمرك خير شيء يسأل

ميلوا الى الدار من ليلي نحييها

يصف فيها بركة بناها المتوكل

ميلوا الى الدار من ليلي نحييها نعم ونسأها عن بعض أهلها
يا دمنة جاذبتها الريح بهجتها تبیت تنشرها طوراً وتطويها

١ اشارة الى وفد أرملة ملك الروم الى المتوكل وفي الابيات التالية يصف دهشة الوفد لما رأوه من عظمة الخليفة ومجده وما اعتراهم من الدهول عندما حضروا المأدبة (السباط) .

لا زلت في حلق للخير ضافية
تروح بالوابل الداني روائحها
ان النحيلة لم تُنعم لسائلها
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
بحسبها انها في فضل رتبها
ما بال دجلة كالغري تنافسها
أما رأت كاليء الاسلام يكلأها
كان جنّ سليمان الذين ولّوا
فلو تمرّ بها بلقيس عن عرض
تنصبّ فيها وفود الماء مُعجّلة
كانما الفضة البيضاء سائلة
اذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا
فحاجب الشمس احيانا يضاحكها
اذا النجوم تراءت في جوانبها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها
يعُمن فيها بأوساط مجتعة
لهنّ صحنّ رحيب في أسافلها
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها
كانها حين لجّت في تدفقها
ينيرها البرق أحيانا ويسديها^١
على ربوعك أو تغدو غواديا
يوم الكُتيب ولم تسمع لداعيا
والآنسات اذا لاحت مغانها^٢
تعدّ واحدة والبحر ثانيها
في الحسن طورا وأطواراً تباها
من ان تعاب وباني المجد يبنيا^٣
ابداعها فأدقتوا في معانيها
قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها^٤
كالخيل خارجة من حبل مجريها
من السبائك تجري في مجاريها
مثل الجواشن مصقولا حواشيا^٥
وريتق الغيث أحيانا يباكيها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لبعد ما بين قاصيها ودانيها
كالطير تنقض في جوى خوافيها
اذا انحططن وهوّ في أعاليها
عن السحاب منحلّ عزاليها
يد الخليفة لما سال واديا

-
- ١ اثار الحلال وأسداها نسج لحتها وسداها والكلام مجازي معناه لا زالت غيوم الخير فوقك يتلأأ فيها البرق .
٢ في زهر الآداب ١ - ٢٣٠ البركة الحسناء وروثها . وفي نهاية الارب ١ - ٣٧٤ والآنسات التي .
٣ كاليء الاسلام اي حاميه ويقصد بذلك الخليفة .
٤ اشارة الى قصة النبي سليمان وبلقيس ملكة سبأ وما شاهده عند من جلال صرحه العظيم .
٥ الجواشن الدروع .

وزادها رتبة من بعد رتبته
محفوفة برياض لا تزال ترى
ان اسمه يوم يدعى من اساميه^١
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

* * *

اذا مساعي أمير المؤمنين بدت
ان الخلافة لما اهتز منبرها
أبدى التواضع لما نالها دعة^٢
اذا تجلست له الدنيا بحليتها
يا ابن الاباطح من ارض اباطحها
ما ضييع الله في بدو وفي حضر
وأمة كان قبح الجور يسخطها
بثنت فيها عطاء زاد في عدد الـ
ما زلت بجرأ لعافينا فكيف وقد
اعطاكها الله عن حق رآك له
للوافظين فلا وصف يدانيها
يجعفر أعطيت اقصى أمانها
عنها ونالته فاختلفت به ثيها
رأت محاسنها الدنيا مساويها
في ذروة المجد أعلى من روايها^٣
رعيته انت بالاحسان راعيها
دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها
علياً ونوّهت باسم المجد تنويها^٤
قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
اهلاً وأنت بحق الله تعطيها

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف

أفأق صب من هو فأفيقا
إن السلو كما تقول لراحة^١
هذا العقيق وفيه مرأى مونتق^٢
أشقيقة العلمين هل من نظرة
عل البخيلة أن تجود بها النوى
والدار تجمع شائقاً ومشوقاً
أم خان عهداً أم أطاع شفيقا
لو راح قلبي للسلو مطيقاً
للعين لو كانت العقيق عقيقاً^٣
فتبل قلباً للخليل شقيقاً
والمشوقا

١ اسم المتوكل جعفر ومعنى جعفر النهر أي ان البركة والخليفة متشابهان في المعنى .
٢ يا ابن اباطح قريش الذين اذا قيسوا بسواهم في الشرف فاقوهم كثيراً (كانت سهولهم أعلى من جبالهم) .
٣ نوه به رفع ذكره .
٤ العقيق اسم واد في بلاد العرب يتغنى به الشعراء .

ماذا عليك لو اقتربت لموعدي يُنثني الجوى وسقيتنا ترنيقا

* * *

غدت الجزيرة في جناب محمد ريثا الحناب مغاربا وشروقا
برقت مخايله لها وتخرقت فيها عزالي جوده تخريقا^١
صفحت له عنها السنون وواجهت

أطرافها وجه الزمان طليقا
رفع الامير أبو سعيد ذكرها وأقام فيها للمكثارم سوقا
يستمطرون يداً يفيض نوالها فيغرق المحروم والمرزوقا
يقظ اذا اعترض الخطوب برأيه ترك الجليل من الخطوب دقيقا
هلاً سألت محمداً بمحمد تجدد الخبير الصادق المصدوقا^٢
وسل الشراة فانهم اشقى به من أهل موقان الاوائل موقا^٣
جاءوا براعيمهم ليتخذوا به عمداً الى قطع الطريق طريقا
طرحوا عباءته وألقوا فوقه ثوب الخلافة مشرباً راووقا^٤
عقدوا عمامته برأس قناته ورأوه برأ فاستحال عقوقا
وأقام ينفذ في الجزيرة حكمه ويظن وعد الكاذبين صدوقا
حتى اذا ما الحية الذكر انكفا من أرزن حنقا يمج حريقا^٥
غضبان يلقي الشمس منه بهامة تعشي العيون تألقا وبريقا
أوفى عليه فضل من دهش يظن البر بحرأ والفضاء مضيقا
غدرت امانيه به وتمزقت عنه غيابة سكره تمزيقا

١ أي برقت سحب وعوده ففاضت سيول جوده.. والمخايل هي السحب المنذرة بالمطر .

٢ سأل به أي سأل عنه .

٣ في هذا البيت وما قبله يقول : هل سألت عن الممدوح محمداً (وهو قائد آخر) فينبئك بالخبر
الصحيح بل اسأل الخوارج (الشراة) فقد نالهم منه أكثر مما نال أهل موقان قبلا -
والموق الهلاك .

٤ أي جعل الخوارج زعيمهم خليفة فالبسوه العباءة الجيدة النسيج .

٥ أرزن اسم مكان ويراد بالحية الذكر هنا الداهية الفتاك (وهو الممدوح) .

طلعت جياذك من ربي الجودي^١ قد

حُمِّلن من دُفَع المنوت وسوقا^٢
يطلبن ثار الله عند عصابة خلعوا الامام وخالفوا التوفيقا
يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرقون قرانه^٣ المنسوقا^٢
فدعا فريقا من سيوفك حتفهم وشددت في عقد الحديد فريقا

* * *

يا تغلب ابنة تغلب حتى متى تردون^٣ كفرا موبقا ومروقا^٣
أو ما علمتم أن سيف محمد^٤ أمسى عذابا بالطغاة محيقا
لا تنتضوه بأن تروموا خطة^٤ عسراء تعي الطالبين لحوقا
خلوا الخلافة إن دون لقاءها قدرا بأخذ الظالمين خليقا

وقال يمدح مالك بن طوق

رحلوا فأيّة عبدة لم تُكسب^٥ أسفا وأيّ عزيمة لم تُغلب^٥
قد بين بين المفرق بيننا عشق النوى لربيب ذاك الربوب
صدق الغراب لقد رأيت شمسهم بالأمس تغرب عن جوانب غرب^٤
لو كنت شاهدنا وما صنع الهوى بقلوبنا لحسدت من لم يحب
شغل الرقيب وأسعدتنا خلوة^٥ في هجر هجر واجتناب تجنب
فتلجلجت عبراتها ثم انبرت^٥ تصف الهوى بلسان دمع^٥ مُعرب
تشكو الفراق الى قتيل صباة شرق المدامع بالفراق معذب^٥
أطيع فيك العاذلات وكسوتي ورق الشباب وشرقي لم تذهب
واذا التفت الى سني رأيتها كمجر^٥ حبل الخالع المتصعب^٥

١ الجودي اسم جبل (وهو الذي استقرت عليه سفينة نوح) .

٢ القران المنسوق القرآن المنظم .

٣ يا بني تغلب حتى متى تردون الكفر المهلك بمساعدتكم للخارجين على الامام .

٤ غرب اسم جبل .

٥ الخالع المتصعب اي الجمل الضعيف .

عشرون قصرها الصبي وأطالها ولعُ العتابِ بهائم لم يُعتصبِ
 ما لي وللأيام صرف صرفها حالي وأكثر في البلاد ثقلي
 فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأقصى وطوراً مغرباً للمغرب
 وإذا الزمان كساك حلة مُعدمٍ فالبس لها حلل النوى وتغرب
 ولقد أبيتُ مع الكواكب راكباً أعجازها بمزيمة كالكوكب
 والليل في لون الغراب كأنه هو في حلوكته وان لم ينعب
 والعيس تنصل من دجاء كما انجلي صبغُ الشباب من القذال الاشيب^١
 يطلبنَ مجتمعَ العلى من وائلٍ في ذلكَ الاصلِ الزكي^٢ الاطيب
 وبقيةَ العربِ الذي شهدت له أبناء ادٍ بالفخار ويعرب^٣
 بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذب المشاربِ والجناب المعشب^٤
 عطنُ الوفود فمنجدٌ او مُتهم او وافدٌ من مشرقٍ او مغرب^٥
 ألقوا بجانبها العصي وعولوا فيها على ملك اعز مهذب
 ملكٌ له في كل يوم كريةٍ إقدام ليث واعتزام مجرب
 وتراه في ظلم الوغى فتخاله قرأ يشد على الرجال بكوكب^٥
 يا مالك ابن المالكين الألى ما للمكارم عنهم من مذهب
 اني أتيتك طالباً فبسطت من أمني وأطلب جودك مكفلي^٦
 وغدوت خير حياطة مني على نفسي وأرأف بي هنالك من أبي
 أعطيتني حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيه وديعة لم توهب

-
- ١ العيس النياق البيض يخالطها شجرة وظلمة خفية . ومعنى البيت ان العيس تخرج من الليل كما يخرج القذال الاشيب من سواد الشباب .
 ٢ اد ويعرب من جدود العرب الاقدمين .
 ٣ الرحبة مكان المدوح .
 ٤ اي هو وطن او مقصد الواقدين من شق الامصار .
 ٥ وتراه وسط خبار الحروب مشرقاً كالقمر وهو ينقض على الرجال بسيف او رمح متآلق كالكوكب .
 ٦ اطلبه اي اعطاه ما طلب .

فشبعتُ من برِّ لَدَيْكَ وناثِلِ
قومٌ إذا قِيلَ النجاءُ فما لهم
يمشون تحت ظبي السيوف إلى الرّدى
يتراكمون على الأسنة في الوغى
ينسيك جود الغيث جودهم إذا
حتى لو أنّ الجودَ خيّر في الورى
ورويت من أهل لَدَيْكَ ومرحبٍ
غير الحفائظ والرّدى مهرباً
مشي العطاش إلى برودِ المشرب
كالصبح فاض على نجوم الغيب
عثرت أكفّهم بمسامٍ مجذب
نسباً لأصبح ينتمي في تغلب

١ يريد بذلك قوم المدوح بني تغلب . النجاة الهرب .

ابن الرومي

أبو الحسن علي بن العباس

٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ

٨٣٧ م - ٨٩٩ م



مصادر دراسته - منشأ و طرف من سيرته - ممدوحوه
عقليته وأخلاقه - فنه ومزاياه الشعرية

مصادر دراسته

- الفهرست (ألمانيا) ١٦٥
 العمدة لابن رشيق (أمين هندية ١٩٢٥) ج ١ - ٤٠ و ٤٢ و ١٩٤
 ج ٢ - ١٣٦ و ١٤٠ و ١٨٤ - ١٨٥ و ١٩٠
 زهر الآداب للحصري ج ١ - ٢٣٢ ذكر عمامته
 ٢٤٨ عتابه لأبي الصقر
 ج ٢ - ١٧١ } تطيره وخوفه من ركوب البحر
 ١٧٧ }
 ١٧٨ }
 ج ٢ - ٩ نهمة
 ج ٣ - ٩٩ و ١٠٢ داره وحنينه للوطن
 ج ٣ - ١٠٥ موالیه
 ج ٤ - ٤١ تسليه عن الهموم
 وفيات الأعيان (بولاق) ١ - ٤٩٩
 شرح شواهد التلخيص للعباسي ص ٣٨ - ٤٢
 وقد ذكر المعري في رسالة الغفران شيئاً عن تشيعه وذكر الجرجاني
 في الوساطة ص ٥٠ وصفحات أخرى . وفي كتاب التصحيف والتعريف
 للمسكري ج ١ - ٢٩ شيء عن سبب موته .
 ومن المراجع الحديثة غير دوائر المعارف وغير كتب التاريخ الأدبي العامة .
 مختارات ابن الرومي (للكيلاني)
 مختارات ابن الرومي (للبارودي)
 ديوان ابن الرومي ج ١ طبع محمد شريف سليم
 حصاد الهشيم للمازني ٢٩٩ - ٤٢٧
 ابن الرومي للعقاد وهو من أحدث وأوفى ما كتب عنه .

منشأ وطرف من سيرته

نشأ ابن الرومي في بغداد ، وليس في شعره ما يدل على انه تركها طويلاً أو جاب الأقطار كما فعل أبو تمام والمتنبي وسواهما من الشعراء . ويستدل من بعض أخباره انه سافر مرة الى سامرا وطال مقامه فيها^١ ، فكان يتشوق الى أيام بغداد كقوله :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيت عليه أغصان الشباب تميد

والأرجح انه قصد ما - وكانت يومئذ دار الخلافة - طلباً للرزق ولكنه لم يوفق في طلبه فملتها ، وحمل على الغربة وطلب المال فقال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواب به قدر
وما أنا الا محرز المجد والعلى وذلك كنزي لا للتجّين ولا التبر
وان يقض لي الله الرجوع فانه عليّ له ان لا افارقكم نذر
ولا ابتغي عنكم شخوصاً ورحلة يد الدهر ، الا ان يفرّقنا الدهر

فلم يكن لشاعرنا تلك الطبيعة المغامرة المجازفة في سبيل الحصول على الأماني . وقد ترك لنا في ذلك قصيدة عصماء وصف فيها أهوال السفر براً وبحراً ، وسنتناولها في غير هذا المقام .

وهو كما يتضح من لقبه ونسبه رومي الاصل واسم جده جريج الرومي (أوجورجيوس)^٢ . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا أن في بعض

١ زهر الآداب ج ٣ - ١٠٠ .

٢ معجم الأدباء ج ٦ - ٤٧٤ تحت سيرة محمد بن حبيب .

شعره تليحاً الى ان أمه فارسية الأصل كقوله :

كيف اغضي على الدنية والفرس خؤولي والروم هم أعمامي

وكان جده ، كما ذكر ابن خلكان ، مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر المنصور . فنشأ والده ، كما يستدل من اسمه ، مسلماً وولد صاحب الترجمة كذلك ، وتثقف في بيئة اسلامية خالصة . ولم يتصل بنا أن والده كان يتكلم الرومية او يعرفها ، او انه هو عرفها ، على اننا لا نشك في انه كان يعرف نسبه الى اليونان ويفخر به احياناً ، كقوله من قصيدة في أبي سهل النوبختي :

ونحن ينو اليونان قوم لنا حجيّ ومجد وعيدان صلاب المعاجم
وما تراءى في المرايا وجوهنا بلى في صفاح المرفقات الصوارم
وقوله من قصيدة يذكر فيها بني العباس :

انا منهم بقضاء من خُتمت رسل الإله به وهم اهلي
مولاهم وغذي نعمتهم والروم - حين تنصني - أصلي

وقوله في رجل طعن بشعره والظاهر انه وصمه بروميته :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسفته عُريب
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب

ويظهر أن شاعرنا لم يكن موفقاً في حياته العائلية فقد مات والده على الأرجح وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ أكبر كان يعول عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيراً . وقد فقد أبناءه الثلاثة وزوجته فجزع عليهم جداً ، وكان لفقدهم تأثير عميق في نفسه . وليس من الغريب ان يكون قد تزوج ثانية وهو شيخ كما يرجح الاستاذ العقاد^١ ، على أننا لا نعلم شيئاً عن أمر هذا الزواج .

١ راجع ابن الرومي للعقاد ص ٩٠ .

حاله مع ممدوحيه

ولد ابن الرومي على رواية ابن خلكان سنة ٢٢١ هـ ، فلم يدرك المعتصم والواثق إلا صبياً صغيراً . ثم أدرك سن البلوغ في زمن المتوكل ، وعاش الى خلافة المعتضد . ومع كل ذلك لا نرى في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الامراء . فاذا قابلناه بزميله البحتري (الذي ولد قبله بنحو خمس عشرة سنة) رأينا أن هذا مدح خلفاء زمانه ، ولا سيما المتوكل والمعتز ، بعشرات من القصائد ونال جوائزهم ، ومدح نحو مائة من كبار الوزراء والقادة ، وحصل من ذلك مالا وجاهاً . أما ابن الرومي فليس له شيء يذكر في الخلفاء . ولعل السبب انه لم يدرك منهم غير المستضعفين كالمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ، وكلهم قتل أو خلع أو حكم وليس له من الأمر شيء . على اننا لا نجزم في ذلك فحاله في ذلك حال البحتري ، وان يكن البحتري قد أدرك المتوكل والخلافة لم تزل في رونقها .

وقد عاش ابن الرومي اربع سنوات في خلافة المعتضد وله فيه بعض المديح . أما رجال الدولة الذين اتصل بهم فجلستهم من الاعاجم . وقد مرّ بنا ما كان لهم من النفوذ في الخلافة العباسية ، واليك أهمّ ممدوحيه :

اسماعيل بن بلبل

كان من وزراء المعتمد وجمع له السيف والقلم وهو يرفع نسبه الى بني شيان ويفاخر بذلك . على ان بعضاً غمزوه وقالوا هو دعي^١ . وكان مادحوه كالبحتري وابن الرومي يذكرون نسبه الشيباني بالتمجيد والتعظيم ، على ان ابن الرومي انقلب عليه وصار يلقبه بالدعي كقوله :

عجبت من معشر بعقوتنا باتوا نبيطا وأصبحوا عربا

١ الفخري ١٨٧ (في باب خلافة المعتمد) .

مثل أبي الصقر إنّ فيه وفي دعواه شيان آية عجبا

آل طاهر

وقد مرّ معنا ذكرهم في الكلام عن أبي تمام والبحري ، وهم من
الفرس . كانوا من رجال الدولة وقد تقلبوا منذ أيام المأمون في أعلى
مراتبها . وأخص بمدوحي ابن الرومي منهم عبيد الله بن عبد الله أمير
بغداد .

آل وهب

وزعيمهم في أيام الشاعر القاسم بن عبيد الله : كان على ما نقله
صاحب الفخري من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء ، وكان شهماً كريماً
مهيئاً جباراً . وقد لزمه ابن الرومي ومدح آله وعلى يده قتل .

آل المنجم

وهم من الفرس وقد مدح شاعرنا منهم عليّ بن يحيى . وكان أبوه
مولى المأمون ، واتصل بالفضل بن سهل ، واتصل علي بن يحيى بمحمد
ابن اسحق المصعبي ثم بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة حكمة^١ . وآل
المنجم من علماء الفلك الذين كان يشار اليهم بالبنان .

* * *

ومن بمدوحيه أحمد بن ثوابة وآل المدبّر والقاضي يوسف وآل غلدة
وآل نوبخت وأبو القاسم التّوزي وآل شيخ والباقطاني ، ومعظمهم من
أصحاب النفوذ والوجاهة . على أن ابن الرومي لم يحظ بشعره فلم يكن
مُتيسّر الحال . وفي شعره ما يدل على ذلك ، فهو كثير التبرّم من
الزمان وسوء الحال وقلة ثواب المدوحيين كقوله :

١ الفهرست ١٤٣ .

تأمل العيب عيبُ وليس في الحق ريبُ
ان يمسك الناس عني سيباً فله سيبُ

وقوله :

ذقت الطعوم فما التذذت براحة من صحبة الأخيار والأشرار
أما الصديق فلا أحب لقاءه حذر القلي وكراهة الإعوار
وأرى العدو قذىً فأكره قربه فهجرت هذا الخلق عن اعدار

ولكن ابن الرومي لم يهجر الدنيا وملذاتها ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم بل بعكس ذلك كان يتهاقت على ما في الحياة مما يشبع شهوات نفسه ، ويسرف في ذلك كل الإسراف . وكان يرمي بنفسه على أبواب الكبراء والوجهاء طالباً رفدهم ، بمنياً نفسه بالخطوة عندهم . ومع كل ذلك تراه في شعره محروماً ناقماً ، او ساخراً عابثاً ، ليس له من منزلة توجب احترامه ، او صداقة تشفي أوامه . ولماذا ؟ لان في طبعه كما يستدل من شعره ما كان ينفّسه من الناس وينفر الناس منه . هذا الطبع هو الذي جنى عليه وألزمه حالة الحاجة والخلول . وقد أصاب في وصف نفسه ، إذ قال :

أسخطت اخواني وأخفق مطعمي فبقيت بين الدور والأبواب

وبينا ترى زملاءه من كبار الشعراء قد فاض كسبهم ، تراه وهو في الخمسين من عمره يشكو الزمان بقصيدة رفعها الى اسمعيل بن بلبل وفيها يقول :

ويح القوافي ما لها سفسفت حظي كاني كنت سفسفتها
أنعت على حظي بمبراتيها شكراً لأنني كنت أرهفتها
أو كثفت دون الفنى سدّها حتى كاني كنت كثفتها
حرمت في سنّي وفي ميعتي قراي من دنيا تضيّفتها
فكّرت في خمسين عاماً خلت كانت أمامي ثم خلّفتها

لا عذر لي في أسفي بعدها على العطايا - عفتها عفتها
والقصيدة طويلة وأكثرها على هذا النمط . ومثلها قصيدة يعاتب فيها
صديقاً ومنها تتبين شيئاً من حاله ونظر اخوانه اليه - قال :

أيها الحاسدي على صحتي العسر وذمي الزمان والاخوانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه أيها الظالمي اخائي عيانا
أعلى انني ظمئت وأضحى كل من كان صادياً ريتانا
أم على انني أمشيت حسيراً وأرى الناس كلهم ركباناً
أم على انني ثكلت شقيقي وعدمت الثراء والأوطاناً
والبيت الأخير يشير الى فقدته لأخيه الأكبر الذي كان يعطف عليه ،
وإلى دار وعقار تركها والده فأضاعها^١ . ومما يدل على سوء حاله
بالنسبة الى زملائه قوله لمن عاب قريضه :

أبعد ما اقتطعوا الأموال واتخذوا حداثاً وكروماً ذات تعريش
يحاسدونني وبيتي بيت مسكنة قد عشتش الفقر فيه أي تعشيش
وكيفها قلبت ديوانه تجد هذه النفقات الناضحة بروح التبرم والغيظ
والآلم . وإذا رجعت الى حكمه التي هي عنوان عقله المفكر رأيت أساسها
تأثير بيئته . فقد ترك شاعرنا كثيراً من الابيات الحكمية ومعظمها
يدور على ما يلي :

قباحة البخل وجمال الثواب راجع مختارات ابن الرومي (للكيلاني) ١٠٦	
عدم منفعة الاخوان	» » » »
نكد الزمان	» » » »
غرور الشباب	» » » » ٢٦
وجوب الحزم	» » » » ٧١

١ وفي بعض قصائده إشارة الى دار له غصبت منه ، وفيها ما يشير الى سوء حاله في أواخر
أيامه كالتي مطلعها : لا زلت تبلغ أقصى السؤل والامل .

٢٠٢	راجع مختارات ابن الرومي للكيلاني	نفع الشدائد
١٠٩،٩٤	» » » »	الحظ
٩٦	» » » »	الملل من الناس
١٠٣	» » » »	عدم المبالاة
٣٩٧	» » » »	فساد الذوق
٤٠٥	» » » »	الوشاة
٤٤١،٣٧٧	» » » »	عدم التغرب
٣١٦	» » » »	الصبر
إلى غير ذلك من الاغراض التي تشير إلى ما كان يشعر به من وطأة الزمان ، وما كان يختلج في نفسه المنفعة من تأثير الحرمان .		

عقليته وأثرها في شعره

لابن الرومي مع فرط أدبه وتوقد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لييب مفكر يأتيك بالحكم والاقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فإذا هاجه هائج أضاع لبه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مرًا أليم اللسان . ويتجلتى لك مزاجه العصبي في قوله يعاتب اسمعيل بن نوبخت (وهو أحد ممدوحيه) يوازن أولاً بين نفسه وسواه من الشعراء فيصفهم بالجيف النتنة والفساء الطافي على وجه اليم ، وانه أحق منهم ببلوغ الأمان . ثم يخاطب اسمعيل فيقول :

واجبي ان أرى جوابي عتباك فلا تجعل السكوت جوابي
 إن في ان تعمقني بعض إغضابي وفي ان تهينني إغضابي
 كنت تأتي الجميل ثم تنكّرت فعاتبتُ مُجَمَّلاً في العتابِ
 فائتنفُ توبة وراجع فعلاً ترتضيه الاسلاف للاعقابِ

ومثل ذلك قصيدة يعاتب بها اسمعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من

الجفاء منه . قال فيها :

فما لعطاياك اضحت حمى	عليّ واضحت لغيري نهبا
قبلت مديحي وأنشدته	أناساً وأمسكت عني الثوبا
فله انت وما جثته	إليّ لقد جثت شيئاً عجبا
اتهتك ستري عن خلتي	وتغلق دون عطاياك بابا
حلفت لأن انت لم ترضي	لتصرفن القوافي غصبا

وأقلّ ما يقال في هذا العتاب انه تهديد ، وان صاحبه من إذا غضبوا لا ينظرون إلى العواقب . ويجوز لنا ان نقول انّ ما عرف به ابن الرومي من الهجاء هو أثر من تلك الطبيعة الشديدة الانفعال التي يخرج بها الانسان أحيانا عن طور الرشاد . ومن هنا هذه الجرأة في مهاجمة الأعيان والحكام وهذا الاقذاع في الطعن بالمناوئين ، بما كان - على ما يعتقد ابن رشيّق - سبباً في هلاكه^١ .

وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فناً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية او الاجتماعية وعرضها بقلب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء . ولكن شعرنا العربي الهجائي في كل أطواره لم يصل إلى تلك الدرجة الراقية إلا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاكة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الاول يرفعه عن الخشونة والاقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . وانك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن أكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الخط من كرامة الشخص أو كرامة أهله ، لا لقصد اصلاحي بل تشفياً أو تفاخراً . هكذا كانت نقائض جرير والاختل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجائيين عند العرب . ولم يشذ ابن الرومي عن هذه القاعدة - قال ابن رشيّق : « وقد

غلب عليه الهجاء حتى شهر به وحتى صار يقال أهجى من ابن الرومي ،
وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر ولكن قليل الشر كثير^١ .
ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابة وحسن التصوير ،
ولكن معظمه فاحش لا يرتفع إلى ما نسميه فنّاً أدبياً .

ومن دلائل ضعفه العصبي اعتقاده بالطيرة : كان يتشاءم من بعض
الالفاظ أو الحوادث ، وكان لهذا الطبع أثر شديد في تصرفه مما جعله
سخرية في أعين العقلاء . ولا نستطيع ان نعلل هذه الظاهرة العقلية التي
تضعف ارادة الانسان وتحملها على ربط الحوادث بغير أسبابها إلا بقولنا
ان صاحبها شاذ في عقله وان في جهازه العصبي ضعفاً خاصاً . وقد
تناول أبو العلاء الممرى تطير ابن الرومي في رسالة الغفران وانتقده ،
ولم يتعد دائرة الصواب إذ قال عنه « ان أدبه أكثر من عقله » .

وقال ابن رشيقي : « كان ابن الرومي كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة
لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه أو يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من
الامراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاهل
به . فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت
ناقص ، ومنكوس اسمك لابقا . وابن الرومي هو القائل : الفأل لسان
الزمان والطيرة عنوان الحدثان ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير^٢ . ومن
ذلك قصيدة قالها وهو في السابعة والخمسين وقد رأى عجوزاً في إحدى
عيونها نكتة وجارية حولاء ، فتطير من ذلك . واتفق بعد مدة يسيرة
ان جفاه القاسم بن عبيد الله ، وسقطت ابنة لبعض أصدقائه من بعض
السطوح فماتت ، فكتب إلى صديقه قصيدة يقول فيها :

لا تهاون بطيرة أيها النـ ظنار واعلم بأنها عنوان
قف إذا طيرة تلتفتك وانظر واستمع ثم ما يقول الزمان

١ المدة ج ١ - ١٩٤ .

٢ المدة ١ - ٤٠ وج ٢ - ١٣٦ .

فتحك المهرجان بالحوول والعُور أَرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقد ابنتك الحرّة مصبوغة بها الاكفان
وتجافي مؤمِّلٍ لي خليل ليجّ منه الجفاء والهجران
عقلية كهذه لا تستطيع ربط الاسباب بمسبباتها ، بل تميل إلى الوهم
والذعر ، لا ينتظر ان يكون صاحبها ذا اقدم وعزيمة صادقة . وبرغم ما
نقرأه في شعر ابن الرومي من ذكر الجهد والعلو فإنه لم يتعدّ في ذلك حدّ
الكلام . كان ذا موهبة شعرية حادة مقرونة بضعف عصبي حاد ، وقد
تولد من امتزاجها ذلك الخوف الصبياني وتلك الغيرة الشاذة التي كانت
توهمه انه فوق العالمين ، وانه جدير بكل اكرام وتعظيم ، وان من لا
يكرمه فقد نقص قدره وحق عليه ان يهجوّه ويحط من كرامته أياً كان
ومها كانت منزلته . واننا لنوافق الاستاذ العقاد في ان شاعرنا كان « حسن النية
رقيق القلب لم يخلق شريراً مطوياً على الشكس والعداوة »^١ ، ولكن الرجل
كان على ما يظهر يجمع في نفسه نقائص من الاخلاق فهو مسالم شديد
العداء ، رقيق القلب أليم البغض ، وفيّ ساخر ، شجاع جبان ، إلى
آخر هذه الصفات الغريبة التي يقف المنتقد الاخلاقي لديها حائراً ، والتي
لا يمكن لنا إلا ان نعزوها إلى اختلال في جهازه العصبي جعله غريب
الاطوار شاذ الاخلاق ، ميالاً إلى الاسراف في كل شيء .

ومن ظواهر اسرافه نهمه في المآكل والمشارب ، حتى ان الحصري
يعزو موته إلى شدة نهمه^٢ . ولا شك ان ما تجده في شعره من كثرة
وصفه لاصناف الطعام والشراب راجع الى هذا الميل فيه . واليك وصفه
لألذّ المذاذات عنده :

١ ابن الرومي للعقاد ٢٢٣ .

٢ زهر الآداب ٢ - ٩ . وفي كتاب التصحيف والتعريف (لأبي أحمد العسكري) ج - ٢٩
(مطبعة الظاهر ، مصر ، ٣٢٦) يعزى سبب موته إلى قصيدة هجائية قالها في جلّساء القاسم
ابن عبيد الله وكان فيهم رجل يقال له ابو فراس يكرمه فسمه في خشكناجه ، فاضت نفسه
فيها .

يا سائلي عن مجمع اللذات ساءلت عنه أنعت النعّات
خذ يا مريد المأكّل اللذيذ جرداقتي خبز من السميد
لم ترّ عين ناظر مثليها فقشّر الحرفين عن وجهيها

ثم يصف ما يضاف الى ذلك من لحم فروج ولوز وجبن وبيض
ونعنع وملح وكيفية تحضيرها وطبخها ويختم القصيدة بقوله :
ومتّع العين به مليّاً وأطبق الخبز به هنيئاً
املاً ثناياك واكدم كدماً تسرع فيما بنيت هدماً
لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

وكثيراً ما كان يدفعه نهمه الى ذم رمضان والصيام لما فيها من كبح
الشهوات والملذات كقوله :

إذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيه كان شهراً ومرّ نهاره مر السحاب
فلا أهلاً بمانع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب

وقوله من قصيدة :

شهر يصدّ المرء عن مشروبه بما يحلّ له وعن مأكوله
لا أستثيب على قبول صيامه حسي تصرّمه ثواب قبوله

وله في الخمر شيء كثير ، وكان من مدمنيها المتسلّين بها عن المهموم
حتى في أيام مشيبه كقوله :

سأعرض عن أعرض الدهر دونه وأشربها صرفاً وان لام لوم
فلّاني رأيت الكأس أكرم خلّة وفت لي ورأسي بالمشيب معتم
ومن صارم اللذات ان حان بعضها ليرغم دهرأ ساءه فهو أرغم

وقال من قصيدة بعث بها الى زميله ابن المسيّب :

أدرك ثقاتك انهم وقعوا في نرجس مع ابنة العنبر
فهمُ بحال لو بصرت بها سبّحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

ثم يصف مجلسهم في الروضة الغناء ويطلب اليهم القدوم ليتم انسهم
به . ومن خمرياته قوله يصف الخمر ويصف حسناء تشرب :

ومدامة كحُشاشة النفس لطفت عن الادراك باللس
لنسيمها في قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس
ومقدّ في أمل ابن نشوتها حتى يؤمل مرجع الامس
ومهفف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
فكانها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

واليك هذه المداعبة الساخرة التي تذكرنا بشعر أبي نواس :

أحلّ العراقيّ النبيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيّ الشرابان واحد فحلت لنا بين اختلافها الخمر
ساخذ من قوليهما طرفيهما واشربها لا فارق الوازر الوزر

وفي ديوانه كما ذكرنا آنفاً شعر كثير في الخمر وأنواع المآكل .
فإذا قرنت ذلك الى ولعه بالشباب ، وشغفه بكل ما يقدمه من أطايب
الحياة - كما سترى في قصائده التي يصف بها الشيب باكياً أيام الشباب ،
نادباً أوقات اللهو والملذات - تعرف ما كان في نفس شاعرنا من نهم
باللذائذ الطبيعية ، وكيف كان مفتوناً بما تقدمه لحواسه من نشوة جسدية .

ومن الانصاف ان نقول ان شاعرنا لم يكن فريداً بين شعراء العرب
في ذلك فمثله كان أبو نواس واضرابه ، ومثله كثيرون من محبي الحياة
الدنيا في كل عصر . على ان له على ما يظهر منزلة خاصة : فهو شغوف

بالحياة لأجل الحياة - يجب أن يعيش وان يعيش قويًا ل يتمتع بمجالها وأطايها ، وقد وهبته الطبيعة حسًا دقيقًا فكان يرى فيها أدق الألوان وأخفى الاصوات والحركات . ولعل شعوره بالحرمان وبسوء الحال كان يزيد فيه هذا الشغف وهذه الشهوة الحيوانية القوية : نقول الشهوة الحيوانية لأننا لا نرى في شعره ما يدل على غير ذلك - لا نرى فيه ذلك الميل الى إلباس الطبيعة حلة روحانية ترتفع به عن التمتع باللذة . فالمرأة والخمرة والطعام والربيع والشباب والرياض كلها في نظره أدوات للسرور ووسائل للتمتع ، وبقدر ما يستطيع الانسان ان يستخدمها يكون حظه في الحياة .

شعره وشاعريته

الغريب ان ابن الرومي مع علو كعبه في الشعر لم يذكره صاحب الاغانى ولا ياقوت ولا الانباري ، وقد خصه ابن النديم في الفهرست بكلمة وجيزة ذكر فيها ان شعره كان على غير الحروف رواه عنه المسيي ثم عمله الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ^١ . وتابعه ابن خلكان في ذلك ولكنه جعل راويته المتنبي لا المسيبي^٢ وهو على ما يتراءى لنا خطأ نسخي فان المتنبي ولد بعد موت ابن الرومي بعشرين سنة فلا يصح ان يقال انه رواه عنه ، ولم ينتبه الى هذا الخطأ أكثر المؤرخين والمتأديين الحديثين فنقلوا كلام ابن خلكان على علاته .

ويميل نقاد العصر الى القول بالوحدة في قصائد ابن الرومي كقولهم : « فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفًا منطقيًا فنيًا لا عوج فيها ولا ضعف ولا ميل الى الاستطراد^٣ » ، أو كقولهم : « فخالف ابن الرومي هذه السنة

١ الفهرست ١٦٥ .

٢ كما في الطبعة الميرية .

٣ المجلد ١٣٨ .

(أي سنة الذين جعلوا البيت وحدة النظم) وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم بغير تمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ، ولا تنتهي حق ينتهي مؤداها^١ .

والذين يقولون بالوحدة يجعلون أساسها طبيعة شاعرنا اليونانية ، واختلافها في الاسترسال والتوحيد عن الطبيعة العربية . والمدقق في درس شعره يجد هذا الحكم العام صحيحاً في بعض قطع خاصة ، أو بعض أجزاء من القصائد لا في القصائد عموماً ، كوصفه للمشيب أو للحزن أو لمشقة السفر أو للمهارة في لعب الشطرنج وما شاكل . وليس من الضروري ان يكون ذلك راجعاً الى « يونانية » تميزه عن سائر الشعراء ، ففي الشعر العربي قديماً وحديثاً أمثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول أو تقصر بالنسبة الى الاحوال . خذ قصيدة عمر بن أبي ربيعة « أمن آل نعم » ، أو مرثاة أبي ذؤيب « أمن المنون » ، أو وصف الإيوان للبحثري ، أو وليمة ابن الواساني : بل خذ كثيراً من خمرات أبي نواس وما أشبهها من الكلام المتصل الفكر الذي تجده في كل العصر الأدبية ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، تجد أن ابن الرومي لم ينفرد في ذلك ، وليس في شعره ما يدفعنا إلى القول بطبيعة تخالف طبائع معاصريه . واليك مثلاً قصيدته في علي بن يحيى المنجم ومطلعها :

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

وهي ١١٧ بيتاً . منها ثلاثون في وصف المشيب والحضاب ونظر الغواني اليها ، وبقية القصيدة في الممدوح يعدد فضائله من كرم ودهاء وسمو وشجاعة وما شاكل من المناقب الرفيعة . وإذا درستها لا تراها تختلف عن مدائح عصره من حيث الاسلوب والتفنن في ضروب الوصف والمدح ، بل

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠٨ .

تستطيع ان تقتطع منها ما شئت من الأبيات وتبقى القصيدة تامة المعنى .
وما يصدق على هذه القصيدة يصدق على قصيدته في عبيد الله بن عبد الله
ابن طاهر :

صبا من شاب مفرقه تصابي وان طلب الصبا والقلب صاب

وهي ١٧٥ بيتاً خصص منها نحو ٧٠ بيتاً للشيب وتذكارات الشباب ،
وساق الباقي في مدح الممدوح على الطريقة المتبعة عند الشعراء . وكذلك
القصيدة التي يهنئه فيها بعيد المهرجان وهي تقرب من ١٣٠ بيتاً وتختلف
بين وصف يوم العيد وتعداد فضائل الممدوح وآله ، وغير ذلك من سائر
مطولاته كمرثاته لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي ، وهي ١٠٩ أبيات
ومطلعها :

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقصيدته في أحمد بن ثوبة - دع اللوم ان اللوم عون النوائب -
وهي ١٨٢ بيتاً ، ورثاؤه لأهل البصرة - زاد عن مقلتي لذيد المنام -
وهو ٨٣ بيتاً ، وعتابه لأبي القاسم التوزي - يا أخي أين ريع ذلك
اللقاء - في ١٦٨ بيتاً ، وقصيدته في القاسم بن عبيد الله - أيها القاسم
القسيم رواء - وتبلغ ٢١٦ بيتاً ، وغير ذلك من عيون قصائده . في
كل هذه القصائد تجد بعض القطع التي تستقل بوحدة فكرية ولكنك لا
تجد القصائد عموماً تختلف عن أمثالها في دواوين الشعراء ، لا من حيث
استقلال الأبيات ، ولا من حيث اتساق الأفكار . ولا نرى علماً ما
يؤيد القول بتأثير النزعة اليونانية في أدبه . وقد حاول الاستاذ العقاد أن
يجمع بين النظريين فجعل العبقرية اليونانية فيه أدبية لا نسبية ، أو كما
قال : « انها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة
الانساب » .

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠١ - ٣٠٢ .

مزاياه الفنية

ولمّا يمتاز شعره بما يلي :

- ١ - طول النفس مع المحافظة على السلاسة عموماً .
- ٢ - استيفاء المعنى وتقضي كل ما يقال فيه .
- ٣ - دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية .
- ٤ - ميله إلى تشخيص ما لا يعقل .

أما طول النفس فقد أشرنا اليه سابقاً ، ونريد به مقدرة الشاعر على الاسهاب في النسيج دون تعب أو تكلف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطوّلات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الالوان المعنوية . وبديهي ان تجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادّته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فيّاض كثير الاطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهوكة مقطوع النفس ، ولا نشعر في شعره بتكلف مضمّن أو جهاد عنيف .

على ان الاطالة لا تؤمن أحياناً ، فقد قضاها صاحبها الى استعمال غرائب الصيغ والالفاظ محافظة على وزن أو معنى ، ولا سيما إذا كان واسع الاطلاع في اللغة كشاعرنا ابن الرومي . واثباتاً لذلك نذكر هنا بعض ما اخترنا من غرائب ديوانه مع الاشارة الى مواطن كل لفظة ليسهل الرجوع اليها ، وليس الذي نثبته هنا الا قليلاً من كثير مما يرد في ديوانه :

موزجرهمي ديوان ابن الرومي لشريف حسن ج ١ - ١١	
حظي دون اللفاء (الخسيس)	» ٢٧ -
مريغو نداه (طالبوه)	» ١١٠ -

لازب الجرب (لازم العيب)	لشريف حسن ج ١ - ٢٠٢
خر ثلب (قديمة)	» - ٢٣٧
كروب وذبذب (اضطرابات)	» - ٢٩٤
مقفل الرواجب (متشنج الاصابع)	» - ٢٧٥
نعمه ترتب (مقيمة)	» - ٣١٧
مرث (حلیم)	» - ٣٢١
عسل اللصاب (عسل الجبال)	» - ٣٧٨
القغد (صفع القفا)	» - ٤١٠
السخاب (القلادة)	» - ٤٤٥
شتيم الوجه (كريبه)	مختارات الكيلاني - ٥٨
يومان ارونان (عصيان)	» - ٨٥
لدهر منجنون (دولاب)	» - ١٢٠
اكف ضوايث (نواشب)	» - ١٧١
الزوش (العبد)	» - ٢٠٤
ألبك الالب (جمعك المحتشد)	» - ٢٥١
ابريق ردوم (سائل)	» - ٣٩١
كدنقي تتخدد (سمني يهزل)	» - ٣٩٢
هل من عندد (اي بد)	» - ٣٩٣

ويكثر في مطولاته الروابط الكلامية يأتي بها ليربط ما تقدم بما تأخر، ولا يستحسن ذلك في الشعر. ومن هذه الروابط ما يلي :

مع انه - لم لا - لا سيما - بل - كما - غير ان - وظني انه -
لذاك هذا - على اني - مع - واعلم - هكذا - برهان ذلك - وذاك
ان - الخ^١.

١ راجع شرح محمد شريف ج ١ - ١٥١ - ١٦٥ - ١٧٤ - ١٨٥ - ١٩٩ - ٢٥١ -
٢٧٥ - ٣٢٨ - ٣٣٦ - ٣٨٦ - ٤١٩ - ٤٦٢ ومختارات الكيلاني ٨٤ - ٤٧١ -
٤٨٥ .

ومع تمكن ابن الرومي من شوارد اللغة لا يأنف أحياناً من استعمال بعض الالفاظ الاعجمية . وهي ان جاز استعمالها في المباحث العلمية لا تستحسن في الشعر وما اليه من الكلام الفني كاستعماله الالفاظ التالية :

آين - في قوله « اعجمي آينه عربي » أي عاداته ودأبه .

شير - في قوله « اعني سليمان الذي في رسمه قمر وشير » وهي الأسد في الفارسية .

زرياب^١ - في قوله « وتهاويل من سندس ومن زرياب » أي ماء الذهب .

الدوشاب^٢ - في قوله « علي احمد من الدوشاب » أي النبيذ الاسود .

الكوش - في قوله « يا أصل الكوش هاك ضامنة » جدع انوف وصلم أكواش ، والكوش هي الاذن في الفارسية .

وأمثال ذلك من الالفاظ التي كان يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان^٣ .

استيفاء المعنى وتقصي الأغراض

قال ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يفرص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية^٤ . »

وقد سبقه ابن رشيق فقال : « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يمته ويعلم انه لا مطمع منه لأحد^٥ ، وهما مصيبان . »

١ و ٢ ويحور استعمال هذين اللفظين إذا أصبحا علماً - كالكنياك مثلاً .

٣ البيان والتبيين - ٦١ .

٤ وفيات الاعيان ١ - ٤٩٩ .

٥ العمدة ٢ - ٨٥ .

واليك بعض الأدلة على ذلك من شعره :

١ - في معاقبته لأبي القاسم التوزي الشطرنجي يذكر هنوات ذلك الصديق ، وان الحاجة كشفت له عنهن ، ويحري بينه وبينهن محاورة لطيفة يقول فيها :

ليتني ما هتكت عنكن سترأ فثويتن تحت ذاك الغطاء
قلن لولا انكشافنا ما تجلست عنك ظلماء شبه قماء
قلت أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء
قد أفدتسنتي مع الخبر بالصاحب ان رب كاسف مستضاء
فلن أعجب بمهتدي يتمنى انه لم يزل على عيماء
كنت في شبه فزالت بنا عنك فأوسعتنا من الإزراء
وتمنيت ان تكون على الحيرة تحت العماية الطخياء
قلت تالله ليس مثلي من ودّ ضلاً وحيرة باهتداء
غير اني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الأنباء
قلن هذا هوى فمرّج على الحق وخلّ الهوى لقلب هواء
ليس في الحق ان تودّ لخلّ أنه الدهر كامن الأدواء
بل من الحق ان تنقّر عنهن والا فانت كالبعداء
ان بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأسّ الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوم بها كل خلّة عوجاء

وهذه المحاورة تكشف لك عن فن ابن الرومي وميله إلى البحث المستفيض وتقصي كل معنى من الغرض الذي يرمي اليه . وفي هذه القصيدة نفسها يمدح صديقه بالمهارة في الشطرنج فيذهب في الوصف كل مذهب كقوله :

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء
أو مسير القضاء في ظلم الغيب إلى من يريده بالتواء

وعلى هذا النحو يصف لعبه في نحو عشرين بيتاً يتفنن في معانيها ما شاء ، وكلها شاهد على تدقيقه في أغراضه ومحاولته بلوغ الغاية منها .

٢ - ذكر السفر ومشاقه وما لاقاه من ذلك برّاً وبحراً في قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوبة وقد أجاد فيها كل الاجادة . واليك شيئاً منها مثلاً لما نحن بصده من تدقيقه وتقصّيه ، قال :

أذاقتني الأسفارُ ما كره الغنى إليّ وأغراني برفض المطالب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبتُ اعتساف الأرض ذات المناقب
وصبري على الإقتار أيسر محلاً عليّ من التفرير بعد التجارب

ثم يصف ما لاقاه من أهوال البر إبان الشتاء من مطر وبرد وثلج وصفاً في غاية الدقة ، نذكر منه هنا وصف حاله وقد اضطر الى المبيت في خان :

فملت إلى خان مُرثٍ بناؤه مميلٌ غريق الثوب لهفانٍ لاغبٍ
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب ولا نزلًا ، إيان ذاك لساغب ؟
فما زلت في خوف وجوع ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقني سقف كاني تحته من الوكف تحت المدجّنات الهواضب
تراه إذا ما الطين أثقل متنه تصرّ نواحيه صرير الجنادب

وبعد ان يستوفي وصف الخان وهول السفر في الشتاء يصف متاعب القبط في الصحراء في اثني عشر بيتاً ، ثم يتناول أهوال البحر . يقصد (دجلة) إذا هبت الريح وطغت غوارب الماء ، ويحوك ذلك حوكاً دقيقاً في ستة وعشرين بيتاً نذكر منها ثلاثة يرّدّ بها على من لا يرى في دجلة ما يراه المسافر في البحر من خطر أو متاعب فيقول :

لدجلة خبّ ليس لليمّ انها ترائي بحلم تحته جهل واثب
تطامنُ حتى تطمئنّ قلوبنا وتقضب من مزح الرياح اللواعب

زلازلُ موج في غمار زواجر وهوات خسف في شطوط خوارب
وللمّ أعذار بعرض متونه وما فيه من آذيت المتراكب
ولست تراه في الرياح مزلزلاً بما فيه إلاّ في الشداد الغوالب

٣- وصف الشيب وأيام الصبا وذلك كثير في ديوانه ، نجتزئ هنا بما جاء منه في قصيدة تبلغ ١٧٥ بيتاً قالها في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وخصص منها نحو سبعين بيتاً في هذا الغرض الخاص . من هذه السبعين ١٩ بيتاً في وصف الشيب ووجوب الترحيب به لأنه يبشر بلحاق الماضي كقوله :

وقلت مسلماً للشيب أهلاً بهادي الخطئين الى الصواب
ألست مبشّري في كل يوم بوشك ترحلي اثر الشباب
لقد بشّرتني بلحاق ماضٍ أحبّ اليّ من برد الشراب
فلست مسمّياً بشراك نعيّاً وان أوعدت نفسي بالذهاب
وأنت وان فتكت بحبّ نفسي وصاحب لذّتي دون الصحاب
فقد أعتبتني وأمتّ حقدي بحشّك خلفه عجلًا ركابي

و ١١ بيتاً في ذكر أيام الحداثة وموقف الغانيات بين أمس واليوم .
و ٤٠ بيتاً يصف فيها ما يذكره بالشباب من جمال الحسان ومن جمال الطبيعة - ما فيها من مياه وجنان وسحاب وبروق ورياح - وصفاً لا يترك فيه زيادة لمستزيد يختمه بقوله :

فيا أسفاً ويا جزعاً عليه ويا حزناً الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزّي لقد غفل المعزّي عن مصابي
تفرّقنا على كره جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكّتي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب

ثم يقول :

لبستك برهةً لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب

ومن يراجع هذه السبعين بيتاً ويتأمل توفّر الشاعر على تقصّي المعاني وتدقيقه في رسم ظلالها، ينكشف له ما قصد إليه ابن خلكان اذ قال « لا يبغي في المعنى بقية » .

ولما كان ابن الرومي بطبيعته دقيق الاحساس كان من الطبيعي ان نراه يجيد في وصف الالوان والاصوات ويفتّن بها ما شاءت قريحته ، وله في ذلك لطائف تعد من أجمل ما في الباب من الشعر العربي .

ويمتاز بالبأسه الجماد حياة وبنقل غير العاقل الى مصاف العقلاء ، وهو ما يسمونه بالتشخيص أو المجاز المرسل . ومن ذلك حديثه مع هنوات صديقه (وقد مر في كلامنا على قصيدته « ايها القاسم القسيم رواء ») ، ومخاطبته للمشيّب والشباب والبين والكساء ، وانطاقه الطيور والنسائم ، ونسبته التفكير الى الشمس والندى والأغصان ، مما سترى الامثلة عليه في المختار من شعره . ولم يتفرد ابن الرومي بذلك ، ولكن له فيه ما يلفت النظر ويجعله في مقدمة الوصافين . ومما يلفت النظر أيضاً في شعره حسن اختراعه ، وقد تحمس له ابن رشيق فقال : « اما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه ^١ » . وفي موضع آخر يقرنه بأبي تمام ويقول : انها أكثر المولدين اختراعاً فيما يقول الخذاق ^٢ » .

ويراد بالاختراع كما ذكرنا في غير هذا المقام بدائع التشبيه والتمثيل والاستعارة ، كقوله وقد رأى رجلاً يقلي الزلابية فوصفه ووصف عمله :

رأيتُه سحراً يقلي زلابية	في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيتُه المقلّي حين بدا	كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي المعجين لجيناً من أنامله	فيستحيل شبابيكاً من الذهب

١ الممددة ١ - ١٩٤ .

٢ الممددة ١ - ١٧٧ .

وقال يصف قوس السحاب :

وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً على الجو دُكناً والحواشي على الارض
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على احمرٍ في اصفرٍ إثر مبيضٍ
كأذيال خَوْدٍ اقبلت في غلائل مصبغة والبعض اقصر من بعض
ومن أقواله الجميلة يذكر أيام الشباب واننا لا نعرف قيمتها إلا متى
ولت :

لسنا نراها حق رؤيتها الا زمان الشيب والهزم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الارض بالظلم
ولرب شيء لا يبيته وجدانه الا مع العدم

ومثل ذلك قوله في ذم الدهر وانه يعلي الاسافل :

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به وترى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتعلو فوقه جيفه

وله في الحكم باع طويلة ، فان دقة نظره لا تنحصر في الوان الطبيعة
والحياة بل تتناول ايضاً العواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض . وهو
يحاري في ذلك كبار الشعراء ، كقوله :

اذا ما كساك الله سربال صحّة ولم تخل من قوت يحلّ ويعذب
فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب
وقوله :

خليلي قد عللتاني بالاسى فانعمتا لو اني اتعلّل
وما راحة المرزوء في رزم غيره يحمل عنه بعض ما يتحمل ؟
وقوله :

فلا تتكل الا على ما فعلته ولا تحسبن المجد يورث بالنسب

فليس يسود المرء إلاّ بنفسه وإن عدّ آباء كراماً ذوي حسب
وحكمه كثيرة وهي تعكس لنا في الغالب حياته وتأثير بيئته فيه .

* * *

أما أكثر ديوان ابن الرومي ففي المديح والهجاء والعتاب والوصف ، على
أن له في باب الرثاء بضع قصائد جيدة . منها مرثاة في ابنه الأوسط هي
من أرق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز . قال في مطلعها
يخاطب عينيه :

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي
توخى حيام الموت أوسط صبيقي فله كيف اختار واسطة العقد
طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد

ثم يأخذ بوصف الداء الذي أصاب ولده ، وما كان له من التأثير
فيه ، ويشرح لنا العواطف الابوية المتألّمة شرحاً يحرك أوتار القلوب . وانك
ترى شدّة ألمه ودقة تصويره في قوله يخاطب الفقيد :

محمد ما شيء توهّم سلوةً لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليها يكونان للاحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا فؤادي بمثل النّار من غير ما قصد

والقصيدة كلها من هذا النمط البليغ الذي يشهد لشاعرنا برقة الشعور
ودقة الفن . وتجد معظمها في باب المختارات .

* * *

والخلاصة أن ابن الرومي دقيق شديد الانفعال ، عصبي المزاج الى
حد الخروج عن جادة الرشاد . ومن هنا غرابة أطواره ، وفشله في الحصول
على رغائبه ، وعدم قدرّ جيله لفنه ومواهبه .

المختار من شعر ابن الرومي

طبيعة شديدة الانفعال في شعري بعيد المدى كثير الاوان : تقرأه
فيرتسم لك ما في نفس ناظمه من ولد في الحياة ومرارة لفقد
أطايبها ، مقرونين بإسراف في العاطفة يدفعه أحياناً الى درجة
الشدوذ .

ذكرى الشباب

من قصيدة في عبيد الله بن عبد الله

كفى بالشيب من ناهٍ مُطاعٍ	على كثره ومن داع مجاب
حططت الى النهى رحلي وكنت	مطيئة باطلا بعد الهباب ^١
وقلتُ مسلماً للشيب : أهلاً	بهادي المخطئين الى الصواب
الست مبشّري في كل يوم	بوشك ترحلي إثر الشباب ؟
لقد بشّرتني بلحاق ماض	احباً إليّ من برد الشراب
فلست مسمياً بشراك نعيّاً	وان اوعدت نفسي بالذهاب
لك البشري وما بشراك عندي	سوى ترقيع وهيك بالخضاب

١ الهباب : النشاط والسرعة .

وانت وان فتكت بحب نفسي
فقد أعتبتني ، وامت حقدي
إذا الحقنتي بشقيق عيشي
وحسي من ثوابي فيه أني
لعمرك ما الحياة لكل حي
فقل لبنات دهري فلتصبنني
سقى عهد الشبيبة كل غيث
ليالي لم أقل : سقيا لعهد
وصاحب لذتي دون الصحاب^١
بحبك خلفه عَجِلا ركابي^٢
فقد وفيتني فيه ثوابي
واياه نثوب الى مآب
إذا فقد الشباب سوى عذاب
إذا ولتي ، بأسهما الصياب
اغرّ مجلجل داني الرباب^٣
ولم ارغب الى سقيا سحاب^٤

* * *

يذكرني الشباب هوان عتي
يذكرني الشباب سهام حتف
رمت قلبي بهن فأقصده
فراحت وهي في بال رخي
وكل مبارز بالشيب قرنا
وصد الغانيات لدى عتاي^٥
يُصبن مقاتلي دون الإهاب
طلوع النبل من خلل النقاب^٦
ورحت بلوعة مثل الشهاب
فسمي لعمرك غير ساب

* * *

يذكرني الشباب جنان عدن
تفتي ظلها نفحات ريح
إذا ماست ذوائبها تداعت
يذكرني الشباب وميض برق
على جنبات انهار عذاب
تهز متون اغصان رطاب^٧
بواكي الطير فيها بانتحاب
وسجع حمامة وحنين ناب^٨

-
- ١ و ٢ وانت وان ذهبت بحبيبي ار صاحبي فقد ارضيتني بأنك تدفعني الى اللحاق به عاجلا .
٣ و ٤ سقى عهد الشبيبة كل مطر كثير الرعد داني السحاب - ذلك العهد الذي لم اكن اهتم
بسواه ولم اشعر فيه بحاجة ما .
٥ يذكرني ايام الشباب عدم اهتمام الغانيات اليوم بي .
٦ طلوع النبل الخ اي حسناء تكثر رمي النبل من وراء النقاب .
٧ تفتي ظلها اي تحركه .
٨ الناب الناقة .

فيا اسفاً ويا جزعاً عليه ويا حزنناً الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزى؟ لقد غفل المعزّي عن مصابي
تفرّقنا على كرهٍ جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد اجتناءٍ فمادت بعده ليد احتطاب^١

* * *

ايا بُرد الشباب ، لكنك عندي من الحسنات والقِسَم الرّغاب
بليت على الزمان ، وكل بُرد فبين بلى وبين يد استلاب
وعزّ علي انت قبلى وابقى ولكنّ الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو ملّكت صونك فاعلمته لصنتك في الحرير من العياب^٢
ولم ألبسك الا يوم فخرٍ ويوم زيارة الملك اللّباب
عبيد الله قرم بني زريقٍ وحسبك باسمه فصل الخطاب
الى ان يقول له :

اظلّ سحابٌ عرفك كل شيء ودرّ على البلاد بلا عصاب^٣
سواي فاني عنه بظهرٍ كأني خلفاً منقطع التراب^٤
تشير إليّ بالمحروم ايدي كايدي الناس في يوم الحصاب^٥
تطاول بي انتظار الوعد جدّاً وريب الدهر يؤذن بانشاب

* * *

افكّر في نصابٍ انت منه فيُخلّق دون عذرك كل باب
الست المرء لا عزمٌ كهامٌ ولا بخلٌ اليه بذى انتساب

١ الايكة الشجرة كنى بها عن الحياة فقال وكانت حياتي ثمرة فأصبحت الآن يابسة .

٢ العياب خزائن الثياب .

٣ بلا عصاب أي عفواً دون ان يطلب . والعرف المعروف .

٤ لم يصبني غيث معروفك كأني كنت في الطرف الذي ينقطع عنده المطر .

٥ أي يشير الي الناس بأيديهم ويقولون « محروم » من الحظ . وقد شبه كثرة المشيرين اليه بأيدي الناس يوم رمي الحجارة بمنى (في الحج) .

فمَشَّ في غِبْطَةِ ونعيمِ بالِ وملك لا يخاف يد اغتصابِ
ومنها :

وليس لأنني سُدَّتْ سبيلي ولا عَجَزَ اصْطِرَافِي واصْطِحَايِ
تعالَتْ هَضْبَتِي عن كل سِيلٍ وفاتَتْ نَبْعَتِي نَضْخَ الذَّنَابِ^١
فليس ينالني إلا مِثْلٌ يُطَلُّ عَلَيَّ إِطْلَالَ السَّحَابِ
ولو اني قَطَعْتُ الارضَ طَوْلًا لَكَانَ اليك من بعدُ انْقِلَابِي

وقال مادحاً علي بن المنجم

شاب رأسي ولات حين مشيبِ وعجيبُ الزَّمانِ غيرِ عجيبِ
قد يَشِيبُ الفتى وليس عجيباً ان يَرى النُّورَ في القُضيبِ الرطيبِ
سَاءَ مَا ان رأت حبيباً اليها ضاحكُ الرَّأسِ عند مفارقِ شيبِ
فدعته الى الخُضَابِ وقالت ان دفن المَعِيبِ غير مَعِيبِ
خضبت رأسه فبات بتبريحِ واضحى فظُلَّ في تَأْنِيْبِ
ليس ينفكَّ من ملامة زارِ قائلٍ بعد نظرتي مستريبِ
ضِلَّةٌ ضَلَّةٌ لِمَنْ وعظته عاجزِ واهنِ القوى يتعاطى
رام اعجاب كل بيضاء خودِ صِبْغَةُ اللهِ في قناعِ المشيبِ^٢
فتضاحكن هازئات وماذا بسواد الخُضَابِ ذي التعجيبِ
يا حليف الخُضَابِ لا تخدع النفسَ فما انت للصَّبَا بنسبِ
فاتخذهُ على الشبابِ حداً وابكِ فيه بعبرةٍ ونحيبِ^٣

* * *

١ اقصدك لا لأنه قد سدَّتْ في وجهي سبل الرزق فاني كريم النفس اتعالى عن الاسافل ، وقد عبر عن ذلك بقوله (تعالت هضبتي عن السيول ونبعتي عن رش الدلاء) .

٢ اي ضعيف يتناول الصبغة يستر بها مشيبه مظهراً انها اللون الطبيعي الذي خلقه الله .

٣ جليب اي مجلوب مصطنع .

وقتاة رأت خضابي وقالت
 خاضبُ الشيب في بياض مبين
 ليس تنقاد عادةً لهواه
 ظلمتني الخطوبُ حتى كآني
 سلبتني سواد رأسي ولكن
 عوضتني اخا المعالي علياً
 يستغيث اللهيفُ منه بمدعوٍ
 يتلقى المدفعين عن الابواب
 بالبشر منه والترحيب
 غربته الخلائق الزهر في الناس
 ما سعى والسعاة للمجد الا
 من رآه رأى شواهد تُغني
 لوذعي له فؤاد ذكي
 يقظ في الهنات ذو حركات
 ألمعي يرى باول ظن
 ثابت الحال في الزلازل منهل
 لسؤاله انهيال الكتيب
 لين عطفه فان ريم منه
 احسنت وصفه مساعيه حق
 يمتعه بنا المطايا فافضت
 بأبي انت من جليل مهيب
 اعجز الطالبيك شأو بعيد
 هاكها مدحة تغنى بها الركبان
 ما ارزمت روائهم نيب

١ الجنيب ما يقاد من الركاب .

٢ اي ما سعى هو وواحد الى المجد الا وسبق بتقريبه جري منافسه السريع .

٣ اي انه لدى الخطوب يقظ تتحرك همه بما يسكن اضطراب القلوب .

٤ اي ما حنت النياق الى اولادها .

نظم الفكر درّها غير مثقو بـ اذا الدرّ شينَ بالتثقيبِ
يطرب السامعين ايسر ما فيها وان أنشدت بلا تطريب
منك جاءت اليك يحدو بها الودّ على رغبة بلا ترغيب

رثاء ابنه الاوسط

بكاءوكا ^١ يشفي وان كان لا يحدي	فجودا فقد اودى نظيركا عندي
ألا قاتل الله المنايا ورميها	من القوم حبّات القلوب على عمد
توخى حيام الموت اوسط صبيتي	قلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته	وآنست من افعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فاضحى مزاره	بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها	واخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قلّ بين المهد واللحد لبثه	فلم ينس عهد المهد إذ ضمّ في اللحد ^٢
الحّ عليه النزف حتى احواله	الى صُفرة الجاديّ عن حمرة الورد ^٣
وظلّ على الايدي تساقط نفسه	ويذوي كما يذوي القضيبي من الرند
فيا لك من نفسٍ تساقط انفسا ^٤	تساقط درّ من نظام بلا عقد

* * *

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له	ولو أنّته أقسى من الحجر الصلد
وما سرّني ان بعته بثوابه	ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعاً ، ولكن غُصْبته	وليس على ظلم الحوادث من مُعد

* * *

واني وان مُتّعت بابنيّ بعده لذاكره ما حنّنت النيبُ في نجد^٥

١ يخاطب عينيه .

٢ اي انه مات صغيراً .

٣ كثر عليه نزف الدم حتى احوال لونه الوردى الى اصفرار الزعفران .

٤ فيا لك من نفس تذوي فتذوي معها نفوس كثيرة .

٥ النيب النياق . اي وان كان لي باخويه سلوة فاني سأذكره دائماً وسأتوجع لذكراه .

واولادنا مثل الجوارح^١، أيتها فقدناه كان الفاجعَ البيّنَ الفقدِ
لكلّ مكانٍ لا يسدّ اختلاله مكانُ أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالت بي الحال بعده

فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
شكلتُ سروري كله اذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي اخا زهد
* * *

أريحانة العينين والانف والحشا
ألا ليت شعري هل تغيّرتَ عن عهدي ؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به

وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي
أعينيّ جودالي، فقد جدت للثرى بأنفسٍ مما تُسألان من الرفد^٢
كأنّي ما استمتعت منك بضمة ولا شمة في ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدي عليك من الأسى واني لأخفي منه أضعاف ما أبدي
* * *

محمدُ ما شيءٌ تُؤوّههم سلوة لقلبي^٣، الا زاد قلبي من الوجد
أرى اخويك الباقيين كليهما يكونان للاحزان اورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيها لي سلوة بل حرارة يهبجانها دوني وأشقى بها وحدي
وانت وان أفردت في دار وحشة فاني بدار الأنس في وحشة الفرد
عليك سلام الله مني تحية ومن كل غيث صادق البرق والرعد

١ الجوارح اعضاء الجسم .

٢ الرفد العطاء .

٣ في هذه الابيات وما بعدها يقول يا محمد ما من شيء يحسبونه سلوة إلا ويزيدني حزناً على
حزن . انظر الى اخويك الباقيين فاذكرك في كل من حركاتها ويشد لذلك اضطرام الاسى
في نفسي فأنت وان كنت وحيداً في القبر فاني بين الناس وحيد بآلامي .

من رثائه لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي^١

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى ، مستقيم واعوج^٢
 ألا أيتها الناس طال ضريركم بآل رسول الله فاخشوا أو ارجوا
 أكل^٣ أوان للنبي محمد قتيل زكي^٤ بالدماء مضرّج^٥

* * *

بني المصطفى كم يأكل الناس شيلوكم
 لبواكم - عما قليل - مفرّج
 أما فيهم راع لحق نبيّه ؟ ولا خائف من ربه يتحرّج
 أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرج^٣
 لنا وعلينا ، لا عليه ولا له تسحسح اسراب الدموع وتنسج
 وكنا نرجيه لكشف عاية بأمثاله أمثالها تلبّج

* * *

أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
 لمن تستجدّ الارض بعمدك زينة^٤ فتصبح في أثوابها تتبرّج
 سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سجّج^٥
 ولا برج القاع الذي انت جاره يرفّ عليه الاقحوان المفلّج^٥
 ويا أسفي ألا ترّد تحيّة سوى أرج من طيب رمسك يارج
 عفاه على دار ظعنت لغيرها فليس بها للصالحين معرّج

* * *

ألا أيها المستبشرون بيومه اظلمت عليكم نعمة لا تفرّج

-
- ١ وهو حفيد حفيد الامام علي وكان قد قام طي العباسيين فقتلوه . وفي هذه القصيدة يظهر
 تشيع الشاعر لآل البيت .
 ٢ إشارة الى ان القتيل من بيت الرسول .
 ٣ تسرج تحسن طلعتها .
 ٤ سجّج اي لا حرقه ولا قر .
 ٥ اي لا برج مدفنه يتألق عليه الاقحوان .

أكلتكم امسى اطمأن مهاده بأن رسول الله في القبر مزعج^١ !
 كآني به كالليث يحمي عرينه واشباله لا يزدهيه المهجمج^٢
 كدأب عليّ في المواطن قبله ابي حسن والغصن من حيث يخرج^٣
 كآني أراه - والرماح تنوشه شوارع كالأشطان تدلى وتخلج^٤
 كآني أراه إذ هوى عن جواده وعفّر بالترب الجبين المشجج
 فحُبّ به جسمًا الى الارض اذ هوى

وحُبّ بها روحًا الى الله تعرج
 اجنّوا بني العباس من شئنا نكم وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا^٥
 واخلّوا ولاية السوء منكم وغيتهم فأحررهم ان يفرقوا حيث لجّجوا
 نظار لكم ان يرجع الحق راجع الى أهله يوماً فلتشجوا كما شجوا
 * * *

بني مُصعب^٥ ! ما للنبي وأهله عدوّ، سواكم أفصحوا، وقلججوا
 واني على الاسلام منكم لحائف^٦ بوائق شتى ، بابها الآن مُرتج
 وفي الحزم ان يستدرك الناس امركم

وحبلهم^٦ مُستحکم العقد مُدمج
 لعلّ قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتُثلج
 البصرة وما حل بها يوم دخلها الزنج^٦

وذلك ٢٥٧ هـ

زاد عن مقلتي لذيذ المنام شُفْلُها عنه بالدموع السّجام

-
- ١ كآني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر
 - ٢ اي هو في شجاعته كجده الامام علي .
 - ٣ تنوشه تطلبه والأشطان الحبال . وتدلى وتخلج اي تمتد وتحرك او ترسل وتجذب .
 - ٤ استروا يا بني العباس بفضكم وشدوا على ما في داخلكم من الحقد .
 - ٥ بنو مصعب من رجال العباسيين .
 - ٦ نشبت هذه الثورة بزعامة علي بن محمد احد المدعين للنسب العباسي وكان قيامه في ايام المكتفي فتفاقم امره واكتسح البصرة وما اليها ولم يتمكن العباسيون ان يخضعوه إلا بعد مشقة طويلة.

اي نوم من بعد ما حلّ بالبصرة ، ما حلّ من هنات عظام
اي نوم من بعد ما انتهك الزنج جهاراً محارم الاسلام
ان هذا من الامور لأمر كاد ان لا يقوم في الأوهام

* * *

هف نفسي عليك ايتها البصرة ، هفاً كمثّل لتهب الضرام
هف نفسي عليك يا قبّة الاسلام هفاً يطول منه غرامي
هف نفسي عليك يا فرضة البلد دان هفاً يبقى على الاعوام
هف نفسي لجمعك المتفاني هف نفسي لعزك المستضام

* * *

بيناً أهلها بأحسن حال اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللب ل إذا راح مدّهم الظلام
أيّ هول رأوا بهم أيّ هول! حقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من عين وشمال - من خلفهم وأمام
كم اغصّوا من شارب بشراب كم اغصّوا من طاعم بطعام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام
ما تذكّرت ما أتى الزنج الا أضرم القلب ايّما اضرام

* * *

عرجاً صاحبيّ بالبصرة الزهراء تعريج مُدَنَّف ذي سقام
فاسألاها - ولا جواب لديها لسؤال - ومن لها بالكلام ؟
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟
اين فُلك فيها ، وفلك اليها ، منشآت في البحر كالاعلام ؟
اين تلك القصور والدور فيها أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بُدلت قلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن تراب ركام
وخلت من حلولها . فهي قفر ، لا ترى العين بين تلك الإكام

١ إشارة الى انها كانت فرضة عظيمة .

غيرَ أيدي وارجلي بائناتٍ نبذت بينهنّ أفلاق هامـ
 ووجوهٍ قد رَمَلَتْها دماءُ بأبي تلکم الوجوه الدوامي
 وطئت بالهوان والذل قسراً بعد طول التبجيل والإعظام
 فتراها تَسْفِي الرياحُ عليها جارياتٍ بهبوةٍ وقتام
 خاشعاتٍ ، كأنها باكياتُ باديات الثغور ، لا لابتسام

* * *

أيّ خطب ، وأي رزمٍ جليل نالنا في أولئك الاعمام
 واحيائي منهم - اذا ما التقينا وهم ، عند حاكم الحكّام^١
 أي عذر لنا ، واي جواب حين ندعى على رؤوس الانام
 يا عبادي ؟ أما غضبتُم لوجهي ذي الجلال العظيم والاکرام
 أخذتُم إخوانکم ، وقعدتُم عنهم - ويحكم - قعود اللثام ؟^٢

* * *

بأبي تلکم العظام عظاما وسقتها السماء صوب الغمامـ
 وعليها من المليك صلاةٌ وسلام مؤكّد بسلام
 انفروا ايها الکرام خفافاً وثقالاً الى العبيد الطغام
 أبرموا امرهم ، وانتم نيام ، سوءةٌ سوءةٌ لنوم النيام^٣
 صدّقوا ظنّ اخوة امّلوکم ورجوكم لنوبة الايام
 ادركوا نارهم ، فذاك لديهم مثل ردّ الارواح في الاجسام
 لم تقرّوا العيون منهم بنصر فاقروا عيونهم بانتقام
 انقدوا سببهم - وقلّ لهم ذا ك - حفاظاً ورعيّةً للذمام
 عارهم لازمٌ لکم ، ايها النّا س لأن الاديان كالارحام

١ اي يوم الحساب امام الله .

٢ هذا البيت وما قبله خطاب من الله للمسلمين ثم يعود الشاعر في كل الابيات التالية يحرضهم على مساعدة اهل البصرة والانتقام لهم من عدوهم .

٣ قضوا امرهم وانتم في غفلة عنهم .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام
بادروه قبل الرويّة بالعزم ، وقبل الإسراج بالإلجام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد ، فأنتم في غير دار مقام
فاشترؤا الباقيات بالعرض الآذنى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

عتابه لابي القاسم التوزي الشطرنجي

يا أخى أين ربيعُ ذاك اللقاء؟ أين ما كان بيننا من صفاء؟
أين مصداق شاهدٍ كان يحكى أنك المخلص الصحيح الاخاء
كشفت منك حاجتي هَنَسَواتٍ غُطَّيت برهة بحسن اللقاء
تركتني - ولم أكن سيئ الظن - أسىء الظنون بالأصدقاء^١

* * *

يا أخى ! هبك لم تهب لي من سمك . حفظاً كسائر البخلاء
أفلا كان منك ردّ جميل فيه للنفس راحة من عناء؟
يا أبا القاسم الذي كنت ارجو هـ لدهري قطعت متن الرجاء
لا اجازيك عن غرورك ايّا ي غروراً - وقيت سوء الجزاء
أنت عيني وليس من حقّ عيني غَضٌّ اجفانها على الإقضاء
ما بأمثال ما أتيت من الامر يحلّ الفتى ذرى العلياء
لا ، ولا يكسب المحامد في النا س ولا يشتري جميل الثناء
ليس مَنْ حلّ بالهلّ الذي اند ت به من سباحة ووفاء
بذل الوعد للأخلاء سمحاً وابى بعد ذاك بذل الغناء
فغدا كالحلاف^٢ يورق للعين ن ويأبى الإثمار كل الإباء
يا أخى ! يا أخا الدماعة والرقّة والظرف والحجا والدهاء

١ أي ان حاجتي اليك كشفت لي فيك عن سيئات جعلتني بمدما أسىء الظن بالأصدقاء .

٢ نوع من شجر الصفصاف .

ربما هالني وحيّر عقلي اخذك اللاعبين بالبأساء
عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ اخفى من مستسير الهباء
بل من السرّ في ضمير محبّ أدبته عقوبة الافشاء
غلط الناس لست تلعب بالشرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدبّ في القوم اخفى من دبيب الغذاء في الاعضاء
أو مسير القضاء في ظلّم الـ غيب الى من يريده بالتواء
أو سرّ الشيب تحت ليل شباب مستحير في لمّة سحباء
دبّ فيها لها ومنها اليها فاكتست لون رثّة شمطاء

* * *

ضلّة لا مرمى يشمر في الجمع لعيش مشمر للفناء
دائباً يكتنز القناطير للوا رث ، والعمر دائب في انقضاء
يحسب الحظّ كلّ في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعم له حظّ ، وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقيّ ، وإن كان يرى انه من السعداء
حسب ذي إربة ورأي جليّ نظرت عينه بلا غلواء
صحة الدين والجوارح والعير ض وإحراز مُسكة الحوباء

* * *

يا أبا القاسم الذي ليس يخفى عنه مكنون خُطة عوصاء
أترى كل ما ذكرتُ جليّاً وسواء من غامض الانحاء
ثم يخفى عليك اني صديق ربّما عزّ مثله بالغلاء ؟
لا لعمر الإله ! لكن تعايش بصيراً في ليلة قمراء
بل تعاميت ، غير اعمى عن الحقّ نهراً في ضحوة غراء
ظالماً لي مع الزمان الذي ابتز حقوق الكرام للتّؤماء

١ اي حسبه صحة الدين وان يحوّز ما يحفظ النفس .

ثقلت حاجتي عليك فأضحت وهي عبءٌ من فادح الأعباءِ

* * *

ظلمت حاجتي فلاذت بحقوقك فاسلمتها لكفّ القضاء^١
وقضاءُ الإله احوطٌ لنا س من الامتهات والآباء
غير ان اليقين اضحى مريضاً مريضاً باطناً شديد الخفاء

* * *

كنت مستوحشاً فظهرت بنحساً زادني وحشة من الخلطاء^٢
وعزيز عليّ عضّيك باللوم م ، ولكن أصبت صدري بداء
أنت أدويت صدر خلّك فاعذر ه على النفث ، انه كالدواء^٣
ان تكن لفحة اصابتك من عذ لي ، فعمّا قدحت في الاحشاء
والذي اطلق اللسان فعاتبك تذكّ عديك أولّ الفهاء^٤
لم أخف منك غلطة حين عاتبك تذكّ تدعو العتاب باسم الهجاء
وانا المرء لا أسوم عتابي صاحباً غير صفوة الاصفياء
ذا الحجا منهم وذا الحلم والعلم - وجهل ملامة الجهلاء
ان من لام جاهلاً لطبيب يتعاطى علاج داء عيّا
لست ممن يظلل يربع باللوم على منزل خلاء قواء

في وحيد المغنية

وكان الشاعر يستحسنها ويستحسن غناءها

يا خليلي تيمّنتني وحيدٌ ففؤادي بها مفتى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد

١ ظلمت حاجتي فتعلقت بك ولكنك نبذتها وتركتها للقضاء .

٢ كنت انا مستوحشاً من الناس فأظهرت لي من بنحس حقي ما زادني نفوراً منهم .

٣ أدويت اي امرضت .

٤ والذي أطلق لساني بعتابك اني اعدك أفهم الفهاء .

وزهاها من فرعها ومن الخدين
فهيَ بَرْدٌ بَخْدَها وسلام
ما لما تصطليه من وجنتيها
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ
وغريرٍ بحسنها قال : صفها
يسهلُ القول إنها احسن الاشـ
تتجلى للناظرين اليها
ظبية تسكن القلوب وترعا
تتغنى كأنها لا تغنى
لا تراها - هناك - تجحظ عينٌ
من مدورٍ وليس فيه انقطاع
مدّة في شأو صوتها نفسٌ كا
وأرقّ الدلال والغنج منه
فتراه يموت طوراً ويحيى
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من النفـ
في هوى مثلها يخفّ حلیمٌ
ما تعاطى القلوب إلا اصابـ
وترُ العزفِ في يديها مضامـ
عيبها أنها - إذا غنّت الاحرارَ - ظلّوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبهم من هواها بـرقاها ، وما لديهم مزيد

* * *

وحسانٍ عرضنَ لي ، قلت : مهلاً
عن وحيدٍ ، فحقّقها التوحيد

١ ان مثل ذلك الرضاب يطفئ نار الوجد لولا المنع . والتصريد التقليل .

٢ الغرير المغرور .

٣ لا تراها تتكلف وتجهّد نفسها حتى تجحظ عيناها وتمتلىء أوردتها فتلتفخ .

حسنها في العيون حسنٌ جديد فلها في القلوب حب جديد

* * *

خُلقت فتنةٌ ، غِناءٌ وحسناً ما لها فيها جميعاً نديد
فهي نعمي ، يمد منها كبير وهي بلوى ، يشيب منها وليد
لي - حيث انصرفت منها - رفيق من هواها وحيث حلت قميد
عن يميني ، وعن شمالي ، وقدّا مي ، وخلفي ، فأين عنه أحميد ؟

بعض مقطعاته الحكمية

١

في الناس

عدوك من صديقك مستفاد	فلا تستكثرن من الصعاب
فإن الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غداً عدواً	مُبِيناً ، والامور الى انقلاب
ولو كان الكثير يَطيب كانت	مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلماً استكثرت الا	سقطت على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثير	يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمُرويات	وتلقى الري في النُطَف العذاب

٢

في الحياة

ان السعيد لمدرِكْ دَرَكَا	وأخو الشقاوة فهو في الدَرَكِ
والشرّ بين الناس مشترك	والخير فيهم غير مشترك
وإلى الحمود مآل ذي لب	وإلى السكون متعار ذي حرك

١ ان لجج البحر مع كثرتها لا تروي وتلقى الري في القليل من المياه العذبة .

وغدا الرجال - على مكائهم - يقبّادرون مطارح الشّبك
والعين تبصر ابن حبّتها لكنها تعمى عن الشّرك

٣

في نفع الشدائد

عرفتُ مقادير الرجال بنكبة أفدتُ بها غنماً وان عُدّ مغرماً
كفاني لعمري أيها الناس خبرتي بكم بعد جهلي واغتراري مغناً
ألا طال ما حملت قلبي ظالماً تكاليف من إعظام من ليس مُعظماً
فقد حطّتها عني الاله بمحنة أراني بها رشدي ، وما زال منعماً

٤

في قصر العمر

دهر يشيع سبته احده متتابع ، ما ينقضي امدّه
والحال من سعد يساعداً طوراً ، ونحس معقب نكده
يوم يُبكيّنا وآونة يوم يبكيّنا عليه غده
نبكي على زمن ومن زمن فبكاؤنا موصولة مُدّده
ونرى مكارهنا مغلّدة ، والعمر يذهب فانياً عدّده
أفلا سبيل إلى تبجحنا في سرمد لا ينقضي أبده
سكري شباب لا يعاقبه هَرَمٌ ، وعيش دائم رغده
لا خير في عيش تسخوّتنا أوقاته وتقولنا مُدّده
يُعطي الفتى الايام ينفقها وقصاصها ان يُقتوى جَلّده

٥

القناعة بالصحة

إذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخلُ من قوت يحل ويغرب

فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب

٦

انما المرء بنفسه

وما الحسب الموروث لا درء دره بمحتسب الا بآخر مكتسب
إذا العود لم يثمر - وان كان شعبة من المثمرات - اعتده الناس في الخطب
وانت لعمرى شعبة من ذوي العلا فلا ترض ان تعتد من أوضع الشعب
وللمجد قوم ساوروه بانفس كرام ولم يرضوا بأمر ولا بأب
فلا تتكل الا على ما فعلته ولا تحسبن المجد يورث بالنسب
فليس يسود المرء الا بنفسه وان عد آباء كراماً ذوي حسب

٧

حب الوطن

وحبب اوطان الرجال اليهم ما رب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبي فيها فحنثوا لذلك

١ إذا الفصن لم يثمر عده الناس خطباً ولو كان أصله من شجرة مثمرة .

المتني

ابو الطيب احمد بن حسين

٥٣٥٤ - ٥٣٠٣

٩١٦ م - ٩٦٦ م



مصادر دراسته - نشأته - في حلقة سيف الدولة - في
بلاط مصر - بين العراق وبلاد فارس - مزاياه
الخلقية - عصبية - شهرته الأدبية -
شخصيته في شعره - أطوار شعره

مصادر دراسته

الوساطة للجرجاني
الفهرست (ليدن) ١٦٩
يقيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٧٨ - ١٩٤
العمدة لابن رشيقي ١ ص ٨٧ - ١٣٣ - ١٤٦ ومواضع شتى
نزهة الالباء للانباري ٣٦٦
وفيات الاعيان ١ - ٦٢ والرسالة الحاقية فيه (في سيرة الحاتمي)
مفتاح السعادة (لطاش كبيري زاده) طبع الهند ج ١ ص ١٩٢
الصبح المنبي للبديعي الدمشقي على هامش شرح العكبري
خزانة الادب للبغدادي (مصر ١٢٩٩) ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٩
ومن الشروح شرح الواحدي والعكبري واليازجي والبرقوقي .

وبما كتب فيه حديثا :

رسالة ابراهيم اليازجي في ذيل شرحه للمتنبي
ابو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي
حصار الهشيم للمازني ١٨٤ - ٢٢٧
المتنبي لشفيق جبيري ، مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ج ٥ - ١٢
ذكرى ابي الطيب لعبد الوهاب عزام
مع المتنبي لطف حسين
الانس المفيد ٣٣٠ - ٣٦٣
المقتطف مج ١٧ - ٣٦١
العدد الخاص بيوبيله الالفى من مجلات المقتطف ، والهلل ، والحديث
والعصبة ، غير ما كتب في كتب التاريخ أو دوائر المعارف لكتّاب عرب
ومستشرقين .

نشأته الأولى

لم يكد يفتصف القرن الرابع الهجري حق كانت الدولة العباسية تتنازعها عوامل الانحلال . فكانت دار الخلافة في بغداد بين مولد المتنبي ووفاته ، أي أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع تحت نفوذ بني بويه أصحاب السيادة في فارس . وكانت حلب والموصل وما اليها في يد بني حمدان ، ومصر وأكثر الشام والحجاز في يد بني طنج ، وسائر الاقطار لفسيرهم من الامراء المستقلين . ولم يبق للخلافة من رونق ، وكثر الادعاء والثائرون حتى عمت الفوضى السياسية . بين هذه الاضطرابات السياسية القومية نشأ شاعرنا ، وكان مولده في مدينة الكوفة بالعراق ، وفيها نشأ نشأته الأولى . وكان يتردد بين البادية والحضر^١ ، فاكسب من الأولى صلابتها ونزعها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها الأدبية . ولا نعلم عن صباه كثيراً ، ولكن الثعالبي الذي ولد قبل وفاة المتنبي بأربع سنوات - والذي درّس في كتابه الشهير « يتيمة الدهر » أخبار شعراء عصره ومن تقدمهم قليلاً - ذكر ان أباه سلّمه إلى المكاتب وردّده في القبائل ، وانه توفي وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع^٢ . ونقل البغدادي عن أبي القاسم الاصفهاني انه كان يختلف إلى كتّاب فيه أولاد اشراف الكوفة فكان يتعلّم دروس العلوية لغة وشعراً واعراباً الخ^٣ . ويذكر البديعي الدمشقي في الصبح المنبي انه تعلم القراءة والكتابة وانه أخذ أكثر علمه من ملازمة الورّاقين^٤ (باعة الكتب) . وفي مقدمة شرح

١ اليتيمة ج ١ - ٧٨ .

٢ اليتيمة ج ١ - ٧٩ .

٣ خزائن الادب ١ - ٣٨٢ .

٤ الصحيح المتنبي (حل هامش المكبري ١ - ٦) .

اليازجي للديوان انه لقي كثيرين من اكابر علماء الادب منهم الزجّاج وابن السراج والاخفش وابن دريد وأبو علي الفارسي وغيرهم ، وتخرج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر . فيستدل من هذا ان شاعرنا تعلّم القراءة في المكاتب على عادة الصبيان ، وكان ذكياً محباً للاستزادة فلازم الورّاقين يطالع دفاترهم وحضر حلقات العلماء في زمانه .

وهناك أمر آخر نعلمه عن صباه ، وهو تردّده الى بادية السماوة واقامته زمناً بين اعرابها . ويستنتج من مختلف الروايات ان تردّده كان أولاً إلى بادية الكوفة ، ثم انتقل وهو حوالى السابعة عشرة من عمره إلى بلاد الشام . وفي هذا الطور من حياته شيء من الغموض إذ لا نراه مستقرّاً في مكان خاص ، فتارة في المدن ، وطوراً بين قبائل البادية ، يمدح بعضاً من ذوي النفوذ ، ولكنه لا يجد في مدحهم ما يروي ظمأ نفسه النزاعة إلى العلى .

وهكذا يعبس له الدهر فيشبّ ناقماً ثائراً . ويتاح له ان يتصل في البادية بقبائل بني كلب ، ويدرك نزعاتهم إلى التمرد ، فيتمكن ببلاغته وحاسة الشباب فيه من تحريكهم تحريكاً يلفت نظر الحكّام ، فيقبض عليه بأمر من والي حمص ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة . ولم تتحقق كم بقي فيه تماماً ، ولكننا نستنتج انه بقي فيه مدة غير يسيرة (نحو سنتين) . وكان أول دخوله السجن يظهر الاستخفاف بأهواله — ومن أقواله في ذلك الحين أبيات كتبها إلى صديق له يدعى أبادلف كان يتعهده وهو في السجن^١ :

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطّنتُ للموت نفس معترفٍ
لو كان سكناي فيك منقصةً لم يكن الدرّ ساكن الصدفِ
على انه لقي في السجن عذاباً شديداً ، فقد وضعوا القيود في رجليه

١ شرح الواحدي (برلين) ٨٠ .

وعنقه^١ . ولما طال اعتقاله فقد صبره فأرسل إلى الوالي قصيدة يستعطفه ويتعذر إليه بصغر سنه قال منها :

امالك رقتي ومن شأنه	هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء	وأومن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيها في النعال	فقد صار مشيها في القيود
تُعجل في وجوب الحدود	وحدتي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين	بين ولادي وبين العقود
فما لك تقبل زور الكلام	وقدر الشهادة قدر الشهود

وهذه الابيات نفثات رجل متضايق نفذ صبره وخاف مغبة الامر ثم راح يستثير عواطف الوالي ورحمته فقال :

بيدي أيها الأمير الاريب لا شيء الا لاني غريب
أو لأم لها إذا ذكرتني دم قلب بدمع عين يذوب
ان اكن قبل ان رأيتك اخطأت فاني على يدك أتوب

قال ابن خلكان : « ثم استتابه الوالي وأطلقه^٢ » . ولكن من أي شيء استتابه ؟ هنا تتضارب آراء المؤرخين . فابن خلكان يحمل ادعاء النبوة سبب سجنه وقد تبعه في ذلك كثيرون ، وهو قول يحتمل الشك . فان بين معاصري ابن خلكان أو من تقدمهم من يزعم غير ذلك بدليل قوله : « وقيل غير ذلك^٣ » . أما الثعالبي فجعل السبب انه دعا إلى بيعته قوماً من رائيي نبه ، ولما ذكر النبوة قال : « ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه^٤ » . وفي كلام الثعالبي إشعار بالشك في

١ الصبح المنى ١ - ٣٤ .

٢ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٣ » » » »

٤ البيهقي ١ - ٨٠ .

الحكاية ، وقد نقل تعزيزاً لهذا الشك ما رواه ابن جني تلميذ المتنبي وشارح ديوانه إذ قال : سمعت أبا الطيب يقول انما لقبت بالمتنبي لقولي^١ :

«أنا قرب الندى وربّ القوافي وسام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثود ،
وعن العمدة^٢ : «زعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ان
أبا الطيب سمّي متنبياً لفطنته» .

ويتناول البديعي صاحب الصبح المنبي المتوفى ١٠٧٣ هـ ، أي بعد المتنبي بأكثر من سبعة قرون ، هذه المسألة وينقل لنا بعض حكايات عن نبوته لا يسع المتأمل الا ان يتردد في قبولها على علاقتها - أولاً - لتراخي المدة بينه وبين الشاعر ، وثانياً لما فيها من الاضطراب ، وثالثاً لانه ليس في ما ذكره معاصروه ما يثبتها . والذي يصح ان نستنتجه علمياً من الروايات المختلفة ان المتنبي وهو في أوائل شبابه ظهر في البادية على رأس فئة من الاعراب ناقمة على اولى الأمر^٣ ، وانه كان بفطنته وفصاحته يستهويهم الى غاياته من حب الظهور والرئاسة . ولكن أمره لم يتم فألقي القبض عليه وأودع السجن ثم خرج منه ، وما عثم ان لصق به اسم المتنبي^٤ .

بعد السجن الى اتصاله بسيف الدولة (٣٢٣ - ٣٣٧ هـ)

ولما أطلق سراحه أخذ يحول في أقطار البلاد الشامية مادحاً أعيانها . بقي

١ اليقظة ١ - ٨٠ وشرح المكبري ٢٠١ ج ١ .

٢ العمدة ١ - ٤٥ .

٣ راجع الواحدي ٨٣ وتعليقه على عمره واجتماع العصاة اليه .

٤ فلفت النظر هنا إلى رأي المستشرق بلاشير الذي يرى ان اولى الامر توهموا ان لقيامه في بني كلب علاقة بحركة القرامطة (راجع دائرة المعارف الاسلامية - تحت المتنبي) .

وتحقيق الاستاذ محمود شاكر أخذاً برواية الانباري ٣٦٩ ان المتنبي لم يدع النبوة بل ادعى النسب العلوي وانه لأجل ذلك حبس ثم استتيب (المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ٤٩) .

على هذه الحال بضع سنوات^١ ، حتى اتصل سنة ٣٢٨ بالأمير العربي بدر بن عمار وكان يتولى الجيش في طبريا ، فلزمه ومدحه ، وقد رأى فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة ومجد قومي . ولكن اتصاله به لم يطل^٢ ، فقد دخلت بينها مكائد الحساد والمناوئين حتى اضطر إلى تركه والرجوع إلى ما كان عليه من التنقل في الاقطار . وله في هذه المدة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه وأهم ممدوحيه فيها :

بدر بن عمار ٦ قصائد . آل اسحق التنوخي ٧ . ابناء يحيى البحري ٣ قصائد . عبد الله بن خلكان ٢ . شجاع الطائي ٢ . مساور الرومي ٢ . المقيث المعجلي ٢ . علي بن محمد التميمي ٢ . الأمير محمد بن طفج وأبو المشائر الحمداني ٦ ونحو ٢٥ ممدوحاً قصيدة قصيدة .

وشعره في بعض هؤلاء من الطبقة الأولى - كقصائده التالية :

في الخد ان عزم الخليط رحيلاً
بقائي شاء ليس هم ارتحالاً
لا افتخار الا لمن لا يضام
افاضل الناس اغراض لذا الزمن
لك يا منازل في القلوب منازل
اطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
بأبي الشموس الجانحات غوارباً

وغير ذلك من القصائد العامرة التي يرددها الخاص والعام في كل مكان . على انه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر . وما زال هذا دأبه يتنقل من مكان إلى آخر حتى القته المقادير إلى انطاكية . وكان فيها أبو المشائر الحمداني والياً من قبل سيف الدولة ، فمدحه المتنبي . ولحسن حظه قدم انطاكية في تلك الاثناء سيف الدولة ، فقدم أبو المشائر المتنبي

١ زار في أثناءها الكوفة وبقي فيها مدة بقرب جدته .

٢ لعله لم يكن أكثر من سلتين إلى ثلاث .

اليه وأثنى عليه ، وكان ذلك بدء اتصاله بهذا الأمير الشهير ، وبدء
سعادته من جاء ومال وفير .

في حلقة سيف الدولة (٣٣٧ - ٣٤٦ هـ)

كانت حلب أيام المتنبي عاصمة لامارة عربية تشمل الجزيرة وشمال
سوريا ، أميرها علي بن حمدان الملقب بسيف الدولة . وقد اشتهر هذا
الأمير بجهاده في محاربة الروم حتى بلغت غزواته نحو اربعين^١ . وكانت
ساحة جهاده منطقة الثغور - أي المدن والحصون الواقعة على حدود الروم
(الاناضول) ، ومنها انطاكية وزبّطره وملطيه والحدث وخرشنة ومرعش
وغيرها ، مما يرد ذكره كثيراً في شعر المتنبي . ولم يكن سيف الدولة موفقاً
في كل غزواته الرومية ، ولكنه احرز في تاريخ العرب مجد المجاهد الكبير .
والذي يلفت النظر تنازع امراء المسلمين أنفسهم يومئذ وتناحرهم على السيادة .
فبنو حمدان في حلب ، وامراء مصر الاخشيدية ، وبنو بويه في بغداد
كانوا في نزاع مستمر وعداوة مستحكمة . وقد تمكن سيف الدولة بسخائه
وعطفه على الادب ولكون امارته موئل الروح العربية في ذلك العصر ، ان يجمع
حوله حلقة من كبار الادباء والعلماء ممن كان يحزل لهم العطايا ، فخلدوا
اسمه في سماء الادب . ومن هؤلاء ابن عمه ابو فراس ، ومعلمه ابن
خالويه ، وابو الفرج البغفاء ، وابو عبد الله الخليل ، والوأواء الدمشقي ،
وابو بكر وابو عثمان الخالديان ، وابو الطيّب اللغوي ، والسري الرفاء ،
وابو علي الفارسي ، وابن نباتة ، ثم ابو الطيب المتنبي ، والصنوبري ،
والفارابي ، والاصفهاني صاحب الاغاني وأمثالهم .

ولما اتصل به شاعرنا نال الحظوة عنده والرعاية الخاصة : جاء في الصباح
المنبي ان سيف الدولة قرّبه وأجازه الجوائز السنية ، ومالت نفسه اليه

١ اليقظة ١ - ١٧ .

وأحبه ، فسلمه للرواض فعملوه الفروسية والطراد والمثاقفة ^١ وقد صعب
المتنبي أميره في بعض غزواته وأظهر من الفروسية والشجاعة ما يذكر
له : رروا انه في احدى تلك الغزوات تراجع الجيش ولم يثبت غير
سيف الدولة وستة رجال أحدهم المتنبي ^٢ . وقد يشك في هذه الرواية
ولكن مما لا شك فيه ان شعره يفيض بروح الشجاعة والاقدام ، ولا
نرى في حياته ما يناقض ذلك .

* * *

دخل المتنبي حلقة سيف الدولة ، وفيها من ذكرنا من كبار الشعراء
والادباء ، فشق على نفر منهم ان ينال ما ناله من الامير ، وزاد غيرتهم
منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم . وانك لتلمح في شعره
ما كان يقاسيه منهم ، وقد اضطر ان يطعنهم بقوافيه كقوله :

ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا
وقوله :

اني كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
وقوله :

بأي لفظ تقول الشعر زِعنفة تجوز عندك لا عُرْب ولا عجم
الى غير ذلك من سمات التحقير التي قلما تخلو منها قصيدة من قصائده
في سيف الدولة . ولم يكن حساده ليسكتوا عنه ، فاخذوا يكيّدون له
ويحاولون الايقاع به ، ولا سيما ابو فراس الشاعر المشهور ^٣ . فمن ذلك
ما نقله البديعي عن ابن الدهان في المآخذ الكندية : « قال ابو فراس
لسيف الدولة ان هذا الملتسمي كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه في كل
سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثة قصائد ، ويمكن ان تفرّق مثني دينار

١ راجع الصبح المتنبي ١ - ٥٤ .

٢ راجع الصبح المتنبي ١ - ٥٥ .

٣ يرى الاستاذ محمود شاكر ان المتنبي كان يحب خولة أخت سيف الدولة وان سيف الدولة وعده
مراً بها فاتصل ذلك بعلم ابي فراس وكان سبباً في العداوة بين الرجلين ، المقتطف مج ٨٨

ج ١ ص ١٣٤ .

على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره^١ ، (وفي خزانة الادب
ان ما ناله في اربع سنوات بلغ ٣٥ الف دينار^٢) — فتأثر سيف الدولة
من هذا الكلام وعمل به .

فسيف الدولة بعد ان خص الشاعر بالعطف ، وبعد ان نظم الشاعر فيه نحو
٤٨ قصيدة عامرة (وهي لا تقل عن ثلث ديوانه) تولاّه انحراف عنه
وأصغى الى أقوال خصومه فيه . ولم يُجدِ الشاعر استعطافه وتنويهه بالرحيل
عنه ، فتجراًوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالمفتاح في
حضرة سيف الدولة . ورأى المتنبي انه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة
أمير نافر منه ، وخصوم يتربصون به ، فترك حلب بدعوى المسير الى
اقطاع له^٣ ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ ، وقصد الشام فالرملة . ثم
طلبه كافور الى مصر فتلكتاً أولاً ، على انه لم يلبث ان رحل اليه ونفسه تسوّل
له انه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين — وقد صرح بذلك إذ قال :

أبا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزّاً يخضب البيض بالدم
ويومئ يغيظ الحاسدين وحالة اقيم الشقا فيها مقام التنعيم
ولكنه لم يبلغ ما كان يروم .

في مصر (٣٤٦ - ٥٣٥٠)

مر معنا ان مصر كانت في يد الاخشيدية بني طفج ، وهم امراء يرجع
نسبهم الى ملوك فرغانة . ولما هبط المتنبي مصر كان أميرها الحقيقي قاصراً ،
وقيّم الملكة الاستاذ كافور ، وهو عبد اسود كان مولى لبني طفج ، ولكنه
كان — على ما يظهر — داهية ، فاستبد بامور مصر واصبح هو الأمر الناهي

١ راجع الصبح النبوي ١ - ٦٥ .

٢ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .

٣ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .

او كما قال شاعرنا فيه :

يدبّر الملك من مصر الى عدن الى العراق فارض الروم فالنثوب
قال ابن خلكان : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه
والديار المصرية وبلاد الشام » .

قصد شاعرنا كافوراً تتنازعه عاطفتان : الاولى ما كان يشعر به من
الغیظ لما أصابه في حلب ، والثانية رغبته ان يحصل بواسطة كافور على
ولاية . أما غیظه من سيف الدولة فلم يصل الى حد الكره ، إذ بقيت
في نفسه بقية من الحب والوفاء له . وقد صرّح بذلك في بعض قصائده
لكافور كقوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معتم
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي
ولذا وصف الثعالي شعره : « يجمال الرمز والاشارة كجمعه بين مدح
سيف الدولة حين فارقه ومدحه لكافور » . واما رغبته في الولاية
والامارة فكان يلتمح اليها تلميحاً لم يخف على أحد كقوله :
وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر أستجده
وقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا
وقوله :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب
إلى غير ذلك من الابيات التي تُشعر بما كان يتطالّ اليه وما كان يحدث
نفسه به .

وقد نقل البديعي انه طلب ان يوليه صيدا من بلاد الشام ، أو غيرها

١ وفيات الاحيان ٢ - ١٨٨ . راجع سيرته في خطط القريري ٢ - ٢٦ .

٢ الليثية ١ - ١٥٨ .

من بلاد الصعيد^١ .

وبين هاتين العاطفتين - الغيظ والطمع - مدح كافور بعشر قصائد
من من أفخر ما نظمه وسيأتي ذكرها .

على ان اتصاله بهذا الأمير لم ينله مراده . نعم نال منه كثيراً من
الخلع والجوائز والاموال ، ولكن الامر الذي كان يصبو اليه ، تلك
الامنية التي شغلت عقله - ولا سيما بعد ان وعده كافور بأن يبلغه جميع
ما في نفسه^٢ لم يأنس في وجه ممدوحه غير الاعراض عنها ، فاضطربت
روحه حتى صار يستثقل وجوده في مصر ويتمنى الخروج منها .

ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو أطلقه ان ينقلب عليه بالطمع ،
وهو المستبد بحكم مصر دون ملكها الحقيقي ، فمنعه من الرحيل .
وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الاخيرة في مصر لا يلقي كافوراً الا
ان يركب فيسير معه في الطريق لثلا يوحشه^٣ . وله في ذلك قصيدة
غراء يصف بها حاله ويصف حى اصابته ، مطلعها :

ملومكما يحلّ عن الملام ووقع فعالة فوق الكلام

وهي من بدائعه وسيرد ذكرها . وكان في ذلك يعدّ العدة للهرب
حتى تمكن منه يوم عرفة سنة ٥٣٥٠ هـ ، فقصده العراق ووصف مسيره
بقصيدة مطلعها :

الا كلّ ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيدبي

وفيهما يعدّ الاماكن التي مرّ بها ، ويصف شجاعته واقدامه بأبيات
تنضح بالكبر كقوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواضم اني الفتى

١ الصبح المنبي ١ - ١١٥ .

٢ الصبح المنبي ١ - ١١٣ وفيات الاهيان ١ - ٦٤ وفي العدة ١٠ - ٤٥ انه وعده
بولاية بعض أعماله .

٣ شرح اليازجي ٥٤٨ .

واني وفيتُ واني أبيت واني عتوت على من عتا
ومن يك قلبٌ كقلبي له يشقُّ الى العزِّ قلب التَّوى
ثم يختمها بهجاء كافور . وله في هجائه بضع قصائد اوحاها اليه حب
التشفي والفشل .

بين العراق وبلاد فارس - خاتمة حياته (٣٥٠ - ٣٥٤ هـ)

ترك مصر في أواخر ٣٥٠ هـ قاصداً الكوفة فوصلها في جمادى ٣٥١
وأقام فيها^١ ، ثم أمَّ بغداد . ولا نعلم متى كان ذلك بالضبط ، ولكننا
نعلم انه بقي في العراق نحو ثلاث سنوات - والارجح انه قضى منها
سنتين في الكوفة . وكانت بغداد يومئذ بيد معز الدولة البويهى ، وكان
وزيره المهلبى يأمل ان يقصده المتنبى ويمدحه اسوة بالكبراء الذين
مدحهم ، ولكن الشاعر ترفع عنه « ذهاباً لنفسه » كما قال الشعالي
« عن مدح غير الملوك^٢ » ، أو لنفوره من سخافة المهلبى واستهتاره
بالهزل^٣ . فنقم الوزير ذلك منه وحرَّض عليه شعراء بغداد حتى نالوا
منه وتباروا في هجائه وتنادروا ، فلم يحبهم ولم يفكر فيهم^٤ .
وقيل له في ذلك ، فقال : « اني فرغت من إصابتهم بقولي لمن هم
أرفع طبقة منهم في الشعراء :

أرى الملتشاعرين غُرُوا بذمتي ومن ذا يحمد الداء العُضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا
وبقولي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
قال ابن رشيق : « ان المتنبى حين بُلي بحماقات ابن حجاج البغدادي

١ الصبح المنى ١ - ١٤٤ .

٢ اليقظة ١ - ٨٥ .

٣ خزائن الادب ١ - ٣٨٦ .

٤ اليقظة ١ - ٨٥ .

سكت عنه اطرأحاً واحتقاراً ، ولو أجابة لما كان هو بحيث هو من الأنفة والكبر ، لأنه ليس من انداده ولا من طبقة ١ .

وجرت له مع ابي علي الحاتمي حادثة ذكرها ابن خلكان في سيرة الحاتمي وذكرها البديعي في الصبح المنبي ، وسيرد ذكرها في كلامنا على اخلاقه .

ولما لم يطب مقامه في بغداد فارقها ليلاً متوجهاً الى ابي الفضل ابن العميد مراغماً للوزير المهلبي ، فورد ارجان ومدح ابن العميد بأربع قصائد واحمد مورده عنده .

وكان للصاحب ابن عباد يطمع في زيارة المتنبي اياه في اصبهان ، واجرائه مجرى مقصوده من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ، ولم يكن قد استوزر بعد ، فكتب اليه يلاطفه ، لكن المتنبي لم يقم له وزناً ولم يحبه عن مراده ٢ فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطمع فيه ، وانشائه رسالة في مساوئ شعره .

وسار شاعرنا الى شيراز قاصداً عضد الدولة فتلقاه بالترحيب . ونظم المتنبي فيه ثمان قصائد ، فأجزل له العطاء ثم رجع من شيراز بثروة كبيرة تبلغ مئتي الف درهم ، ما عدا الخلع والهدايا والتحف ٣ . وفي طريقه الى الكوفة خرج عليه فاتك الأسدي في نحو عشرين من رجاله وكان مع المتنبي ابنه محسد ونفر من غلمانه وجمال تحمل أمواله وتحفه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بمقتل الشاعر وابنه وبعض أتباعه . هكذا قضى أبو الطيب . وعلى مقربة من سواد بغداد وفي رمضان من سنة ٣٥٤ هـ خدت تلك النفس التي نشأت نزاعة الى المجد ، حريصة على غرور الدنيا ، فحملت صاحبها تارة على تجشّم الاهوال والضرب في الآفاق ، وطوراً على

١ المدة ١ - ٧١ .

٢ اليقظة ١ - ٨٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٢١ .

الوقوف في أبواب الملوك والامراء طمعاً في « مفخر يستجدّه » أو جاه يناله . ولكنه آب بالفشل وترك لنا بفشله من الحكم البالغة ما لا تزال ألسنة الزمان تتردده في كل مكان .

مزاياه الخلقية

برغم ما كان يظهر في شعر المتنبي من التزلف والاستجداء ، وبرغم بعض مساوئه التي قلما يخلو منها انسان ، نرى له صفة عامة تتخلل جميع صفاته وتتجلى لنا عند التأمل في ذاته ، وأهم ظواهرها : التعاضل والطمع بالمجد مقرونين بشيء من عدم الكياسة . واليك بيان ذلك :

تعاضله او اعتداده بنفسه

لم يكن المتنبي وحيداً بين الشعراء في هذه المزية ، ولكنه بلغ منها ما لم يبلغه سواه حتى ولا ابو تمام . وفي اخباره شواهد لا تترك للشك مجالاً . منها ما يلي :

١ - انه لما اتصل بسيف الدولة اشترط عليه ان لا ينشده الا وهو قاعد وان لا يقبل الارض بين يديه^١ وقد ذكر ابن خلكان انه لما انشد قصيدته « لكل امرئ من دهره ما تعودا » قال بعض الحاضرين يريد ان يكيد : « لو انشدها قائماً لأسمع » ، فقال ابو الطيب : « اما سمعت اولها : لكل امرئ من دهره ما تعودا »^٢ .

ويظهر مما نقله البديعي : ان سيف الدولة كان حيناً يغتاظ من تعاضله ، ويحفو عليه اذا كلمه^٣ . ولعل لذلك علاقة بنجاح اعدائه في تنفير الامير منه ، كما ان لفشله في مصر علاقة بما كان يراه كافور من تعاليه

١ الصبح المنبي ١ - ٤٧ .

٢ رفيات الاعيان ١ - ٦٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٧٣ .

في شعره ١ .

٢ - سوء سياسته وعدم مداراته . فانه بعد ان كان أيام خوله يمدح القريب والبعيد ويصطاد كما قال الشعالبي « ما بين الكركي والعندليب »^٢ ، أخذت نزعة الكبر تشتد فيه حتى صار في ابّان شهرته يترفع عن غير الملوك والامراء ، وينظر الى سواه نظر الكبير الى الصغير ، وكان ابو علي الفارسي يستثقله لما يأخذ به نفسه من الكبر^٣ : ومن شواهد ذلك ما جرى له مع وزير كافور ومع الوزير المهلبّي والصاحب ابن عباد وسواهم .

ومن رسالة الحاتمي يلمح ما كان يرى فيه زملاؤه من روح التشامخ . وهذه الرسالة كتبت في مساوىء المتنبي ، وكاتبها من أدباء بغداد الذين أغرامهم المهلبّي به . قال صاحبها : « لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير ابي محمد المهلبّي التحف رداء الكبر وأزال ذيول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً ، وثنى عطفه جبريّةً وازوراراً ، فكان لا يلاقي احداً الا أعرض عنه تيهاً ، وزخرف القول عليه تمويهاً - يخيل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه ، وان الشعر بحر لم يرد غير مائه غيره ... فغير جارياً على هذه الوتيرة مدة مديدة » الى ان يقول : « وثقلت وطأته على كثير ممن وسم نفسه بميسم الادب . وساء معزّ الدولة احمد بن بويه ان يرد حضرته ، وهي دار الخلافة ومستقر العز وببضة الملك ، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان - وكان عدواً مبايناً لعز الدولة - فلا يلقي احداً بمملكته يساويه في صناعته . وتخيل الوزير المهلبّي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفواً له ... فنهدت له متقبلاً عواره ومقلّماً اظفاره » .

ثم يذكر انه قصده على بغلة سفواء في موكب رائع ، وان المتنبي

١ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٢ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢١٠ .

لما رآه داخلا وأرى شخصه لكي لا يقف له . ثم يصف كيف قوبل هو بالترحيب والتكريم ، وان المتنبي لما دخل جلس في صدر المكان ، واعرض عن الحاتمي وابى الا ازوراراً واستكباراً ، حتى ما كان بينها من المناقشة والمساجلة . والرسالة طويلة تدخل في نحو ١٢ كراسة ، وقد نقل ابن خلكان قسماً منها ، وكذلك البديعي في الصبح المنبي ^١ .

وقال البديعي : « كان الرجل سيء الرأي ، وسوء رأيه اخرجته من حضرة سيف الدولة ، وشدة تعرضه لعداوة الناس ^٢ » .

ولا شك ان الحسد وحده لم يكن السبب في عداوة أدباء حلب أو بغداد له ، ولو كان المتنبي على شيء من اللطف لما وصل الى ما وصل اليه : ففي طبعه كما قال ابن رشيق غلظة ^٣ ، وفي شعره ترى هذا الخلق ظاهراً في كل أدوار حياته .

٣ - شعوره بالتفوق .

ومن رسالة الحاتمي المار ذكرها يظهر لك اثر هذا الشعور في نفوس البغداديين - قال الثعالبي : « كان يخاطب الملوك مخاطبة الصديق والمحبوب ، وهو مذهب تفرّد به رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء ^٤ » . فمن قوله في صباه :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنا فما أحدٌ فوق ولا أحدٌ مثلي
وقوله :

ان اكن معجباً فعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد
كبرياء ولدت فيه وظهرت في صباه فرافقته الى آخر حياته . وديوانه مشبع بهذه الروح - ماتت جدته فاضطرب لموتها ورثاها فلم يتمالك عن

١ وفيات الاعيان ٢ - ٣٣٢ وهامش شرح المعكبري ١ ص ١٤٤ - ١٧٣ .

٢ الصبح المنبي ١ - ١٢٣ .

٣ العمدة ١٣٣ .

٤ اليتيمة ١ - ١٣٩ .

ان يصيح في وجه الزمان :

لئن لذت يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما
تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الا لخالقه حكما
يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبغني؟ ما ابتغني جل ان يُسمى
كانت بنبيهم عالمون بأنني جلوب اليهم من معادنه اليما
واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهي ويا نفس زيدي في كراحتها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تغزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومدح ابا سهل الانطاكي فلم يلبث حتى تغلب عليه طبعه فقال
ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحا وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريب اينما كانا
بحسد الفضل مكذوب على اثري القى الكمي ويلقاني اذا حانا

وهذا الشعور بالتفوق كثيراً ما يظهر في شاعرنا بمظهر الشجاعة البالغة
حدّ التهور . انظر اليه في مجلس سيف الدولة - في جو مشبع بروح
العداء له وحوله خصوم الداء كأبي فراس وابن خالويه وأضرابها ،
وقد حملوا سيف الدولة على الاعراض عنه وسوء الظن به ، فلم ينخفض
له جناح ، ولم تستول عليه رهبة ، بل عاتب الامير ثم أشار الى من
حوله وقال بنفس تفيض كبراً :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسمى به قدم
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم
وجاهل مدّه في جهله ضحكى حتى اتته يد فراسة وفهم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن ان الليث يبتسم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي انا الثريا وذان الشيب والهزم

ومنها يلمح بعزمه على الرحيل :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودّعته ندم

وهذه القصيدة شهيرة وفيها تتجلى نفسية هذا الرجل الغريبة .

ومن أدلة شجاعته بل تهوّره ما ذكره ابو نصر الجبلي للخالدين عن مقتله ، والرجل شاهد عيان رأى الشاعر قبيل مقتله وحادثه ، وقد حذّره من فائك الاسدي ورجاله ونصح له ان يستصحب معه من يخفّره ، فأجابه المتنبي : « والله لا ارضى ان يتحدث الناس اني سرت في خفارة احد غير سيفي - معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين » . قال فقلت له قل : ان شاء الله . فقال : « هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيتاً ولا تستجلب آتياً » ، ثم ركب فكان آخر العهد به . ذكر ذلك البديعي في حديث طويل^١ . وقد حاول بعضهم ان ينسب اليه الخوف والحذر ولكن سيرته لا تدل على ذلك ، وقد صدق الباقلاني اذ قال : « وكان المتنبي من اهل الشجاعة »^٢ .

طموحه الى المجد

خلّق المتنبي طموحاً الى المراتب العالية طامعاً بالحصول على مجد الدنيا .

أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

صفة ظاهرة في كل حركاته وأقواله : فمنذ كان فتى في السابعة عشرة من عمره يحدثنا شاهد عيان بهذيانه في ذلك^٣ . وما الحركة التي سجن لاجلها إلا دليل على هذه النزعة في نفسه . ولما فشل في اول عهده فحوّل نظره الى المال ، والى وجوب حشده لا بخلا او حباً بالمال لنفسه ،

١ الصبح المنبي ج ١ من ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢ اعجاز القرآن ١٢٤ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٥ .

ولكن توصلًا به الى غاياته . ولعلته تذكر حادثة جرت له في الكوفة وهو غلام رواها البديعي في الصبح المنبي ^١ . وخلاصتها انه أراد ان يشتري بطيخاً من بائع فلما ساومه على الثمن جبهه البائع واحتقره ، ثم جاء تاجر غني فرحب به البائع وباعه البطيخ محمولاً الى البيت بأبخس مما عرض عليه المتنبي . ولما رجع كلمه المتنبي في ذلك فقال : اسكت ، هذا يملك مئة الف دينار . فوقع في نفس شاعرنا من ذلك الحين حب المال والحرص عليه ، وان الناس لا يحترمون غير صاحبه . وفي شعره ما يدل على ما كان في نفسه من ذلك كقوله :

واتعب خلق الله من زاد مته وقصر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلل مجدك بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء والموت زنده
فلا محد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وقد ذكروا بعض حكايات عن حرصه وجشعه ^٢ ، ولكنها عند التدقيق لا تدلّ إلا على حزمه وحسن تقديره للمال ومعرفته بأحوال الدنيا . ولعل بعضها من تلفيق حساده كقصته مع سيف الدولة ، رويت عن ابي الفرج البغفا وصوّر فيها المتنبي أولاً رجلاً ذا كبر واءاء لا يمدّ يده كما فعل سائر الشعراء ، ثم تتغير الصورة بغتة فيظهر فيها دينئاً جشعاً — كل ذلك في مدة لا تتجاوز الدقائق القليلة .

كلا لم يكن المتنبي حشاداً للمال مخافة الفقر وقد قال :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في اكرام الناس له . كان شاعرنا معجباً بنفسه حريصاً ان يعجب الناس بها ايضاً ، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك فصار بعد خروجه من السجن يحوب الاقطار للحصول عليه ، ولكنه بقي

١ الصبح المنبي ١ - ٨٣ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٥ والصبح المنبي ١ ص ٧٣ - ٨٣ .

حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحيه الا الشيء اليسير . ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل فغلب عليه الكدر من الناس ولا سيما اولى الامر منهم ، وكثر تشكّيه من الزمان واشتداده عليه ، فظهر ذلك في شعره كما سيجيء .

ولما اتصل بسيف الدولة أخذت الدنيا تبتسم له ، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو اليه من كرامة ومال ، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الامير العربي يصف غزواته ويمدح اخلاقه . وباقبال الدنيا عليه لم يخمد في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه ، فكثر حساده ومبغضوه . ولم يكن دمثاً أو لين العريكة بل غلبت عليه صلابة الرأي ، مما أدى الى فتور الامير نحوه واشتداد الحساد عليه ، فاضطر كما ذكرنا الى ترك حلب وقصد مصر طامعاً بالمجد عن طريق الامارة - وقد مرّ بنا ما كان من أمره في مصر ثم بالعراق وفارس .

ولم يكن فشله في مصر كافياً للقضاء على آماله قضاءً مبرماً ، ولكنه شلّ مطامعه الى حين ، ودفعه الى استجهاج القوى في الكوفة وبغداد نحواً من ثلاث سنوات .

ثم تراءت له فارس ورأى الفرصة السانحة فقصد عضد الدولة ورأى في حضرته ما جدد آماله . ولا نعلم ما كان يدور في خلدّه يومئذ ، وقد نال الغنى الوافر وأصبحت شهرته تملأ الخفافين . يحدثنا المؤرخون انه ترك عضد الدولة قاصداً الكوفة - لأي غرض ؟ لا ندري . ولكن البديهي يروي في الصبح المنبّي^١ انه استأذن عضد الدولة في المسير ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له . فما الذي كانت تسوّّل له نفسه ؟ وما كان يؤمل ان يبلغه على يد هذا الملك البويهي الكبير ؟ ذلك ما أسدل عليه الحمام حجاباً لا سبيل الى نفاذه .

١ هامش المكبري ١ - ٢٢٢ .

عصبية ونسبه

في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة . ولا غرابة فهو عربي
ينتمي الى قبيلة جُففى من جهة الاب وحمدان من جهة الام . زد
على ذلك انه كان في عصر ضعفت فيه شوكة العرب واصبحت اكثر
البلدان الاسلامية في ايدي أمراء من الفرس والترك ، فأوقد ذلك في نفوس
العرب غيرة قومية زادها اضطراباً تلك المشادة بين الشعوبية والعربية ، وما
كان يرمي اليه الفريقان من الانفراد بالذكر والفخر : ولا نعلم هل كان
شاعرنا من الذين اشتبكوا في هذه المعركة الكلامية ام لا ، ولكننا نعلم انه
كان متعصباً للعرب والحياة العربية . وقد قوى هذا التعصب فيه اقامته في
البادية مدة طويلة وتعود عاداتها ، ثم اتصاله بسيف الدولة زعيم العرب
في عصره . ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العربي ودم الاعاجم ،
كقوله وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل ، فقال مخاطباً
سيف الدولة :

ان كنت عن خير الانام سائلاً فخيرهم اكثرهم فضائلاً
من كنت منهم يا همام وائلاً الطاعنين في الوغى اوائلاً
والعاذلين في الندى العواذلاً قد فضلوا بفضلك القبائلاً

وفي قصائده لسيف الدولة تراء يكرر كثيراً ذكر العرب مفاخراً بهم
كقوله :

رفعت بك العرب العماد وصيرت قم الملوك مـواقـد النيران
انساب فخرهم اليك وإنما انساب اصلهم الى عدنان
ومثل ذلك كثير في شعره . ومن أمثلة تعصبه للعرب قوله يمدح علي
ابن ابراهيم التنوخي :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
وانمى الناس بالملوك وما تصلح عُرب ملوكها عجم

لا أدبٌ عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
لكل أرض وطئتها أمم تُرعى بعبد كأنها غنم

وتظهر نزعته البدوية في مدحه للاعرابيات ومقابلتهن بالحضریات ، وله في ذلك أبيات مشهورة نذكر بعضها هنا وهي من قصيدته « من الجآذر في زي الاعارب » :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيد
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
وقوله :

إن الذين اقتتَ وارتحلوا أيامهم بديارهم دول
الحسن يرحل حيثما رحلوا معهم ، وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشاً تديرهما بدوية فتلت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذي تصل ؟
ما أسارت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

فالمتنبى يمثل في شعره عواطف العرب وخیالاتهم ، وهو كثير التحنان الى معيشتهم فخور بنسبه اليهم (وقد دعا نفسه في قصيدته - مغاني الشعب - « الفتى العربي ») . يرى في فرسانهم منتهى الشجاعة وفي حسانهم غاية الجمال . فتراه من هذا القبيل يخالف ابا نواس وسواه من الذين عاشروا الجواري الاعجبيات وانغمسوا في اللهو مغبين .

وعلى ذكر الجواري واللهو نقول انك لا تجد في حياة المتنبى او شعره ما يدل على ميل الى ترف او عبث ، فقد عاش منذ صباه جاداً رزيناً لا يهتم بما كان يهتم به اكثر الشعراء من شرب مدام او مفازلة حسان ، او انصراف الى المطربات من الالحان .

كقوله :

وغير فؤادي للغواني رميةً وغير بناني للزجاج ركاب^١
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعب
أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب
وخلاصة المعنى اني غير غزل بالنساء او محب للخمر قد قصرت نفسي
على الجد في طعمان الاعداء وتركنت ما تشتهي الانفس من الملاهي .
وكان جدّه مقروناً بالصدق والصراحة . قال ابن جنّي : « ما عرفت
المتنبي إلا صادقاً^٢ » .

وهنا لا بد من القول ان بعض المؤرخين يزعمون ان اياه كان سقّاءً في
الكوفة^٣ . ومما قيل فيه :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرةً وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيّا

على اننا اذا دققنا في ذلك نجد ان أهم الثقات الذين دوّنوا سيرة المتنبي
يمرّون بهذا الزعم مرور المشكّك . فالثعالبي مثلاً ، وهو كما مرّ بنا
قريب العهد بالشاعر (بل يكاد يكون معاصراً له) لم يزد على ان قال :
« وبلغ أبا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقية
شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه زاعماً ان
اياهم كان سقّاءً^٤ بالكوفة^٥ » . وفي رواية الثعالبي ما يُشعر بشكه في صحتها .
ومثل الثعالبي ابن خلكان فانه لما أورد هذا الخبر قال : « ويقال ان ابا
المتنبي كان سقّاءً بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده^٥ » . ويقول البديعي

١ ورويا ابن جنّي للرخاخ (من أدوات الشطرنج) .

٢ الخصائص ١ - ٢٤٨ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ واليتيمة ٨٦ .

٤ اليتيمة ١ - ٧٦ .

٥ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ .

« وكان والده الحسين يعرف بعبدان السقاء » ، ثم ينقل عن ابن خلكان ما ذكره عن ابن لنكك وطعنه على المتنبي^١ . وفي ايضاح المشكل للاصبهاني « انه كان في الكوفة يختلف الى كتاب فيه اولاد الاشراف^٢ . فاذا دقت في هذه الروايات لم تجد فيها خبراً مجزوماً فيه ، بل لا تجد الا أقوالاً يصح ان نشكك فيها ، ويزيدنا تشكيكاً ان سقاءً بالكوفة لا يحظى عادةً بوضع ولده في مكاتب الاشراف ، ولا يفتقل به الى بلد بعيد ، فيردده بين المدن والقبائل . ولسنا هنا بمعرض الدفاع عن والده وتنزيهه عن تعاطي مهنة كالسقاية ، ولكننا لا نستطيع الا ان نظهر شكنا بذلك اعتماداً على الروايات التي بين أيدينا .

على ان الرجل كان على ما يظهر فقير الحال مغمور الذكر ، ومع ذلك لم يتأخر عن تسهيل وسائل العلم لولده ، فنشأ الولد (شاعرنا) بين المكاتب والوراقين . ولما ترعرع ونال من الادب قسطاً ظهرت عليه بوادر الطموح الى العلى ، ورأى تطاول الممالك والموالي على أسيادهم ، وكثرة القائمين بالدعوات في المملكة العباسية والامارات المختلفة ، فحدثته نفسه ان يقوم بأعراب البادية ، وملكه هذا الوهم حتى حبس وتاب . ولكن حب الرياسة والولاية بقي يدور في رأسه^٣ ، وهو القائل من قصيدة لكافور :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء

شهرته الشعرية

لم ينل شعر عربي من الشهرة ما ناله شعر المتنبي ، فهو بعيد الأثر في حلقات الادب شائع بين جميع الطبقات . ولم يكن حظه في عصره

١ الصبح المنبي ١ - ٦ و ١٧٨ .

٢ راجع خزائن الادب ج ١ - ٣٨٢ .

٣ اليتيمة ١ - ٨١ .

بأقل من حظه اليوم . قال الثعالبي : « فليس اليوم مجالس الدرس أعمر
بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس ، ولا أقلام كتّاب الرسائل أجري
به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من
كتب المؤلفين والمصنّفين . وقد ألّفت الكتب في تفسيره وحل مشكله
وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديته ، وتكلم الافاضل في
الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرّقوا
فرقاً في مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه والتعصب له وعليه . وذلك
أول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدمه ، وتفرده عن أهل زمانه
بملك رقاب القوافي ورقّ المعاني »^١ . وبعد موت المتنبي بأكثر من قرن
نرى الواحد يقول في مقدمة شرحه : « وان الناس منذ عصر قديم قد
ولّوا جميع الاشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب
ثانين عما يروى لسواه » .

ومن دلائل شهرته ان كبار المترسلين في زمانه وبعده كانوا يستمعون
بألفاظه ومعانيه ، ومنهم خصمه ابن عباد ، وابو بكر الخوارزمي ، وابو
اسحق الصابي ، وابو العباس ابرهيم الضبّي^٢ . وقال ابن خلكان :
« واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي احد المشايخ الذين أخذت
عنهم : وقفت على اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطوّلات ومختصرات
ولم يفعل هذا بديوان غيره »^٣ .

ولما تناول البديعي شهرته نقل ما أوردناه من كلام الثعالبي وزاد
عليه اسماء شراحه ونقّاده (مثبتاً بذلك كلام ابن خلكان) ومنهم :
ابن جنّي - وهو تلميذه وأول من شرحه .

أبو العلاء المعري - وله في ذلك : اللامع العزيزي ، ومعجز احمد ،

١ البيتية ١ : ٧٨ .

٢ راجع أمثلة ذلك في البيتية ١ : ٨٧ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٣ .

وكان من المعجبين بالمتنبي .

الواحدي - المتوفى ٤٦٨ - صاحب الشرح المشهور .

ابو زكريا التبريزي - ٥٠٢ - تلميذ المعري وشارح المعلقات والحماسة .

القاضي ابو الحسن الجرجاني - ٣٦٦ - صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه .

العكبري - ٦١٦ - صاحب الشرح المشهور .

ومنهم ابن فورجه البروجردي ، والصاحب ابن عباد ، والمغربي صاحب الانتصار ، والحائمي ، والعميد صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب الاستدراك على ابن الدهان . ويسوق البديعي اسماءهم الى آخر القائمة ثم يقول : « سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها . ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة ولا تدوول في ألسنة الادباء من نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي » .

ولابن رشيق القيرواني صاحب العمدة جملة مشهورة في المتنبي وهي : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . وطبيعي انه لم يشغل الناس على غير طائل ، وما تصدق له خصومه او دافع عنه مريدوه إلا لعلو مكانته ولبعد صيته ، حتى أصبح غرضاً لأقلامهم وغاية لتسابق اليها جيادهم .

وإذا رجعت الى قائمة شرّاحه ونقّاده العديدين تجدهم ثلاث فرق :

١ - الذين تحاملوا عليه وراموا الخط من قدره ، ومنهم صاحب بن عباد والحائمي والعميدي وابو هلال العسكري وابو الفرج الاصفهاني ، ولعل ذلك كان سبباً لاغفال ذكره في كتابه الاغاني .

٢ - الذين لهجوا بفضله وبالغوا باكرامه ، ومنهم ابن جنّي وابن

١ المصباح المنبي ١ : ٤٢٣ - ٤٢٧ .

رشيق والواحدى والمري وابن وكيع والعكبري وابن خلكان
والبديعي .

٣- المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني
والثعالبي وابن الاثير وهم الى قائمة مدّاحه أميل .
تناول هؤلاء العلماء شعر المتنبي وأسهبوا في ذكر حسناته وسيئاته -
والغالب فيهم ان يحذو المتأخر حذو المتقدم - حتى لم يتركوا زيادة
لمستزيد على انهم قصرّوا همّهم على النقد اللغوي والبياني ولا سيما على
السركات الشعرية ، ولهم في هذه الاخيرة خبط وأوهام لا طائل تحتها .
وقد أجاد البديعي في التمييز بين الممدوح والمذموم من ذلك ، وبحث
في هذه المسألة بحث المنطقي المحقق^١ . وخلاصة ما ذكره ان للمتنبي
حسنات وسيئات ، وان حسناته تنحصر فيما يلي :

(١) دقة الاشارة (٢) حسن التخلص (٣) حسن اختراع المعاني
(التشابه والاستعارات) (٤) وصف القتال وادواته (٥) حسن ضرب
المثل .

ويقابلها من السيئات :

(١) التعمية او الابهام في الكثير من أبياته (٢) شذوذه اللغوي^٢
(٣) تكلفه وتعسفه (٤) جمعه بين البليغ والسفساف في القصيدة الواحدة .
وأمثلة الوجهين كثيرة تجدها في اليتيمة والوساطة والصبح المنبي
وسواها . ولليازجي رسالة وافية في ذيل شرحه (العرف الطيّب) تناول
فيها أقوال النقدة وعرضها عرضاً بليغاً .

وقد اشتهرت أقوالهم في ذلك فلتراجع في مظانها ، على انه لا بد من
القول ان ما ذكره من حسنات وسيئات يصدق على كل شاعر تقريباً وقد

١ الصبح المنبي ١ : ٢٧٤ - ٣١٩ .

٢ راجع قول ابن رشيق العمدة ١ - ٨٧ . وقال العسكري في الصناعتين ١١٩ « لا أعرف
أحداً كان يتتبع العيوب فيأثبها غير مكثرت لها إلا المتنبي » .

ورد معنا أمثلة ذلك في الكلام على أبي تمام والبحثري مما يعدّ العود إليه الآن تكراراً لا فائدة منه .

شخصيته الشعرية

بقي علينا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية .

وهو عند التحقيق أربعة أطوار :

الطور الاول - يمثل عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان ، وقد نظم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، ويمتدّ من زمن الحداثة الى الرابعة والثلاثين من عمره .

الطور الثاني - شعره في حلب . نظمه وهو بين الرابعة والثلاثين والثالثة والأربعين ، وهو يمثل : (١) عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهران في سيف الدولة (٢) عواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد كما تظهر في نفسه .

الطور الثالث - شعره في مصر . نظمه بين الثالثة والأربعين والسابعة والأربعين ، وهو يمثل غيظه من الماضي وآماله الكبيرة بالمستقبل ثم مرارته لفشله .

الطور الرابع - شعره في العراق وفارس . نظمه بين السابعة والأربعين والحادية والخمسين ، أمّا في العراق فذكريات سيف الدولة ، وأمّا في فارس فانتعاش أمل لم يلبث ان اخذه الحمام . واليك بيان ما تقدم والتدليل عليه من شعره .

عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان

رأينا في سيرته انه ولد طموحاً متهوراً بالمجد ، وانه ظل بعد خروجه من السجن حتى الرابعة والثلاثين من عمره فقير الحال يحوب الاقطار معرّضاً

نفسه للأخطار والاهوال ، فلم ينل من الدنيا مراماً . في هذا الطور يكثر في شعره ذكر المجالدة والاقدام والفخر بالرجولة ، ويقرن ذلك بدم الزمان وأهله والسخط على أولي الأمر من رؤساء وأمرأه ، حتى جعل ابن رشيق أهمّ مزاياه الامثال ودم الزمان^١ . وفيه نرى الكثير من الحكم البالغة التي تهبب بالشباب الى طلب العلى وتحمل المشاق والبعد عن مواطن الذل والضم . فمن قوله في الإقدام وتحمل المشاق :

ومهمه جبهته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
بصارمي مرتدي بمخبرتي مجتزيء بالظلام مشتمل
إذا صديق نكرت جانبه لم يُعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب^٢ وفي بلاد من اختها بدل

ومن هذا القبيل يذكر سيره في البوادي ويصف عزة نفسه وشجاعته ويذم الزمان :

أواناً في بيوت البدو رحلي وآونة^٣ على قتد البعير
أعرض للرماح الصمّ نحري وانصب حُرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير
فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب الى خسيس وعين لا تدور على نظير
وقلّة ناصر - جوزيت عني بشرّ منك يا دهر الدهور

ومثل ذلك قوله يصف جلده ومضاء عزمه :

يحاذرنى حتفي كأني حتفه وتنكرني الأفمى فيقتلها سمي
طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض الشريحيات يقطعها لمي
برتني السرى بري المدي فرددني أخف على المركوب من نفس جرمي
وأبصر من زرقاء جوي لأنني متى نظرت عيناى ساواهما علمي

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندر السد من عزمي
وقال في أهل زمانه مستخفًا بهم وبأمرائهم وهو في هذا الطور يكثر
اللهج بذلك ويغلو فيه :

فؤاد ما تسلييه مدام وعمر مثل ما تهب اللثام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
خليلك أنت - لا من قلت خلتي وإن كثر التجميل والكلام
وشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

وعلى هذا الوتر يضرب في قصيدته الشهيرة «بأبي الشמוש الجانحات
غوارباً» فيذكر الزمان وتحامله عليه ويقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما أنشبن في محالبا
أوحدنني ووجدن حزناً واحداً متناهيًا فجعلنه لي صاحباً
ونصبني غرض الرماة تصيبني نحن أحدٌ من السيوف مضارباً
اظلمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيًا مطرت علي مصائباً

وللمتني ثلاث قصائد تمثل خوالج نفسه في هذا الطور أفضل تمثيل :
الاولى في علي بن أحمد المرّي ومطلعها - لا افتخار إلا لمن لا يضام -
نقتطف منها هنا الابيات التالية :

ليس عزمًا ما مرض المرء فيه ليس همًا ما عاق عنه الظلام^١
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء قضوى به الأجسام
ذلّ من يغبط الدليل بعيشه ربّ عيش أخفّ منه الحمام
من يهنّ يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذرعاً زمانى واستكرممتني الكرام
واقفاً تحت أخصى قدر نفسي واقفاً تحت أخصى الانام

١ مرض اي قصر .

أقراراً ألدّ فوق شرار ومراماً أبغى وظلمي يُرامُ
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشّام

والثانية في أبي عبيد الله الخصبي قاضي انطاكية - مطلعها : « افاضل
الناس أغراض لذا الزمن » يذم فيها الناس وأمرأهم ، ويصف عزمه
ودهامّه وصحبته للاعراب ومضائه في طلب العلى ومنها :

لا اقتري بلداً الا على غرر ولا أمرّ بخلق غير مضطغن
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً الا احقّ بضرب الرأس من وثن
قد هوّن الضبر عندي كل نازلة وليّن العزم حدّ المركب الحشن
كم مخلص وعلى في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالدمّ في الجبن
لا يعجبني مضيماً حسن بزّته وهل تروق دفيناً جودة الكفن
لله حال ارجيتها وتحلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم قصائد من اناث الخيل والحصن

والثالثة في علي بن أحمد بن عامر الانطاكي - وفيها تتجلى خوالج
الشباب بأجلى ظواهرها : ترى نفسه تنتفض كبراً وتيهاً ، ويتجسم لديك
ما فيها من مطامع وآمال . والقصيدة مشهورة نذكر منها على سبيل
المثال الثانية الابيات الاولى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع منّي كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نفسها أمر
تمرسْتُ بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت ام ذُعِر الذعر
وأقدمت إقدامَ الآتي كأن لي سوى مهجتي او كان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينةً فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان تُرى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداول سمعَ المرء انمله العشر

* * *

ومما يلاحظ هنا تلك المرارة التي صحبتته كل أيام حياته ، وكان منشأها طمعه وما تكبّده من المشاق على غير طائل ، ولا سيما في هذا الطور من حياته . فكان شعره الوجداني الحقيقي ، أعني الذي يعبر عن عواطف نفسه مظهراً لما في نفسه من كبرياء حوّّلها الفشل الى نقمة وسوء ظن . كقوله :

فما لي والدنيا طلابي نجوماً ومسعاي منها في شقوق الأرقام
ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى ربحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

شعره في حلب

وهو كما ذكرنا يظهر في مظهرين كبيرين : (١) الجهاد القومي والشجاعة الحربية (٢) شعور الشاعر بالفوز وحمله على الحساد .

ترى روح الجهاد القومي والحربي في أكثر مدائحه لسيف الدولة ، ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهداً شجاعاً وكانت حياته حرباً متواصلة على الروم . وقد صحبه المتنبي واختبر بنفسه عظام الحرب وأهوال الوقائع : رأى الجيوش في ساحة الحرب وخاض غمار القتال مع المجاهدين ، فشهد الأبطال تشتبك بالأبطال والفرسان تطارد الفرسان ، والسيوف والرماح تسيل بدماء الأعداء - هبط الأودية وصعد في النجود وذاق مرارة الهزيمة ولذّة الظفر فأبدع في وصف ذلك غاية الإبداع . ولقد صدق ابن الأثير إذ قال في الحكم على شعره : « انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا . فطريقه في ذلك تفضلّ بسالكة وتقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى عيانه »^١ .

١ المثل السائر ٤٧١ .

وقال ابن رشد في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو ذاكراً وصف الحروب والوقائع « والمتنبى أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل . وذلك كثير في أشعاره ، ولذلك يحكى عنه انه كان لا يريد ان يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة ^١ » .

ولقد ترك لنا من شعره الحربي كثيراً من القصائد الخالدة : يقف فيها معلناً عظمة الاسلام في شخص الممدوح ، حاملاً على أعداء الخلافة ، مثيراً للحماسة القومية . ويتخلل كل ذلك من الحكم البليغة ما يناسب المقام وينفذ الى اعماق النفوس . ولولا شهرة هذه القصائد وتوفر طلاب الأدب على تدارسها وحفظها لأتينا بالأمثلة الكثيرة على شعر المتنبى في هذا الطور ، ولكننا نجتزئ هنا بالإشارة الى القصائد التي مطلعها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع
فدينك من ربع وان زدتنا كربا
لياليّ بعد الظاعنين شكول
لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدنا
دروع لملك الروم هذي الرسائل
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
الرأي قبل شجاعة الشجعان
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
ذي المعالي فليعملون من تعالى

وكلها مما يجب على المتأدب درسه وحفظه والتأمل في روائع معانيه .
أما شعور الشاعر بالفوز والتفوّق وحمله لذلك على الحساد فيظهر في
مثل قوله لسيف الدولة :

انا السابق الهادي الى ما أقوله اذ القول قبل القائلين مقول

١ راجع « مقالات على علم الادب » لشيخو ٢ - ٢٨٠ .

أعادي على ما يوجب الحب للفتى واهداً والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داور فإنه اذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وتليل
وانّا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
وقوله :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا
اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا
وأقواله في ذلك كثيرة ، وأشدّها قصيدته الميمية - واحرّ قلباه -
وقد نشأ هذا الشعور مع المتنبي ورافقه كلّ أيام حياته ، ولكنه يظهر على
أشدّه في هذا الطور ، وفيه أكثر ما تركه المتنبي من هذه النفثات
الأليلة .

شعره في مصر

وهو يمثل لنا عواطف الغيظ من الماضي والأمل بالمستقبل ، وفيه
تتجلى عبقرية المتنبي على أتمها - من دقة في الإشارة وروعة في المعاني
وجمال في التوقيع .

فبينما ترى شعره في الطور الاول يكثّر فيه التعقيد اللفظي والمعنوي ،
وفي حلب يتكلف أحياناً استعمال الغريب للدلالة على غزارة علمه ، تراه
في مصر صقيلاً خالصاً من هذه الشوائب جارياً على الطبيعة . فهو يمثل
غاية ما بلغه المتنبي من البلاغة . وقد أخطأ البديعي اذ قال : « ان
احسن شعره في سيف الدولة وقد تراجع شعره بعد ذلك »^١ ، فان المدقق
يرى في « كافورياته » من جلال المعنى وجمال الصياغة ما يشهد انه بلغ
به كمال النضج . واتنا نجاري في ذلك اليازجي اذ قال : « على انك اذا

١ الصبح النبوي ١ - ٨٧ .

تفقدت تلك المعجمات من أبياته فأكثر ما تجدها في أوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطرد له وجوه التعبير . وما أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريقة أبي تمام ، فكان ينحو نحوه في الحوم على موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من حكم الجاهلية ، والتورك على الصيغ الشاذة والتعذلق في اسلوب الخطاب ، - الى ان يقول عن شعره في حضرة سيف الدولة : « انه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمنتقدين ، ولذلك لم يكن بدّ من حشد القريحة في مدح سيف الدولة والاكثر من التنطّس في ألفاظه ومعانيه . ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة ^١ » .

ويكفي للدلالة على ذلك ان تراجع القصائد التالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
فراق ومن فارقت غير مذمم
من الجأذر في زي الاعارب
أودّ من الايام ما لا تودّه
اغالب فيك الشوق والشوق اغلب
مُنَى كن لي ان البياض خضاب

فان هذه القصائد « الكافورية » من أسلس قصائده واملاها معنى وأجلها إيقاعاً . ومن بدائعه في هذا الطور ميميّته المشهورة في وصف حاله في مصر ووصف حمى أصابته ، نظمها وهو في الخامسة والاربعين فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ودقة التعبير وحسن الاختراع ، وقد أدرجت في باب المختارات من شعره فلتراجع هناك .

الطور الأخير

ويمثله شعره في العراق وفارس ، وهو عموماً أحط من شعره في حلب

١ بتصرف عن رسالته في ذيل شرحه للديوان ٦٦٦ - ٦٧١ .

وفي مصر . يشعر فيه المتأمل بتراخي نَفْسِه الشعري ورجوعه أحياناً الى التعسف والتكلف ، فكأنه بلغ أوجه الشعري في الخامسة والأربعين من عمره ثم أخذ بالانقلاب البطيء : قد يكون للسُن تأثيرها في ذلك ولكن بما لا شك فيه انه كان لفشله في مصر ، ثم ما لاقاه في بغداد أثرٌ في خضد شوكته ، وتخفيف تلك النائرة الشعرية فيه .

خاتمة في شعره الحكمي

أجاد المتنبي في كل انواع الشعر العربي من مدح وغزل وفخر ورثاء ووصف وهجاء ، وله في الرثاء خاصة مكانة سامية تشهد له بذلك مراثيه التي تعد من أفضل المراثي في الأدب العربي ومنها :

نعد المشرفية والعوالي
يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
الحزن يقلق والتجمل يردع
وكلتها مشهورة تجري أكثر أبياتها على ألسنة الأدباء .

على ان المتنبي الحقيقي انما هو تلك الصورة التي نرسمها من قراءة حكمه ، وفهم علاقتها بالزمان ، تلك الحقائق الأدبية والاجتماعية الناصعة المعقودة في أرشق الألفاظ وأسلس التعابير . نعم انها منتشرة في تضاعيف قصائده ، متفرقة بين أغراضه المختلفة ، ولكن لها علاقة حيوية بكل مقام يكون فيه الشاعر . واذا ألقينا عليها نظرة عامة وحاولنا ان نستخلص منها صورة لشاعرنا الكبير وجدنا فيها ألواناً مختلفة تنعكس عن شيء واحد هو « نزعتة الفطرية » ، تلك الطبيعة التي كانت تحاول التعالي والحصول على القوة ، ثم لا تلبث ان تعود وفيها شيء من المرارة والألم .

كان للمتنبي غرض كبير في الحياة - المجد - لأجله ظهر غروره صغيراً ، ولأجله جاب الأقطار كبيراً ، ولأجله صعب الملوك وحشد المال حتى تعالي عن طبقة الشعراء ، وساوى نفسه بمدوحيه من الأمراء .

ولكنه فشل ، وفي سعيه وفشله عرف الحياة واختبر حقيقة المجتمع
البشري ، فنظم ذلك لنا حكماً غالية أدرك الناس صحتها ، فتداولتها
ألسن الزمان في كل مكان ، وأصبحت على كرور الأيام أمثالا يردّها
الخاص والعام .

غرّ المتنبّي سراب الدنيا فسمى وراءه ، وطوى في ذلك السعي شبابه
ورجوليته . فإذا الدنيا سراب وإذا السعي وراء الباطل باطل . على اننا
لنحمد الأقدار على هذا السراب وهذا الباطل ، فلولاهما لما كان لنا
شاعر الحكمة الكبير ، ولما تحدّر إلينا منه ذلك الميراث الأدبي الخالد .

المختار من شعر المتنبي

نفس عزيزة شديدة المطامع تدفعها شهوة الدنيا الى طلب المجد والقوة،
فتندفع اليها بعزم الفارس المقدام . ثم لا تلبث ان تصطدم بالفشل فترقد^١
على أعقابها دقيقة المعرفة بمحوادث الزمان ، صائبة النظر في عواطف
الانسان - تلك هي حكم المتنبي البليغة وخوارج نفسه الكبيرة .

نزعات شبابه

كم قتيلٍ كما قُتلت شهيدٍ لبياض الطلى وورد الخدودِ
وعيون المهى ولا كميون فتكت بالمتيم المعمود
درّ الصّبام - أيام تجرير ذيولي بدار ائله ، عودي^١
عمرّك الله هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود
رامياتٍ بأسهم ريشها الهد ب'تشق' القلوب قبل الجلود
يترشفن من فمي رشقاتٍ هنّ فيه حلاوة التوحيد^٢
كلّ خُمصانةٍ ارقّ من الحمر بقلبٍ أقسى من الجلود^٣

١ أيام منادى اي أيتها الأيام التي كنت اجرر فيها ذيولي مرحاً في دار ائله ، عودي الي .

٢ التوحيد نوع من التمر .

٣ الخمصانة الضامرة او النحبة .

ذات فرع كأنما ضُرب العنبر فيه بماء ورد وعود^١
حالك كالغدا ف جثل دجوجي^٢ أثيث جعد بلا تجعيد^٣
تحمل المسك عن غداثرها الريح وتفتت^٤ عن شيب برود^٥
جمعت بين جسم أحمد^٦ والسقم وبين الجفون والتسديد^٧

* * *

هذه مهجتي لديك لحيني فأنقصي من عذاياها أو فزيدي
كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا ابنة العنقود
فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال، وطارفي وتليدي
شيب رأسي وذلتني ونحولي ودموعي على هواك شهودي
أي يوم سررتني بوصال لم ترعني ثلاثة بصدود

* * *

ما مقامي بأرض نخلة إلا^٨ كمقام المسيح بين اليهود^٩
مفرشي صهوة الحصان ولكن قيصي مسرودة^{١٠} من حديد
أين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي
أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس^{١١} وهمتي في سعود
عش عزيزاً أومت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح اذهب للغيظ واشفى لغل^{١٢} صدر الحقود
لا كما قد حيت غير حميد واذا مت مت^{١٣} غير فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بختنق^{١٤} المولود

١ والفروع الشعر .

٢ الغدا ف الغراب .

٣ شيب برود أي ثغر لطيف عذب الماء .

٤ أحمد اسم الشاعر .

٥ أرض نخلة قرية لبني كلب .

٦ البختنق خرقعة يقنع بها الرأس .

ويوقتي الفتى الميخش^١ وقد خوض في ماء لبّة الصنديد^٢
 لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا يحدودي
 وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد
 ان أكن معجباً فمعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد
 انا تيرب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
 أنا في أمة - تداركها الله - غريب^٣ كصالح في ثمود^٤

وصف الأسد

وكيف صرعه بدر بن عمار ، وذلك على ضفاف الاردن قرب طبريا

في الحد أن عزم الخليط رحيلاً مطر تزيد به الحدود محولاً^٥
 يا نظرة نفت الرقاد وغادرت في حدّ قلبي ما حييت فلولاً
 كانت من الكحلأ سؤلي انما اجلي تمثّل في فؤادي سولاً^٦
 أجد الجفاء على سواك مروءة والصبر الأ في نواك جميلاً
 وأرى تدلّك الكثير محبباً وأرى قليل تدلّل مملولاً
 حدق الحسان من الغواني هجن لي يوم الفراق صباية وغيللاً
 حدق يذم من القوائل غيرها بدر بن عمار بن اسماعيلاً^٧
 الفارج الكرب العظيم بمثلها والتارك الملك العزيز ذليلاً
 رقت مضاربه فهن كأنما يبدن من عيشق الرقاب نحولاً

* * *

امعقّر اللّيث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولاً

- ١ أي يوقى الشجاع المغامر وقد خاض في دماء الابطال .
- ٢ صالح نبي أرسل الى ثمود فلم يؤمنوا به ولم يصفوا الى أقواله .
- ٣ لأن العشراء عزموا على الرحيل هطل مطر الدموع على خدي فزاده محولاً (بعكس مطر السماء الذي يزيد خصب الأرض) .
- ٤ كانت هذه النظرة كل ما أسأله ولكن ما أسأله كان السبب في هلاكي .
- ٥ يذم يحير - أي ان المدح يحيرة من كل قاتل سوى نظرات الحسان .

وقعت على الأردن منه بليّة^١ وردّ اذا ورد البحيرة شارباً متخضب بدم الفوارس لابس ما قوبلت عيناه الا ظنّتا في وحدة الرهبان الا انه يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ويردّ عفرته الى يافوخه وتظنه - بما يزجر - نفسه قصرت مخافته الخطى فكأنما ألقى فريسته وبربر دونها فتشابه الخُلُقَانِ في إقدامه أسد يرى عضويه فيك كليهما ما زال يجمع نفسه في زوره ويدقّ بالصدر الحجار كأنه وكأنه غرّته عين فادّنى أنف الكريم من الدنيئة تارك^٢ والعار مضاض وليس بخائف سبق التقاءه بوثة هاجم خذلت قوّته وقد كافحته قبضت منيته يديه وعنقه

نضدت بها هام الرفاق تلوّلا وردّ الفرات زثيره والنيل في غيله من لبدته غيلاً^١ تحت الدجى نار الفريق حلولا لا يعرف التحريم والتحليلا فكأنه آس يحسّ عليلاً حتى تصير لرأسه اكليلاً عنها لشدة غيظه مشغولاً^٢ ركب الكميّ جواده مشكولاً^٣ وقربت قريباً خاله تطفيلاً وتخالفاً في ذلك المأكولاً^٤ متناً أزلّ وساعداً مفتولاً حتى حسبت العرض منه الطولا ينبغي الى ما في الحضيض سبيلاً لا يبصر الخطب الجليل جليلاً في عينه العدد الكثير قليلاً من حتفه من خاف بما قيلاً لو لم تصادمه لجازك ميلاً فاستنصر التسليم والتجديلاً فكأنما صادفته مغلولاً

١ هذا الاسد فتك بالناس وتخضب بدماء الفرسان وكنت تراه في غابة كأنما عليه غابة من شعره .

٢ وتظنه نفسه لكثرة زجرته انه مشغول عنها .

٣ من شدة الخوف أصبح الجواد غير قادر على الجري .

٤ تشابهتا في الاقدام وتخالفتا في انك كريم تبذل ما تصيده لسواك .

سمع ابن عمته به وبجالة فنجأ يهرول أمس منك مهولا ١
وأمر مما فر منه فراره وكفله ان لا يموت قتيلًا
تلف الذي اتخذ الجراءة خلّة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

* * *

نطقت بسؤددك الحمام تغنيًا وبما تجشّمها الجياد صهيلًا
ما كل من طلب المعالي نافذًا فيها ولا كل الرجال فحولًا

بعض مدائح في سيف الدولة

وهو يصوره في شعره بصورة البطل القومي والمجاهد الأكبر ضد الروم

قال يذكر بناءه مرعش سنة ٣٤١ هـ

فدينك من ربع وان زدتنا كربا	فانك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا	فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا
نزلنا عن الاكوار نمشي كرامة	لمن بان عنه ان نلّم به ركبا
نذم السحاب الغر في فعلها به	ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت	على عينه حتى يرى صدقها كذبا
وكيف التذاذي بالاصائل والضحي	اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبنا
ذكرت به وصلا كان لم أفز به	وعيشا كاني كنت اقطعه وثبا
وفتانة العنين قتالة الهوى	اذا نفعت شيخا روائحها شبا
فيا شوق ما أبقي ويا لي من النوى	ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى
لقد لعب البين المشت بها وبى	وزودني في السير ما زود الضبّا ٢
ومن تكن الأسد الضواري جدوده	يكن ليله صبحا ومطعمه غصبا
ولست أبالي بعد ادراكي العلى	أكان تراثا ما تناولت ام كسبا
فرب غلام علم المجد نفسه	كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

١ يشير الى أسد آخر هرب منه بعد هذه الحادثة .

٢ الضب حيوان معروف ويضرب به المثل في الحيرة . اي ان البين الذي فرقنا جعلني حائرا .

إذا الدولة استكفت به في ملّة
تُهاب سيوف الهند وهي حدائد
ويُرهب ناب الليث والليث وحده
ويُخشى عُبَاب البحر وهو مكانه
هنيئاً لاهل الثغر رأيك فيهم
وانك رعت الدهر فيها وريبه
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم
سراياك تترى والدُ مُستق هارب
أتى مرعشاً يستقرّب البعد مقبلاً
كذا يترك الاعداء من يكره القنا
وهل ردة عنه باللّلقان وقوفه
مضى بعد ما التفّ الرماحان ساعة
ولكنه ولّى وللطعن سورة^١

كفاهما فكان السيف والكف والقلبا
فكيف اذا كانت نزارية عُرّبا^٢
فكيف اذا كان الليوث له صحبا
فكيف بمن يقش البلاد اذا عبّا
وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا^٣
فان شكّ فليحدث بساحتها خطبا
وتوماً يجود تطرد الفقر والجدبا
وأصحابه قتلى وأمواله نهبي^٤
وادبر إذ أقبلت يستبعد القربا
ويقفل من كانت غنيمة رعبا
صدور العوالي والمطهمة القُبّا^٥
كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا^٥
اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

* * *

أرى كلنا ينبغي الحياة لنفسه
فحبّ الجبان النفس أورده البقا
ويختلف الرزقات والفعل واحد^٦
إلى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا^٦

* * *

فأضحت كأن السور من فوق بدئه
إلى الارض قد شق الكواكب والتريا^٧

١ فكيف لا تهاب وهي عربية كريمة الاصل (اشارة الى سيف الدولة) .

٢ لينأ أهل الثغر بحسن رأيك وانك يا حزب الله قد صرت حزبا لهم .

٣ الدمستق زعيم الروم .

٤ و ه اللقان امم مكان . والرماحان اي رماح الفريقين .

٦ في هذه الابيات الحكمية يشير الى هرب الدمستق واقدام سيف الدولة فيقول ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتها واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد .

٧ أضحت ، أي مرعش ، وسورها يناطح النجوم علواً وهو راسخ في أحشاء الارض .

تصدّ الرياح الهوج عنها مخافة وتفزع فيها الطير أن تلتقط الحبا
كفى عجباً أن يعجب الناس أنه بنى مرعشاً تبّاً لأرائهم تبّاً
وما الفرق ما بين الانام وبينه إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للمدى وسمته دون العالم الصارم العضبا
ولم تفرق عنه الأسنة رحمة ولم تترك الشام الاعادي له حبا
ولكن نفاها عنه غير كريمة كريم الثنا ما سبّ قطّ ولا سبّا
وجيش يثنى كلّ طود كأنه خريق رباح واجهت غصناً رطباً
كان نجوم الليل خافت مغاره فمدّت عليها من عجاجته حجباً
فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه

فهذا الذي يرضي المكارم والربا

وقال يذكر فوزه على الروم

في قلعة الحدث (بالاناضول) وكان المتني قد صحبه
في هذه المعركة

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلّف سيف الدولة الجيش ممّ وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدّعيه الضراغم
يفدّي أتمّ الطير عمراً سلاحه نسور الفلا أحداثها والقشاعم
وما ضرّها خلقٌ بغير مخالبٍ وقد خلقت أسيافه والقوائم^١

* * *

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقين الغنائم^٢
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم

١ ولو ان النسور بغير مخالب فما ضرها ذلك لأن سيوفه تغنيها يحشث القتل .

٢ وصفها بالحمراء لما تلطخت به من دماء القتلى وكانت قد أصيبت ببطر قبل ذلك .

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
 وكان بها مثل الجنون فأصبحت
 طريدة دهرٍ ساقها فرددتها
 تفتت الليالي كل شيء أخذته
 إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
 وكيف ترجتي الروم والروس هدمها
 وقد حاكموها والمنايا حواكم

* * *

أتوك يحرّون الحديد كأنما
 إذا برقوا لم تعرف البيض^١ منهم
 خيس^٢ بشرق الأرض والغرب زحفه
 تجمع فيه كل لسن وأمة
 قلله وقت ذوب الغش ناره
 تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا
 وقفت وما في الموت شك لواقف
 تمر بك الأبطال كلهم هزيمة^٣
 تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي
 هممت جناحيهم على القلب ضمة
 بضرب أتى الهامات والنصر غائب^٤
 حقرت الردينيات حتى طرحتها

سرّوا يجياد ما هنّ قوائم^٥
 ثيابهم من مثلها والعمائم
 وفي أذن الجوزاء منه زمازم
 فما يفهم الحداث إلا التراجم
 فلم يبق إلا صارم أو ضبارم^٦
 وفرّ من الفرسان من لا يصادم
 كأنك في جفن الردى وهو نائم
 ووجهك وضاح وثرعك باسم
 إلى قول قوم انت بالغيب عالم
 تموت الخوافي تحتها والقوادم^٦
 وصار إلى اللبّات والنصر قادم
 وحتى كأن السيف للرمح شاتم

١ التائم هي التعاويذ التي كانوا يتوقعون بها مس الجن .

٢ أي كان الدهر قد سلب الروم عليها فرددتها برماحك رغم أنفه .

٣ تفتت الليالي أي تكرر ما على تركه . وغوارم أي ملزمة بدفع غرامته .

٤ البيض السيوف . أي مدرعون بالحديد وظل رؤوسهم خوذ الحرب .

٥ ضبارم شجاع .

٦ أي أهلكك الجيش جميعه .

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فلإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارمُ

* * *

نثرهم فوق الأحيدِب كَلته كما نثرت فوق العروس الدراهم^١
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى

وقد كثرت حول الوكور المطاعم
أفي كلِّ يومٍ ذا الدمستقُ مُقدّمٌ قفاه على الاقدام للوجه لائم
أينكر ريحَ الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريحَ الليوث البهائم
وقد فجعتنه بابنه وابنِ صهره وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم^٢
مضى يشكر الأصحاب في قوته الظُهي

لما شغلتها هامُهمُ والمعاصم^٣
ويفهم صوتَ المشرفيّة فيهم على أن أصوات السيوف أعاجم
يسرّ بما أعطاك لا عن جهالة ولكن مغنوماً نجاً منك غانم

* * *

تشرف عدنانُ به لا ربيعة تشرف
لك الحمد في الدُرّ الذي لي لفظه
واني لتعدو بي عطاياك في الوغى
على كل طيّارٍ إليها برجله
ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلی
ولم لا يقي الرحمن حدّيك ما وقى
وتفتخر الدنيا به لا العواصم^٤
فلأنك معطيه واني ناظم
فلا أنا مذموم ولا أنت نادم^٥
إذا وقعت في مسميه الغماغم
ولا فيه مراقب ولا منه عاصم
وراجيك والاسلام انك سالم
وتفليقه هامَ العدى بك دائم

١ الاحيدب اسم جبل .

٢ إشارة الى فوز سابق للممدوح على هؤلاء .

٣ مضى يشكر أصحابه لأنهم شغلوا برؤوسهم السيوف فلم قتله .

٤ ربيعة قبيلة سيف الدولة . والعواصم هي البلاد المتاخمة للروم وعاصمتها انطاكية .

٥ إشارة الى عطاياك من الخيول .

وقال يمدحه ويعاتبه

على حيف لحقه منه ويظهر ما كان في نفسه من تحامل حساده عليه

واحرّ قلباه ممّن قلبه شبيم ومّن يحسمي وحالي عنده سقم^١
مالي أكتّم حبّاً قد برى جسدي وتدّعي حبّاً سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حبّاً لغرته فليت أنّا بقدر الحب نقسم
قد زرتّه وسيوف الهند مغمدة^٢ وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم
فوت العدو الذي يمتّه ظفر^٣ في طيه أسف في طيه نعيم
قد تاب عنك شديد الخوف واصطنعت

لك المهابة ما لا تصنع البهم^٢
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها أن لا يواريهم أرض ولا علم
أكلتها رمت جيشاً فانشى هرباً تصرّفت بك في آثاره الهمم
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر^٣ تصافحت فيه بيض الهند والشمم

* * *

يا أعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة^١ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره^٢ إذا استوت عنده الأنوار والظلم
سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسمى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

* * *

وجاهل مدّه في جهله ضحكي حق أتته يد فراسة^١ وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة^٢ فلا تظنّ ان الليث يبتسم

١ شيم بارد .

٢ البهم الجيوش .

ومهجة مهجتي من همّ صاحبها أدركتها بجوادٍ ظهره حرّم^١
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
الحيل والليل والبيضاء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم^٢
ان كان سرّكم ما قال حاسدا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة أن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذات الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواقه يزيلهنّ الى من عنده الدّيم^٣
أرى النوى يقتضي كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرّسم
لئن تركن ضميراً عن ميامنا ليحدثنّ ليمن ودعتهم ندم^٤
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم
شرّ البلاد مكان لا صديق به وشرّ ما قنصته راحتي قنص^٥
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك ألا أنه مِقة قد ضمنّ الدرّ إلا أنه كلم^٦

١ أي ورب مهجة هم صاحبها اتلاف مهجتي ادركتها بجوادٍ فقضيت عليها .

٢ أمم قريب .

٣ يشبه سيف الدولة بالغمام وسخطه بالصراخ ، والديم بغطاية - أي ليت غضبه يكون على من غمرهم بغطاية وهم لا يستحقونها .

٤ ضمير جبل وهو يشير الى سفره والى ان المدوح سيندم على ذلك .

٥ يشير الى ان سيف الدولة سوى عنده بين المتني وسواه من صعاليك الشعراء .

٦ مِقة من فعل ومق معناها الحب .

بعض مدائحه في كافور

قال سنة ٣٤٦ وهي أولى قصائده في مصر وكان كافور
قد تلقاه بحفاوة وحمل اليه آلافاً من الدراهم

كفى بك داءً ان ترى الموت شافياً	وحسب المنيا ان يكنّ أمانياً ^١
تمنيتها لما تمنيت ان ترى	صديقاً فأعيا أو عدوّاً مداجياً ^٢
إذا كنت ترضى ان تعيش بذلة	فلا تستجيدنّ العتاق المذاكياً ^٣
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى	ولا تستقى حتى تكون ضوارياً ^٤
حببتك قلبي قبل حبك من نأى	وقد كان غداً رآ فكن أنت وافياً ^٥
واعلم انّ البين يشكيك بعده	فلست فؤادي إنّ رأيتك شاكياً
فلنّ دموع العين غداً ربّها	إذا كنّ إثر الغادرين جوارياً
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى	فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
وللنفس أخلاق تدلّ على الفتى	أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
أقلّ اشتياقاً أيها القلب ربّما	رأيتك تصفي الوُدّ من ليس صافياً
خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى	لفارقت شبيبي مّوجع القلب باكياً
ولكنّ بالفسطاط بجرأ أزرتّه	حياتي ونصحي والهوى والقوافيا ^٦
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً	اليه وذا اليوم الذي كنت راجياً ^٧

١ يخاطب الشاعر نفسه ويقول الشدة التي ما وراها شدة ان تكون في حالة تحسب الموت شافياً لك أو أمنية تتمناها .

٢ أعياك ذلك أي أعجزك . ومداجي أي مداري .

٣ العتاق المذاكي أي الخيول الكريمة .

٤ الطوى الجوع .

٥ أي أحببتك يا قلبي قبل حبك لمن في حلب فلا تكن غير وفي لي .

٦ الفسطاط مصر . ويريد بالبحر كافور .

٧ ابو المسك كنية كافور .

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده
يُبدل بمعنى واحد كل فاخر
إذا كسب الناس المعالي بالندى
وغير كثير ان يزورك راجل
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب
وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى
مدى بلغ الأستاذ أقصاه ربه
دعته قلبها الى المجد والعلى
فأصبح فوق العالمين يرويه
وكل سحاب لا اخـص الفواديا
وقد جمع الرحمن فيك المعانیا
فانك تعطي في نداءك المعاليا
فيرجع ملكاً للمراقين والیا
لسائلك الفرد الذي جاء عافياً^١
يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا
ولكن بأيام اشبن النواصیا
ونفس له لم ترض الا التناهي
وقد خالف الناس النفوس الدواعيا
وإن كان يدنيه التكرم نائيا

وقال أيضاً يمدحه

أود من الايام ما لا تود
يباعدن حباً يجتمعن ووصله
أبى خلق الدنيا حبياً تديمه
واسرع مفعول فعلت تغيراً
رعى الله عيساً فارقتنا وفوقها
بواد به ما باللوب كأنه
إذا سارت الاحداج فوق نباته
وحال كإحداهن رمت بلوغها
واقعب خلق الله من زاد همه
وأشكو اليها بيننا وهي جند
فكيف بحب يجتمعن وصد
فما طلبي منها حبياً ترد
تكلّف شيء في طباعك ضد
مهيّ كلّها بولي بجفنيه خد
وقد رحلوا جيد تناثر عقد
تقاوح مسك الغانيات ورنده
ومن دونها غول الطريق وبعده^٢
وقصر عما تشتهي النفس وجده^٣

١ قد تهب الجيش الغازي لسائل واحد يأتيك طالباً لمعرفك .

٢ رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها ظباء (حسان) تستقي خدودها من دموعها .

٣ بواد به من الجوى ما بقلوب المحبين .

٤ و حال صعبة الخال كاحدى هذه الحسان .

• همه اي همه ووجده ماله . اي أنصب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله عن ادراكها .

فلا ينحلل في المجد مالك كله
ودبره تدبير الذي المجد كفته
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ولكنّ قلباً بين جنبيّ ما له
يرى جسمه يكسى شفوفاً ترُّبُهُ
وأمضى سلاح قلّده المرء نفسه
هما ناصرا من خانه كلُّ ناصر
أنا اليوم من غلمانهِ في عشيرةٍ
فمن ماله مال الكير ونفسه
نجرّ القنا الخطيّ حول قبابه
أبو المسك لا يفنى بذنبك عفوه
فيا أيها المنصور بالجّد سعيه
تولّى الصبى عني فاخلفت طيبه
لقد شبّ في هذا الزمان كهوله
ألا ليت يوم السير يخبر حره
وليتك ترعاني وحيران ممرض
واني إذا باشرت أمراً أريده
وما زال أهل الدهر يشتبهون لي
يقال إذا أبصرت جيشاً وربّه
والقى الفم الضحك أعلم انه

فينحلّ مجدّ كان بالمال عقده
إذا حارب الاعداء والمال زنده
ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
مدى ينتهي بي في مرادٍ احده
فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه^١
رجاء أبي المسك الكريم وقصده
وأسرة من لم يكثر النسل جدّه
لنا والدّ منه يفديه ولده
ومن ماله درّ الصغير ومهده
وتسردي بنا قُبّ الرباط وجرده^٢
ولكنه يفنى بعذرك حقدّه
ويا أيها المنصور بالسمي جدّه^٣
وما ضرّني لما رأيتك فقدّه
لديك وشابت عند غيرك مُردّه
فتسأله والليل يخبر برّده
فتعلم اني من حسامك حدّه^٤
تدانت أقاصيه وهان أشدّه
اليك فلما لحت لي لاح فردّه
امامك ربّ ربّ ذا الجيش عبده^٥
قريب بذى الكفّ المفدّة عهده^٦

١ يرى جسمه منطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير .

٢ وتجري بنا الخيول .

٣ الجد ، الحظ .

٤ حيران اسم جبل اي ليتك كنت تراني وانا أسير مقابل حيران لتعلم مضائي وعزمي .

٥ و ٦ وكلما أبصرت جيشاً على الطريق كان يقال لي أترى هذا الجيش ان قائده عبد لمن أنت تقصده ، وكلما رأيت فما ضحاكاً اعلم انه قريب العهد بتقبيل يدك المفدّة .

فزارك مني من اليك اشتياقه
 فإن نلت ما أملت منك فربما
 ووعدك فعل قبل وعدي لانه
 فكن في اصطناعي محسناً كمجرب
 اذا كنت في شك من السيف فابله
 وما الصارم الهندي كغيره
 وانك للمشكور في كل حالة
 فكل نوال كان أو هو كائن
 واني لفي بحر من الخير أصله
 وما رغبت في عسجد أستفيده
 يحود به من يفضح الجود جوده
 فإنك ما مر النحوس بكوكب

وفي الناس الا فيك وحدك زهد
 شربت بماء يعجز الطير ورده
 نظير فعال الصادق القول وعده
 بين لك تقريب الجواد وشده^١
 فاما تنفيه واما تعدده
 اذا لم يفارقه النجاد وغمده
 ولو لم يكن إلا البشاشة رفته
 فلحظة طرف منك عندي نده
 عطاياك أرجو مدتها وهي مدته
 ولكنها في مفخر أستجده
 ويحسده من يفضح الحمد حمده
 وقابلته الا ووجهك سعده

ومن مدائح

من الجآذر في زي الأعاريب
 إن كنت تسأل شكاً في معارفها
 ما أوجه الحضرة المستحسنات به
 حسن الحضارة مجلوب بتطرية
 أين المعيز من الآرام ناظرة
 أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها

حمر الحلى والمطايا والجلابيب^٢
 فمن بلاك بتسديد وتعذيب
 كأوجه البدويات الرعابيب^٣
 وفي البداوة حسن غير مجلوب^٤
 وغير ناظرة في الحسن والطيب^٥
 مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

١ التقريب نوع من عدد الفرس .

٢ الجآذر أولاد بقر الوحش تشبه بها النساء لجمال عيونها . يقول من هؤلاء البدويات الحسان حمر الحلى والثياب والراكبات على النياق الحمر (هي اكرم النياق) .

٣ الرعابيب الطويلات المثلثات الجسم .

٤ التطرية التكلف والصنعة .

٥ يقصد بالمعيز نساء الحضر والآرام «الظباء» البدويات .

ومن هوى كل من ليست بموهبة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قلبي وعادته رغبته عن شعر في الرأس مكذوب

* * *

ليت الحوادث باعطني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي^٢
فما الحداثة من حلم بمأنة ترعرع الملك الاستاذ مكتسلا
يُدبّر الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب
يصرف الأمر فيها طين خاتمه قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم
الى الذي تهب الدولات راحت الى الذي تهب الدولات راحت
ولا يروع بغدور به أحداً وجددت أنفع مال كنت أذخره
وما رأيت صروف الدهر تغدري وكيف أكفر يا كافور نعمتها
أنت الحبيب ولكني أعوذ به من ان أكون محباً غير محبوب

وقال يمدحه سنة ٣٤٧

فراق ومن فارقت غير مذمّم وأم ومن يمتّ خير ميمّم

- ١ التمويه أي الطلي ويراد به التزيين .
- ٢ ليت الحوادث ترجع لي ما سلبتني من الشباب وتأخذ ما اعطتني من العقل والتجربة .
- ٣ أي نشأ حاصلًا على عقل الكهول قبل أن يكون كهلاً .
- ٤ يدبر الامور بطين خاتمه الذي يختم به رسائله ولو أحمى النقش الذي فيه .
- ٥ قالوا هجرت المطر بتركك سيف الدولة فقلت الى امطار يدي كافور الساكبة .
- ٦ اي لا يغدر بأحد ليروع به غيره ولا يسلب أحداً ليفزع غير المسلوب .
- ٧ وجدت أنفع مال جري الخيل .
- ٨ النون في رَأَيْن راجعة الى الخيل أي لما رأت الخيل غدر الدهر بي وفيت لي بحلمي عن مواطن الغدر وكذلك وفيت لي الرماح .

وما منزل اللذات عندي بمنزل
سجية نفس ما تزال مليحة
رحلت فكم بالك بأجفان شادن
وما ربة القُرط المليح مكانه
فلو كان ما بي من حبيب مقنع
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
إذا لم أيجل عنده واكرّم
من الضيم مرمياً بها كل مخرم^١
عليّ وكم بالك بأجفان ضيغم^٢
بأجزع من ربّ الحسام المصمّم
عذرت ولكن من حبيب معتم^٣
هوى كاسر^٤ كفتي وقوسي وأسهمي

* * *

إذا ساءَ فعلُ المرء ساءَت ظنونه
وعادى محبّيه بقول عداته
أصادق نفسَ المرء من قبل جسمه
واحلّم عن خلي واعلم انه
وإن بذلَ الانسان لي جود عابس
وأهوى من الفتیان كلّ سَمِيزع^٤
خطت تحته العيس الفلاة وخالطت
ولا عفة^٥ في سيفه وسانه
وما كلّ هاور للجميل بفاعل
فدى لأبي المسك الكرام^٥ فانها
اغرّ بمجدٍ قد شخصن وراه
إذا منعت منك السياسة نفسها
وصدّق ما يعتاده من توهم
وأصبح في ليل من الشك مظلم
وأعرفها في فعله والتكلم
متى اجزّه حلاً عن الجهل يندم
جزيت يحود التارك المتبسم
نجيب كصدر السميري المقوم
به الخيل كبّات الخيس العرمم
ولكنها في الكف والطرف والفم
ولا كلّ فعّال له بتمم
سوابق خيل يهتدين بأدهم^٥
الى خلق رحب وخلق مطهم
فقف وقفة قدّامه تتعلم

١ مليحة من الضيم اي خائفة منه . مخرم طريق في الجبال .

٢ رحلت فكم حسناء تبكي عليّ وكم بطل .

٣ الحبيب المقنع كناية عن المرأة والحبيب المعتم عن الرجل (يقصد سيف الدولة) .

٤ السميزع : الشريف الشجاع .

٥ ابو المسك أي كافور . جعل الكرام جياداً وهو الادم في مقدمتهم .

يضيق على من رآه العذر ان يرى ضعيف المساعي او قليل التكرم^١
ومن مثل كافور اذا الخيل احجمت وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
شديد ثبات الطرف والنقع واصل^٢ الى لهوات الفارس المتلثم^٣

* * *

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى

وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يفيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم
ولم أرج الا أهل ذاك ومن يرد^٤ مواطر من غير السحائب يظلم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلي كلاب قبائل كأن بها في الليل حملات ديلم^٥
ولا اتبعت آثارنا عين قائف^٤ فلم تر الا حافراً فوق منسم^٤
وسمنا بها البیداء حتى تغمرت من النيل واستدرت بظل المقطم

* * *

وابلج يعصي باختصاصي مشير^٥ عصيت بقصديه مشيري ولؤمي
فساق إلى العرف غير مكدر^٥ وسقت اليه الشكر غير مجهم
قد اخترتك الأملاك فاختر لهم بنا حديثاً وقد حكمت رأيك فاحكم^٥
فاحسن وجه في الورى وجه محسن وايمن كف منهم كف منعم
واشرفهم من كان أشرف همة^٥ وأكثر اقداماً على كل معظم
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد^٥ بها سرور محب^٥ او مساءة مجرم

* * *

١ راء بمعنى رآه .

٢ الطرف المهر اي شديد الثبات حين اشتداد الوغى .

٣ اي ولولاك لما قطعت القفار حتى قبحت خيلي كلاب القبائل كاني من بعض عصابات الديلم .

٤ القائف هو الذي يتتبع الاثر ليعرف صاحبه .

٥ أي قد اخترتك واستغنيت بك عن كل الملوك فأحسن إلي احساناً يلهجون به .

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم
ولكنّ ما يمضي من الدهر فائتُ فجُدْ لي بخطّ البادر المتغنم
رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقدتُ اليك النفس قود المسلم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده فكلّمه عني ولم أتكلم

مرثاته في أبي شجاع فاتك الرومي

وكان من المشهورين بالمكانم وقد توفي بمصر سنة ٣٥٠

الحزن يُقلق والتجمل يردعُ والدمع بينهما عصي طبعُ
يتنازعان دموعَ عينٍ مسهدٍ هذا يجيءُ بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر والليلُ معي والكواكب ظلمعُ^١
اني لأجبن عن فراق أحبتي وتحسّ نفسي بالحمام فاشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوةً ويُلّم بي عتب الصديق فأجزع
تصفو الحياة لجاهل أو غافلٍ عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصراع؟
تتخلف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
لم يُرض قلبَ أبي شجاع مبلغُ قبل المات ولم يسهه موضع
كنا نظنّ دياره مملوءةً ذهباً فمات وكلّ دار بلقع
واذا المكانم والصوارم والقنا وبناتُ أعوج كل شيء يجمع^٢
المجد أخسرُ والمكانم صفقةً من أن يعيش لها الهامُ الأروع
والناس انزلُ في زمانك منزلاً من ان تعايشهم وقدرك أرفع^٣

١ النوم بعده لا يالف العين والليل يطول كأنه منهوك من التعب والكواكب عرجاء لا تحسن السير.

٢ كنا نظن دياره مملأ بالذهب والاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع في حياته غير المكانم والسلاح والخيول .

٣ الناس في زمانك أقل قدراً من أن تعيش بينهم .

برّد حشاي ان استطعت بلفظة
ما كان منك الى خليل قبلها
ولقد أراك وما تلم ملّة
ويدّ كأنّ نوالها وقتالها
يا من يبدّل كل يوم حلّة
ما زلت تخلعها على من شاءها
فظللت تنظر لا رماحك شرّع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثّر
واذا حصلت من السلاح على البكا
وصلت اليك يدّ سواء عندها الـ
من للمحافل والجمعاقل والسرى
ومن اتخذت على الضيوف خليفة
قبعا لوجهك يا زمان فإنه
أبوت مثل أبي شجاع فأتك
أبقيت أكذب كاذب أبقيته
ولّى وكلّ مخالم ومنادم
من كان فيه لكل قوم ملجأ
ان حلّ في فرس ففيها ربّها
او حلّ في روم ففيها قيصر
قد كان أسرع فارس في طعنة
لا قلّبت أيدي الفوارس بعده

فلقد قضرّ اذا تشاء وتنفع
ما يستراب به ولا ما يوجع
الا نفاها عنك قلب أصم
فرض يحق عليك وهو تبرّع
انسى رضيت بحلة لا تنزع
حتى لبست اليوم ما لا تخلع
فيا عراك ولا سيوفك قطع
يبكي ومن شرّ السلاح الادمع^١
فحشاك رعت به وخدك تقرّع
بازي الأشيهب والغراب الأبقع^٢
فقدت بفقدك نيرا لا يطلع
ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيّع
وجه له مسن كل قبح برقع
ويعيش حاسده الخصي الأوكع^٣
وأخذت أصدق من يقول ويسمع
بعد اللزوم مشيّع ومودّع
ولسيفه في كل قوم مرتع
كسرى تذلل له الرقاب وتخضع
أو حلّ في عرب ففيها تبّع^٤
فرسا ولكنّ المنية أسرع
رحا ولا حملت جوادا أربع

-
- ١ يقصد بالوحيد الفريد . وقوله بأبي للتفدية .
 - ٢ وصلت اليك يد الموت التي يتسارى بها العظيم والحقير .
 - ٣ الخصي الأوكع يقصد به كافورا .
 - ٤ أي انه عظيم تظهر عظيمته أينما حل في الفرس أو في الروم أو العرب .

وقال يرثي والده سيف الدولة ويعزيه عنها

سنة ٣٣٧

نُعدّ المشرفيّة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
ونزقبطُ السوابقَ مُقرباتٍ وما يُنجين من خببِ الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصالِ
نصيبك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامك من خيالِ
رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرتُ اذا اصابني سهامٌ تكسرت النصال على النصالِ
وهذا أول الناعين طرّاً لأول ميتة في ذا الجلالِ
كان الموت لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببالِ
صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفّن بالجمالِ
على المدفون قبل التراب صونا وقبل اللحد في كرم الخلالِ
أطابَ النفسَ أنكِمت موتاً تمنّته البواقي والحوالي
وزلت ولم ترَي يوماً كريهاً تسرّ النفس فيه بالزّوالِ
رواق العزّ فوقك مسبطاً ومملك عليّ ابنك في كال^١
سقى مثواك غادٍ في الغواصي نظيرُ نوال كفّك في النوال^٢
يمرّ بقبرك العافي فيبكي ويشغله البكاء عن السّؤالِ
وما أهداك للجدوى عليه لو أنّك تقدرين على فعالِ
بعيشك هل سلوتِ فانّ قلبي وان جانبك أرضك غير سالِ
نزلتِ على الكراهة في مكانٍ بعدت عن النّعامي والشّمال^٣
تحجّبُ عنك رائحةُ الخزامى وتمنّعُ منك انداءُ الطلالِ
بدارٍ كلّ ساكنها غريب بعيد الدار منبتّ الحبالِ

١ علي أي سيف الدولة .

٢ سقى قبرك سحاب هاطل يشبه جود كفك .

٣ نزلت في مكان بعدت فيه عن ريح الشمال وريح الجنوب (يعني القبر) .

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ الْمِزْنِ فِيهِ
يَعْلَلُهَا نَطَاسِيٌّ الشَّكَايَا
إِذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِشَغْرِ
وَلَيْسَتْ كَالْأَنَاثِ وَلَا اللَّوَاتِي
وَلَا مِنْ فِي جَنَازَتِهَا تِجَارٌ
مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلِهَا حَفَاةٌ
وَلَوْ كَانَتِ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا
وَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مِنْ وَجَدْنَا
يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمُشِي
وَكَمْ عَيْنٌ مُقْبِلَةٌ النُّوَاحِي
وَمَغْضٍ كَانَ لَا يَغْضِي لِحُطْبٍ
أَسِيفُ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجَدُ بِصَبْرِ
وَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّعْزِي
وَحَالَاتِ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَى
رَأَيْتَكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مَلُوكًا
فَانْفَقَ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ

كَتُومٌ السَّرُّ صَادِقَةٌ الْمَقَالِ
وَوَاحِدُهُمَا نَطَاسِيٌّ الْمَعَالِي ١
سَقَاهُ أَسْنَتُهُ الْأَسْلَ الطَّوَالِ
تُعَدُّ لَهَا الْقُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ
يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضُ النِّعَالِ
كَأَنَّ الْمَرُوءَ مِنْ زِفَةِ الرِّثَالِ ٢
لِفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَلَا التَّذْكِيرُ فِخْرٌ لِلْهَلَالِ
قُسْبِيلُ الْفَقْدِ مَفْقُودُ الْمِثَالِ
أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
كَحِيلٍ بِالْجِنَادِلِ وَالرَّمَالِ
وَبَالٍ كَانَ يَفْكَرُ فِي الْهَزَالِ ٣
وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْجِبَالِ
وَحَوْضُ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ
وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ
كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مَحَالِ
فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ ٤

وَقَالَ يَصِفُ حَمِيَّ أَصَابَتِهِ وَيَعْرِضُ بِالرَّحِيلِ عَنْ مِصْرَ
مَلُومَكُمَا يَحِلُّ عَنْ الْمَلَامِ وَوَقَعَ فَعَالُهُ فَوْقَ الْكَلَامِ ٥

- ١ يداوئها طبيب الأمراض ولكن ابنها طبيب المعالي .
- ٢ لم تكن من العامة فيسير وراءها أهل السوق والتجار ولكن الأمراء مشوا حفاة وراءها كأنما الحجارة كانت من وبر النعام .
- ٣ وكم عين كانت تقبل دلالاً أصبحت مكتحلة بالتراب وكم رجل كان لا ينكس رأسه لحطوب أصبح منكساً في القبر . وكم من كان يفكر كثيراً في صحته وأصبح الآن بالياً بتأثير الحمام .
- ٤ ليس من الغريب أن تفوق الناس وأنت منهم فإن المسك وهو من دم الغزال يفضلته كثيراً .
- ٥ يخاطب صاحبيه فيقول إن من تلومانه (على ركوب الاسفار) هو أعلى من أن يصل إليه الملام .

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام
 فاني أستريحُ بذِي وهذا وأتعبُ بالاناحة والمقام
 ولا أُمسي لاهل البخل ضيفاً وليس قرى سوى مخّ النعام^١
 ولمّا صار ودّ الناس خبثاً جزيت على ابتسام بابتسام^٢
 وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلمي انه بعض الانام
 يحبّ العاقلون على التصافي وحبّ الجاهلين على الوسام^٣
 وآنف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجده من الكرام
 أرى الاجداد تغلبها كثيراً على الاولاد اخلاق اللثام^٤
 ولستُ بقانع من كل فضل بان أعزى الى جدّ ممام^٥
 عجبت لمن له قدّ وحده وينبو نبوة القضم الكسّام^٦
 ومن يحدّ الطريق الى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام^٧
 ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

* * *

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تحبّ بي الركاب ولا أمامي^٨
 وملّتي الفراش وكان جنبي يملّ لقاءه في كل عام
 قليلٌ عائدي سقيم فؤادي كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

-
- ١ وليس لي زاد البتة . إشارة الى ان النعام لا مخ له .
 ٢ خبثاً اي خداعاً .
 ٣ الوسام حسن المنظر . يقول ، العاقل يحب لاجل تصافي الود بينه وبين محبوبه اما الجاهل فيهتم بالهيئة الخارجية .
 ٤ اي ان الاخلاق اللثيمة قد تغلب الاصل الكريم فيجزي الولد لثيماً .
 ٥ اي لا اقنع ان أنسب الى جد كريم بل ادرك الفضل بنفسه .
 ٦ اي عجبت من الشباب القوي الذي اذا عرض له الامر العظيم رجع عنه رجوع السيف الذي لا يقطع .
 ٧ من لا يذيب اسنمة الابل يجهاده في سبيل المعالي .
 ٨ تحب بي الركاب أي تسير بي الابل ، ويريد بهذا البيت انه لزم الإقامة بها .

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

* * *

وزائرتي كانت بها حياة ^١	فليس تزور الا في الظلام ^١
بذلت لها المطارف والحشايا	فعاقتها وباتت في عظامي ^٢
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام
كان الصبح يطردها فتجري	مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدما والصدق شر ^٣	اذا القاك في الكرب العظيم
أبنت الدهر عندي كل بنت	فكيف وصلت انت من الزحام ^٣
جرحته مجرحاً لم يبق فيه	مكان للسيوف ولا السهام
يقول لي الطبيب اكلت شيئاً	وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد ^٤	اضر بحسه طول اللجام ^٤
تعود أن يُغَبَّر في السرايا	ويدخل من قتام في قتام ^٥
فأمسك لا يطال له فيرعى	ولا هو في العليق ولا اللجام ^٦

١ إشارة الى الحمى .

٢ المطارف : اردية الخرز . والحشايا الفرش .

٣ يريد ببنت الدهر الحمى وبنت الدهر شدائده فيقول : ايتها الحمى ، عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم ينعك ازدهام من الوصول الي .

٤ اللجام : الراحة .

٥ تعود ان يثير النبار بين الجيوش ويخرج من غبرة الى غبرة اي من معركة الى اخرى .

٦ فأمسك لا يرعى له الحبل فيرعى ولم يقدم له العليق فياً كل ولم يكن تحت اللجام في السفر وقد شبه حالته مع كلفور بحالة هذا الجواد .

المصري

ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان

٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ

٩٧٤ م - ١٠٥٨ م



مصادر دراسته - عصره ونشأته - زندقته وإيمانه - شاعريته
شعره في سقط الزند واللتوميات - مواقفه الشعرية

مصادر دراسته

- نزهة الالباء للانباري ٤٢٥
كتاب الانصاف والتحري - لكamal الدين ابن العديم
وهو منشور ضمن كتاب اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ من ص ٧٨
معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ - ٢١٦
وفيه ما دار من المراسلات بين المعري وداعي الدعاة
وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ (تحت حرف احمد)
ترجمة المعري للذهبي منشورة في ذيل رسائل المعري (اكسفورد)
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢
رسائل المعري (طبع اكسفورد)
اللزوميات مطبعة المحروسة (مصر ١٨٩١) وبومباي ١٣٠٣ هـ
مصر ١٧٢٤
شرح التنوير على سقط الزند مطبعة الاسلام (مصر) ١٣٣٤ هـ .

وبما كتب عنه حديثاً :

- ترجمة مسهبة بالانكليزية للاستاذ مرغوليوث في مقدمة رسائل المعري
ترجمة للاستاذ نكلسون في دائرة المعارف الاسلامية
ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ١٧٥ - ١٨٠
المهرجان الالفى للمعري نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٥
ورسائل وترجمات شتى في كتب الأدب والتاريخ لعرب ومستشرقين منها :
ترجمة وشرح بعض اللزوميات لفون كريم في Z. M. D. G.
المجلد ٣٠ و ٣١ و ٣٨ .

عصره وبينته

ذكرنا في فصل سابق ان اماره بني حمدان كانت أيام سيف الدولة في حروب متواصلة وان هذا الامير كان كثير السخاء على الادباء والعلماء ، وقد اضطره كل ذلك الى الانفاق والتشديد في جمع الاموال من رعيته . ولما مات خلفه ابنه ابو المعالي ثم ابنه ابو الفضائل ، وفي ايامها تفاقمت الخطوب وأصبحت اماره حلب يوم نشأ شاعرنا معتركا لاربع قوى رئيسية :

الاولى - الحمدانية وكانوا قد ضعف أمرهم وأخذت السيطرة تخرج من أيديهم .

الثانية - الفاطمية أصحاب الامر في مصر وكان هؤلاء مطامع في حلب ، فلم يألوا جهداً في دس الدسائس وارسال الجيوش لفتحها .

الثالثة - قبائل البادية ، ومنهم المرداسية التي كان لها شأن يذكر في هذا الاضطراب السياسي .

الرابعة - الروم ، وغاراتهم على اماره بني حمدان معروفة . على انهم بينا كانوا أيام سيف الدولة يُعدّون أعداء المسلمين عموماً ، أصبحوا أيام المعري - بسبب تطاحن امراء المسلمين - عوناً لبعض هؤلاء الامراء على بعض وسبباً في توسيع شقة الخلاف بينهم . فمن ذلك انهم ناصرُوا ابا الفضل ابن حمدان على الفاطميين ، وكانت هؤلاء يحاصرون حلب^١ . وبهم استنجد حسان بن المفرّج ولؤلؤ مولى ابي الفضل . فكان بين المسلمين

١ ذيل تجارب الامم للروذراوري (امدوز ١٩١٦) حوادث سنة ٣٨١ .

حروب داخلية أدت الى تدخل الروم وانحيازهم الى أحد الفريقين ، مما زاد الطين بلة في تلك الفوضى السياسية . وانك لتلمح في شعر المعري شيئاً من ذلك فقد قال في مدحة له لاحد الامراء :

ايوعدنا بالروم ناس وانما هم النبت والبيض الرقيق سوام
كأن لم يكن بين الخاض وحارم كئائب يُشجين الفلا وخيام^١
كئائب من شرق وغرب تألبت فرادى اثاها الموت وهو تَؤام

ويؤخذ من هذه الابيات ان بلدة الشاعر كانت في يد أمير معادي للروم ، والارجح انها كانت قد استقلت يومئذ عن حلب ، وان اعداء ذلك الأمير كانوا يتوعدونه باستنجد الروم عليه ، فنظم الشاعر قصيدته مشيراً الى بأس الأمير والى انهزام كئائب الروم بين هذين المكانين وانهم لذلك لا يخشون بأسهم ولا يبالون بوعيدهم .

فاذا نظرنا الى الاحوال السياسية التي نشأ فيها ابو العلاء : نراها كثيرة الاضطراب والفتن والاهوال ، ولا شك أن ذلك شديد التأثير في أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فاشتدت فيها الضائقة والفساد وبرزت في الرؤساء الروح الاشعبية ، روح التكالب على المال والامارة مما يُعكس لنا جلياً في شعر شاعرنا الكبير :

مُلّ المقام فكم اعاشر امّة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

مولده ونشأته

وُلِدَ المعري في المعرة وفيها نشأ . والمعروف من كتب التاريخ انه أصيب بجُدري وهو في الرابعة من عمره ذهب بنظره . على ان عمه لم

١ الخاض نهر قرب المعرة ، وحارم بلدة قرب انطاكية . يشجين الفلا أي يغص بهم الفلا لكثرتهم .

يكن في أول الامر كلياً ، فان النصوص كلها تشير الى ان الجدي ذهب بيسرى عينيه وغشي يناما بياض . ويقول الانباري : « انه كان ضريراً اعمى ولم يكن اكمه كما توهم من لا علم له ^١ » . وقد روى ابن العديم عن بعض اهل الادب حكاية نقلها عن رجل اسمه ابو منقذ انه رأى ابا العلاء وهو صبي دون البلوغ فقال في وصفه : وهو صبي دمى الخلق مجدور الوجه وعلى عينه بياض من الجدي وكأنه ينظر باحدى عينيه قليلاً ^٢ .

والذي يترجح لدينا من ذلك ان الشاعر لم يفقد بصره تماماً الا بعد بضع سنوات من مرضه . على ان ما فقدته من باصرته استعاض عنه بمحبة بصيرته ، فقد اجمع المؤرخون على شدة ذكائه وقوة حافظته ، ولهم في ذلك أقاصيص وروايات معروفة ^٣ .

والمرتب من بيت علم ورئاسة ^٤ — فأبوه من العلماء ، وجدّه واپو جدّه وجدّه كالمهم تولّوا قضاء المعرة . وقد بقي القضاء في بني أخيه الى ان دخلها الافرنج سنة ٤٩٢ هـ — أي الى ما بعد موت الشاعر بأكثر من اربعين سنة .

ومن آله (آل سليمان) فضلاء وعلماء وشعراء لا يتسع المقام لذكرهم ، وكانت الفتاوى (على ما يستفاد من ياقوت وابن العديم) في بيتهم على المذهب الشافعي أكثر من مئتي سنة .

في وسط علمي ديني كهذا الوسط نشأ شاعرنا فأخذ العلم والادب أولاً عن أبيه ثم عن جماعة من علماء المعرة ، وزار في حدائقه بعض المدن الشامية المعروفة بالعلم كانطاكية واللاذقية وطرابلس ، فأخذ العلم من علمائها

١ طبقات الادباء ٤٢٥ .

٢ الانصاف والتعري (في اعلام النبلاء ج ٤ - ١٠٤) .

٣ راجع ترجمته في معجم الادباء ، وفي الانصاف والتعري (طبائخ ٤ - ١٠١) .

٤ مفتاح السعادة ١ - ١٩١ .

٥ معجم الادباء ١ - ١٦٤ .

وبما وجدته في مكاتبها . ويؤخذ من رسالته الى خاله ابي القاسم ابن سبيكة انه لم يقصد بعد العشرين اهداً اجتداءً لعلم^١ . بقي في ذلك بضع سنوات ثم عاد الى المعرة ، والظاهر انه بدأ حياته العلمية كسائر العلماء والشعراء (في قرض الشعر للامراء) ولكنه لم يكذب يفعل ذلك حتى عدل عنه . فليس له في سقط الزند الا بضع مدائح فيمن يرجى عطاؤهم كسعد الدولة بن حمدان وسواه . وهذه المدائح من أوائل شعره ، أما سائر مديحه ففي فقهاء أو أدباء من طبقته اختصهم بالوداد والاطراء .

ذهابه الى بغداد

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره (أي سنة ٣٩٨) قام برحلة اولى الى بغداد ، ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة . ثم رحل اليها ثانية سنة ٣٩٩ وأقام فيها سنة وسبعة اشهر^٢ .

وهنا لا بدّ من ان نتساءل لماذا رحل الى بغداد ولماذا لم يقيم فيها طويلاً ؟ والذي يؤخذ من مراجعة شعره ورسائله ومقابلتها بأقوال المؤرخين ان الاضطرابات السياسية في حلب والمعرة أهابت به الى ترك وطنه وقصد بغداد^٣ . وكان ينوي الإقامة فيها واستخدام مواهبه في سبيل العلم ، ولكنه لم يوفق الى امنيته ففي رسالته الى خاله ابي القاسم التي كتبها على اثر رجوعه من بغداد يقول : « وكنت ظننت ان الايام تسمح لي بالإقامة ، فاذا الضارية احباً بعراقها ، والعبد أشحّ بكراعها ، والغراب اضنّ بتمرته » . الى أن يقول : « فلما زينت الضروس الحالب ، ونزّت العنود تحت الراكب ، ومنعت القسّوع النازع ، وخيّب رائدأ سحاب ، وكذب شائماً برق ، عادت لِعِترها لَميس^٤ وذكر وجاره ثُعالة » . ثم

١ رسائل المعري (اكسفورد) ٣٢ .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ ويروي الذهبي انه ذهب الى بغداد متظلاً من أمير حلب لمعارضته إياه في وقف له .

٤ مثل يضرب لمن يرجع الى ما كان عليه ويشير هنا الى رجوعه الى وطنه .

يقول : « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، اجمعت على انفرادي كالمظبي في الكناس الخ ، ١ .

ولعلّ ما في طبع المعري من الأنفة منعه من ان يحصل رزقه في بغداد على طريقة المدّاحين المستجدين من الشعراء ، فكان ذلك من الاسباب التي عجّلت في رجوعه . فقد ذكر في الرسالة الآنفه الذكر ان أهل بغداد قابلوه بالاكرام وانهم لما أحسّوا بتأهبه للرحيل اظهروا كسوف بال ، ثم يقول : « وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب ، ما أرقّت منه قطرة في طلب أدب ولا مال » . وتظهر انفته الشديدة ايضاً في ما جرى له في مجلس الشريف المرتضى ، وكان هذا يبغيض المتنبي ، وكان المعري يتعصب له . فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنتقصه المرتضى ، فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله « لك يا منازل في القلوب منازل ، لكفاه فضلاً ، فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه ٢ ، وقال لمن بحضرته : أراد هذا الاعمى قوله :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
وفي شعره كثير مما يشير الى هذا الطبع فيه ، كقوله من قصيدة كتب بها الى الفقيه ابي حامد الاسفراييني عند دخوله بغداد :
ولا اثقل في جاء ولا نشب ولو غدوت اخا عدم واقناع
وما كتبه في بغداد يخاطب اهل بلده :

إخواننا بين الفرات وجلتق يد الله لا اخبركم بحال
انبثكم اني على العهد سالم ووجهي لما يبتذل بسؤال
فاصبحت محسوداً بفضل وحده على بُعد انصاري وقلّة مالي
رجل عزيز النفس مثله يأنف من السؤال ومن التزلف الى كبار القوم

١ راجع رسائل المعري (اكسفورد ٣٠ - ٣٢) .

٢ معجم الادباء ١ - ١٧٠ .

في عصر كان التزلف هو جادة الاديب الى الرزق ، لا يُستغرب ان
تضيق به الحال في عاصمة الخلافة حتى تحمله الى ان يقول :

تمنيت ان الحمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفا رزي الاماني لا انيس ولا مال
مقل من الاهلين يسري واسرة كفى حزننا بين مشت واقلال
وكم ماجد في سيف دجلة لم أشم له بارقا والمرء كالزمن هطال
سيطلبني رزي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ واقبال

وبرغم ما في قصيدته التي ودع فيها بغداد من مدح لاهل تلك المدينة ،
فان في قصائده الاخرى التي قالها في بغداد ما يتم على ما كان يشعر به
من ضيق ومن تحنان الى وطنه ^١ . وفي قصيدة بعث بها الى القاضي
التنوخى يذكر ان الذي أهاب به الى تركها رجاؤه بقاء والدته ونفاذ ماله :

اأرني عنكم امران ، والدته لم ألقها وثرأ عاد مسفوتا
أما والدته فماتت قبل وصوله الى المعرة فجزع لذلك ورثاها رثاء ابن
مفجوع .

ولما عاد الى المعرة لزم منزله وعاش فيه على طريقة الفلاسفة المتقشفين .
ويظهر من بعض رسائله انه فكّر كثيراً في ذلك ، فقد قال من رسائله
لأهل المعرة : « فوجدت ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من
الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألتوت نصيحة لنفسي .
فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد صلاته على نقر يوثق بخصائلهم ،
فكلهم رآه حزماً ، وعدّه اذا تمّ رشداً ، وهو أمر ليس بنتيج الساعة
ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذي الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر
الطويل الخ » ^٢ .

على ان زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل ، بل ترفعاً عن

١ ولا يستبعد ان يكون اكثر ذلك في اثناء رحلته الاولى .

٢ رسائل المعري .

حطام الدنيا وغرورها . فالرجل كان كثير العمل حريصاً على التعليم والتأليف . وفي هذا الطور من حياته نظم لزومياته وصنّف أكثر كتبه ورسائله^١ . وكان منزله محبّة الطلاب يقصدونه من كل الآفاق^٢ ، وإلى ذلك يشير في اللزوميات :

يزورني الناس هذا ارضه يمنّ من البلاد وهذا داره الطيّب

وقد خرج منهم ائمة وقضاة ورؤساء في العلم : منهم الخطيب ابو زكريا التبريزي وابو المكارم الابهري وابو تمام ابن عيسى الانصاري وابو ظاهر الانباري وابو القاسم التنوخي وسواهم .

وبرغم تقشفه ولزومه منزله كان له من الوجاهة اسمى مقام . قال ابن العديم : « وما زالت حرفة ابي العلاء في علاء وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت ان وزيراً مذكوراً وفاضلاً مشهوراً مرّ بمعرّة النعمان في ذلك العصر الا وقصده واستفاد منه^٣ » . وبما يدلّك على وجاهته ما نقله ياقوت والذهبي^٤ من ان أهل المعرّة لما اشتد عليهم صالح بن مرداس لم يحدوا بداً من ايفاد المعري مستشفعاً فيهم ، فقصد الامير ولما دخل عليه قال الامير : انت ابو العلاء ؟ فقال انا ذاك . فرفعه الى جانبه ، وبعد ان خاطبه المعري بأمرهم قال له اني قد وهبتها لك ايها الشيخ .

ولما أصبحت المعرة وحلب تحت سطوة الفاطميين بذل له المستنصر الفاطمي ما ببیت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً ، وكذلك داعي الدعاة لما عرف تزهّد المعري وقلّة دخله كتب الى نائب الفاطميين بحلب بأن يُجري ما تدعو اليه حاجته وان يضاعف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام ،

١ من اراد ان يعرف عدد مؤلفاته فليراجع معجم الادباء والانصاف والتحريري وما نقله الذهبي عن القفطي .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ أعلام النبلاء ٤ - ٢٤٤ .

٤ معجم الادباء ١ - ٢١٦ ورسائل المعري (اكسفورد) ١٣٠ .

فامتنع عن قبول ذلك^١ . وبين المعري وداعي الدعاة رسائل ومكاتبات نستدل منها على ما كانت لشاعرنا من المنزلة الرفيعة عند زعماء ذلك العصر .

ويؤيد كل ذلك ما ذكره الشاعر الفارسي ناصر خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٣٩ أي قبل موت المعري بعشر سنوات ، فوصفه بقوله « انه رجل ذو نفوذ عظيم في بلده وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع انه يعيش عيشة الزهد والتقشف »^٢ .

وفي شعر المعري ورسائله ما قد يزكّي شهادة ناصر خسرو ، كقوله في اللزوميات مشيراً الى ما يعتقده الناس من حسن حاله :

مَنْ لِيَّ اِنْ لَا اَقِمَّ فِي بِلَدٍ اَذْكُرُ فِيهِ بِغَيْرِ مَا يَجِبُ
يُظَنُّ بِي الْيَسْرَ وَالِدِيَانَةَ وَالْعِلْمَ وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا حُجُبُ
ومن قصيدته :

تَفْهَمُ يَا صَرِيحَ الْبَيْنِ بَشْرِي أَتَتْ مِنْ مُسْتَقْلٍّ مُسْتَقِيلٍ
يُسْتَدَلُّ اَنْهُ ارْسَلْ قَدْرًا مِنْ الْمَالِ اِلَى اَدِيبِ اسْمِهِ صَرِيحَ الْبَيْنِ ، وَيَسْأَلُهُ
المُعْذِرَةُ عَلَى قَلَّةِ مَا ارْسَلْ اِلَيْهِ .

وكذلك في قصيدته :

اَيْبَسْتُ عَذْرِي مَنْعَمًا يَخْصِنِي بِمَا هُوَ حَظِّي مِنْ أَلَمِ عِتَابٍ
يَعْتَذِرُ لَفَقِيهِ عَنْ اَنْ اَهْدِيَهُ اَلَّتِي ارْسَلَهَا اِلَيْهِ أَقْلٌ مِنْ قَدْرِهِ وَكَانَ
المعري يومئذ في الخمسين من عمره فقال :

فِيَا لَيْتَنِي اَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حَبَّةً مُضَتْ لِي فِيهَا صَحْتِي وَشَبَابِي
وَقَلَّتْ لَهُ - فَاتْرَكَ ثَلَاثِينَ اسْوَدًا مَتَى مَا تَكْشَفُ تُكْلَفُ غَيْرَ لِبَابٍ
لَعَلَّ الَّذِي انْفَذْتُ يَكْفِيهِ لَيْلَةٌ لَأَسْبَاغِ طَهْرِ حَانَ أَوْ لَشَرَابٍ
وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي إِشَارَةٌ إِلَى اَنْ اَلْهَدِيَةَ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا فَقَطْ .

١ الانصاف والتعري ٤ - ١٤٤ .

٢ نقلاً عن Encyc. of Islam من فصل للاستاذ نكلسون .

ومثلها قوله في رسالة أرسلها الى علوي « وقد بعثت بشيء من النفقة ،
نفسي من قلته كل المشفقة »^١ .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن العديم مما قرأه بخط ابي الفرج محمد بن
أحمد بن الحسن الكاتب الوزير « رورنامج » انشأه لولده الحسن يذكر
فيه رحلته سنة ٤٢٨ الى الحجّ وعبوره بمصرة النعمان ، ويذكر اجتماعه بابي
العلاء ومن قوله فيه : « وقصر همد علي أدب يفيدته وتصنيف يجيده ،
ومتعلم يفضل عليه ومسترفد صعلوك يحسن اليه » . قال : « وله دار حسنة
يأويها ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون
عليه ويكتبون له ، وورّاق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل
معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرّقه على أخيه وأولاده واللائذين
به والفقراء والقاصدين له من الغرباء »^٢ .

ولما قصده الخطيب التبريزي ليقرأ عليه دفع اليه صرّة فيها ذهب ،
وقال : « اوثر من الشيخ ان يدفعها الى بعض من يراه ليشتري لي ما تدعو
اليه الحاجة مدة مقامي للقراءة واتوفر بذلك على الاشتغال » . وعلم المعري
ان هذا الطالب كان فقيراً فأخذ الصرة وخباها وتقدم الى وكيله ان يجري
للخطيب ما تدعو اليه الحاجة مدة اقامته بالمصرة . ولما اتم دروسه وهمّ
بالانصراف ودّع الشيخ ، فدفع اليه صرّته بعينها . ولما اصر عليه الخطيب
قال المعري : لا سبيل الى رد الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه^٣ .

وهناك قصة نقلها الصفدي في نكتت الهميان عن ابن سبط الجوزي
عن رجل دخل المرة أيام المعري وقد وُشيّ بشاعرنا الى محمود بن
صالح انه زنديق — قال : فأمر محمود بحمله اليه وبعث خمسين فارساً
ليحملوه ، فأنزلهم ابو العلاء دار الضيافة .

١ رسائل المعري (اكسفورد) ٣٥ .

٢ الانصاف والتعري ٤ - ١٥٢ .

٣ الانصاف والتعري ٤ - ١٥٢ .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ولكنها اذا قرنت بما ذكرناه
عن جاء ابي العلاء وحسن حاله في المعرة - بما لا سبيل الى الشك
فيه - ترجع لدينا تصديقها .

ومع كل ذلك فأكثر الذين يترجون للمعري من قدماء ومحدثين يذهبون
الى فقر شاعرنا ، وانه كان يعيش من وقف له لا يتجاوز الثلاثين ديناراً
يعطي نصفه لخادمه . فكيف نجتمع بين القولين - بين وجاهة المعري
وكرمه من جهة ، وفقره وزهده من جهة أخرى ؟ - والجواب : ان
المعري بعد ان استقر في المعرة وعكف على العلم والتعليم قصده الطلاب من
الآفاق وكاتبه الكبراء والامراء ، فعظم شأنه وحسنت حاله . ولكنه لم يكن
يستعمل من ماله الا النزر اليسير ، وينفق الباقي في سبيل اللاندين
والمعوزين . وهنا سر العظمة في حياة المعري الزهدية . عاش عيشة الحكماء
المتورعين عن الدنيا ، ولكنه لم يكن في ذلك كأبي العتاهية وأضرابه من
الحريصين على المال المقبلين على حطام الحياة ، بل قنع باليسير اعتقاداً
بحكمة القناعة ، وأحسن بما كان يفضل عنه اعتقاداً بشرف الاحسان .

زندقته وإيمانه

اختلف الناس في المعري فمن ناعت إياه بالتقى وحسن العقيدة ، ومن
ناسب اليه الضلال والالحاد . وسبب ذلك ما يحدونه في لزومياته من النقد
الموجه الى الزعماء والرؤساء ، وما يهاجم به احياناً بعض المذاهب والعقائد
الدينية . فمن اتهموه في دينه ياقوت وابن الجوزي والصلاح الصفدي ،
وجاراهم الذهبي فقال : « مات متحيراً لم يحتم بدين من الاديان نسأل
الله ان يحفظ علينا ايماننا بكرمه » .

ومن ذهب الى انه صحيح العقيدة ابو الحسن الهكاري وابن العديم
صاحب « الانصاف والتحري في دفع التجري عن المعري » . ومنهم السلفي
فقد لخص أقوال الناس فيه ثم ختم ذلك بقوله : « ففي الجملة كان من

أهل الفضل الوافر ، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث بالشام على
ثقات . وله في التوحيد واثبات النبوة وما يخصّ على الزهد وأحياء طرق
الفتوة والمروّة شعر كثير^١ .

* * *

ولا يزال الناس الى اليوم مختلفين في هذا الامر ، على انه لا بدّ قبل
الحكم على المعريّ من ان نلقي نظرة على عصره وعلى ما كان له من الاثر
في نفسه . فقد عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن
الخامس الهجري - أي في ابان الحركة الفكرية عند العرب . في ذلك
العصر تمّ نقل العلوم اليونانية ونبغ بين المسلمين كثيرون من العلماء والمفكرين
والنقادين ، فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية
احتكت فيها « الروحية » السامية التي حلت الى الناس الايمان بالتوحيد
والمعاد والآداب الدينية ، « بالعقلية » اليونانية التي حلت اليهم البحث
المنطقي والنظريات العلمية . وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق
الكلامية وتعدّد المنازع الفكرية بين مناصر للنصوص الدينية أو مضاد لها .
ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين النقل والعقل كان يضمف
أو يشتد بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية او السياسية . على ان العصور
الوسطى مَدِينَةٌ للغة العربية في انها (أي العربية) اتسمت يومئذ للتفكير
العلمي ، فكانت الموثل الذي حُفظت فيه ثمار العقول القديمة .

ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث في العقول ميلاً الى النظر النقدي
في الكون والحياة والدين والمعاد ، فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين ،
واستولى عليهم روح الانكار ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وُسنن ،
وفادوا بالرجوع الى المبادئ الاولى في الحياة الروحية والاجتماعية . ومن

١ راجع القول في عقيدة المعري واختلاف الناس فيه (اعلام النبلاء ، ص ١٦٣ الى
١٦٧ والذهبي في وسائل اكسفورد ص ١٣٠ - ١٣٥) ، راجع مفتاح السعادة ج - ١
- ١٩١ و ١٩٢ .

هؤلاء شاعرنا - فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواقاً الى المعرفة والى بلوغ الحقائق ، وفي نفسه اصطدمت «تقاليد» الدين بأحكام العقل فاضطرب وصار يتلمس طريقه توصلًا الى ما يشفي أوامه ، فلم يوفق تمام التوفيق : كان الايمان أساس حياته ولكنه قضى الحياة حائرًا تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم . ومن هنا هذا الاختلاف في الحكم عليه .

على اننا اذا دققنا في حياته وشعره وحاولنا ان نخترق الضباب الذي يحيط به رأيناه يظهر لنا في طورين مختلفين تفصل بينهما مدة اقامته في بغداد .

فالطور الاول طور الشباب ويمتد الى سنة ٤٠٠ هـ . وفي هذا الطور نراه مسلماً حقيقياً ، وبرغم ما قد تمّ عليه بعض اشعاره من روح التفكير لا نراه يختلف في تصرفه العادي عن سائر المؤمنين .

والطور الثاني طور العزلة . يبتدىء عقب رجوعه من بغداد ، ويمتد الى آخر حياته وفي هذا الطور يقف موقفين رئيسيين :

١ - تجاه الآخرة . وهو هنا حائر يجمع في نفسه التفكير الفلسفي والعاطفة الدينية الموروثة جمعاً غير محكم - فتارة تراه مؤمناً وطوراً مشككاً - ولهذا نجد في شعره بعض المتناقضات ، وسيأتي معنا تفصيل ذلك .

٢ - تجاه الحياة والانسان . وهو هنا صريح ثابت الرأي يغلب عليه التشاؤم والمرارة ، ويلخص هذا الموقف بالمبادئ التالية :

ان الطبيعة ثابتة لا تزول (وهو مذهب الفلاسفة الطبيعيين)
ان الانسان فاسد بطبيعته ولا يمكن اصلاحه .

ان الطمع أساس كل تصرفاته ومعتقداته .

ان الدين انما هو حسن الاخلاق وشرف المعاملة (لا مجرد الفروض والسنن والايمان) .

ان حقيقة الحياة هي القناعة والبساطة .

ان الوجود علة الشقاء فالأفضل ان نتخلص منه بعدم التناسل .
وله في المرأة آراء لا تخرج عن آراء عصره ، وسيظهر لنا كل ذلك
في تحليلنا لشعره .

شاعريته وشعره

للمعري مقام فريد بين شعراء العربية - لا من حيث أسلوبه وفنه -
ولكن من حيث روحه ونظرة الى الدنيا . وقد رأينا ان حياته الفكرية
تظهر في طورين مختلفين . وفي هذين الطورين تظهر حياته الشعرية أيضاً -
الاول يتناول شعر الشباب منذ بدء عهده بالنظم الى اعتزاله ، ويدخل
فيه أيضاً بعض ما نظمه بعد ذلك . وقد دوّن لنا هذا الشعر في سقط
الزند - والثاني شعر العزلة ويتمثل لنا في لزومياته أو ديوانه المعروف
بازوم ما لا يلزم . ولنتقدم الى تحليل كل من هذين الطورين .

الطور الأول - سقط الزند

في هذا الطور نجد المعري جاريًا في سنن الأقدمين من الشعراء ، فيكثر
في شعره ذكر النياق والرحيل والأحبة . ولكي تعرف مقدار ذلك نقول :
خذ الجزء الاول من سقط الزند فهو يشتمل على أكثر من ثلاثين قصيدة ،
وفي أكثر من ثلثها تجد للقصيدة مقدمة يصف بها المطايا أو يتكلّف
الغزل على الطريقة القديمة . أما الجزء الثاني من الديوان فإذا استثنيت
« درعياته » رأيت نصفه على هذا المنوال القديم .

ومن أمثلة وصفه للمطايا قوله يذكر سريها في الليل :

وأسودَ لم تعرف له الانس والداً كسانيّ منه حلّةً وخماراً
سرتُ بيّ فيه ناجياتٌ مياهما نجمٌ اذا ماء الركائب غارا
فخرّ قن ثوب الليل حتى كأنني اطرتُ بها في جانبيه شرارا

الى ان يقول :

إذا قُبِدْتُ في منزل بثنوفةٍ حسبت مُناخاً أو طنته مئارا
تظن غطيظ النوم نومة زاجرٍ فتقطع قيدا أو قبت هيجارا
ثم يقول :

ولست تحسّ الأرض منها بوطاة فتفزع سرباً أو تروع صوارا
تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد فتعضي ولم تقطع عليه غرارا
وينسج مقدّمته على هذا النسق البدوي في نحو عشرين بيتاً ، ثم يتقدم
الى الممدوح ويصف بأسه في الحرب ، ثم يتناول وصف خيله وكرّها
في اثني عشر بيتاً لا تقول اذا قرأتها الا ان ناظمها فارسٌ من الفرسان
البادية ^١ .

وقس على ذلك عشرات من قصائده . وقد يلفت النظر متابعتها لأبي
تمام في وصف المركب الذي حمله الى الأنبار ، وتشبيهه اياه بالناقة السريعة ،
كقوله من قصيدة مطلعها « يا ناق جدّي فقد أفنت اناتك لي » .

على نجاة من الفرصاد أيدها ربّ القدم بأوصال وأضلاع
تُطلى بقارٍ ولم تجرب كأن طليت بسائل من ذفاري العيس مُنباع ^٢
ولا تبالي بمحلّ انت ألمّ بها ولا تهشّ لإخصاب وامراع
أما غزله فظاهر الصناعة قليل الروتق ولا ينتظر ممن كان كالمعري
غزل خارج من قلب متأثر يجمال الحبيب . فمن قوله في ذلك :

لله ايامنا المواضي لو ان شيئاً مضى يعود

أبلى ودادي لكم زمان ألين أحداثه حديد

لم يبيل من بذله ولكن يبلى على طيّه الجديد

فانظر الى هذا الحب الذي يبلى لتقدم العهد عليه وقابله بشعور محب
صادق الحب متم القلب . ومن غزله :

١ راجع هذه القصائد في سقط الزند ١ - ١٧٥ .

٢ تطلى بقار كأنه لسواده عرق سائل من ذفاري الابل (الذفاري مؤخر الاذن) وعرق الابل
أسود . ورب القدم أي النجار . نجاة : ناقة سريعة .

ما يوم وصلك وهو أقصر من نفس بأطول عيشه غالي
علقت حبال الشمس منك يدي وجديدها في الضعف كالبالي
وأردت ورد الوصل من قمر فصدرت عنه كوارد الآل
وطلبت عندك راحة وعلى قدر اعتقادي كانت ادلاي
وظننت في البلوى مناي ولم تكن المنية لي على بال
ما زلت أبلغ ما أهم به حتى هممت بكوكب عال
ان فات سلوان الحياة فكل الناس بعد مماته سال
إلى آخر الأبيات وأكثرها على هذا النسق من قلّة الطلاوة . وليس
غزل المعري بقليل في شعره ، ولكنه فنياً دون غزل المتنبي أو البحتري
أو أبي تمام — ناهيك بشعراء الحب المعروفين . ولا نرى الا ان المعري
كان يجري فيه جرياً صناعياً متبعاً فيه طريقة من تقدمه في النظم .
ومما يلزم ذكر المطايا والحبيب ذكر السيف والرمح والدرع ، وله
في ذلك أقوال كثيرة تدل على مهارته اللغوية في الوصف كقوله :

وكل أبيض هنديّ به شطّاب مثل التكتّر في جاري بمنحدر
تغايرت فيه أرواح تموت به من الضراغم والفرسان والجزر
روض المنايا على ان الدماء به وان تخالفن أبدال من الزهر
ما كنت أحسب جفنًا قبل مسكنه في الجفن يطوى على نار ولا نهر
ولا ظننت صغار النمل يمكنها مشي على اللج أو سمي على السمر
ومما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور ، فهو كثير التمثيل بالذئب
والضبع والأسد والأرقم والقطا والحمام والنعام والفسر والوعل والغراب.
ومثل ذلك كثرة ذكره للنجوم والأفلاك والصباح والظلام، ونجته
منه بما يلي ، وهو من قصيدته « أرى العنقاء تكبر ان تصادا » :

لي الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا
ولو ملأ السهى عينيه مني أبر على مدى زحل وزادا
وقد أثبت رجلي في ركاب جعلت من الزماع له بدادا

إذا أوطأتها قدّمي سهيل فلا سقيت خنصرة المهّادا^١
كان ظمأهنّ بنات نعش يردن إذا وردن بنا الثّادا

* * *

ومما يلاحظ في شعر المعري عموماً كثرة استشاده بالحوادث الماضية ورجاها . ففي الجزء الثاني من سقط الزند مثلاً نحو ثلاثين شاهداً من هذا القبيل^٢ .

وفي هذا الطور من شعر المعري نراه شديد الشعور بأهمية نفسه كثير التفاخر بها ، يستلذ مدح المادحين ويؤله حسد الحساد .
كقوله :

تعاطوا مكاني وقد فُتّهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما نبج الكلب ضوء القمر
وله كثير من الشعر الفخري ، وهو بذلك غير المعري في اللزوميات حيث تعدّى طور الشباب وأنضجته اختبار الدنيا ، فلزم التواضع والزهد وصار يبتعد عن السخائف والظواهر^٣ .
أما أسلوبه فيكثر فيه الغريب من الألفاظ وغير المؤلف من المصطلحات وهو كثير الولع بأنواع البديع والمجاز ولا سيما الجناس والتمثيل وسنرى ذلك في كلامنا عن لزومياته .

* * *

وإذا نظرنا إلى الرجل نفسه فأنّا نراه في سقط الزند متمسكاً بمقائد

١ خنصرة محل بالشام .

٢ راجع من ذلك الصفحات التالية ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ .

٣ راجع فخره في الجزء الاول ٨٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٢ . ومقابلة لذلك راجع من أمثلة تواضعه في اللزوميات ٢ - ١٥ و ٢٤٢ و ٢٤٧ و ج ١ - ٩٣ و ٩٧ و ١٠٠ .

دينه كسائر أهل زمانه . واذا كنت تلح فيه شيئاً من روح الشك
والتأمل الفلسفي كقوله في مرثاة والده :

طلبت يقيناً يا جهينةُ عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلًا فاني لم أعط الصحيح فاستغني

فذلك ضئيل جداً لا يكاد يظهر ازاء ما يظهر فيه من روح الاسلام
والتعصب له والذود عن تعاليمه . وقد كان قبل سفره الى بغداد وقبل
عزله يناضل عن وجود الله وحدث الكون والبعث ، وكلامه في ذلك
ثابت صريح ، كقوله يرد على الدهريين القائلين ان العالم قديم وانه لا
بعث ولا حساب :

ضلّ الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبثها
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها
وعلى كلٍّ فان التأمل والتشكيك ليسا الطابعين للذين طبع بها شعره
قبل رجوعه من بغداد .

بقي علينا ان نذكر درعياته وهي قصائد في وصف الدرع يصفها
على لسان رجل أسنّ فترك لبسها أو على لسان رجل رهنها ، وقد يصفها
على لسان درع تخاطب سيفاً ، أو رجل يبيع درعاً ، أو رجل خانه
آخر في درع ، أو فارس سأل عن درع أبيه الى غير ذلك مما له علاقة
بهذا الموضوع .

وان الذي يطالع هذه الدرعيات يعجب من رجل كأبي العلاء ينصرف
الى موضوع كهذا الموضوع ، فيبذل جهده ويكدّ نفسه في اوصاف
ومجازات وعبارات لا طائل تحتها ، وليس لها أقل علاقة بنفسه او حياته .
ولا يسعنا ان نقول فيها الا انها في الارجح أداة استعمالها لاظهار مقدرة
اللغوية . ولعل له فيها غرضاً آخر .

اللزوميات

ينفرد هذا الديوان بمزيتين : خلوّه من أبواب الشعر المطروقة (المديح والثناء والفخر وما إليها) ، وانصراف ناظمه الى نقد الحياة . وقد نظم كلّه ، كما عرفنا سابقاً ، بعد رجوع المعري من بغداد ولزومه في المعرّة ، ولذا فهو يمثل لنا نضج القوة الشعرية في الشاعر ونظراته الفلسفية في الكون وال عمران . على انه مع ذلك قلما يختلف من حيث الصناعة عن شعره السابق ، فانك ترى الشاعر هنا - في هذا الجو الفكري الانتقادي - شديد الكلف بالصناعة وقد قيّد نفسه تقييداً شديداً بلزوم ما لا يلزم ، فاضطر الى كثير من القوافي الغريبة والالفاظ الغامضة . وقد يستغرب الذي يطالع ديوانه من جمعه بين النقيضين : فحينما تراه يتجنب كد النفس ويسلس للعاطفة القياد فيأتي شعره من الطبقة الاولى متانة وعذوبة كقوله :

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
وقوله :

قالوا فلانٌ جيّد لصديقه لا يكذبوا ما في البريّة جيد
فأميرهم نال الامارة بالحنّا وتقيّمهم بصلاته متصيّد
وقوله :

يا محلّي عليك مني سلام سوف امضي وينجز الموعد
أيرجّون ان اعود اليهم لا ترجّوا فأنني لا اعود
ولجسمي الى التراب مبوط ولروحي الى الهواء صعود
وعلى حالها قدوم الليالي فنحوسٌ لمعشر وسعود

وهذا الضرب من شعره كثير . ومنه ما لا يحاربه فيه إلا القليلون كقوله :

رويدك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرمّ فيكم الصبباء صبحاً ويشربها على عهد مساء

يقول لكم غدوت بلا كساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
وقوله :

يسوسون الامور بغير عقل
فإن من الحياة وأف مني
وحيثا بهم في أودية الغرائب
المتكلف كقوله :

ترى الهيم لا شيء سوى الاكل منه
يقل العصا مستثقل الطمر بعدما
ولا تترك الايام مردى لظبية
ولم يلف منها فارد القمر مخلصاً
وقوله :

لعمري ابيك ما خالي بخال
فان أعطى القليل يكن هنيئاً
إذا ورد الفقير على احتياجي
ولو كان الكثير لقلّ عندي
وقوله :

فقد لاحت مخايل صادقات تروق العين بالدمع الولا
فمن لك بالفريريات سارت بأشياء نسب إلى علاف
وإذا علمت ان الولا هو البرق اللامع لمعتين وان علاف اسم رجل
من قضاة تنسب إليه الرجال ، علمت ما جناه عليه تقيده ولا سيما في
قوله : أشباه نسب إلى علاف .

١ الهيم الشيخ الهرم . الطمر الثوب البالي . الماذية السرد الدرع . مردى مهلك . الكبيات والمرد
من ثمر الاراك . فارد القمر الحمار في بطنه بياض .
٢ المستند القليل . والمستطف المستقل .

ومن هذا القبيل قوله :

فأمنح ضعيفك ان عراك ولو نزرأ ولا تصرفه بالكهر
وارفع له شقراء تُرمَح في دهماء مثل تارت المهر
أي أمنح الضعيف ولا تصرفه بوجه عبوس وارفع له ناراً تتأجج في الظلام .
وقوله :

غُيِّبْنَا الْأَذَى وَالْجَاشِرِيَّةُ هَمْنَا وَنَادَى ظَلَامٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْجَشْرِ
انكتب سطرأ ليس فيه تخوفٌ لربك ما أولى بنانك بالأشر
وان بُتكت عشر فمن بعد ما جنت بكل فسيطٍ قص أكثر من عشر
وقوله :

كبرت فأصبحت للراشدين كبرتٍ يعدُّ لهدي دليلاً
كبرت فما زال هذا الزمان كبرتٍ يحذُّ قليلاً قليلاً
واذا تأملت هذين البيتين لا تجد فيهما الا تكلفه الجناس بين كبرت :
الفعل ، وكبرت : الجار والمجرور (أي كدليل) في البيت الاول ، وبين
الفعل ايضاً ولفظة برت (بمعنى الفاس) في البيت الثاني .
وأمثال هذا الكلام المصنوع كثير جداً في شعر شاعرنا . فلا جرم
إذا جاء القسم الوافر منه صعباً مبهماً حتى على اهل الادب . وإذا
أردنا التدقيق في أسباب صعوبته وإبهامه وجدناها ترجع الى ما يلي :
١ - شغفه بالمحسنات البيانية ولا سيما الجناس والطباق والتورية .
٢ - كثرة الاشارات الى الحوادث التاريخية والى رجال التاريخ -
المشهور منهم وغير المشهور .

٣ - استعماله لأوابد الكلام وشواذه .

٤ - اضطراره الى القوافي الغريبة للزومه ما لا يلزم .

فاذا أضفت الى ذلك ما في مواضيعه الفلسفية الاخلاقية من معانٍ

١ الفبوق الشرب مساء والجاشرية شرب السحر . الاشر القطع . بتكت اي قطعت . فسيط
قلامة ظفر .

مجرّدة هي بطبيعتها صعبة المتناول ، علمت السر في هذا الابهام العام من معانيه .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه بعض أعلام البحاين من ان المعري كان يقصد ذلك ليخفي أغراضه^١ عن العامة . فان شاعرنا كان صريحاً ، وله في لزومياته كثير من النقد المرّ الذي بلغت به الصراحة أبعد مدى كبعض ما ذكرنا له آنفاً ، وكقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فلانما دياناتكم مكر من القدماء
أو قوله :

قد حُجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا ان مصلّيك اتقياء
وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مضلّته
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر ديتن لا عقل له
وقوله :

في البدو خُرّاب أذوادٍ مسوّمَةٍ وفي الجوامع والأسواق خُرّاب
فهمؤلاء تسمّوا بالعدول او التجار واسم أولاك القوم أعراب
وقوله :

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وقس على ذلك مئات الأبيات في ديوانه .

ويمتاز المعري في لزومياته بدقة تشابيه وروعة حكمه : أما دقة التشبيه فيه فنتيج الخيال وحسن التعبير عن النفس ، واما الحِكم فليما في طبعه من صدق التأمل في الحياة والموت . ويختلف عن المتنبي ان حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعيّاً وراها ، أما

١ راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ٢٦٧ .

حكم المعري فناشئة عن نفس حكيم مفكّر عرف الحياة فزهدها .
وليس من الانصاف ان نقرنه من هذا القبيل بأبي العتاهية ، فإن للمعري
من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا نراه لشاعر القبور
والنشور : كان أبو العتاهية واعظ الموت ، والمتنبي خطيب الحياة ، أما
المعري فحكم الموت والحياة .

المواقف الشعرية في اللزوميات

تتناول اللزوميات منشأ الانسان ومصيره وما بينها . وللشاعر فيها
موقفان رئيسيان : (١) تجاه الغيبيات (الله والبعث والحساب)
(٢) تجاه الانسان والطبيعة . واليك بيان ذلك :

الغيبيات

هنا نرى موقفه مضطرباً ، ولكن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول
ان يجمع بين العقل والنقل ، فيقع في شيء من الارتباك . ومن الخطأ
ان نحكم عليه من شعره بالجهود فان الشواهد فيه على ايمانه بالله
وبشكل من أشكال الخلود كثيرة ، بل هي اكثر من أضدادها .
ويتضح ذلك من الامثلة التالية :

قال مستهزئاً بالتنجيم ومثبتاً قوة الله :

مق ينزل الامر السماوي لا يفدُ سوى شبح رمح الكمي المناجد
وان لحق الاسلام خطب يغضه فما وجدت مثلاً له نفس واجد
إذا عظّموا كيوان عظمت واحداً يكون له كيوان أول ساجد
وقال :

والله حقّ وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب
وقال :

الله لا ريب فيه وهو محتجب بادٍ وكلّ إلى طبع له جذبا

وقال :

فَلَّكَ يدور بحكمة وله بلا ريب مدير

وقال :

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لاهي خائف راجي
رب السماك ورب الشمس طالعة وكل أزهر في الظلماء خراج
وفي الحشر يقول :

إذا كنت من فرط السفاه معطلا فيا جاحداً اشهد انني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم ان الأمر في يد واحد
ويقول :

ان أدخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العذاب
يقدر ان يسكنني روضة فيها نرامى بالمياه العذاب
ومن ذلك هذان البيتان المشهوران :

قال المنجم والطبيب كلاماً لا تحشر الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما
ويلي هذين البيتين خمسة أبيات كلها على هذا النمط .
وله مثل ذلك قصيدة مطلعها :

عجبي للطبيب يلحد في الخالق من بعد درسه التشريحاً

وليس الذي ذكرناه الا نزرأ بما ورد في أثناء الديوان من هذه المعاني
الايمانية . ولكن شاعرنا في هذا الموقف كما قلنا مضطرب متحير - تراه
آونة مؤمناً صريح الايمان - ثم تراه وقد غشيت الشكوك والأوهام . فهو
بين مدّ وجزر لا يستقر على حال واحدة .

ومن شكته هذه الأمثلة القليلة ، وهي قلّ من كثير :

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح انتى تسلك

* * *

دفناتهم في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون

ورومُ الفتى ما قد طوى الله عليه يمدّ جنونا أو شبه جنون

* * *

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجا فلعلها تدري وتأبه للزمان وغيبه
او لا فكم هذيان قوم غابره في الكتب ضاع مداده في كتبه

* * *

تقدّم الناس فيا شوقنا إلى اتباع الامل والاصدقاء
ما أطيب الموت لشرابه ان صح للاموات وشك التقاء

* * *

اما اليقين فلا يقين وإنما اقصى اجتهادي ان اظنّ وأحدسا

* * *

أما القيامة فالتنازع شائع فيها وما لخيئها أصعار
وما يكاد يكون انكاراً قوله :

قلتم لنا خالقٌ حكيم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام فيه خيء معناه ليست لنا عقول

وقوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة ان يبكوا
يحطّمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
وقوله :

خذ المرأة واستنجد فحوماً تُمِرّ بمطعم الأري المشور
تدلّ على الحياة بلا ارتياب ولكن لا تدلّ على النشور

على أننا إذا دققنا في هذه الحيرة وهذا التناقض ، وراجعنا كل ما قاله
المعري بهذا الصدد ، ثم عارضناه بسيرته وأقوال الناس فيه ، ترجّح لدينا
ان شاعرنا لم ينقطع عن الايمان بالله وبالأخرة . ولكن صورة الله في نفسه

لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي ، وإنما كان نظره إلى ما وراء الطبيعة نظرياً « لا أدرياً » متأثراً بالاسلام .

الطبيعة والحياة البشرية

ويتلخص ذلك بما يلي :

الأديان ورؤساؤها - الشعب وزعماءه - الانسان وطبيعته ومصيره .
وفي كل ذلك تراه ثابت النظر مستقرّ الرأي مقتنعاً بصحة ما يقول ،
وإلى القارىء زبدة هذه النظريات :

الاديان

إذا قوبل الاسلام بسائر الاديان فهو عند المعري مفضل على الجميع
وانك لترى المعري في بعض مواقفه يتعرض للجدل ، فيهاجم اليهود
والنصارى والفرق الاسلامية المختلفة (كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة
والصوفية) ، وله فيها أشعار كثيرة لا يتسع لها المقام ^١ .

ومع كل ذلك فله في الدين نظر عام يشمل كل الاديان على السواء
وهو يتناول الدين من وجهتين : (١) العقائد والفروض او هيكل الدين .
(٢) الفضائل والاعمال او روح الدين . اما الاولى فيحمل عليها حملة
شعواء فيحذّر الناس من السنن والمذاهب ، ويزعم ان الدين من هذه
الوجهة أداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا اليهم .

انما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا الى الرؤساء

وأقواله في ذلك لا تحصى فنكتفي بالإشارة اليها وإلى ما ذكر منها
في غير هذا المقام .

وأما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده . وعلى قدر استهزائه
بخرافات الاقدمين وأوهامهم المذهبية ترى تعظيمه للروح الدينية التي يراد

١ راجع من ذلك اللزوميات ١ - ١٢٩ و ٢ - ١٧٢ .

بها التنزه عن الجشع والظلم والشهوات ، وبذلك يشارك المصلحين الروحيين
في كل مكان وزمان . ومن أقواله في هذا الباب :
الدين هجر الفنى الذات عن يُسر في صحّة واقتدار منه ما عمرا

* * *

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

* * *

الدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق ان وجبا
فالدين عنده ترك الشر وانصاف الجميع ، ولا دين لمن يرفض الحق .
وقد كرّر هذا المعنى كثيراً في لزومياته ، ونجّزىء هنا بقوله التهكمي فيه :
توهمت يا مغرور انك ديّن عليّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين
وقوله :

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطاعه لم يُلَفَ بالتأسك

الشعب وزعماءه

ولا يختلف نظره هنا عن نظره الى الدين ورؤسائه ، فهو يهاجم الأمراء
والحكام وأصحاب الزعامة السياسية متهماً إياهم بالجهل والجشع والاستبداد .
فشان ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جباة خرج

* * *

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

مق يقوم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل أجيالاً وغيطان
ومع اشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله :
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكلّ حيّ فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

* * *

كلّنا غادرٌ يميل إلى الظلم وصفو الأيام للتعكير
ورجال الانام مثل الغواني غير فرق التأنيث والتذكير

* * *

عشٌ بخيلاً كأهل عصرك هذا وتبالة فان دهرك أبله
قومٌ سوء فالشبل منهم يقول الليث فرساً والليث يأكل شبله
وقس على هذا القول كثيراً من الامثلة التي تعكس لنا بيئته او نظره
الاسود إلى أهل زمانه عموماً ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم أو
غني وفقير .

هم السباع إذا عنّت فرائسها وان دعوت لخير حوّلت حُمراً
وكما انه يهاجم الرجال فينعتهم بالجشع والغدر واللؤم كذلك يهاجم
النساء فينعتن بالضعف والرياء والخيانة والمكر ، ولا يرى هنّ الا
الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف الى شؤونه . وانك لترى سوء
ظنه بهن إذ يقول :

فوارسُ فتنةٍ اعلامُ غيٍّ لقينك بالاساور مُعلّيات
ودفنٌ - والحوادث فاجعات - لاحداهنّ إحدى المكرمات
وهذان البيتان من قصيدة تفيف على التسعين بيتاً في كل بيت منها
ذم للمرأة وتحقير لشأنها . ومثلها في اللزوميات كثير . ولا ندري ما
الذي حمل المعري على الازدراء بالمرأة ووصفها بكل الشوائب ، ولكنه ولا
شك جارى عصره ، بل تمادى في هذه الآراء الى الحد الاقصى - على انه
عطف على الوالدات وأوصى بهن خيراً .

الطبيعة البشرية

أما الطبيعة البشرية ففسادة عنده لا أمل باصلاحها ، والانسان مسير بقوتين : قوة داخلية هي الغريزة الوحشية التي لا يمكن تهذيبها :
واللبّ حاول ان يهذب أهله فاذا البريّة ما لها تهذيب

* * *

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنّ للأقوام تهذيباً
ولا تصدّق بما البرهان يبطله فستفيد من التصديق تكذيباً

* * *

وجبلّة الناس الفساد فضلّ من يسمو بحكمته الى تهذيبها
وقوة خارجية هي قضاء جبار يدفع الانسان أمامه فلا ارادة له ولا
اختيار . لكن كيف نجتمع بين «حكمة الله» كما نراها في شعر المعري
وبين جبروت القضاء ، وكيف نوفق بين القدر والحساب ؟ مسألة فلسفية
دقيقة لا نرى الشاعر يوضحها او يهتم بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً ، وإنما
همّه من ذلك ان يصف ما يشعر به أو يتوهمه ، ولذا لا يفتظر ان
نراه هنا ملتسق الخواطر مطرد الفكر .

ومن هذا القبيل ذكره للعقل والنقل ، فانك تراه يهيب بالناس الى
رفض الشرائع ناسباً اليها كل أسباب الفتن والاضطراب كقوله :

ان الشرائع ألفت بيننا إحناً وأودعتنا افانين العداوات
ولا يرى من هادٍ غير العقل :

كذب الظنّ لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

* * *

تستروا بأمورٍ في ديانتهم وانما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن أي عقل تتبع وأي نقل نرفض ؟ هنا لا بد من الحذر فالمعري يندفع بتأثير التأمل الفلسفي الى تقديس العقل دون النظر الى عاقبة ذلك التقديس ، وهو بذلك هدام ونعم الممول العقل ، على شرط ان يستخدمه فيما يفيد - في تهذيب الشرائع ورفعها الى مستوى الكمال الممكن ، لا في التخلص منها تبعاً لنزعات الفوضى . والذي يلوح لنا ان المعري لم يكن فوضوياً ، ولم يقصد الهدم المطلق ، بل قصد الاصلاح الاجتماعي . على انه اندفع الى ذلك متأثراً من طبيعته ومن الفساد الذي حوله ، فلم يسلك طريقاً يصح ان نسميها طريق الهداية العملية .

وليس من أثر واضح للفوضى في شعره إلا حمله على النسل ، ودعوته الناس الى الفناء وأقواله في ذلك معروفة نذكر منها هذين البيتين :

لو أن كل نفوس الناس رائية كراي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزاياها

كلمة ختامية

وهنا لا بد ان نسأل : ما العوامل التي أحلت المعري هذا المحل الرفيع في تاريخ الادب العربي وخلّدت له هذا الاحترام في نفوس المتأدبين ؟ والجواب عن ذلك :

- ١ - صراحته في مهاجمة ما كان يراه فاسداً .
- ٢ - صرفه الشعر الى مواضيع عمرانية أخلاقية لم يسبق اليها .
- ٣ - تطبيقه الحكمة على نفسه واطهاره مبادئها في حياته .
- ٤ - زهده الحقيقي وترفعه عن أغراض الدنيا .

نعم قد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله أحياناً الى أقصى التطرف وجعله هداماً لا يحسن البناء ، وتحرجه اللغوي الذي دفعه مراراً الى ركوب أخشن المراكب قوصلاً الى معانيه . على ان المعري

برغم ذلك الشذوذ وذلك التحرّج ، هو تلك الشخصية التي تجمع بين الاخلاص والشدة — الاخلاص في خدمة الحقيقة كما تتراءى له ، والشدة في مهاجمة أهل الفساد . وهو بذلك يختلف عن سائر الشعراء الذين لمعوا في تاريخ الادب العربي إذ ليس لاحدهم مها تسامت مكانته الفنية ما للمعري من النظر الى الحياة التي تعجّ حوله ومحاولة نقدها . كان الشعراء قبله لا يرون في الحياة إلا أنفسهم ولا يرون في الادب إلا ما يوصل الى أغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير أوجه الفساد والظلام — ولم ينتبه الى مجالي الجمال التي تزيّن وجه الطبيعة والحياة — فجاء شعره قائم اللون كأنما هو مصباح تنفذ أشعته إلينا من وراء زجاجة سوداء .

المختار من شعر المعري

قارب في خضمّ مضطرب تتقاذفه الرياح وتترامى به الامواج - ذلك هو المعري في نظره الى الحياة .

ظلمات من كل جانب ، وعقل مفكر يحاول ان يرى من ورائها ما لا يرى ، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر وُجوده ، ناعياً على الحياة مسراتها ، مهيباً بالناس : الى الفناء الى الفناء ، فما الوجود إلا شقاء في شقاء .

نخبة من سقط الزند

في المراثي

قال يرثي والده

نعمت' الرضا حتى على ضاحك' المزنِ فلا جادني الا عبوس من الدّجنِ
فليت' فما ان شام سنتي تبسّمي فم الطعنة النجلاء قدمي بلا سن'
كان' ثناياه اوانس' يُبتغى لها حسن' ذكرٍ بالصيانة والسجن'

* * *

أبي حكمت' فيه الليالي ولم تزل' رماح المنايا قاداتٍ على الطعنِ
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى وسهد المنى والجيب والذيل والرّدن

١ كرمت الرضا حق على السحاب المتألق . فسوف يبقى فمي مطبقاً كأن اسنانه لسان مصوّفات في خدورهن .

فيا ليت شعري هل يخفُّ وقاره إذا صار أحدٌ في القيامة كالمن^١
وهل يرد الحوضَ الرويَّ مبادراً مع الناس أم يأبى الزحامَ فيستأني
حجاً زاده من جرأةٍ وسماحةٍ وبعض الحجاء داعٍ الى البخل والجبن^٢

* * *

على ام دَفَر غُضْبَةُ الله انها لأجدرُ أنشى ان تخونَ وان تُخني^٣
كعابٌ دُجاها فرعها ونهارها حيتاً لها قامت له الشمس بالحسن
رأها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والساكين والوزن^٤
زمانَ تولتْ وأد حواء بنتها وكم وأدت في إثر حواء من قرن

* * *

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعلم لله ذي المن^٥
إذا غُيِّبَ المرء استسرَّ حديثه ولم تخبر الافكار عنه بما يغني
تضلَّ العقول الهبرزيات رشدتها ولم يسلم الرأي القوي من الأفن^٥
وما قارنت شخصاً من الخلق ساعة من الدهر الا وهي افتك من قرن
وجدنا أذى الدنيا لذيداً كأنما جنى النحل اصناف الشقاء الذي نجني
فما رغبت في الموت كُدُرُ مسيرها الى الورد خمس ثم يشربن من أجن^٦
يصادفن صقراً كل يوم وليلة ويلقن شرّاً من مخالبه الحُجن
وخوف الردى آوى الى الكهف أهله وكلّف نوحاً وابنه عمل السفن^٧

١ أحد اسم جبل ، والمن القطن .

٢ في هذا البيت وما قبله يصف أباه بالوقار ويقول : هل يخف وقاره يوم القيامة (يوم يصبح جبل أحد كالقطن) وهل يتسارع مع الناس ويذاحمهم الى الحوض. ان عقله قد زاده جرأة وسماحة في حين ان العقل يدعو أصحابه الى الحذر الشديد .

٣ ام دفر كناية عن الدنيا . وتخني تهلك .

٤ شبه الدنيا بالحسناء في قلة الوفاء وقال انها قديمة رأها آدم وهي شائبة وعلامات شيبها هذه النجوم - الثريا والساكان والوزن .

٥ الهبرزيات القوية . والافن النقص والضعف .

٦ فما رغبت في الموت قطعاً تسير خمسة أيام حتى تصل الماء فتشربه فاسداً آسناً .

٧ اشارة الى قصة اصحاب الكهف وقصة نوح .

وما استعذبتَه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدن

* * *

أمولي القوافي كم أراك انقيادها
هنيئاً لك البيت الجديد مستداً
مجاور سَكَنٍ في ديار بعيدة
طلبت يقيناً من جهينة عنهم
فانت تعهديني لا أزال مسائل
لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن
يمينك فيه بالسعادة واليمن
من الحي سقياً للديار وللسكن
ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فاني لم أعط الصحيح فاستغني

* * *

أمر بربع كنت فيه كأنما
وما أكثر المثني عليك ديانة
يوافيك من رب العلا الصدق بالرضا
فيا قبر واه من ترابك ليتنا
لأطبقت إطباق المسحارة فاحتفظ
سأبكي اذا غشى ابن ورقاء بهجة
ونادبة في مسمي كل قينة
واحمل فيك الحزن حياً فان أمت
وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرّة
أمر من الاكرام بالحجر والركن^١
لو ان حياماً كان يثنيه من يُثني
بشيراً وتلقاك الامانة بالأمن
عليه وآمر من جنادك الحشن
بلؤلؤة المجد الحقيقة بالحزن^٢
وان كان ما يعنيه ضد الذي أعني
تغرّد باللحن البري عن اللحن^٣
وألقك لم أسلك طريقاً الى الحزن
وان خان في وصل السرور فلا يهني

داليتَه المشهورة

يرثي صديقه أبا الخطاب الجبلي وكان اديباً وفقهاً وقد مات شاباً

غير مجدي في ملتقي واعتقادي نوح بالك ولا تزنتم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيس بصوت البشير في كل ناد

١ الحجر ما حول الحطيم في مكة . والركن ركن البيت الحرام .

٢ افك ايها القبر كالصدفة وهو فيك كاللؤلؤة .

٣ اللحن الخالي من الخطأ .

أَبَكَتْ تَلَكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّتْ عَلَى فَرْعِ غَصْنِهَا الْمِتَادِ
صَاحِرْ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرَّحْبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَّتِ الْوُطْدُ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْإِلَهِ مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحِ بِنَا وَانْ قَدُمُ الْعَهْدِ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
سَرَّ أَنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رَوِيداً لَا اخْتِيالاً عَلَى رِفَاتِ الْعِبَادِ
رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مَرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ
وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ
فَاسْأَلِ الْفَرَقْدِينَ عَنْ أَحْسَنَ مِنْ قَبِيلِ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادِ
كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ وَأَنَارَا لِمُدْلَجٍ فِي سَوَادِ
تَعَبٍ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أُعْجِبُ إِلَّا مَنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ
إِنْ حَزَنًا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رِشَادِ
ضُجْعَةِ الْمَوْتِ رَقْدَةٍ يَسْتَرِيحُ الْجَسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السَّهَادِ

* * *

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ^٢ اسْعِدْنَ أَوْعِدْنَ قَلِيلَ الْعِزَاءِ بِالْإِسْعَادِ
إِيَّاهُ اللَّهُ دَرَكْنِ فَانْتَنِ اللَّوَاتِي تُحْسِنُ حِفْظَ الْوَدَادِ
مَا نَسِيتْنَ هَالِكَا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ أَوْ دَى مِنْ قَبْلِ هُلُوكِ إِيَادِ^٣
بِيدِ إِي لَا ارْتَضِي مَا فَعَلْتَنَ وَاطْوَأَقَكْنَ فِي الْأَجْيَادِ
فَتَسْلُبْنَ وَاسْتَعْرَنَ جَمِيعاً مِنْ قَيْصِ الدَّجَى ثِيَابَ حِدَادِ
ثُمَّ غَرَّدْنَ فِي الْمَآتَمِ وَانْدَبْنَ بِشَجْوٍ مَعَ الْغَوَانِي الْخِرَادِ

* * *

١ فاسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس .

٢ بنات الهديل الحمام .

٣ إشارة إلى الخرافة أن الحمام لا تزال تبكي على هديلها الذي هلك قديماً .

قصد الدهر من أبي حمزة الأول^١ بـ مولى حجبى^٢ وخدن اقتصاد^٣
وفقيهاً افكاره شدن^٤ للنعمان ما لم يشده شعر زياد^٥
فالعراقي بعده للحجازي^٦ قليل الخلاف سهل القياد
انفق العمر ناسكاً يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد
ذا بنات^٧ لا قلنس^٨ الذهب الاحمر زهداً في المسجد المستفاد

* * *

ودعا ايها الحفيان ذاك الشخص ان^٩ الوداع أيسر زاد
واغسله بالدمع ان كان طهراً وادفناه بين الحشا والفؤاد
واحبوا^{١٠} الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفـس الابراد
واتلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعسـداد
اسف^{١١} غير^{١٢} نافع^{١٣} واجتهاد^{١٤} لا يؤدّي الى غناء اجتهاد
طالما اخرج^{١٥} الحزين جوى الحزن^{١٦} ن^{١٧} الى غير لائق بالسداد
مثلاً فانت^{١٨} الصلاة سليماً^{١٩} ن^{٢٠} فأنحى على رقاب الجياد
وهو من سُخِّرَتْ له الانس والجن بما صح^{٢١} من شهادة صاد^{٢٢}

* * *

كيف أصبحت في محلّك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد
قد اقر^{٢٣} الطبيب عنك بمعجز وتقضى تردد^{٢٤} العواد
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجد^{٢٥} بأن لا معاد^{٢٦} حتى المماد
هجد^{٢٧} الساهرون حولك للتمريض^{٢٨} ويح^{٢٩} لأعين الهجـاد
كنت^{٣٠} خل^{٣١} الصبا فلما أراد^{٣٢} البين وافقت^{٣٣} رأيه في المراد^{٣٤}

١ ابو حمزة هو الفقيه المروي . قصد الدهر منه رجلاً صالحاً عاقلاً .

٢ في لفظة نعمان هنا تورية فالنعمان ملك الحيرة ، والنعمان الامام ابو حنيفة وهو المراد . وزياد هو النابغة المشهور وكان شاعر ملك الحيرة .

٣ ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل سليمان من ضرب الخيل وذلك لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة صاد اذ قيل - « فسخرنا له الريح تجري بأمره » - الآية .

٤ الضمير في أراد راجع الى الصبا .

ورأيت الوفاءَ للصاحب الأول من شيمة الكريم الجوادِ
وخلعت الشباب غضاً فيا ليتك أبليته مع الانداد
فاذهباً خير ذاهبين حقيقين بسقيا روائحِ وغواد
ومراثٍ لو أنهنّ دموعٌ لمحونَ السطور في الانشاد

* * *

زحلٌ أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المربخ من حدثان الدهر مطفٍ وان علت في انتقاد
والثريا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعدّ في الافراد
كل بيت للهدم ما تبتني الورق قاء والسيد الرفيع العباد
بان أمر الإله واختلف الناس فداعٍ الى ضلال وهاد
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلٌ السدر ضرب الاطناب والاولاد^١
والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
والليب اللبيب من ليس يغترّ بكونٍ مصيره للفساد

قصيدته الحكيمة

في رثاء جعفر بن عليّ بن المهذب

أحسنُ بالواجد من وجده	صبرٌ يعيد النار في زنده
ومن أبى في الرزء غير الأسى	كان بكاه منتهى جهده
فليذرف الجفن على جعفر	اذ كان لم يُفتح على نده
والشيء لا يكثر مدّاحه	الا اذا قيس الى ضده
لولا غضى نجدٍ وقلامه ^٢	لم يثنّ بالطيب على رنده
ليس الذي يبكى على وصله	مثل الذي يبكى على صدّه

١ والانسان راحل يغنيه ظل السدر عن ان يبتني الخيام - اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب ان لا يهتم . والسدر شجر النبق .

٢ اي ان الرند خص بالثناء لمقابلته بسائر الاشجار التي لا طيب لها . كالغضى والقلام .

كان الأسى فرضاً لو انّ الردى قال لنا افدوه فلم نَفدِه
هل هو الا طالعٌ للهدى سار من الترب الى سعده

* * *

يا دهرُ يا منجزَ إيعاده وخلفَ المأمول من وعده
أيُّ جديد لك لم تبده وايّ أقرانك لم تُرده^١
أرى ذوي الفضل وأضدادهم يجمعهم سيلك في مده
ان لم يكن رُشد الفتى نافعا فغيبه أنفع من رشده
تجربةُ الدنيا وأفعالها حثتُ أخا الزهد على زهده
والقلب من أهوائه عابده ما يعبد الكافر من بُده^٢
إنّ زماني برزاياه لي صيرني أُمّرح في قِده^٣
كأنتا في كفه ماله ينفق ما يختار من نقده
لو عرّف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
أمر الذي مرّ على قربهِ يمجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذي أجّل في سنّه مثل الذي عوجلَ في مهده
والواحد المفرد في حتفه كالخاشد المكثّر من حشده
وحالة الباكي لأبائه كحالة الباكي على ولده

* * *

ما رغبة الحيّ بأبنائه عمتا جنى الموت على جدّه^٤
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كان ولا بعده
لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وجده

١ ترده ، تهلكه .

٢ البد الصنم .

٣ اي لكثرة ائتلافي رزاياه الدهر وتقرني عليها صرت لا أبالي بها بل ازداد نشاطاً ومرحاً .
والقد سير يقدر من جلد يوثق به الأسير .

٤ كيف يحترق الحيّ بأبنائه من الموت وهو الذي فتك بأجداده .

تشتاق أيارَ نفوس الوري وانما الشوق الى ورده^١
تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تناهى القلب في وده
يُسَرَّ ان مُدَّ بقاء له وكل ما يكره في مده
كم صائن عن قبلة خده سلطت الأرض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده
ورُبَّ ظمآن الى موردٍ والموت لو يعلم في ورده

* * *

فيا أخا المفقود - في خمسة كالشهب ما سلاك عن فقده^٢
جاءك هذا الحزن مستجدياً اجرِكَ في الصبر فلا تجده
سلم الى الله فكلّ الذي ساءك او سرّك من عنده
لا يعدم الأسمرُ في غابه حتفاً ولا الأبيض في غمده^٣
ان الذي الوحشة في داره تؤنسه الرحمة في لحده
لا أوحشت دارك من شمسها ولا خلا غائبك من أسده

أمثلة من وصفه وفخره

قال متبرماً من بغداد ومتشوقاً إلى وطنه

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال وفي النوم مغنى من خيالك محلال^٤
وأبغضت فيك النخل والنخل يانع^٥ وأعجبنى من حبك الطلح والضال^٥
حملت من الشامين أطيب جرعة وانزرها والقوم بالقفر ضلال^٦

١ كما ان النفوس تشتاق ايار لاجل ورده كذلك الانسان انما هو اخلاقه وسجاياه .

٢ يعزي اخا الفقيد ويقول ان في أولادك الخمسة ما يسليك عن فقده .

٣ الاسمر الرمح ، والابيض السيف .

٤ يخاطب الحبيبة ويقول ان المنازل منك خالية ولكن خيالك كثير الحلول في عيوننا عند النوم .

٥ وابغضت لاجلك النخل وأحببت أشجار البادية لانك بدوية .

٦ أي حملت من الشام والجزيرة أطيب جرعة وأقلها (أي رضابك) .

فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثل خاتمٍ
 كأنَّ الحزامي جُمعتْ لك حلَّةٌ
 أتعلمُ ذاتُ القُرطِ والشَّنْفِ أني
 فيا دارها بالحزن أن مزارها
 بكتُ فكان العِقْدُ نادى فريده
 تحلّسى النِّقفا دُرّين دمعاً ولؤلؤاً
 وغنّت لنا في دار سابورَ قينة
 فقلت تغنّي كيف شئتِ فإنما
 من الدّرّ لم يهّم بتقبيله خال^١
 عليك بها في اللون والطيب سرّبال
 يشنّفني بالزّارِ اغلب رثبال^٢
 قريبٌ ولكن دون ذلك أهوال
 هلمّ لعقدِ الحلفِ قلبٌ وخلخال^٣
 وولت أصيلاً وهي كالشمس معطال
 من الورق مطراب الاصائل ميهال^٤
 غناؤك عندي يا حمامة إعوال

* * *

تمنيتُ أنَّ الحمرَ حلّت لنشوةٍ
 فأذهلُ أني بالعراق على شفا
 مُقلٌ من الاهلّين يسرٍ واسرةٍ
 طويتُ الصباطي السجلّ وزارني
 متى سألتُ بغدادُ عني وأهلها
 اذا جنّ ليلى جنّ لبي وزائد^٥
 وماء بلادي كان انجع مشرباً
 فيا وطني ان فاتني بك سابق^٦
 فان استطع في الحشر آتاك زائراً
 وكم ماجدٍ في سيف دجلة لم أثم
 تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
 رزيء الاماني لا انيس ولا مال
 كفى حزناً بين مشت واقلال
 زمان له بالشيب حكم وإسجال
 فلاني عن أهل العواصم سأل
 خفوق فؤادي كلما خفق الآل^٥
 ولو ان ماء الكرخ صهباء جريال^٦
 من الدهر فلينعّم لساكنك البال
 وهيّات لي يوم القيامة اشغال
 له بارقاً والمرء كالمرن هطال^٧

١ الحال : هنا الخائل أي المدل بعظم شأنه .

٢ أتعلم هذه الفتاة المتحلية في اذنها بالقرط والشنف ان لي فيها خصماً يتهددني ويزار علي كالاسد .

٣ بكت الحبيبة للفراق وقطرت دموعها على قدمها فصار القلب (الاسوار) والخلخال يناديان
 الفريد في العقد هلم نتحالف مع الدموع .

٤ وغنت لنا في هذا المكان مغنية من الحمام .

٥ الآل : السراب .

٦ ماء بلادي أطيب ولو ان ماء بغداد كالصهباء .

٧ سيف دجلة أي شط دجلة . وكم من كريم هناك لم اقصده ولم أطمع يحوده .

من الغرّ ترّاك الهواجر معرّض^١ عن الجهل قذّاف الجواهر مفضال^٢
 سيطلّبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ^٣ واقبال
 اذا صدق الجسد افترى العمّ للفتى مكارم لا تُكري وان كذب الحال^٤

وقال في الشريف موسى بن اسحق مجيباً اياه عن قصيدة

عللاني فان بيض الاماني فنيت^١ والظلام ليس بفاني
 ان تناسيتما وداد^٢ أناس فاجعلاني من بعض من تذكران
 ربّ ليل^٣ كأنه الصبح في الحسن^٤ وان كان اسود الطيلسان
 قد ركضنا فيه الى اللهو لما وقف^٥ النجم وقفة^٦ الحيران^٧
 كم اردنا ذاك الزمان بمدح^٨ فشغلنا بدم^٩ هذا الزمان
 فكأنني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان
 ليلتي هذه عروس^{١٠} من الزّنج عليها قلائد^{١١} من جمان
 هرب النوم عن جفوني فيها هرب^{١٢} الامن عن فؤاد الجبان
 وكان الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتقان
 قال صحي في لجّتين من الحنّس^{١٣} والبيد^{١٤} اذ بدا الفرقدان
 نحن غرقى فكيف ينقذنا نجمان في حومة الدّجى غرقان^{١٥} ؟
 وسهيل^{١٦} كوجنة^{١٧} الحب في اللو ن وقلب^{١٨} المحب في الخفقان
 مستبد^{١٩} كأنه الفارس المعلم يبدو معارض^{٢٠} الفرسان
 يسرع الملح في احمرار كما تسرع في الملح مقلّة^{٢١} الغضبان
 ضرّجته دماً سيوف الأعادي فبكت^{٢٢} رحمة^{٢٣} له الشّهريان

١ اذا خدم الحظ أحداً اخترع له الناس (العم) من المكارم ما ليس في مخايله . وقد تلاعب في جد وعم وخال تلاعباً بيانياً ظاهر التكلف .

٢ تكلف المطابقة بين الجري والوقوف فقال كم جرينا فيه الى اللهو والنجم في الليل واقف حائر . (يصف الليل بالطول) .

٣ قال صحي وقد دخلنا في أحشاء الظلام والقفر : نحن غرقى فكيف ينقذنا الفرقدان وهما غرقان .

قدّماهُ وراءَه وهو في العجز كساعٍ ليست له قدمان^١
ثمّ شاب الدّجى وخاف من الهجر فغطّى المشيب بالزّعفران
ونضاً فجره على نسرهِ الواقع سيفاً فهمّ بالطيران
وعلى الدهر من دماء الشّهيدين عليّ ونجّله شاهدان^٢
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أروياته شفقان^٣
وجمالُ الأوانِ عقبُ جدودٍ كلّ جدّ منهم جمال أوان

* * *

يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع من غطّفان^٤
أحدِ الخمسة الذين هم الاغراض في كل منطقٍ والمعاني^٥
والشّخوص التي خلّقن ضياءً قبل خلق المريخ والميزان^٦
قبل ان تخلق السموات أو قو مر أفلاكهنّ بالدّوران
لو تأتّى لنطحها حملُ الشّهبِ تردّى عن رأسه الشرطان^٧
أو أراد السّماك طعنًا لها عا د كسير القناة قبل الطعان^٨
أو عصاها حوتُ النجوم سقاها حتفه صائد من الحدثان

-
- ١ خلف سهيل نجمان يقال لهما قدما سهيل . فهو معكوس الحال يمشي عاجزاً كمن لا قدمان له ،
والشعريان نجمان .
 - ٢ النسر الواقع اسم نجم . قال ويلوح على الدهر من دماء الشّهيدين الامام علي وابنه الحسين
شاهدان .
 - ٣ هذان الشاهدان هما الفجران الكاذب والصادق أي الحمرة التي ترى أول الصبح وكذلك
الشفقان أي الحمرة أو الصفرة التي تبقى في أفق المغرب بعد الغروب . ويزعم انها من آثار
ما اريق من دم الشّهيدين (يريد بذلك انها تلوح مدى الدهر) .
 - ٤ يا ابن النبي الذي عرض صفوفه بواقعة بدر واباد هذه القبائل .
 - ٥ يريد بالخمسة الذين هم موضوع كل ثناء أعضاء العترة الشريفة - النبي وعلياً وفاطمة والحسن
والحسين .
 - ٦ المريخ والميزان من النجوم .
 - ٧ الشرطان كوكبان مضيئان من برج الحمل يقال لهما قرنا الحمل .
 - ٨ يقصد السماك المعروف بالرامح .

انت كالشمس في الضياء وان جا وزت كيوان^١ في علو^٢ المكان
وسجايا محمد^٣ أعجزت في الوصف لطف^٤ الافكار والاذهان
وجرت في الاثام اولاده^٥ الستة^٦ مجرى الارواح في الابدان
اقبلوا حاملي الجداول في الاغهاد مستلثمين بالغدران^٧
يضربون الاقران ضرباً يعيد السعد نحساً في حكم كل قران
وجلوا غمرة^٨ الوغى بوجوه^٩ حسنت^{١٠} فهي معدن^{١١} الاحسان
قد أجبنا قول^{١٢} الشريف بقول^{١٣} واثبنا^{١٤} الحصى عن المرجان
أما الدر^{١٥} انما فضت من بحر^{١٦} نخلتى الطريق للجريان
ما امرؤ القيس بالمصلي^{١٧} اذا جا راه^{١٨} في الشعر بل^{١٩} سكيت^{٢٠} الرهان^{٢١}

وقال من قصيدة يفتخر ويذم الزمان

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل أعندي وقد مارست كل^١ خفية^٢
تعدت^٣ ذنوبي عند قوم كثيرة^٤ كأني اذا طلعت^٥ الزمان وأهله^٦
وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم بهم^٧ الليالي بعض ما أنا مضر^٨
واني وان كنت^٩ الاخير زمانه^{١٠} وأغدو ولو أن^{١١} الصباح صوارم^{١٢}
واني جواد^{١٣} لم^{١٤} يحل^{١٥} لجامه^{١٦} عفاف^{١٧} وإقدام^{١٨} وحزم^{١٩} ونائل^{٢٠}
يصدق^{٢١} واش^{٢٢} أو يخيب^{٢٣} سائل^{٢٤} ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل^{٢٥}
رجعت^{٢٦} وعندي للأنام طوائف^{٢٧} بإخفاء شمس ضوءها متكامل^{٢٨}
ويثقل^{٢٩} رضوى^{٣٠} دون ما أنا حامل^{٣١} لآت^{٣٢} بما لم تستطعه^{٣٣} الاوائل^{٣٤}
وأسري ولو أن^{٣٥} الظلام جحافل^{٣٦} ونضو^{٣٧} يمان^{٣٨} أغفلته^{٣٩} الصياقل^{٤٠}

١ كيوان اسم لرحل .

٢ يقصد بالجداول السيوف والغدران الدروع .

٣ المصلي هو الثاني في السباق . وسكيت الرهان الاخير .

٤ كأني اذا فقت أهل الزمان عادرني فأصبحت وفي نفوسهم علي ثارات .

٥ رضوى اسم جبل بالمدينة .

٦ قوله لم يحل من التحلية . والنضو الياني السيف الياني . والصياقل الذين يصقلون السيوف .

وان كان في لبس الفقى شرف^١ له
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي
لدى موطن يشتاقه كل سيد
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً
فوا عجباً كم يدعي الفضل ناقص^٢
وكيف تنام الطير في وكناتها
ينافس يومي في أمسي تشرفاً
وطال اعترافي بالزمان وصرفه
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي
إذا وصف الطائي بالبخل مادر^٣
وقال السهي للشمس انت خفية
وطاولت الارض السماء سفاهة
فيا موت زر ان الحياة ذميمة^٤
فما السيف الا غمده والحبائل
على أنني بين السماكين نازل^١
ويقصر عن ادراكه المتناول
تجاهلت حتى ظن أنني جاهل
ووالأسفا كم يظهر النقص فاضل
وقد نصبت للفرقدين الحبائل^٢
وتحسد اسحاري علي الاصائل
فلست أبالي من تقول الفوائل
ولو مات زندي ما بكته الانامل
وعير قساً بالفهامة باقل^٣
وقال الدجى يا صبح لونك حائل
وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
ويا نفس جدتي ان دهرك هازل

أمثلة من لزومياته

وفيهما تظهر نزعتة الى التشاؤم من أعمال الانسان والزمان

١

أولو الفضل في اوطانهم غرباء^١ تشذ وتنأى عنهم القرباء^٢
وحسب الفقى من ذلة العيش أنه يروح بأدنى القوت وهو حياء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا
ولا بعد مر الاربعين صباء

١ السماكان نجمان معروفان .

٢ شبه نفسه بالفرقدين في علو المقام وقال إذا كان مثلي تنصب له الحبائل فما قولك فيمن هم دولي .

٣ الطائي هو حاتم المشهور بكرمه . ومادر رجل من بني هلال معروف بالبخل . وقس هو الخطيب الجاهلي المشهور . وباقل يضرب به المثل في العي .

تواصلَ حبلَ النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامى^١ باء^١
تشاءب عمرو^٢ إذ تشاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء^٢
وزهدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء
إذا نزل المقدار لم يك للقطا نهوض ولا للمُخدرات^٣ إباء
على الولد يحني والد ولو انهم ولاية^٤ على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً انهم نجباء

٢

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخُسْر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن^٥ فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما
وقد بان ان النحس ليس بغافل له عمل في أنجم الفهماء
ومن كان ذا جود وليس بمكثر^٦ فليس بمحسوب من الكرماء

* * *

افيقوا افيقوا يا غواة^٧ فانما ديانا لكم^٥ مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادرکوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون إن الدهر قد حان موته ولم يبق في الايام غير ذماء^٦
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

٣

يرتجي الناس ان يقوم امام^٧ ناطق في الكتيبة الخرساء^٧

١ و ٢ يريد بهذين البيتين ان حبل النسل انقطع فيه (أي انه لم يتزوج) وان التزوج كالثؤباء
عدوى تصيب الناس بعضهم من بعض اما هو فبقي سليماً منها .

٣ المخدرات الاسود في آجامها .

٤ المكثر اي الكثير المال .

٥ لا يقصد بالديانة هنا الايمان الحقيقي بل النظم والظواهر والطقوس الخارجية التي هي من
وضع الانسان .

٦ ذماء بقية الروح في الجسد .

٧ إشارة إلى القول بظهور المهدي .

كذب الظنّ لا إمام سوى العقل مشيراً في صحبه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب اسباباً لجذب الدنيا الى الرؤساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلاً على الجلساء

٤

يحسُن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم برّ ولا ناسكٌ إلا الى نفعٍ له يجذب
افضل من افضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

٥

من لي أن لا اقيم في بلدٍ أذكر فيه بغير ما يجب
يُظنّ بي اليُسْرُ والديانة والعلم وبينها حُجب
كلّ اموري عليّ واحدة لا صفرٌ يتقى ولا رجب
اقررت بالجهل وأدعى فهمني قومٌ قامري وامرهم عجب

٦

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجى فلعلها تدري وتفطن للزمان رعتبه
أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه

٧

انا صائم طول الحياة وإنما فطري الحمام ويوم ذاك أعتد
لوان من ليل وصبح لوّنا شعري واضعفتي الزمان الأبد
والناس كالاشعار ينطق دهرهم هم فمطلق معشرٍ ومقيّد
قالوا فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيّد
فاميرهم نال الامارة بالحنّا وتقيتهم بصلاته متصيّد
كن من تشاء مهجناً أو خالصاً واذا رزقت غنى فانت السيد

٨

لا تبدأوني بالعداوة منكم فمسيحكم عندي نظير محمد

أَيْفِيثُ ضَوْءُ الصَّبِيحِ نَاطِرَ مَدَاجٍ أَمْ نَحْنُ أَجْمَعُ فِي ظِلَامِ سِرْمَدٍ
 أَنْ السَّيُوفُ تَرَّاحَ فِي أَغْمَادِهَا وَتَظَلُّ فِي تَعَبٍ إِذَا لَمْ تَقْعُدْ
 رُوحٌ إِذَا اتَّصَلَتْ بِشَخْصٍ لَمْ يَزَلْ
 هَوًى وَهْيَ فِي مَرَضِ الْعَنَاءِ الْمَكْمَدِ
 أَنْ كُنْتَ مِنْ رِيحٍ فَيَا رِيحَ اسْكُنِي
 أَوْ كُنْتَ مِنْ لَهَبٍ فَيَا لَهَبَ اخْدُ

٩

جُرْ يَا غَرَابُ وَأَفْسِدْ لَنْ تَرَى أَحَدًا أَلَا مَسِيئًا وَايَّ الْخَلْقِ لَمْ يَجْرُ؟
 فَخُذْ مِنَ الزَّرْعِ مَا يَكْفِيكَ عَنْ عَرْضِ
 وَحَاوِلِ الرِّزْقَ فِي الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ
 وَمَا أَلْوَمَكَ بَلْ أَوْلَيْكَ مَعْدَرَةٌ إِذَا خَطَفْتَ ذُبَابَ الْقَوْمِ فِي الْحَجَرِ
 قَالَ حَوَّاءُ رَاعُوا الْأَسَدَ مَخْدَرَةٌ وَلَمْ يَفَادُوا بِسَلْمِ رَبَّةِ الْوُجُرِ^١
 وَمَنْ أَتَاهُمْ بِظُلْمٍ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَجَالِبِ التَّمْرِ مَفْتَرًا إِلَى هَجَرِ^٢
 هُمُ الْمَعَاشِرُ ضَامُوا كُلَّ مَنْ صَحَبُوا مِنْ جَنْسِهِمْ وَأَبَاحُوا كُلَّ مُحْتَجَرِ
 لَوْ كُنْتَ حَافِظَ أَثْمَارٍ لَهُمْ يَنْعَتُ ثُمَّ اقْتَرَبْتَ لَمَّا أَخْلَوَكَ مِنْ حَجَرِ

١٠

الْعَالَمِ الْعَالِي^٣ بِرَأْيِ مَعَاشِرِ كَالْعَالَمِ الْهَآوِيِ يَحْسُ وَيَعْلَمُ
 زَعَمْتُ رِجَالٌ أَنْ سَيَّارَاتِهِ تَسْقِي الْعُقُولَ وَأَنْهَا تَتَكَلَّمُ
 فَهَلِ الْكُوكُوبُ مِثْلُنَا فِي دِينِنَا لَا يَتَفَقَّنُ فَهَائِدٌ أَوْ مُسْلِمٌ؟
 وَالنُّورُ فِي حَكْمِ الْخَوَاطِرِ مُحَدَّثُ وَالْأَوَّلِيُّ هُوَ الزَّمَانُ الْمَظْلَمُ
 وَالْخَيْرُ بَيْنَ النَّاسِ رَسْمٌ دَاثِرٌ وَالشَّرُّ نَهْجٌ وَالسَّبْرُ مَعْلَمُ

١ أي اخافوا الاسد في عرينها وأقلقوا سائر الحيوانات في ارجوتها .
 ٢ هجر : بلد مشهور بتمره في مقاطعة « الاحساء » .
 ٣ يريد بالعالم العالي عالم الافلاك والعالم الهاري عالم الانسان والطبيعة .

طبعٌ خلقت عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلمٌ

* * *

ان جارت الامراءُ جاء مؤمرٌ
ان شئت ان تكفى الحيام فلاتعش
أحسن بدنيا القوم لو كان الفتى
يتشبه الطاغى بطاغٍ مثله
في الناس ذو حلم يسفته نفسه
وكلاهما تعبٌ يحارب شيمه^١
اعتى واجور يستضم ويكلم^٢
هذي الحياة الى المنية سلم
لا يقتضى وأديمه لا يحلم^٣
واخو السعادة بينهم من يسلم
كيا يهاب وجاهل يتحلم
غلبت فاض بحريها يتالم^٤

١١

اركان دنيانا غرائزُ اربعٌ
والله صير للبلاد واهلها
والدهر لا يدري بما هو كائن
والمرء ليس بزاهد في غارةٍ
والحي تخلق جسمه حركاته
نبكي ونضحك والقضاء مسلطٌ
نشكو الزمان وما اتى بجنائيه
متوافقين على المظالم ركبت
يمضي بنا الفتيان ما أخذنا لنا
جعلت لمن هو فوقنا اركانا
طرفين : وقتاً ذاهباً ومكانا
فيه فكيف يلام فيما كانا
لكنه يترقب الامكانا
فيكل وهو يحاذر الاسكانا
ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
ولو استطاع تكلماً لشكانا
فيما وقارب ممرنا ازكانا
نفساً على حالٍ ولا تركانا^٤

١٢

قد اختل الانام بغير شك
وودوا العيش في زمن خؤون
فجيدوا في الزمان أو العيوة
وقد عرفوا أذاه وجرّوه

١ يكلم أي يدمي .

٢ أديمه لا يحلم أي جلده لا يفسد والمعنى لو كان الانسان لا يصير الى زوال .

٣ آض أي رجع .

٤ الفتيان : الليل والنهار .

وينشأ ناشئ^١ الفتيان منا
وما دان الفتى بحجى^٢ ولكن
لعل الموت خير^٣ للبرايا
أطاعوا ذا الخداع وصدقوه
وجاءتنا شرائع^٤ كل قوم
وغتير بعضهم أقوال بعض
فلا تفرح إذا رُجبت فيهم
صحبنا دهرنا دهرأ - وقديماً
وغيظاً - به بنوه وغيظ منهم
وهل ترجى الكرامة من اوان
وهل من وقتهم أبغى وأطغى
أجلتوا مكثراً وتنصفوه

على ما كان عودده أبوه
يعلمه التدين^١ أقربوه
وان خافوا الردي وتهيبوه
وكم نصح النصيح فكذبوه
على آثار شيء رتبوه
وأبطلت النهى^٢ ما اوجبوه
فقد رفعوا الدنيء ورجبوه^٣
رأى الفضلاء ان لا يصحبوه
فعذب ساكنيه وعذبوه
وقد غلب الرجال مغلبوه
على أي المذاهب قلبوه
وغابوا من اقل وأنبوه^٤

١ الناشئ : الحدث اليافع .

٢ النهى : العقل .

٣ رجبه : عظمه وهابه .

٤ المكث : النفي . تنصفوه أي خدموه .

ابن الفارض

ابو القاسم (ابو حفص) عمر بن علي بن مرشد

٥٧٧ هـ - ٦٣٢ هـ

١١٨١ م - ١٢٣٥ م



نشأته - شخصيته - اثر الصوفية في شعره - اسلوبه الشعري - غزله

مصادر دراسة شعره وتصوفه

- الشمع لابن السراج الطوسي ليدن ١٩١٤
الرسالة القشيرية دار الكتب المصرية ١٣٣٠
كشف المحجوب للحجويري ترجمة 1911 Nicholson
الاحياء للغزالي وبهامشه عوارف المعارف للسهروردي مصر ١٣٠٢
وفيات الاعيان لابن خلكان الطبعة الميرية
الخطوط والآثار للمقرئزي مطبعة النيل ١٣٢٥
حسن المحاضرة للسيوطي ١٣٢١
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي مصر ١٣٥١
قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي مطبعة ولاية سوريا ١٣٠٩
شرح الديوان للبوريني والنايلسي مصر ١٣١٠
" " " (شرح الدحداح) مرسيليا ١٨٥٣
التائية الكبرى شرح الفرغاني (١٢٩٣ هـ) والقاشاني (١٣١٠)
التائية الكبرى تحرير Von Hausman فيينا ١٨٥٤
Nicholson, Studies in Islamic Mysticism, Cambridge, 1911
Massignon-Encyc. of Islam. Tasawwuf.
ابن الفارض والحب الإلهي لمحمد مصطفى حلمي مصر ١٩٤٥
ومقالات شتى لأدباء عرب ومستشرقين .

نشأته

يرجع ابن الفارض بنسبه الى بني سعد^١ . ووالده حمويّ الاصل قدم مصر يقطنها ، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلقّب بالفارض^٢ . ويستدل انه (الوالد) كان رجل فضل وجاه يتصدر مجالس الحكم والعلم ، حتى سئل ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم . واعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الازهر الى ان توفاه الله^٣ .

وفي مصر ولد شاعرنا ، ولا شك انه كان لوالده يد كبيرة في ثقافته وفي تكييف نزعاته النفسية . قال ابن العماد الحنبلي : « فنشأ تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة ، بل زهد وقناعة وورع ، وأسدل عليه لباسه وقناعه . فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر^٤ . »

وقد ظهر فيه منذ أوائل شبابه ميل الى التدين والتلذذ بالتجرد الروحي على طريقة المتصوّفين . فكان يستأذن والده في الانفراد للعبادة والتأمل . ويظهر انه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعفين يختلف اليه المتجردون^٥ ، فحبّب الى ابن الفارض الخلاء فيه ،

١ قبيلة السيدة حليلة مرضعة النبي العربي .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٣ عن سبطه في الديوان ص ٧ .

٤ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ . وابن عساكر هذا غير الحافظ الشهير صاحب التاريخ الكبير .

٥ الديوان ٦ .

فتزهد وتجرد وكان يأوي الى ذلك المكان أحياناً^١ . ثم انقطع عنه ولزم أباه . فلما توفي الوالد عاد الولد الى التجريد والسياسة الروحية او سلوك طريق الحقيقة فلم يفتح عليه بشيء^٢ (اي لم يكشف له من المعرفة ما يستغني به ولعله يريد هنا لم يوح اليه من الشعر شيء) ثم قيّض له رجل من الاتقياء أشار عليه ان يقصد مكة . فقصدها وأقام فيها مجاوراً نحواً من ١٥ سنة . وهناك بين المناسك المقدسة نضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية . ثم عاد الى مصر ، وكانت يومئذ تحت سيادة الايوبيين ، وقد عُنوا كل العناية بفتح المدارس والمعاهد فيها ، فتجددت في أيامهم الروح الدينية والتعاليم السنية . حدث ذلك على أثر انتصاراتهم على الصليبيين تلك الانتصارات التي وطدت مركزهم في مصر والشام والحجاز ، وتركت لهم في تاريخ الشرق الاسلامي ذكرى خالدة .

والذي يلفت النظر ان عطف الايوبيين على السنة كان مقروناً بتزايد عدد الصوفية^٣ في مصر ، فكان التصوف يومئذ كان يعتبر مظهراً من مظاهر التدين ليس إلا . ولذلك نرى الجمهور يكرمون مشايخ الطرق ويعظمون شأنهم ، ونرى الحكام والامراء يقفون لهم « الخوانك »^٤ . ويذكر المقرئ ما ملخصه^٥ : ان صلاح الدين خصّص سنة ٥٦٩ بمصر داراً للصوفية كانت قبلاً لوزراء الفاطميين ، ووقف لهم وقفاً كبيراً ، فكانت اول خانكاه عملت بديار مصر ، وعُرفت بدويرة الصوفية . وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم . وولي مشيختها الاكابر والاعيان . قال : « وأخبرني الشيخ احمد بن علي القصّار انه أدرك الناس في يوم الجمعة يأتون من مصر الى القاهرة ليشاهدوا الصوفية عندما

١ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٢ الديوان ٧ . شذرات الذهب ١ - ١٥٠ .

٣ راجع قائمتهم في حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٣ - ٢٥٤ .

٤ جمع خانكاه وهي فارسية معناها البيت ويقصدون بها محلات خاصة لاقامتهم .

٥ الخطط (بولاق) ٢ - ٤١٥ .

يتوجهون منها الى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم ، ثم يصف موكبهم الفخم ويدقّب على ذلك بقوله : « انه كان من أجل عوايد القاهرة ، وقد بقي الامر كذلك الى أوائل القرن التاسع الهجري .

فلا نستغرب إذن ما نسمعه عن اكرام الناس لابن الفارض وقد رجع من مكة شيخاً متصوّفاً وشاعراً كبيراً ، حتى كان إذا مشى في المدينة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده^١ . قال ولده^٢ : « وكان إذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء (المتصوفة) واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه والاتضاع له . وإذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكاً عظيماً » . وقال ابن العماد الحنبلي^٣ : « فأقام بقاعة الخطابة في جامع الازهر ، وعُكفت عليه الائمة وقُصد بالزيارة من الخاص والعام ، حتى ان الملك الكامل كان ينزل لزيارته » .

قلنا اننا لا نستغرب ما رواه ولده ، وما نقله صاحب شذرات الذهب عن منزلة شاعرنا الدينية والاجتماعية ، على انه لا بدّ من القول انصافاً للتاريخ ان ابن خلكان الذي أدرك الشاعر وترجم له ، لا يذكر شيئاً من هذا القبيل . وكل ما يقوله من ذلك : « سمعت انه كان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجرد » . فهو يزكّي قول سبطه وولده ومن نقل عنها انه كان معروفاً بالصلاح والكرم وسلوك طريقة التصوّف على انه يسكت عما ذهبوا اليه من تعظيم الخاصة والعامة له . ولا يلزم عن

١ الديوان ٦ .

٢ الديوان ٦ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ كان ابن خلكان في الرابعة والعشرين لما توفي ابن الفارض .

سكوته انكار ما ذهبوا اليه ، ولكنّ فيه ما يحوّز لنا التحرّز بما قد يكون من قبيل الفلو او التفرض .

شخصيته

يجمع مؤرخوه على انه كان ورعاً وقوراً طيب الاقوال والافعال . والذي يراجع سيرته ويتفهم روح قصائده يتجلّى له في نفسه ثلاث مزايا بارزة :

انه كان شديد التأثر (وخصوصاً بالجمال) الى درجة الانفعال العصبي يسحره جمال الشكل حتى في الجمادات . ومن ذلك ما يروونه عن تأثره بحسن بعض الجمال ، أو ببرنية حسنة الصنعة رآها في دكان عطّار . وقد يسحره جمال الالحان - فاذا سمع انشاداً جميلاً استخفّه الطرب فتواجد ورقص ولو على مشهد من الناس . نقل عن ولده ان الشيخ كان ماشياً في السوق بالقاهرة فمرّ على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ويغنون ، فلما سمعهم صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارّين . وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض . ثم خلع الشيخ ثيابه ورمى بها اليهم وحمل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه . وأقام في هذه السكر (النوبة العصبية) ملقى على ظهره مسجّى كاليت^٢ .

وما يذكر من هذه السكرات او النوبات التواجدية انه كان مرّة جالساً في الجامع الازهر على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء ، وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم . وكلما ذكروا حالاً من أحوال الدنيا مثل الطشت او الفرش قالوا هذا من زخم

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

٢ الديوان ١٤ .

(أي وضع) العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ويفخّمون « زخم العجم » رفع المؤذنون أصواتهم بالأذان جملة واحدة فقال الشيخ : « وهذا زخم العرب » وتواجد ، وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة ^١ .

فالرجل كان شديد التأثر العصبي وسرى اثر ذلك في شعره ولا سيما في قصيدته الكبرى نظم السلوك . والظاهر ان للطريقة الصوفية وما يلزمها من رياضة وأذكار وتأملات روحية تأثيراً بيناً من هذا القبيل . وقد روي في كتاب « كشف المحجوب » كثير من أخبار الصوفيين الذين ماتوا لشدة وجدهم ^٢ .

٢ - ميله الى الخلوة والتقشف . وهو ظاهر منذ حدائته في ما ذكرناه سابقاً من اختلافه الى وادي المستضعفين ، وظاهر أيضاً في مجاورته بمكة ، وما روه عن هيامه بأوديتها يستأنس بوحشتها . وقد عبّر عن ذلك بقوله :

وابعدني عن اربعي بُعد اربعٍ شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذمن الانس وحشتي
وكان أيام النيل يتردد الى المسجد المعروف بالمشتهى في الروضة ،
ويحب مشاهدة البحر (اي نهر النيل) مساءً ^٣ . وفي ذلك ما يشير الى
حبه التأمل بالجمال الطبيعي والبعد عن ضجيج الناس ومتاعبهم .
وقد قرن كل ذلك بقهر النفس تقشفاً وصياماً حتى نقل عن ولده انه
كان للشاعر اربعينيات ^٤ يحييها بالصيام والتأمل . وكانت تلك طريقة

١ الديوان ١٥ .

٢ كشف المحجوب (نقله فكلسون من الفارسية الى الانكليزية) راجع في النسخة الانكليزية
الصفحات ٤٠٦ - ٤١٠ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ الديوان ١٧ وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ . ومعنى الاربعينية اربعون يوماً .

عتمدها بعض المتصوّفين . ولهم في ذلك الحديث التالي يرفعونه الى النبي
« من اخلص لله تعالى العبادة اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه
على لسانه ^١ » . وقد عقد السهروردي فصلاً في هذه الطريقة ومعانيها
وكيف يدخلها المريد وما يتطلب منه ، فليراجعه من يريد التعمق في
ذلك ^٢ . وخلاصته ان مشايخ الصوفية متفقون على ان بناء امرهم على
اربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن
الناس . فمن استطاع ان يحتمل الجوع ابتغاء الفرح الاعلى الذي ينسيه
لهب الجوع فله ذلك . ولا يتحتم عليه الانقطاع التام عن الطعام والشراب
طيلة الاربعين يوماً بل الاكتفاء بالقليل القليل من خبز وملح أو ما
شاكل ، والقيام بما تتطلبه الخلوة من رياضة روحية حتى يفتح عليه
ويكشف بشيء من المنح الالهية .

ويظهر مما رواه ان شاعرنا كان يقوم بهذه الرياضة الزهدية أحياناً
ولعله الى ذلك يشير في قوله :

في هواكم رمضان^٣ عمره^٤ ينقضي ما بين احياء وطي
ومهما حاولنا غربة الاخبار التي يروونها عن تقشّفه وصيامه فاننا لا
نرى محيصاً عن القول ان الرجل كان متصوّفاً وكان يسلك طريقة اهل
الورع والزهد ^٣ ، وقصائده ولا سيما التائية الكبرى تنضح بذلك نضحاً
لا سبيل الى إنكاره .

٣ - كرم سجيته وحسن عشرته . قد يكون في امرىء ما كان في شاعرنا
من حدة التأثير والميل الى الطريقة الزهدية ، ويكون مع ذلك سيئاً العشرة
قليل الخير . اما ابن الفارض فقد اجمع الكل على نعته بسمو الخلق من
رقة وايناس وكرم وترفع عن حطام الدنيا ^٤ . فهو لم يكن من الذين

١ عوارف المعارف (هامش الاحياء) ٢ - ٢٢٣ .

٢ » » » الفصل الثامن والعشرون .

٣ راجع قصته مع السلطان الملك الكامل . الديوان ١٥ .

٤ ابن خلكان في ترجمته ، وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

يصطنعون التدين طمعاً بالحصول على المال أو شرف المقام ، بل كانت التدين طبعاً فيه يرفعه عن الشهوات والاطماع المعيبة . وقد عرف الناس له ذلك فأكرموه ورفعوه الى مصاف الصالحين .

ومن مزاياه البارزة السخاء . رُوي انه ركب مرة مع مكارٍ الى جامع مصر واشترط المكارى ان تكون اجرتة « على الفتوح » اي بقدر ما يفتح على الشاعر من العطايا . قال الراوي - وكان يرافقه - وتبعنا فارس من جهة الامير فخر الدين فاستند إليّ فقال لي : قل للشيخ هذه مئة دينار يقبلها من الامير على الفتوح . فقلت ذلك للشيخ . فقال نحن ركبنا مع المكارى على الفتوح وأمر له بها . فرجع الفارس الى الامير وأخبره بذلك . فبعث اليه مثلها ، فقال اعطها للمكارى . ولما وصلنا الى الجامع اعتذر الشيخ الى المكارى ودعا له ^١ .

وكان شديد المؤاخذة لنفسه . قال لولده ^٢ : « حصلت مني هفوة انحصرت بسببها باطناً وظاهراً حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من أمر عظيم فعملته وهو مطالب به ، فطلعت المقطم وقصدت مواطن سياحتي وأنا أبكي واستغيث واستغفر فلم ينفرج ما بي . وقصدت مدينة مصر ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددت البكاء والتضرع والاستغفار ، فلم ينفرج بالي ، فغلب عليّ حال مزعج لم أجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ،
قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض ، اسمع صوته ولا أرى
شخصه :

« محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط ،

١ الديوان ١٦ .

٢ الديوان ٣١ .

ولا ننكر انه لا يجوز التقيد بمثل هذه القصص والاستناد اليها في الحكم على شاعرنا ولكنها ترينا على الاقل رأي الذين ترجعوا له ، او كيفية تأثرهم بأخلاقه . والقصة الاخيرة ترجع الى أيام الشاعر فقد رواها ابن خلكان عن بعض أصحابه وانه ترنم يوماً وهو في خلوة بيت الحريري « من ذا الذي ما ساء قط ، فسمع البيت الثاني من قائل لم يرَ شخصه . ولا يذكر ابن خلكان دقائق القصة كما يرويها ولد الشاعر . وليس بالمعجب ان يكون ابن الفارض كما ذكرنا وان يوهمه الانفعال النفسي انه يسمع صوت شخص لا يراه . فما ذلك الشخص الا نفسه الواجدة ، التي كثيراً ما كان الوجد يفصلها عن العالم المحسوس .

* * *

فرجل كابن الفارض شديد الاحساس والتأثر ، كثير الخلوة والتأمل ، ورع مترفع عن حطام الدنيا ، محبّ حسن الصحبة كثير الخير ، لا يُستغرب ان تفيض نفسه بقصائد الوجد والهيام ، وان ينال من معاصريه ومن تبعهم جميل الذكر والاكرام .

اثر الصوفية في شعره

مرّ معنا في القسم الاول من هذا الكتاب شيء عن الطريقة الصوفية ومنشأها ، فلا لزوم لاعادته هنا . على انه لا بدّ لنا لدرس ابن الفارض وتفهم شعره ، من النظر في الصوفية ومصطلحاتها العامة فنقول :

« للقلب بابان ، باب مفتوح الى عالم الملكوت ، وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . فعلم الاولياء والانبياء يأتي من الباب الاول ، وعلم الحكماء (العلماء والفلاسفة) يأتي من الثاني . والفرق بين الفريقين ان الحكماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلابها الى القلب ، واما الاولياء (الصوفية) فيعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها

وتصقيلها فقط حتى تتلأأ فيه جليّة الحق بنور الاشراق ، وهذا هو الكشف^١ .

فالصوفية اذن مجاهدة^٢ لتطهير القلوب من الادران والانفراد بذكر الله توصلًا الى الحصول على الالهام النوراني^٣ - او الاتحاد الكامل بالحق الاعلى .

وفي خلال هذه المجاهدة تمرّ نفس الصوفيّ في قطورات شتى ، منها ما يدعى مقامات ، ومنها ما يدعى احوالاً . ويراد بالمقامات قيام العبد بين يدي الله والانقطاع اليه ، ولزوم العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية . وبكلمة اوضح هي المسالك التي يتدرج فيها المتصوف نحو غايته المنشودة ، كالتوبة - والورع - والزهد - والفقر - والصبر - والتوكل - والرضا وغير ذلك^٤ .
واما الاحوال فهي ما يحلّ بالقلوب من صفاء الاذكار - او هي اختبارات النفس اذ تمرّ في شتى المقامات . ومن ذلك القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الانس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين^٥ .

وللصوفية مصطلحات يكثرّون من ترديدها في اشعارهم ، وقد افرد لها ابن السراج الطوسيّ في اللّمع باباً خاصاً ذكر فيه نحواً من ١٥٩ نوعاً ، ثم شرحها شرحاً وافياً فليراجعها من شاء^٦ . وإنما نجتزئ هنا بأشهرها واكثرها تردداً في الشعر الصوفي ، وخاصة في شعر ابن الفارض - ومنها :

الجمع والتفرقة : فالجمع هو اتحاد الواجد بالله عن سبيل الوجد^٧ ،

١ ملخصاً عن الاحياء للغزالي ٣ - ٢١ .

٢ من اراد معاني هذه الالفاظ من الوجهة الصوفية فليراجع اللّمع ٤٣ - ٥٤ او كتاب قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي .

٣ راجع معانيها في اللّمع ٥٤ - ٧٢ .

٤ اللّمع ٣٣٣ - ٣٧٦ .

٥ وفي جامع البدائع (مصر ١٩١٧) ص ٨٧ ان كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً ، وان الخير المطلق يتجلى لماشقه وان غاية القربى منه هي قبول تجليه على اكمل ما في الامكان . وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالاتحاد .

والتفرقة تملُّقُه بالبشرية :

فالاول عن طريق القلب والثاني عن طريق العقل - فمثال الجمع قوله :
لها صلواتي بالمقام اقيمها واشهد فيها انها لي صلت
كلانا مصلِّ واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة
الفناء والبقاء - الفناء رؤية حركات العبد ، والبقاء رؤية عناية الله .
كقوله :

وتلافي ان كان فيه اثتلافي بك عجل به - جعلت فداكا

وقوله :

ان كان في تلقي رضاك صباية - ولك البقاء - وجدت فيه لذاذا
الحب والهوى - وما يتعلق به من كتمان - والم - ونحول - وشوق -
وهجر - ووصل - وتهتك - وعدل وغيره من الوجهة الصوفية
وهو الموضوع العام في شعر ابن الفارض ، والامثلة اكثر من ان
تُحصر هنا .

الوجد - ان ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية فيشاهد ويسمع ما لم
يكن يتيها له من قبل :

يا اخا العذل في من الحق مثلي هام وجدأ به عُدمتُ إخاكا
لو رأيت الذي سباني فيه من جمال - ولن تراه - سباكا

القبض والبسط - وهما حالان شريفان لاهل المعرفة (الصوفية) . اذا قبضهم
الله حشمهم عن تناول المباحات حتى الاكل والشرب والكلام ،
واذا بسطهم ردّهم الى هذه الاشياء حتى يتأدب الخلق بهم .

وفي رَحْمَت البسط كلتي رغبةٌ بها انبسطت آمال اهل بسيطتي
وفي رهبوت القبض كلتي رهبة ففيا اجلت العين منّي اجلّت
السكر والصحو - (الغشية والحضور) فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة
الخلق ومشاهدته للحق بلا تغير ظاهر على العبد . ويختلف عن

الغشية بانها تظهر) .

تهذب اخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لاله عزم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

والصحو رجوع القلب الى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين ،
ويختلف عن الحضور بأن هذا دائم والصحو حادث .

المحو وصحو الجمع - وهما حالان تتلوان السكر والصحو . فالمحو
صعقة السكر ثانية بعد الصحو الاول يتلوها صحو الجمع وهو
الرتبة العليا وفيها يتم الاتحاد بالله واذ ذاك تتساوى الطوائع
وتجتمع الاضداد فيصبح العابد والمعبود واحداً ، وكذلك
الرسول والمرسل والمحب والمحبوب ، والحاضر والماضي ، والليل
والنهار ، والصفة والذات .

فالوجود واحد - وليس هنالك زمان ، او سابق ذوات ،
او اختلاف أديان ، أو أنا وأنت وهو ، بل روح واحدة
هي حقيقة الحقائق التي تتجلى بمظاهر مختلفة في الوجود
الحسّي .

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرهما وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلّت
فكل الذي شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الاكنة
إذا ما ازال السر لم تر غيري ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة
وإذا بزغت أنوار التوحيد على قلب الصوفي كسف سلطانها سائر
الانوار .

وفي حبها بعث السعادة بالشقا ضللاً وعقلي عن هداي به عقل
وقلت لرشدي والتنسك والتقوى تخلتوا وما بيني وبين الهوى خلثوا
الكشف - بيان ما يخفى على الفهم فيكشف عنه للعارف كأنه

رأي عين :

وما برحوا معنىً اراهم معي فإن نأوا صورةً في الذهن، قام لهم شكل

* * *

فالدجاجي لنا بك الآن غرٌ حيث أهديت لي هدى من سناكا
واقْتَبَسَ الانوار من ظاهري غير عجيب وباطني مأواكا
التجريد - ما تجرّد للقلب من شواهد الالوهية اذا صفا من كدور
البشرية :

ابعيني عى عنكم كما صمّ من عدله في أذُنّي
أو لم ينه النهى عن عدله زاوياً وجه قبول النصيح زي

* * *

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرّ ارقّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرة امتلها ففدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا
السطح - كلام غريب يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن قلب
الواجد كما يفيض الماء الغزير اذا جرى في مجرى ضيق
كقوله :

فخمرٌ ولا كرم وآدم لي أبٌ وكرم ولا خمر ولي أمها أمٌ
وقوله في حالة الاتحاد :

فأتلو علوم العالمين بلفظة واجلو عليّ العالمين بلحظةٍ
واستعرض الآفاق نحوي بخطوة واخترق السبع الطباق بخطوة
فمن قال أو من طال أو صال انما يمتّ بامدادى له برقيقة
وما سار فوق الماء أو طار في الهواء أو اقتحم النيران ألا بهمتي
ومنّي لو قامت بيت لطيفة لرُدّت اليه نفسه وأعيدت

اسلوبه الشعري

نشأ ابن الفارض في عصر بلغت فيه الأناقة البديعية نثراً ونظماً أعلى درجاتها . فهو عصر القاضي الفاضل ، والعماد الاصبهاني ، وابن التعاويذي ، وابن النبیه ، والبهاء زهير ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وسوام ممن عاصروا شاعرنا او سبقوه قليلاً . وقد عُرِفَت هذه الطبقة جميعها بولعها الشديد بالصناعة اللفظية وتكلف أنواع البديع . ولم يشذ عنهم ابن الفارض ، بل لعله أبعدهم شأواً في ذلك . فالتأنق البديعي عامٌ في جميع قصائده بل في أكثر أبياتها . وأكثر ما يظهر في ما يلي :

الجناس (في أنواعه المختلفة) — ومنه :

التام :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
والملفتق :

جنة عندي رباها املت ام حلت عجلتها من جنتي

المشتق او شبهه :

دار خلد لم يدر في خلدي انه من ينأ عنها يلق غي
وكثيراً ما يعنى يجمع عدد من ضروب الجناس في بيت واحد . كقوله :
وباينت بانات كذا عن طويلع بسلع فسל عن حلة فيه حلت
ففيه الملفتق والمحرّف وشبه المشتق .
فذاك هوى اهدى اليّ وهذه على العود إذ غنت عن العود اغنت
وفيه شبه المشتق والتام والناقص .

الطباق :

فلي بين هاتيك الخيام ضنينة عليّ يجمعي سمحة بتشتتي

* * *

وبسط طوى قبض التناي بساطه لنا بطوى ولسى بارغد عيشة

* * *

مني له ذل الخضوع ومنه لي عزّ المنوع وقوّة المستضعف
الطيّ والنشر :

فضعفي وسقمي ذا كراي عواذلي وذاك حديث النفس عنها برجمة

* * *

فقلبي وطرفي ذا بمعنى جماها معنّى وذا مغرى بلين قوام

* * *

وعقدي وعهدي لم يحلّ ولم يحلّ ووجدني وجدني والغرام غرامي
وقد يحمله الشغف بهذه الصناعة على جمع بضعة من أنواع البديع -
كقوله :

وقالوا: جرت حُمرأ دموعك قلت عن امورٍ جرت في كثرة الشوق قلّت
فحرت لضيف الطيف في جفني الكرى قرى فجري دمعي دماً فوق وجنتي
ففي هذين البيتين جناس وطباق ومراعاة نظير ومجاز مرسل .
وقوله :

أيّ صبا أيّ صبا هجت لنا سحرّاً من اين ذيتاك الشّدّي
ذاك ان صافحت ريتان الكلا وتحرّشت بحوذات كلّّي
فلذا تُروي وتروي ذا صدا وحديثاً عن فتاة الحيّ حيّ
ففيه من الجناس التام والمحرّف، وفيه التناسب، والطباق، والطيّ والنشر.
ومن مزايا أسلوبه توهم التناقض ، وهو ان يوهّمك بوجود تناقض في
المعنى ، والحقيقة غير ذلك . كقوله :

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضلّ المتيم واهتدى بضلاله

* * *

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وللوحش انسي اذ من الانس وحشقي

* * *

فلعلّ نار جوانحي ان تنطفي بهوبها وأودّ ان لا تنطفي

* * *

وقلت لرشدي والتنسك والهوى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

* * *

ومن أجلها أسمى لمن بيننا سعى واعدو ولا اغدو لمن دأبه العذل
ومنها لطف العبارة والاشارة وحلاوة الجرس - ويكاد يكون مذهبه
العام . ولا بدع فموضوعه حبّي والفاظه رقيقة مألوفة ، وهو يجمع بين سلاسة
البحثري وصنعة ابي تمام جمعاً لطيفاً قد يعلو به عن كليهما . نعم
تلك صفات الشعر الغزلي في كل زمان ، ولكن لابن الفارض نفساً
خاصاً يمتاز به : انه لطف روعي ينعكس على اسلوبه فيحبّبه الى القلوب
برغم ما فيه من عيوب سيأتي ذكرها . ولو أردنا التدليل على ذلك لاتينا
بأكثر ديوانه وانما نكتفي هنا بقوله :

يا اخت سعدٍ من حبيبي جثني برسالةٍ ادّيتها بتلطّفٍ
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي
وقوله :

زدني بفرط الحب فيك تحييراً وارحم حشاً بلظى هواك تسعيراً
واذا سألتك ان اراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي ، لن ترى
ومن حسناته دقّة الوصف والتّمثيل . وتظهر في بلاغة تشابيه ،
ووضوح رسومه الفكرية كقوله :

خافياً عن عائد لاح كما لاح في برديه بعد النشر طي
فتشبيهه ما صار اليه من النحول باثر الطيّ في الثوب يدلّ على
دقّة في الرسم تذكّر للشاعر . وقوله يصف شيوع الجمال الاسنى في
كل شيء :

تراه ان غاب كلّ جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم اذا تألفا بين ألحانٍ من الهزج

وفي مسارح غزلان الخائل في برد الاصائل والاصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
الى آخر هذه الابيات المشهورة .

وقوله يشبه تواجده بحال الطفل الذي يبكي من شدّة القهط ويحن الى
الخلاص منه فيناغى ويهزّ فيجد في ذلك ما يسكّنه وينسيه شدّة القهط -
(التائية) :

إذا أنّ من اشدّ القهط وحنّ في نشاطٍ الى تفريج افراط شدّة
يُناغى فيلغى كلّ كلٍّ اصابه ويُصفي لمن ناغاه كالمُنصّتِ
يُسكّن بالتحريك وهو بمهده اذا ما له ايدي مربّيه هزّتِ
وجدت بوجدٍ آخذي عند ذكرها بتعبيرٍ نالٍ أو بالحن صيّتِ
وقس على ما ذكر كثيراً من لطائفه التي يشرح بها حاله فيصف تأثير
الحب أو جمال المحبوب أو ضلال العذل ، وما الى ذلك بما يبلغ فيه
الطبقات العليا من الخيال الشعري .

* * *

عيوب اسلوبه

على ان في شعر ابن الفارض عيوباً لا يحوز الاغضاء عنها أمّها :
تكرير المعاني - وذلك طبعي في قصائد تدور على موضوع واحد ،
وما اشبهه في ذلك بأبي العتاهية . على ان شاعرنا لا يكتفي بتكرير المعنى
بل كثيراً ما يكرر العبارة وقد يكرّر البيت في أماكن شتى . كقوله :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي
يضرّكم لو كان عندكم الكلّ

فقد جاء في قصيدة أخرى :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضرّكم لو تتبعوه يحملي

وورد هذا المعنى مراراً في مواضع أخرى .
وقوله :

كهلال الشك لولا انه انت عيني عينه لم تتأي
وتراه في موضع آخر :

كأنني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهدّ العيون لرؤيتي
وقوله :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
وقد ورد أيضاً بقوله :

قد كفى ما جرى دماً من جفون بك قرحى فهل جرى ما كفاكا
وقوله :

فلو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل حسن فيه كل محبة
ومثله :

ولو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل قلب فيه كل غرام
وقوله عن العين :

فانسانها ميت ودمعي غسله واكفانه ما ابيضّ حزناً لفرقتي
ومثله :

فسهدي حيّ في جفوني مخلّد ونومي بها ميت ودمعي له غسيل
وقس على ما ذكر ما لم يذكر .

وقلما تجد قصيدة من قصائده تخلو من مخاطبة سائق الظعن ، والتقدم
اليه انت يحمل السلام الى الاحباب ، وان يذكر لهم صبّاً صريعاً نحيل
الجسم الى درجة الخفاء .

ويكثر في شعره التنقص من العذّل واللائين ، وذكر ربح الصبّا التي
يخصّها بحمل أخباره أو اخبار الحبيب .

ومن عيوبه الغموض - وهو امّا لبعد اشاراته وشطحاته أحياناً ، أو
لتعسفه في الصناعة ؛ خذ قوله مثلاً :

تاب بدر التام طيف محيّاك لطرفي بيقظتي اذا حكاكا
فتراءيت في سواك لعين بك قرّرت وما رأيت سواكا
وكذاك الخليل قلب قبلي طرفه حين راقب الافلاكا

ومعنى الابيات : ظهر لي البدر نائباً عنك مشبهاً محيّاك ، فما ظهر
لي سواك لأن عيني لا تشاهد إلا جالك . وكذا ابراهيم الخليل كان
يراقب النجوم باحثاً عن مبعثها العظيم . وفي هذا التركيب من التعسف
ما ترى .

وله من هذا القبيل ما يلفت النظر : واغمض منه شطحياته وهي
راجعة الى غرائب ما يصفه من أحواله الصوفية وهذه لا يفهمها إلا
ارباب هذه الطريقة او المطلعون على اسرارها .

أما غموض البديع فمعروف وهو يشارك فيه كل أهل الصناعة ، وربما
فاقهم أحياناً لمحاولته الجمع بين عدة ضروب في معنى أو بيت واحد .

* * *

وبرغم قدرته اللغوية وشاعريته الممتازة لا يخلو ديوانه من هفوات
لغوية أو اعرابية كقوله :

لو طويتم نصح جارٍ لم يكن فيه يوماً يال طيّا يال طي
وصحيحه يالو طيّا يا آل طي (وقد تقرأ يالطي) .
وقوله :

يضرّكم لو تتبعوه يحملتي - الصواب : لو تتبعونه .

وقوله : تاب بدر التام طيف محيّاك - وصوابه : عن طيف محيّاك .
وقوله : لعلّ اصيحاي بمكة يبردوا بذكر سليمى ما تجن الاضالع
وصوابه : يبردون .

وقوله : فان لها في كل جارحة نصل وصوابه نصل . وقد يخرّجونه
بتقدير ضمير الشأن فتصبح فانه الخ .

وهو يكثر من استعماله لغة « اكلوني البراغيث » كقوله :

وان كثروا اهل الصباية او قتلوا وقوله : وان مزجوه عذلي
وما الى ذلك مما يلاحظ في تضاعيف ديوانه .

ومن تساهله اللغوي قوله :

لم يرق لي منزل بعد النقا . وهو لطيف على ان فعل راق يتعدى
رأساً فيقال راقني ذلك .

وليس ما ذكرناه بالذي يتفرد به ابن الفارض ، فقد مرّ معنا ما
عيب على المتنبي وغير المتنبي ، وقلما يخلو ديوانه من مثل هذه الهفوات .
واكثرها للمحافظة على الوزن .

غزله

عُرف ابن الفارض بأنه شاعر الحب . والناس في ذلك طائفتان، اهل
الظاهر ، واهل الباطن . فأهل الظاهر هم القائلون بأنه لا يخرج عن سبيل
العشاق او الغزليين الذين وصفوا الجمال الانساني (ولا سيما جمال المرأة)
وتأثيره في نفوس المحبين . وقد عزا اليه بعضهم ولعه بسماع الغناء من
جواريه له وانه كان يرقص لذلك ويتواجد^١ . وعلى هذا الظاهر يفسّرون
حبه وسماعه او على الاقل لا يتعرّضون لما في ذلك من رموز صوفية .
ذكروا ان بعضهم في عصر الحافظ بن حجر كتب عن التائية شرحاً ،
وأرسله الى بعض عظماء صوفية الوقت ليقرّظه ، فأقام عنده مدة ، ثم
كتب اليه عند ارساله الجواب اليه :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب
« ف قيل له في ذلك فقال : مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدأ
والخبر والجناس والاستعارة ، وما هنالك من اللغة والبديع ، ومراد
الناظم وراء ذلك كله »^٢ .

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

ومن نظر إلى الديوان نظراً ظاهرياً ابن أبي حجلة . وقد قال في وصفه^١ : « هو من أرق الدواوين شعراً ، وأنفسها درّاً برّاً وبحراً ، وأسرعها إلى القلوب جرحاً ، وأكثرها على الطلول نوحاً - إذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشق مهجور ، وقلب بحر النوى مكسور » .

ولا يقصد ابن أبي حجلة بالعشق هنا النوع الصوفي الذي يرمز إلى الجمال الإلهي ، إذ المعروف عنه أنه كان من سيّثي الاعتقاد ابن الفارض^٢ بل يقصد ما يذهب إليه كثيرون من أن غزله غزل عادي كغزل ابن أبي ربيعة ، وعباس بن الأحنف ، والبهاء زهير وسواهم . ولا ينكر أن شهرة شاعرنا قائمة عند الجمهور على هذه الوجهة الظاهرية ، فهم يحفظون قصائده ويرددونها لضربها على أوتار الفرام ، ولأنها تلائم ما يشعرون به من خوالج الوجد والهيام . على أن شعور الجمهور لا يحتم علينا أن ننظر إليها كذلك . ومهما حاولنا أن نضرب صفحاً عن تصوّفه فإن من قصائده ما لا يفسّر إلا تفسيراً باطنياً أو رمزيّاً (صوفياً) . ومن ذلك قصيدته الحزنية ، واليك مثلاً منها :

ولو جلّيت سرّاً على اكّة غدا بصيراً ومن راووقها يسمع الصمّ
ولو أنّ ركباً يتموا ترب أرضها وفي الركب ملسوع لما ضرّه السمّ
تقدّم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم
وهامت بها روعي بحيث تمازجا اتحاداً ولا جرم تخلّله جرم
وقالوا شربت الإثم كلّاً وانما شربت التي في تركها عندي الإثم

والذي يقرأ هذه القصيدة ويتفهم معانيها ومراميها ، ثم يقابلها بخمريات أبي نواس مثلاً يرى فرقاً واضحاً برغم ما قد يتوهمه من تشابه الصفات في الخمرين النواسية والفارضية .

١ شذرات الذهب ١٥١ .

٢ الديوان ١١ .

وامم من هذه الخمرية واسمى تصوفاً ثابته الكبرى « او نظم السلوك »
التي مطلعها :

سقتني حيتاً الحب راحة مقلتي وكأسي محيياً من عن الحسن جلست
وهي قصيدة فريدة في الادب العربي ، أو كما يقول المستشرق العلامة
هامر في مقدمة ترجمته لها : « انها اسمى ما وصل اليها من هذا القبيل
في أدب الشرق والغرب » . ويقابلها « بنشيد الانشاد » في التوراة فيقول :
« هي نشيد انشاد العرب في الحب الصوفي ولست قصرت عن « نشيد
الانشاد » في الصور الطبيعية ، فانها تفوقه في الرموز التصوفية » .

* * *

والمروى انه لم ينظمها على حدة نظم الشعراء اشعارهم بل كانت
تحصل له جذبات يغيب فيها عن حواسه فاذا أفاق أمل ما فتح الله
عليه منها ، ثم يدع حتى يعاوده ذلك الحال .

ويصف ولده هذه الغيبوبة فيقول : « كان الشيخ في غالب اوقاته لا
يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه : فتارة
يكون واقفاً ، وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجعا على جنبه ،
وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجى كاليت . ويمر عليه عشرة أيام
متواصلة ، أو أقل من ذلك وأكثر ، وهو على هذه الحالة - لا يأكل ولا
يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك - ثم يستغيث وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون
اول كلامه انه يلى من القصيدة « نظم السلوك » ما فتح الله عليه » .

وعلى ما رووه من غيبته يعقب المستشرق الاستاذ نكلسون بقوله :
« اننا لا نرى لزماً ان نشك في صحة ما رووه ففي التاريخ ما يزكّيه
- هذا بلايك (Blake) فقد قال عن نفسه ان سكرة روحية كانت تغشاه

١ مقدمة الترجمة XX (فيينا ١٨٥٤) .

٢ مقدمة الترجمة VIII .

٣ و ٤ الديوان ١١ .

كلما أمسك القلم أو المرقم - وسانت كاترين أوف سيانا كانت تملي أحاديثها على كتبها وهي في حالة الوجد أو الغيبة (Ecstasy) . وكان جلال الدين الرومي ، إذا غاص في بحر المحبة ، أمسك بعمود في داره وأخذ يدور حوله وفي خلال ذلك ينظم ويملي^١ .

فليس من الغريب ان تأخذ «الحال» شاعراً رقيق الشعور شديد التأثير كابن الفارض . والذي يتأمل تأنيته العجيبة يرى فيها آثار تلك الحال ، كقوله :

ودلّتهني منها ذهولي ولم أفق عليّ ولم أقفُ التماسي بظنّتي
فاصبحت فيها والهاً لاهياً بها ومن ولّتهت شغلاً بها عنه ألهت
وعن شغلي عني شُغلت فلو بها قضيت ردىّ ما كنت أدري بنقلتي
وما زلت في نفسي بها متردداً لنشوة حسّي والمحسن خمرتي
وقوله :

يشاهدها فكري بطرف تخيّلتي ويسمعها ذكري بمسمع فطنتي
ويُحضرها للنفس وهمي تصوّراً فيحسبها في الحسّ وهي نديتي
فاعجب من سكري بغير مدامة واطرب في سرّي ومنّي طربتي

ومما يشير الى انه نظم كثيراً منها على اثر تواجد او «حال» ان المعاني تتكرر فيها على طرق شتى . ففي نفس الشاعر شوق مستمر يحمله الى العلى ، وكثيراً ما يحجب عنه أبواب التأمل المنطقي . على انه يثير شعوره فيظهر في أبيات أو قطع قد تختلف لفظاً عما نظم قبلاً ولكنها لا تختلف معنى . ومن ذلك معظم ما نظمه في الجمع والاتحاد والفناء والصحو وما شاكل من هذه المعاني التي كانت تشغل عقله فاذا غاب تسارعت الى خاطره فإلى لسانه . واذا اعتُرض ان الصنعة البديعية فيها تعارض ذلك لتطلبها الدقيق في التركيب وامتلاك الحواس في اختيار الالفاظ المناسبة ، قلنا قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه ليس بمحتم . وإذا كان رجل كابن

الفارض مشبع الروح بالتأملات الصوفية ، وكان مع ذلك واسع الاطلاع على لغة عصره الشعرية يخزن في ذاكرته الكثير من أوضاعهم وأساليبهم ، لم يستحل عليه حتى في حال ذهوله ان يبت شعوره بواسطة تلك الاوضاع والأساليب .

فالتائية الكبرى نشيد الوجد الروحي . فيها نشعر بذلك الحب الاسنى الذي يملك على الناظم حواسه فيسكره وينقله من عالم المادة الى عالم الروح . فيها نرى ذلك العراك المستمر بين الصلاح والشرّ وذلك الفوز النهائي الذي انما ينال بمشاهدة الجمال الإلهي :

وما هو الا ان ظهرت لناظري بأكمل اوصاف على الحسن اربت
فحلّيت لي البلوى فخلّيت بينها وبينى فكانت منك اجمل زينة
وما الحبّ الحقيقي إلّا الذي ينتهي بتلاشي ارادة الحب او اتحاده
في حقيقة المحبوب .

وغبّبت عن أفراد نفسي بحيث لا يزاحمني ابداء وصفٍ بحضرتي
وها انا أبدي في اتحادي مبدأي وأنهى انتهائي في تواضع رفعتي
أما الجمال فهو الجمال المطلق الذي يتجلّى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان .

وصرّح باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلاً لـزخرف زينة
فكلّ مليح حسنه من جمالها مُعارٌ له بل حسن كلّ مليحة
وحب الجمال هو حب الله نفسه وهو عند ابن الفارض أعلى من عبادة النساك ومن عبادة المثقلين أنفسهم بظواهر التقليد والنقل .

وطب بالهوى نفساً فقد سُدتْ انفس العباد من العباد في كل أمة
وفُزّ بالعلم وافخر على ناسكٍ علا بظواهر اعمالٍ ونفس تزكّت
وجز مُثقلاً لو خفّ طفٌ مؤملاً بمنقول احكام ومعقول حكمة
وحز بالولا ميراث ارفع عارف غدا همته ايثار تأثير همّة
وتيه ساحباً بالسّحب اذبال عاشق بوصلي على أعلى المجرّة جرّت

على ان الجمال الانساني لا يمكن مشاهدته الا بعد التجرد من أثواب العقل والحس .

الى ان بدا مني لعيني بارق وبان سنا فجري وبانت دجنتي
هناك الى ما احجم العقل دونه وصلت وبني مني اتصالي ووصلتي
واستار لبس الحس لما كشفتها وكانت لها اسرار حكمي اراخت
رفعت حجاب النفس عنها بكشفي النقاب وكانت عن سؤالي مجيبي
ومتى شاهدت النفس المتجردة الجمال الاسنى تساوت لديها الاسماء
والصفات وأصبحت هي والوجود الالهي شيئاً واحداً ، فرأت في كل
الاشكال معنى واحداً .

ترى صور الاشياء تجلى عليك من وراء حجاب اللبس في كل خيلة
تجمعت الاضداد فيها لحكمة فاشكالها تبدو على كل هيئة
وكل الاديان مظاهر لدين واحد حتى عباد الاوثان ليست عبادتهم في
الحقيقة إلا اتجاهاً نحو الجمال الالهي المطلق .

فما قصدوا غيري وان كان قصدم سواي وان لم يظهروا عقدنية
ولشيوخ مثل ذلك في شعره اتهمه البعض بالحلول^١ وكفروه ، حتى
قال المناوي وهو من المدافعين عنه^٢ : « والحاصل انه اختلف في شأن
صاحب الترجمة (ابن الفارض) وابن عربي ، والعفيف التلمساني (وفلان
وفلان يعددهم) من الكفر إلى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين
في هذه القضية ، على ان شاعرنا يدافع عن نفسه فيقول :

وكيف وباسم الحق ظلّ تحقيقي تكون اراجيف الضلال مخيفتي
ولي من أصحّ الرؤيتين اشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم اعد عن حكمي كتاب وسنة
فابن الفارض لا يعتمد في شعره الطريقة الجدلية ، ولا يدخل في نضال

١ الديوان ١٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .

فلسفي يدعمه بالادلة والبراهين ، بل هو يصور الوجود بالوان الجمال المطلق ، وينسج من عواطفه حلّة سداها ولحمتها الحب المُسكر ، حلّة تلبسها النفس فتحتجب عن علاقاتها المادية ، وتعلو في لوح الفضاء الى حيث تلتجج بروح الكون . وفي ذلك المقام تطلّ على الوجود فلا ترى فيه إلّا شكلاً واحداً ولونا واحداً وقوّة واحدة .

الحبّ هو نشيد ابن الفارض . وهو - سواء نظرت اليه من جهة الظاهر أو جهة الباطن - حب سام يرفع النفس الى المثل العليا ، ويكشف لها عن جمال الوجود الاعظم .

وما ميّ ، وعُتب ، وريّا ، وسلمى ، وليلى وسواهنّ عنده الّا مرايا تعكس لنا نور المحبوب الاسنى .

وما الوجد ، والشوق ، والوصل ، والهجر ، والعذل ، والتعذيب ، والدّل ، والنحول ، والموت ، والغدر ، والوفاء ، واللوم ، والعتاب ، والرضا ، واضراب هذه الاوضاع الغزليّة الا اختبارات نفس شديدة الاحساس في سعيها نحو مصدر الجمال .

وما مرابع الحجاز الا رمز للمرابع العلوية ، ولذلك تراه يردد ذكرها في أكثر قصائده ، فيقول مثلاً :

يا ساكني البطحاء هل من عودةٍ احيا بها يا ساكني البطحاء

* * *

لا تملني عن هوى مرتبمي عدوّتي تسيما لربعٍ بتُسمي

* * *

قسماً بمكّة والمقام ومن اتى البيت الحرام ملتباً سيّاحا
مارتحت ريح الصبا شيخ الربى الّا واهدت منكم افراحا

تلك هي عاطفته الحجازية التي تبرز في أكثر قصائده . ومهما غلا المشككون فان في تلك العاطفة ما يدرّ قولنا بصوفيّة شاعرة ونبالة حبّه .

المختار من شعر ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثم تذوب في الفضاء
الواسع تاركة وراءها نغماً لطيفاً يرجعه الشعر فيطرب السامعين .

يائتته المشهورة

سائق الاظمان يطوي البيد طي	منعماً عرج على كثران طي ^١
وبذات الشيخ عنّي ان مرر	ت بحميّ من عريب الجزع حي ^٢
وتلطف واجر ذكرى عندهم	علّهم أن ينظروا عطفاً الي
قل تركت الصب فيكم شبعاً	ما له بما يراه الشوق في
خافياً عن عائس لاح كما	لاح في برّديه بعد النشر طي
كهلال الشك لولا أنّه	أنّ عيني عينه لم تتأي ^٣
مسبلاً للنأي طرفاً جاد إنّ	ضنّ نوء الطرف أن يسقط خي ^٤
بين اهليه غريباً نازحاً	وعلى الاوطان لم يعطفه لسي ^٥

١ طي الاول مصدر طوى . والثانية اسم قبيلة .

٢ ذات الشيخ : موضع . الجزع : منعطف الوادي . والحمي (الثانية) أي سلم .

٣ هو في الخفاء كالهلال الذي لم تثبت رؤيته ولولا انينه لما رأت عيني ذاته (عينه) .

٤ ساكباً دموع طرف يحود بالبكاء وان بخل نجم « الطرف » عند سقوطه بالطر .

٥ لي أي عطف .

نشرَ الكاشحُ ما كان له
 في هواكم رمضان عُمْرُهُ
 حائراً في ما إليه امرُهُ
 يا أهيلَ الودِّ أنْتى تنكرو
 وهوى الغادةِ عَمري عادةً
 ومتى اشكُ جراحاً بالحشا
 عجباً في الحرب أدعى بأساً
 هل سمعتم أو رأيتم أسداً
 وضعَ الآسي بصدري كفته
 سقمي من سقمِ اجفانكم
 رجوعَ اللاحي عليكم آسأ
 أبعينيه عمى عنكم كما
 ظلَّ يهدي لي هدىً في زعمه
 ذابت الروح اشتياقاً فهيَ بعدَ نفاذِ الدمعِ أجرى عبرتي
 فهبوا عينيَّ - ما اجدى البكا -
 أو حشا سالٍ وما أختاره
 بل أسيثوا في الهوى أو أحسنوا

طاوي الكشح قبيل الناي طي
 ينقضي ما بين إحياء وطي^١
 حائرٌ والمرء في المحنة عي
 في كهلٍ بعد عرفاني فتى
 يجلبُ الشيب إلى الشاب الأحي^٢
 زيد بالشكوى إليها الجرح كي
 ولها مستبسلًا في الحب كي^٣
 صاده لحظ مهارة أو ظي
 قال ما لي حيلة في ذا الهوى
 وبمعسول الثنايا لي دوي
 من رشادي وكذاك العشق غي
 صممٌ عن عدله في أذني^٤
 ضلَّ كم يهدي ولا أصغي لفي
 ذابت الروح اشتياقاً فهيَ بعدَ نفاذِ الدمعِ أجرى عبرتي
 عين ماءٍ فهي إحدى منيتي
 إن ترّوا ذاك به منّا علي
 كل شيء حسنٌ منكم لدي

* * *

روح القلب بذكر المنحنى وأعدّه عند سمعي يا أخي
 لم يرق لي منزلٌ بعد النقا لا ولا مستحسنٌ من بعد مي
 آهِ واشوقي لضاحي وجهها وظها قلبي لذيتك اللّمي^٥

١ بين سهر وجوع .

٢ الاحي أي الاسود الشعر .

٣ كي : جبان .

٤ هل عميت عينه عن جمالكم كما صمت أذني عن سماع عدله .

٥ تصغير لمى وهو سمرة في باطن الشفة أو ماء الثغر .

فبكلِّ منه والاحاظ لي سكرة^١ واطربا من سكرتي
جنة^٢ عندي رباها أمحت^٣ أم حلت - عجلتها من جنتي^٤
دار خلدي لم يدُرْ في خلدي أنه من ينأ عنها يلقَ غي

* * *

خاطبَ الخطب دع الدعوى فما بالرقى ترقى الى وصل رقي^٥
رُح معافى^٦ واغتم نصحي وإن شئت ان تهوى فلبلوى تهى
كم قتيل من قبيل ما له قود^٧ في حبنا من كل حي
أي تعذيب سوى البمد لنا منك عذب^٨ حبذا ما بعد أي^٩
ان تشي راضية^{١٠} قتلي جوى^{١١} في الهوى حسي افتخاراً أن تشي
ما رأت مثلك عيني حسناً وكمثلي بك صبا لم تری
نسب^{١٢} أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبوي
ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
ميركم^{١٣} عندي ما اعلنه^{١٤} غير دمع عندمي^{١٥} عن دمي^{١٦}
مظهِراً ما كنت أخفي من قديم حديث صانه مني طي
يا أصيحابي تمادى بيننا ولبعد بيننا لم يقض طي
عللوا روعي بأرواح الصبا فبريها يمود الميت حي
أي صبا أي صبا هجت لنا سحراً من أين ذياك الشذوي^{١٧}
ذاك ان صافحت ريان^{١٨} الكلا وتحرشت^{١٩} بجوذا^{٢٠} كلي^{٢١}
فلذا تُروى وتُروى ذا صدى^{٢٢} وحديثاً عن فتاة الهي^{٢٣} حي^{٢٤}
سائلي ما شفتني ، في سائل الديمع لو شئت غنى عن شفتي

١ هي عندي جنة سواء اجذبت أم تحلت بالخصب ويشير بالجنة الثانية إلى السماء .

٢ رقي اسم فتاة ويكنى بها عن الجمال الاسنى .

٣ أي حبذا التعذيب .

٤ عندي أي أحر . دمي تصغير دم أي سال سائل من دمي .

٥ و ٦ أي انما ذلك الشذا لأنك لمست الكلا الناضر وتحوشت بنبات الجوذان في وادي الحبيب .

ولذا فانت تروي صاحب العطش وتروي الخبر الصادق (الهي) عن فتاة الهي .

عُتِبَ لَمْ تُعْتَبِ وَسَلَى اسَلَمْتُ وَحَى أَهْلَ الْحَى رُؤْيَا رَيَّ ١

هو الحب

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختارَه مَضْنَى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحتُه عنا
ولكن لديّ الموت فيه صباة
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى
فان شئت أن تحيا سعيداً فمت به
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به
تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا
وقل لقتيل الحب وفيت حقه
تعرض قوم للغرام واعرضوا
رضوا بالاماني وابتلوا بمحظوظهم
فما اختارَه مَضْنَى به وله عقل
وأولُّه سقم وآخره قتل
حياة لمن أهوى عليّ بها الفضل
مخالفتي فاخترت لنفسك ما يحلو
شيداً والا فالغرام له أهل
ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
وخل سبيل الناسكين وان جلتوا
ولم تدعي هيات ما الكحل الكحل
يجانبهم عن صحتي فيه واعتلوا
وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

* * *

أحبة قلبي والمهبة شافعي
عسى عطفة منكم عليّ بنظرة
احبائي أنتم أحسن الدهر أم أسا
فكونوا كما شتم انا ذلك الخلل
إذا كان حظي المهجر منكم ولم يكن

بسعاد فذاك المهجر عندي هو الوصل
وتعذيبكم عذب لديّ وجورك
وصبري صبر عنكم وعليكم
أرى أبداً عندي مرارته تحلو

١ يا من تسألني عما أصابني انظر الى الدمع السائل تجد فيه جوابي . وعتب وسلى وري أسماء فتيات .

٢ إن حب الجمال الأسنى والتأدي فيه (على طريقة الصوفية) هو أفضل الطرق فسر به ولو خالفت أهل الطرق الاخرى .

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي
يضركم لو كانت عندكم الكل
نأيتم فغير الدمع لم أرَ وافياً
فسهدي حي في جفوني مخلد
هوى طل ما بين الطلول دمي فمن
جفوني جرى بالسفح من سفحه وبل
تباله قومي إذ رأوني متيماً
وماذا عسى عني يقال سوى غدا
وقالت نساء الحي عناً^٢ بذكر من
إذا انعمت نعم علي بنظرة
وقد صدئت عيني برؤية غيرها
وقد علموا أنني قتيل لحاظها
حديثي قديم في هواها وما له
وما لي مثل في غرامي بها كما
حرام شفا سقمي لديها رضيت ما
فحالي وإن ساءت فقد حسنت به
ولي همة تعلقوا إذا ما ذكرتها
جرى حقها مجرى دمي في مفاصلي
فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى
فمن لم يجد في حب نعم بنفسه
ولولا مراعاة الصيانة غيرة
لقلت لعشاق الملاحة اقبيلوا
اليها على رأي وعن غيرها ولّوا

١ هوى هدر دمي بين طلول الاحبة فجرى من جفوني لذلك وابل من الدموع .

٢ عنا به أي ابعثوا ذكر من جفانا .

٣ الاصل فان لها نصلاً ولكنهم يخرجون الاعراب بتقديرهم ضمير الشأن فكأنه يقول فانه لها النخ .

وان ذكرت يوماً فخرّوا لذكرها
وفي حبّها بعت السعادة بالشقا
وقلت لرشدي والتنسك والتقى
وفرغت قلبي عن وجودي مخلصاً
واصبو الى العذال حبّاً لذكرها
فان حدثوا عنها فكلتي مسامحاً
تخالفت الاقوال فينا تبايناً
فشنع قوم بالوصال ولم تصل
فما صدق التشنيع عنها لشقوتي
وكيف ارجي وصل من لو تصوّرت

حماها المني ومما لضاقت بها السبل

تُرى مقلتي يوماً ترى من أحبهم
وما برحوا معنى أراهم معي فان
فهم نُصب عيني ظاهراً حيثما سرّوا
لهم أبدأ مني حنوً وان جفّوا
ويُعتبني دهري ويجمع الشمل
نأوا صورة في الذهن قام لهم شكل
وهم في فؤادي باطناً أينما حلّوا
ولي أبدأ ميل اليهم وان ملّوا

أنا القليل

ما بين معترك الاحداق والمهج
ودّعت قبل الهوى روحي لما نظرت
لله أجفان عين فيك ساهرة
واضلع نَحِلت كادت تقوّها
وادمع هملت لولا التنفّس من
وحبذا فيك اسقام خفيت بها
أصبحت فيك كما أمسيت مكتئباً
أنا القليل بلا لثم ولا حرج
عيناى من حُسن ذاك المنظر البهج
شوقاً اليك وقلب بالغرام شج
من الجوى كبدي الحرّى من العوج
نار الهوى لم أكّد أنجو من اللّجج
عني تقوم بها عند الهوى حججي
ولم أقل جزعاً يا أزمة انفرجي

١ عقل الثانية مصدر عقل أي منع أو ربط .

أهفو إلى كل قلبٍ بالغرام له شغلٌ وكلٌ لسانٍ بالهوى لهجـ
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد

أوفى محبةٍ بما يرضيك مبتهجـ
لا خير في الحبِّ إن أبقى على المهجـ
حُلوَ الشمايل بالأرواح ممزوج
ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج
أغنته غُرَّتُهُ الغرًّا عن السرج^١
أهدى لعيني الهدى صبحٌ من البلج
لعارفي طيبه « من نشره أرجي »
وان خذ بقيةَ ما أبقيتَ من رمقـ
من لي باتلافٍ روحي في هوى رشـ
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً
محجَّبٌ لو سرى في مثل طُرَّتِه
وان ضللتُ بِلَيْلٍ من ذوائبه
وان تنفَّسَ قال المسكُ معترفاً
يا ساكنَ القلبِ لا تنظر إلى سَكَنِي

واربح فؤادك واحذر فتنه الدعجـ
فكم أماتت وأحيت فيه من مهجـ
سمعي ، وان كان عذلي فيه لم يلج^٢
لثغره وهو مستحي من الفلج
في كل معنى لطيف رائق بهج
تآلفا بين ألحان من الهزج
برد الأصائل والأصباح في البلج
بساط نور من الأزهار منتسج
أهدى إليّ سُحيراً أطيب الأرج
ريق المدامة في مستنزه فرج
وخاطري أين كنا غير منزعج
تبارك الله ما أحلى شمائله
يهوى لذكر اسمه من لجٍّ في عذلي
وأرحمُ البرق في مسراه منتسباً
تراه ان غاب عني كل جارحةٍ
في نعمة العود والناي الرخيم إذا
وفي مسارح غزلان الخائل في
وفي مساقط انداء الغمام على
وفي مساحب أذيال النسيم إذا
وفي التثامي ثغرة الكأس مرتشفاً
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي

١ أي لو سرى في ليل أسود كشمرة لكان من غرقه نور يغنيه عن السرج .
٢ أي يهوى سمعي ان يسمع كلام العاذل لأنه يذكر الحبيب وان كان (سمعي) لا يقبل العذل .

قلبي يحدثني

قلبي يحدثني بانك متلفي
 لم أقض حقّ هواك ان كنت الذي
 ما لي سوى روعي وباذل نفسه
 فلئن رضيت بها فقد اسعفتني
 يا مانعي طيب المنام وما نحي
 عطفاً على رمقي وما أبقيت لي
 فالوجد باق والوصال مماطلي
 لم اخل من حسد عليك فلا تضجع
 واسأل نجوم الليل هل زار الكرى
 لا غرو ان شحت بغمض جفونها
 وبما جرى في موقف التوديع من
 ان لم يكن وصلٌ لديك فعيد به
 فالمطل منك لدي ان عزّ الوفا
 أهفو لانفاس النسيم تعلّة
 فلملّ نار جوانحي بهوبها
 يا أهل ودي أنتم املي ومن
 عودوا لما كنتم عليه من الوفا
 وحياتكم وحياتكم قسماً وفي
 لو أن روعي في يدي ووهبتها
 لا تحسبوني في الهوى متصنّماً
 أخفيت حبكم فأخفاني أسى
 وكتمته عنّي فلو أبديته

روحي فداك عرفت أم لم تعرف
 لم أقض فيه أسى ومثلي من يفي^١
 في حب من يهواه ليس بمسرف
 يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
 ثوب السقام به ووجدي المتلف
 من جسمي المضى وقلبي المدنف
 والصبر فان واللقاء مسوّفي
 سهرى بتشنيع الخيال المرجف
 جفني وكيف يزور من لم يعرف
 عيني وسحت بالدموع الذرف
 ألم النوى شاهدت هول الموقف^٢
 املي وماطل ان وعدت ولا تفي
 يحلو كوصل من حبيب مسعف
 ولوجه من نقلت شذاه تشوّفي
 ان تنطفي ، وأود ان لا تنطفي
 ناداكم يا أهل ودي قد كفي
 كرماً فاني ذلك الخلل الوفي
 عمري بغير حياتكم لم أحلف
 لمبشري بقدومكم لم أنصف
 كلّفي بكم خلّق بغير تكلف
 حتى لعمري كدت عنه اختفي
 لوجدته أخفى من اللطف الخفي

١ اقضي الاولى اودي . والثانية أموت .

٢ الموقف يوم الحساب في الآخرة .

ولقد أقول لمن تحرّش بالهوى
 أنت القليلُ بأيّ من أحبّته
 قل للعذول اطلت لومي طامعاً
 دع عنك تعنّفي وذق طعم الهوى
 برح الخفاء بحبّ من لو في الدجى
 وهواه وهو أليّتي وكفى به
 لو قال تيهاً قف على جمر الغضا
 لا تنكروا شغفي بما يرضى وان
 غلب الهوى فاطمت أمر صباقي
 منّي له ذلّ الخضوع ومنه لي
 ألف الصدود ولي فؤاد لم يزل
 لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحه
 أو لو رآه عائداً يتوب في
 كلّ البدور إذا تجلّى مقبلاً
 إن قلت عندي فيك كل صباية
 كملت محاسنه فلو أهدى السنا
 وعلى تفنّن واصفيه بحسنة
 ولقد صرفتُ لحيته كلّي على
 اسعد أخيّ وغنّني بحديثه
 لأرى بعين السّمع شاهد حسنه
 يا أخت سعدٍ من حبيبي جئتني

عرّضتَ نفسك للبلا فاستهدفِ
 فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
 أنّ الملام عن الهوى مستوقي
 فإذا عشقت فبعد ذلك عتفِ
 سفر اللّثام لقلّت يا بدرُ اختفِ
 قسماً أكادُ أجلته كالصحف^١
 لوقفت ممثلاً ولم اتوقّفِ
 هو بالوصال عليّ لم يتعطّفِ
 من حيث فيه عصيت نهي معنّفي
 عزّ المنوع وقوّة المستضعفِ
 مذ كنت غير وداده لم يألّفِ
 في وجهه نسيّ الجمال اليوسفي
 سينة الكرى قدماً من البلوى شفي
 تصبو إليه وكلّ قدّ اهيفِ
 قال الملاحه^٢ لي وكلّ الحسن في^٣
 للبدر عند تمامه لم يخسّفِ
 يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ
 يد حسنه فحمدت حسن تصرّفِ
 وانثر على سمعي حلاه وشتفِ
 معي فاتحفني بذاك وشرّف^٣
 برسالة اديتها بتلطّفِ

١ البقي أي قسمي . والمصحف القرآن الكريم .

٢ أي ركل الحسن في .

٣ غنّني بحديثه لأرى جماله عن طريق السمع وقد جعل السمع عيناً عن طريق المجاز .

فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما
ان زار يوماً يا حشايَ تقطّعي
ما للنوى ذنبٌ ومن أهوى معي
لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي^١
كلّفاً به أو سار يا عين اذرفي
ان غاب عن انسان عيني فهو في^٢

زدني بفرط الحب

زدني بفرط الحب فيك تحيّرنا
واذا سألتك ان أراك حقيقةً
يا قلب أنت وعدتني في حبّهم
انّ الفرام هو الحياة فمت به
قل للذين تقدّموا قبلي ومن
عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
واباح طرفي نظرةً املتها
فدُهِشت بين جماله وجلاله
فأدِرْ لحاظك في محاسن وجهه
لو ان كلّ الحسن يكملُ صورةً
وارحم حشوّ بلظى هواك تسعّرنا
فاسمع ولا تجعل جوابي لن ترى
صبراً فحاذر ان تضيق وتضجرا
صبّاً فحقّقك ان تموت وتُعدرا
بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
وتحدّثوا بصباقي بين الوري
سرّاً ارقّ من النسيم اذا سرى
فغدوت معروفاً وكنت منكراً
وغدا لسان الحال عني نخبرا
تلقى جميع الحسن فيه مصوراً
ورآه كأن مهلاً ومكبّراً

١ أيتها الفتاة المنتمية إلى قبيلة سعد انك حملت لي رسالة الحبيبة ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعت وعرفت أنا .
٢ أي في القلب .

فهرس

٢٣	الزنج	٥	توطئة
٢٣	القرامطة		
٢٤	الحشاشون		العوامل السياسية
	العوامل الهدامة الخارجية -		في الدولة العباسية
٢٥	غارات الروم	٧	نظرة عامة
٢٦	غارات الصليبيين	١٠	التنافس بين العناصر
	تطور الحياة الاجتماعية	١٣	تجزؤ الخلافة
	الحضارة في فجر الاسلام	١٥	الامارات المستقلة في بلاد فارس
٢٩	الحضارة في الدولة الاموية	١٦	الامارات التركية
٣١	ظواهر الحضارة في العصر العباسي	١٦	الامارات العربية
٣٨	نشوء قومية عربية جديدة	١٧	الدولة الفاطمية
٤٢	الامتزاج بالزواج	١٨	الدولة الاندلسية
٤٣	تعرب الأمم المغلوبة	١٩	تأثير هذا التجزؤ في الادب
٤٤	حضارة بغداد	٢٠	الحركات الهدامة الداخلية
٤٤	الجباية والمصادرة	٢١	حركات الخوارج
		٢١	حركات العلوية

الشعر في العصر العباسي	أمثلة من بذخ العباسيين - ملابس
٨٦ خصائص الشعر العباسي	٤٨ الموفق والمكتفي
٨٦ الشعر الوجداني والموضوعي	٤٨ جواهر المقتدر
التجديد في صناعة الشعر - رقة	٤٨ بذخ أم جعفر وأم المستعين
٨٧ العبارة	٤٩ بذخ الهادي والرشد والواثق
٩١ التفنن في المعاني	٤٩ الولائم والأفراح والمساكن
٩٥ البديع اللفظي	٥٠ العمران الزراعي والتجاري
٩٧ التوسع في المصطلحات اللفظية	بعض صور اجتماعية يعكسها
	٥٤ الأدب العباسي
امراء الشعر المولد	٥٤ الجواري والفلماني
ابو نواس - مصادر دراسته	٥٦ مجالس الشراب
١٠٤ بيئته وعصره	٥٧ التألق في الفنون العصرية
١٠٦ ميله إلى الشعوبية	٥٨ انتشار المدارس والعلوم
١١٠ مقامه الأدبي وأسلوبه	٥٨ ظواهر الحركات الفكرية
١١١ شعره - المقلد والمجدد	
١٢٢ شخصيته ونظره إلى الحياة	مجاري الحركات الفكرية
المختار من شعره	٦١ مصادرها الرئيسية - اليوناني
١٣١ دع عنك لومي	٦٥ المصدر الفارسي
١٣٢ دع الربع ما للربع فيك نصيب	٦٩ المصدر الهندي
١٣٣ ذكر الصبوح بسحره فارتاحا	المجاري الفكرية الكبرى: الفلسفة،
١٣٤ ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف	٧٠ الكلام
١٣٤ عاج الشقي على رسم يسائه	٧٢ المعتزلة - نشأتها - مبادئها
١٣٤ خفيت عليك محاسن الخمر	٧٧ الأشعرية وتعاليمها
	٧٩ التصوّف ، نشأته - مبادئه

١٦٤	شاعريته	١٣٥	ودار ندامى عطّلوها وادجلوا
١٦٦	مزايا شعره - السهولة	١٣٥	وفتيان صدق قد صرفت مطيهم
١٦٧	رشاقة التعبير	١٣٦	غدوت على اللذات منتهك الستر
١٦٨	سرعة الخاطر	١٣٧	يا شفيق النفس من حَكَم
١٧١	عيوب شعره	١٣٧	اذا خطرت منك الهموم فداوها
	المختار من شعره	١٣٨	لا تخشعن لطارق الحدّان
١٧٢	نصبت لنا دون التفكّر يا دنيا	١٣٩	اني عشقت وما بالعشق من باس
١٧٢	بكيت على الشباب بدمع عيني	١٣٩	اذا التقى في النوم طيفانا
١٧٣	لدوا للموت وابنوا للخراب	١٣٩	بعض أقواله في جنان
١٧٣	طلبت المستقرّ بكل أرض	١٤٠	يا دار ما فعلت بك الايام
١٧٤	أخويّ مرّا بالقبور	١٤١	وعظمتك واعظة القتير
١٧٤	حتى متى يستفزني الطمع	١٤٢	سخر الله للأمين مطايا
١٧٥	متى تنقضني حاجة المتكلّف	١٤٣	أنت يا ابن الربيع الزمتني النسك
١٧٥	بليت وما تبلى ثياب صباكا	١٤٣	أيا رب وجه في التراب عتيق
١٧٦	نعم نفسي إليّ من الليالي	١٤٤	خلّ جنبيك لرام
١٧٧	لمن طلل اسائله	١٤٤	ألم ترني ابحت اللهو نفسي
١٧٨	ألا هل الى طول الحياة سبيل	١٤٤	أيا من بين باطية وزقّ
١٧٨	أتدري أيّ ذلّ في السؤال	١٤٥	دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلوا
١٧٩	نادت بوشك رحيلك الايام		ابو العتاهية - مصادر دراسته
١٨٠	سكن يبقى له سكن	١٤٩	نسبه ونشأته
١٨١	الدهر ذو دول والموت ذو علل	١٥١	حياته الأدبية - انصرافه الى الزهد
	ابو تمام - مصادر دراسته	١٥٧	رسالته الشعرية
١٨٥	توطئة تاريخية	١٦٠	ابو العتاهية وابو نواس
		١٦١	حكمه

٢٤٤	شعره في ديوانه	١٨٨	أهم ممدوحيه
٢٤٤	مواضيعه الشعرية		شخصيته - عنفوانه - إعجابه
٢٤٩	مزيته الفنية - الوصف	١٨٩	بنفسه
٢٥٦	غزله - حنينه الى وطنه	١٩٣	خصائصه الفنية
	المختار من شعره	١٩٣	التألق البديعي
		٢٠٠	تقننه المعنوي
٢٦٠	اجيدك ما ينفك يسري لزينبا	٢٠٦	شفه بالاغراب ودواعي غموضه
٢٦٣	سلام عليكم لا وفاء ولا عهد		المختار من شعره
٢٦٤	انما الغي أن يكون رشيدا		السيف أصدق انباء من الكتب
٢٦٦	أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر	٢١٥	من سجايا الطلول الا تجيبا
٢٦٨	ألم تر تفليس الربيع المبكر	٢١٩	على مثلها من أربع وملاعب
٢٧١	صنت نفسي عما يدنس نفسي	٢٢١	اهن عوادي يوسف وصواحيبه
٢٧٢	قل للسحاب اذا حدثه الشمال	٢٢٤	ديمة سمحة القياد سكوب
٢٧٣	ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها	٢٢٥	غدت تستجير الدمع خوف نوى غد
٢٧٥	أفاق صب من هوى فأفقا	٢٢٦	الحق ابلج والسيوف عوار
٢٧٧	رحلوا فأى عزيمة لم تسكب	٢٢٨	أجل أيها الربع الذي خف آهله
	ابن الرومي - مصادر دراسته	٢٣١	كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
٢٨٣	سيرته	٢٣٢	دموع أجابت داعي الحزن همت
٢٨٥	حاله مع ممدوحيه		البحتري - مصادر دراسته
٢٨٨	حاله مع الزمان		توطئة تاريخه - أطوار حياته الثلاثة
٢٨٩	عقليته وأثرها في شعره	٢٣٧	ممدوحوه
٢٩٥	شعره وشاعريته	٢٣٩	ولعه بالخر
٢٩٥	القول بالوحدة في قصائده	٢٤١	مذهبه السياسي
٢٩٨	مزاياه الفنية - طول النفس	٢٤٢	

٣٤٦	عصبيته العربية ونسبه	٣٠٠	استيفاء المعنى وتقصّي الاغراض
٣٤٩	شهرته الشعرية		
٣٥١	شرّاحه ونقّاده		المختار من شعره
٣٥٣	شخصيته الشعرية	٣٠٧	كفى بالشيب من ناه مطاع
٣٥٣	عواطف الشباب ونفثات الألم	٣١٠	شاب راسي ولات حين مشيب
٣٥٧	الجهاد والبطولة - في حلب	٣١٢	بكاؤك يشفي وان كان لا يجدي
	الغيظ من الماضي والأمل بالمستقبل	٣١٤	أمامك فانظر أي نهجيك تنهج
٣٥٩	في مصر	٣١٥	ذاد عن مقلتي لذيد المنام
٣٦٠	شعره في العراق وفارس	٣١٨	يا أخي أين ربيع ذاك اللقاء
٣٦١	المتنبي في حكمه	٣٢٠	يا خليلي تيمتني وحيد
		٣٢٢	مقطعاته الحكمية
	المختار من شعره		
			المتنبي - مصادر دراسته
٣٦٣	كم قتيل كما قتلت شهيد	٣٢٧	نشأته الأولى في العراق والشام
٣٦٥	في الخد ان عزم الخليل رحيل	٣٢٨	أسباب سجنه وتلقيبه بالمتنبي
٣٦٧	فدينك من ربيع وان زدتنا كربا	٣٣٠	تردّده في الاقطار الشامية
٣٦٩	على قدر أهل العزم	٣٣٢	في حلقة سيف الدولة
٣٧٢	واحرّ قلباه	٣٣٤	في مصر - عند كافور
٣٧٤	كفى بك داء ان ترى الموت شافيا	٣٣٧	بين العراق وفارس
٣٧٥	أودّ من الايام ما لا تودّه	٣٣٨	مقتله
٣٧٧	من الجأذر في زيّ الاعارب	٣٣٩	مزاياه الخلقية - تماظمه
٣٧٨	فراق من فارقت غير مذمم	٣٣٩	سوء سياسته
٣٨١	الحزن يقلق والتجمل يردع	٣٣٩	شعوره بالتفوق
٣٨٣	نعمّة المشرفية والعوالي	٣٤٣	طموحه الى المجد
٣٨٤	ملومكما يحل عن الملام		

المعري - مصادر دراسته	الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
توطئة تاريخية - عصره ٣٨٩	أمثلة من لزومياته ٤٣٠
بيئته - رحلاته - طبعه ٣٩٢	
تزهده وجاهه وكرمه ٣٩٤	اولو الفضل في أوطانهم غرباء ٤٣١
زندقته وإيمانه ٣٩٨	إذا كان علم الناس ليس بنافع ٤٣٢
النزاع الفكري في عصره وأثره في	يرتجى الناس ان يقوم امام ٤٣٢
الشاعر ٣٩٩	يحسن مرأى لبني آدم ٤٣٣
طوره الأول وطوره الثاني ٤٠٠	من لي ان لا أقيم في بلد ٤٣٣
شاعريته وشعره - سقط الزند -	قد قيل ان الروح تأسف بعدما ٤٣٣
لزومياته ٤٠١	أنا صائم طول الحياة ٤٣٣
سلاسته وتعتقد ٤٠٤	لا تبدأوني بالعداوة منكم ٤٣٣
دقة تشابهه وروعة حكمه ٤٠٥	جر يا غراب وافسد ٤٣٤
المواقف الشعرية - الغبيطات ٤١٠	العالم العالي برأي معاشر ٤٣٤
الطبيعة والحياة البشرية - الاديان ٤١٣	اركان دنيانا غرائز أربع ٤٣٥
الشعب وزعماءه ٤١٤	قد اختل الانام بغير شك ٤٣٥
الطبيعة البشرية ٤١٦	
أسباب شهرته ٤١٧	ابن الفارض - مصادر دراسته
المختار من شعره	نشأته ٤٣٩
	شخصيته ٤٤٢
نقمت الرضا حق على ضاحك المزن ٤١٩	أثر الصوفية في شعره ٤٤٦
غير مجد في ملتي واعتقادي ٤٢١	اسلوبه الشعري ومزاياه الفنية ٤٥١
أحسن بالواجد من وجد ٤٢٤	عيوب اسلوبه ٤٥٤
مغاني اللوى من شخصك اليوم اطلال ٤٢٦	غزله ٤٥٧
عللاني فان بيض الاماني ٤٢٨	غيوبته والتائية الكبرى ٤٥٩

٤٦٩	ما بين معترك الاحداق		المختار من شعره
٤٧١	قلبي يحدثني	٤٦٤	سائق الاطماع
٤٧٣	زدني بفرط الحب	٤٦٧	هو الحب

هذا الكتاب

ترتكز هذه الدراسة على طريقة أطلق عليها المؤلف اسم «التخصص الأولي»، وعمادها أن يتناول الدارس فرعاً واسعاً من فروع الأدب، كالشعر مثلاً، فيختار نخبة من أمثاله، ويدرس كلا منهم درساً وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي وصولاً إلى غاية التفصي والتحليل.

وتطبيقاً لهذه الطريقة، اختار المؤلف، لدراسة الشعر في العصر العباسي، ثمانية من أبرز أعلامه هم: أبو نواس، وأبو العتاهية، وأبو تمام، والبحتري، وابن الرومي، والمتنبي، والمعري، وابن الفارض. وقوام خطته في هذه الدراسة العناية بمصادر هؤلاء الأعلام، وتحليل طائفة كبيرة من أعمالهم الشعرية.

إن لهذا الكتاب غرضين أساسيين أولهما علمي، وهو الجري في ميدان البحث الجري، وثانيهما أدبي، وهو التفقه بالأدب نفسه.